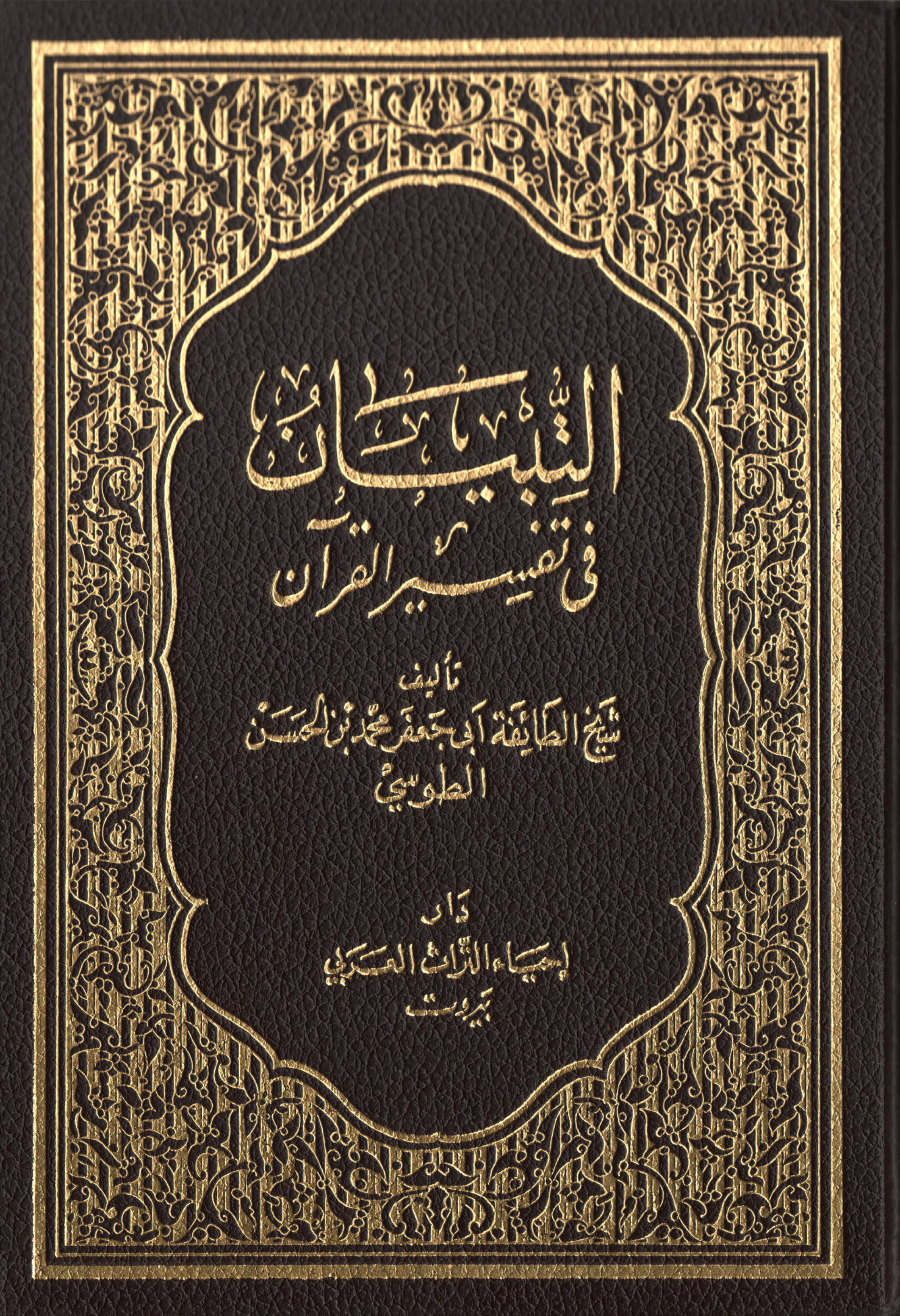


الطوسي

التبيان في تفسير القرآن

٥

دار إحياء التراث العربي



التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الخامس

دار
احياء التراث العربي



قوله تعالى:

(قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ لاإِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (١٥٧) آية.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يخاطب الخلق ، ويقول لهم إني رسول الله أرسلني اليكم يعني الى الناس أجمع « الذي له ملك السماوات والأرض » يعني ارسلني اليكم الذي له التصرف في السماوات والارض من غير دافع ، ولامنازع « لا إله » اي لامعبود « إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله » أمر من النبي ﷺ للخلق بأن يصدقوا بتوحيد الله ويقروا بنبوة النبي « الامي الذي يؤمن » يعني يصدق بالله وكلماته، وأمرهم بأن يتبعوه ويرجعوا الى طاعته لكي يهتدوا الى الثواب والجنة .

و « جميعاً » نصب على الحال من ضمير المخاطب الذي عمل حرف الاضافة فيه والعامل في الحال معنى الفعل في « رسوله » الا أنه لايتقدم على حرف الاضافة ، لانه قد صار بمنزلة العامل .

وإنما وصفه بأنه يحيي ويميت لأنه لايقدر على الاحياء إلا الله ، ولا على الاماتة أيضاً سواه لانه لو قدر أحد على الاماتة لقدر على الاحياء ، لأن من شأن القادر على الشيء أن يكون قادراً على ضده، وانما استعمل بمعنى لتهتدوا على الرجاء والطمع في الفوز به من العذاب .

قوله تعالى :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (١٥٨) آية.

أخبر الله تعالى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون .

قال ابن عباس والسدي : قوم وراء الصين .

وقال ابو جعفر عليه السلام : هم قوم خلف الرمل لم يغيروا ولم يبدلوا .

وأنكر الجبائي قول ابن عباس ، وقال شرع موسى عليه السلام ، منسوخ بشرع عيسى عليه السلام وشرع محمد صلى الله عليه وآله فلو كانوا باقين لكفروا بنبوة محمد .

وهذا ليس بشيء ، لأنه لا يمتنع ان يكون قوم لم تبلغهم الدعوة من النبي صلى الله عليه وآله فلا نحكم بكفرهم .

وقال الجبائي يحتمل ذلك وجهين :

احدهما - انهم كانوا قوماً متمسكين بالحق في وقت ضلالتهم(١) بقتل أنبيائهم.

والاخر - انهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله مثل ابن سلام وابن صوريا وغيرهما .

وتقدير الكلام في معنى الآية إذاً : كان من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، قد مدحوا بذلك وعظموا ، فعلى كل أمة أن يكونوا كهذه الأمة الكريمة في هذا المعنى . والامة الجماعة التي تؤم أمراً بأن تقصده وتطلبه . وأمة محمد صلى الله عليه وآله تؤم شريعته وأمة موسى وعيسى مثل ذلك .

وليس في الآية مايدل على ان في كل عصر أمة هادية من قوم موسى لان بعد نبوة نبينا صلى الله عليه وآله لم يبق احد يجب اتباعه في شرع موسى عليه السلام وكذلك قوله تعالى « وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٢) ولادلالة في ذلك على ان تلك الأمة موجودة في كل عصر ، بل لو لم توجد هذه الأمة الا في وقت واحد هادية بالحق عادلة به لصح معنى الآية على ان عندنا في كل عصر لايخلون من قوم بهذا الوصف وهم حجج الله على خلقه ، المعصومين الذين لايجوز عليهم الخطأ والزلل ، فقد قلنا بموجب الآية .

(١) أي وقت ضلالة قومهم (٢) سورة ٧ الأعراف آية ٠

وصريح الآية يدل على بطلان قول من قال لايهدي الى الحق الا الله تعالى، لأن الله تعالى بين ان فيمن خلقه امة يهدون بالحق وبه يعدلون، وظاهر ذلك الحقيقة وصريح الآية بخلاف ما يقوله المخالف، ولاينافي ذلك قوله تعالى « من يهد الله فهو المهتدي » (١) لانه يصح اجتماعه مع ذلك، والمعنى من يهده الله الى الجنة فهو المهتدي اليها على ان قوله تعالى « من يهد الله فهو المهتدي » لايمنع من ان يهديه ايضاً غير الله ويهتدي، لان المتعلق بذلك تعلق بدليل الخطاب. وهو ليس بصحيح عند اكثر العلماء، على ان من هدى غيره الى الحق فانما يهديه بأن ينبهه على الحجج التي نصبها الله على الحق فجاز ان يضاف ذلك الى انه بهداية الله. ومن حمل قوله تعالى « يهدون » على ان المعنى يهتدون فقد غلط، لان ذلك لايعرف في اللغة.

قوله تعالى :

(وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَيٰهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١٥٩) آية.

قد مضى تأويل معنى اكثر هذه الآية في سورة البقرة (٢) فلا معنى للتطويل بذكر مامضى وانما نذكر مالم يذكر هناك : انما انث قوله اثنتي عشرة اسباطاً لان النية التقديم والتأخير والتقدير وقطعناهم امماً اثنتي عشرة اسباطاً ولم

(١) سورة ٧ الأعراف آية ١٧٧

(٢) آية ٦٠ من سورة البقرة المجلد ٢٦٩/١

يقل سبطاً لاحد ثلاثة اشياء :

احدها ـ انه بدل ليس بتمييز والمعنى قطعناهم اسباطاً ذكر ذلك الزجاج.

الثاني ـ على ان كل قسم اسباط لان الواحد يقال لهسبط ، فيجوز على هذا عندي عشرون دراهم على ان كل قسم منها دراهم قال كثير :

علي والثلاثة من بنيه　　　هم الاسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط ايمان وبر　　　وسبط غيبته كربلا (١)

الثالث ـ ان يكون اقام الصفة مقام الموصوف . وتقديره اثنتي عشرة فرقة اسباطاً .

والسبط : الجماعة التي تجري في الامر بسهولة لاتفاقهم في الكلمة على إنه مأخوذ من السبوط . وقيل انه مأخوذ من السبط ضرب من الشجر ، فجعل الاب الذي يجمعهم كالشجرة التي تتفرع عنها الاغصان الكثيرة . وقال ابو علي لانهم كانوا بني اثني عشررجلا من ولد يعقوب. وقيل انما فرقوا اسباطاً لاختلاف رتبتهم.

والانبجاس : خروج الماء الجاري بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة ، فكان يبتدىء بقلة ثم يتسع حتى يصير الى الكثرة ، فلذلك ذكره ههنا بالانبجاس وفي البقرة بالانفجار .

والظلة السترة التي تقي من الشمس ، والأغلب عليها العلو .

فجعل الله عزوجل لهم من الغمام ظلة تكنهم لما احتاجوا الىذلك في التيه كما اعطاهم المن والسلوى. والمن ضرب منالحلاوة يسقط على الشجر . والسلوى طائر كالسماني. وانماانث « اثنتا عشرة اسباطاً »مع ان السبط ذكر ، لأحد ثلاثةاشياء:

احدها ـ اثنتي عشرة فرقة ثم حذف .

الثاني ـ وقطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، فحذف على هذا التقدير .

الثالث ـ أن السبط لما وقع على الامة أنث . كما قالالشاعر :

(١) الاغاني ٩ / ١٤

وان كلاباً هـذه عشر أبطن وانت بريء من قبائلها العشر

وقوله تعالى « وماظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون » معناه : ماأنقصونا شيئاً ولكن انقصوا أنفسهم تقول العرب : ظلمت سقاك إذا سقيته قبل ان يخرج زبده ، ويقال : ظلم الوادي إذا بلغ الماء منه موضعاً لم يكن ناله فيما مضى ، قال الفراء وانشدني بعضهم :

يكاد يطلع ظلماً ثم يمنعه عن الشواهق فالوادي به شرق

ويقال هو أظلم من حية . لانها تأتي جحراً لم تحفره فتسكنه ويقال ماظلمك ان تفعل كذا أي مامنعك . والارض المظلومة التي لم ينلها المطر .

قوله تعالى

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ) (١٦٠) آية بلاخلاف .

قرأ اهل المدينةوابن عامر ويعقوب(يغفر) بالياء وضمها ، وفتح الفاءالباقون بالنون وكسر الفاء ، وقرأ اهل المدينة ويعقوب (خطيئاتكم) على جمع السلامة ورفع التاء ، وقرأ ابن عامر على التوحيد ورفع التاء ، وقرأ ابوعمرو (خطاياكم) بغير همز على جمع التكسير ، الباقون وهم ابن كثير واهل الكوفة (خطيآتكم) على جمع السلامة وكسر التاء .

من قرأ « يغفر» حمله على قوله تعالى « وإذ قيل لهم »ادخلوا ... يغفر ، والتي في البقرة (نغفر) بالنون ، فالنون هناك احسن لقوله « وإذ قلنا » وجازههنا بالنون كأنه قيل لهم ادخلوا ... نغفر . أي إن دخلتم غفرنا .

ومن قرأ تغفر بالتاء المضمومة فلانه اسند اليها خطيئاتكم وهو مؤنث فأنث

وبني الفعل للمفعول اشبه بما قبله ، لان قبله واذ قيل .

ومن قرأ بالنون فلقوله « سنزيد المحسنين » .

وخطايا جمع خطيئة جمع تكسير (وخطياتكم) مسكناً لأنه يكثر فيه السكون وسميت القرية قرية لان الماء يقري اليها يقال قريت الماء في الحوض أقريه قرياً إذا جمعته . ويجوز ان يكون مشتقاً من اجتماع الناس اليها .

وقد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة (١) فلا معنى لاعادته . وإنما نذكر جمل ذلك فنقول :

هـذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله يقول اذكر يا محمد اذ قيل لبني اسرائيل اسكنوا هذه القرية وهي بيت المقدس على قول الجبائي وغيره من المفسرين

وقال الحسين هي ارض الشام . وقال قوم غير ذلك . وقد ذكرنا اختلافهم في سورة البقرة (٢) لأنه كان امرهم بدخولها واخراج من فيها من الكفار وغيرهم ووعدهم ان يوسع عليهم فيها الرزق ويبيحهم ذلك ليأكلوا من حيث شاؤا ما يريدون من انواع الاغذية والرزق . وقال لهم : « كلوا من حيث شئتم » على كثرة الرزق والغذاء في هذه القرية وفي كل ناحية منها .

وقوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً » يعني متواضعين وكانوا امروا بأن يدخلوا باباً منه معيناً في هذا الموضع كانوا فيه ــ في قول الجبائي ــ وقال ذلك قبل دخولهم الى بيت المقدس، قال ولم يرد ان يدخلوا الباب سجداً منحنين .

قال ابن عباس كان هناك باب ضيق امروا بان يدخلوه ركعاً فدخلوه على استاههم . وقيل لهم « قولوا حطة » أي مغفرة ، فقالوا حنطة . وذكرنا اختلاف الناس في ذلك .

وقوله «وقولوا حطة » معناه قولوا احطط عنا ذنوبنا وهو بمنزلة الاستغفار والتوبة . وقوله « نغفر لكم خطاياكم» جواب الامر وفيه معنى الجزاء . والتقدير انكم

(١ ، ٢) آية ٥٨ المجلد ١ / ٢٦٣

ان فعلتم ذلك غفرنا لكم خطاياكم . وقوله (سنزيد المحسنين) معناه سنزيد المحسنين منكم نعماً وفضلا في الدنيا والاخرة ، ولانقتصر لهم على نعم هذه القرية.

ورفع حطة على تقدير مسألتنا حطة ومطلوبنا حطة . وان نصب جاز بمعنى حط عنا حطة . وقوله سجداً نصب على الحال من دخول الباب . وقال ابوعلي ليس بحال لدخول الباب ، لانهم بدلوا في حياة موسى .

قوله تعالى :

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦١) آية

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين امرهم بدخول القرية متواضعين ، وان يقولوا حطة لذنوبنا ، انهم بدلوا قولا غير الذي قيل لهم .

والتبديل تغيير الشيء برفعه الى بدل ، فقال الحسن قالوا حنطة بدل حطة .

وقال قوم: قالوا قولا ينافي الاستغفار ويخالف التوبة. وقالوا مايدل على الاصرار.

واخبر تعالى انه ارسل عليهم عند ذلك رجزاً وهو العذاب والعقوبة جزاء بما كانوا يفعلونه من معاصي الله تعالى ويظلمون بها انفسهم .

واصل الرجز الميل عن الحق فمنه الرجازة ومايعدل به الحمل اذا مال عن خفة والرجز عبادة الوثن والناقة الرجزاء التي تميل في احد شقيها لداء يعرض لها في عجزها.

قوله تعالى :

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَتَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٢) آية .

القراء كلهم على فتح الياء في قوله تعالى(لا يسبتون) وروي عن الحسن ضمها.
من قال أسبتوا اراد دخلوا في السبت ومن فتح الياء اراد يفعلون السبت اي يقومون بأمره كما يفعل المسلمون يوم الجمعة ، ومثله أجمعنا اي مرت بنا جمعة، وجمعنا شهدنا الجمعة . قال الفراء : قال لي بعض العرب : أترانا اشهرنا منذ لم نلتق يريد مرّ بنا شهراً .

امر الله نبيه ﷺ أن يسأل بني اسرائيل الذين كانوا في وقته عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، وعن سبب هلاكها ، سؤال تقرير وتوبيخ لاسؤال استفهام ، كما يقول الرجل لغيره أنا فعلت كذا؟ وانت تعلم أنك لم تفعل، وانما تسأله لتقريره وتوبيخه ، فوجه امر النبي ﷺ ان يسأل اهل الكتاب عن اهل هذه القرية مع ما اخبره الله تعالى بقصتها لتقريرهم تقديم كفرهم وتعلمهم ما لا يعلم الا بكتاب او وحي، وهو ﷺ لم يكن ممن قرأ الكتب ، فعلموا بذلك ان ذلك وحي انزل عليه .

وقوله تعالى (اذ يعدون في السبت) معناه اذ يظلمون في السبت ، يقال عدا فلان يعدو عدواناً ، وعدا عدواً اذا ظلم .

وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) في موضع نصب بيعدون .

والمعنى سلهم اذ عدوا في وقت اتيان الحيتان « شرعاً » اي ظاهرة والحيتان جمع حوت واكثر ما يسمي العرب السمك بالحيتان والنيتان ، وكانت الحيتان تأتي ظاهرة فكانوا يحتالون بحبسها يوم السبت ثم يأخذونها في يوم الأحد . وقال قوم : جاهروا بأخذها يوم السبت .

وقوله تعالى (كذلك نبلوهم) اي مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم . وموضع الكاف نصب بقوله : (نبلوهم بما كانوا يفسقون) اي شددت عليهم المحنة بفسقهم . قال الزجاج ويحتمل ان يكون « ويوم يسبتون لا تأتيهم كذلك » اي لا تأتيهم شرعاً ويكون « نبلوهم » مستأنفاً . والأول قول اكثر المفسرين.

والوجه في تشديد المحنة التي هي التكليف أن الله تعالى أمر بني اسرائيل

بامساك السبت والتفرغ فيه للعبادة وأن لايتشاغلوا بشيء من أمر الدنيا فيه فتهاون قوم ممن كان يسكن هذه القرية وهي (ايلـة) في قول قوم من المفسرين . وقال قوم هي مدين ، ورويا جميعاً عن ابن عباس . ولم يقوموا بما وجب عليهم فشدد الله على من اخـذوه . قال الحسن : كانت تشرع على ابوابهم كأنها الكباش البيض فيعدون فيأخذونها وتبعد عنهم في باقي الايام وامرهم ان لايصطادوا يوم السبت فكان ذلك تشديداً للتكليف وتغليظاً للمحنة والبلوى ، وكان ذلك عقوبة على تهاونهم بما أوجب الله عليهم فخالفوا فأرسلوا الشباك يوم السبت واخرجوها يوم الاحد .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٣) آية بلا خلاف .

قرأ حفص وحده عن عاصم « معذرة » بالنصب . الباقون بالرفع .

من رفع فعلى تقدير موعظتنا معذرة الى ربكم . ومن نصب فعلى المصدر ، كما يقول القائل لغيره :معذرة الى الله واليك من كذا على النصب .

والمعنى قالوا نعتذر معذرة واعذاراً .

قال ابو زيد عذرته اعذره عذراً ومعذرة وعذرى . والتقدير واذكر اذ قالت امة منهم لطائفة منهم لـم تعظون قوماً علمتم انهم هالكون في الدنيا ويعذبهم الله عذاباً شديداً في الآخرة ، فقالوا في جوابهم وعظناهم إعـذاراً الى الله اي نعظهم اعتذاراً الى ربكم لئلا يقول لنا لم لم تعظوهم ولعلهم ايضاً بالوعظ يتقون ويرجعون.

وفي ذلك دليل على انـه يجب النهي عن القبيح وإن عـلم الناهي ان المنهي لاينزجر ولا يقبل ، وان ذلك هو الحكمة والصواب الـذي لايجوز غيره .

واختلفوا في هذه الفرقة التي قالت: لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ هل كانت من الناجية او من الهالكة عن الاعتداء في السبت . ذهب اليه ابن عباس وقال نجت الطائفتان من الهلاك الناهية والتي قالت لها لم تعظون ، وبه قال السدي

وقال قوم الفرقة التي قالت لم تعظون قوماً الله مهلكهم كانت من الفرقة الهالكة ذهب اليه ابن عباس في رواية اخرى عنه .

وقال قتادة عن ابن عباس هم ثلاث فرق التي وعظت والموعظة، فنجت الاولى وهلكت الثانية ، والله اعلم ما فعلت الفرقة الثالثة ، وهم الذين قالوا لم تعظون واختاره الجبائي .

وقال الكلبي : هما فرقتان الواعظة والموعظة .

وقال الجبائي لم يريدوا بذلك الا نهيهم اياهم عن ذلك القبيح . وانما قالوا ذلك على سبيل الاياس من قبولهم منهم .

وقوله «لم» اصله (لما) الا انه حذف الألف مع حرف الجر نحو «عم يتساءلون ولم يقولوا (عن ما) .

قوله تعالى :

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٤) آية

قرأ أبو بكر إلا العليمي « بيأس » بفتح الباء وبعدها ياء ساكنة وبعدها همزة مفتوحة على وزن (فيعل) وروي عنه بكسر الهمزة . وقرأ اهل المدينة والداحوني عن هشام بكسر الباء وبعدها ياء ساكنة من غير همز . وقرأ مثل ذلك ابن عامر الا الداجوني عن هشام إلا أنه همز . الباقون بفتح الباء وبعدها همزة مكسورة بعدها ياء ساكنة على وزن (فعيل) . وروى خارجة عن نافع بفتح الباء بعدها

ياء بلا همز على وزن (فعل) .

قال ابو زيد :قد بؤس الرجل يبؤس بأساً إذا كان شديد البأس ، وفي البؤس بئس وبيس يبأس بؤساً وبيئساً وباساً والبأساء الاسم .

قال أبو علي : من قرأ على وزن (فعيل) يحتمل أمرين :

أحدهما ـ أن يكون فعيلا من بؤس يبؤس إذا كان شديد البأس مثل« من عذاب شديد » (١) قال ابو محمد الفقعسي :

أشعث غير حسن اللبوس باق على عيش لـه بئيس

أي شديد .

والثاني ـ أن يكون من عذاب ذي بئيس . فوصفه بالمصدر ، والمصدر قـد يجيء على (فعيل) مثل نكير ونذير وشحيح وعذير الحي ، والتقدير من عذاب ذي بئيس أي عذاب ذي بؤس .

ومن قرأ بكسر الباء من غير همز فانه جعلها اسماً ، فوصفه به مثل قوله صلى الله عليه وآله (إن الله نهى عن قيل وقال) ومثله : منذ شب الى رب . ونظيره من الصفة نقض وبصق.

ومن فتح الباء من غير همز فهو أيضاً (فعل) في الاصل وصف به وابدلت الهمزة ياء وحكى سيبويه أنه سمع بعض العرب يقول: بيس فلا يحقق الهمزة ويدع الحرف على الأصل الذي هو (فعل) كأنه يسكن العين كما يسكن من (عـلم) ويقلب الهمزة ياء الا أنه لمـا أسكنها لم يجز أن يجعلها بين بين فأخلصها ياء .

وقراءة ابن عامر مثل قراءة نافع إلاأن ابن عامر حقق الهمزة .

وقراءة ابي بكر على وزن «فيعل» ، فانه جعله وصفاً كضيغم وحيدر ، وهذا البناء كثير في الصفة ولايجوز كسر العين من بيئس لان« فيعل » بناء اختص به ما كان عينه ياء أو واواً مثل سيد وطيب ، ولـم يجيء مثل ضيغم وجاء في المعتل حكى سيبويه عيّن وانشد لرؤبة.

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢

ما بال عيني كالشعيب العين (١)

فينبغي ان يحمل بيئس على الوهم ممن رواه عن عاصم والاعمش بالكسر وقد أنشد بعضهم :

كلاهما كان رئيساً بيئسا　　يضرب في يوم الهياج القونسا (٢)

أعلى كل شي قونسه بكسر العين . فمن كسر العين حمله على هذه اللغة.

أخبر الله تعالى أنه لما ترك أهل هذه القرية الرجوع عن ارتكاب المعصية بصيد السمك يوم السبت بعد أن ذكرهم الواعظون ذلك ولم ينتهوا عن ذلك أنه انجى الناهين عن ذلك وأخذ الذين ظلموا انفسهم بعذاب شديد جزاء بما كانوا يفسقون ويخرجون عن طاعة الله الى معصيته .

وروي عن عطا أن رجلا دخل على ابن عباس وبين يديه المصحف وهو يبكي وقد أتى على هذه الاية الى آخرها ، فقال ابن عباس قد علمت ان الله اهلك الذين أخذوا الحيتان وانجى الذين نهوهم ، ولا ادري ماصنع بالذين لم ينهوهم ولم يواقعوا المعصية وهي حالنا .

و « نسوا » في الاية معناه تركوا ويحتمل ان يكون تركهم القبول في منزلة من نسي ،ولا يجوز أن يكون المراد النسيان الذي هو السهو ، لأنه ليس من فعلهم فلا يذمون عليه .

وقال الجبائي العذاب الشديد لحقهم قبل ان يمسخوا قردة خاسئين .

قوله تعالى

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٥) آية

(١) وقيل قائله الطرماح . اللسان (عين)

(٢) قائله امرىء القيس بن عابس الكندي . تفسير ابن حيان ١٤٣/٤ وتفسير الطبري ٢٠٠/١٣

اخبر الله تعالى عن هؤلاء العصاة الذين عصوا بصيد السمك في السبت، ونهوا فلم ينتهوا ووعظوا فلم يتعظوا ، وأنه أنزل عليهم العذاب الشديد ، فلما عتوا عما نهى الله وتمردوا في معصيته مسخهم الله قردة خاسئين .

والعاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لايقبل موعظة. والعتو الخروج الى الجرأة على أفحش الذنوب . وقوله « خاسئين » معناه مبعدين من قولهم خسأت الكلب إذا أقصيته فخسأ أي بعد . وقال الحسن معناه صاغرين ، وقال : إن أهـل المسخ يتناسلون . وقال ابن عباس : لايتناسلون . وأجاز الزجاج كلا الامرين . وسئل ابو مالك : أكانت القردة والخنازير قبل ان يمسخوا ؟ قال : نعم وكانوا فيما خلق الله من الأمم . وقول ابن عباس أصح ، لأن المعلوم أن القردة ليست من ولد آدم كما أن الكلاب ليست من ولـد آدم . قال قتادة : صاروا قردة لها أذناب تعاوي بعد ما كانوا نساء ورجالا .

وقوله تعالى : « كونوا قردة » صيغته صيغة الامر والمراد به الاخبار : من أنه جعلهم قردة على وجه يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب كما قال تعالى : «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١) . وقال « ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (٢) ولم يكن هناك أمر لانه تعالى لايأمر المعدوم ، وإنما هو إخبار عن تسهيل الفعل، وأجاز الزجاج أن يكون قيل لهم ذلك بكلام سمعوه فيكون ذلك أبلغ في الآية النازلة بهم لما يدل على وقوع الأول الذي تبعه الثاني . وليس كذلك إذا قلت : لما جاء المطر خرج النبات ، وقوله تعالى « ولو ردوا لعادوا » فلا يقع الرد أصلا .

قوله تعالى:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٤٠　(٢) سورة ٤١ حم السجدة(فصلت) آية ١١

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٦) آية بلاخلاف .

التقدير اذكر يامحمد « إذ تأذن ربك » ومعنى تأذن : أعلم ، والعرب تقول تعلم ان هذا كذا بمعنى إعلم ، قال زهير :

تعلم أن شرّ الناس حي ينادي في شعارهم يسار (١)

ويسار اسم عبد . وقال زهير ايضاً :

فقلت تعلم ان للصيد غرة والا تضيعه فانك قاتله (٢)

وقال الزجاج معنى (تأذن) تألا ربك ليبعثن . وقال قوم : معناه امر من اذن يأذن . وقوله: « ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب » قسم من الله تعالى انه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب اي من يوليهم سوء العذاب .

قال ابو جعفر عليه‌السلام وابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير والحسن : اراد به امة محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله يأخذون منهم الجزية .

فان قيل فقد جعلوا قردة كيف يبقون الى يوم القيامة ؟

قلنا : إن الذكر لليهود فمنهم من مسخ فجعل منهم القردة والخنازير ومن بقى قمع بذلمن الله ، فهم اذلاء بالقتل او اذلاء باعطاء الجزية ، فهم في كلمكان اذل اهله لقوله تعالى « ضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » (٣) اى إلا ان يعطوا الذمة والعهد .

وفي الآية دليل على ان اليهود لايكون لهم دولة الى يوم القيامة ولاعزلهم ايضاً وقيل في معنى البعث هنا قولان : احدهما ـ الأمر والاطلاق . والآخر ـ

(١) الاغاني ـ دارالثقافة بيروت ـ ١٠ : ٣١٧. الشعارعلامة ينصبونهافيسفرهم

(٢) تفسير القرطبي ٧ : ٣٠٩ . وروايته (تضيعها) بدل (تضيعه) .

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ١١٢

التخلية ، وإن وقع على وجه المعصية ، كما قال تعالى : « أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازاً » (١) .

وقوله تعالى : «إن ربك لشديد العقاب » معناه إن ربك يا محمد لسريع العقاب لمن يستوجبه على كفره ومعصيته « وانه لغفور رحيم » اي صفوح عن ذنوب من تاب إليه من معاصيه ورجع الى طاعته يستر عليهم بعفوه وبفضله رحمة بهم فلا ينبغي لأحد ان يصرّ ويأمن عقابه بل ينبغي ان يجوز سرعة عقابه فيبادر إلى التوبة والاستغفار .

قوله تعالى :

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٧) آية

اخبر الله تعالى انه قطع بني اسرائيل يعني فرقهم فرقاً في الارض «امماً» يعني جماعات شتى متفرقين في البلاد ، وهو قول ابن عباس ومجاهد ، وعلى اي وجه فرقهم ؟ قيل فيه قولان :

احدهما ـ فرقهم حتى تشتت امرهم وذهب عزهم عقوبة لهم .

الثاني ـ فرقهم على ماعلم انه اصلح لهم في دينهم .

ثم اخبر عنهم فقال : من هؤلاء الصالحون يعني من بني اسرائيل الصالحون، وهم الذين يؤمنون با لله ورسله ، ومنهم دون ذلك يعني دون الصالح ، وإنما وصفهم بذلك لما كانوا عليه قبل ارتدادهم عن دينهم ، وقبل كفرهم بربهم ،وذلك قبل ان يبعث فيهم عيسى عليه السلام .

وقوله : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات» معناه اختبرناهم بالرخاء في العيش

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٨٤

والخفض في الدنيا والدعة والسعة في الرزق ، وهي الحسنات ، ويعني بالسيئات الشدائد في الحبس والمصائب في الأنفس والأموال « لعلهم يرجعون » اي لكي يرجعوا الى طاعته وينيبوا الى إمتثال امره .

فان قيل كيف قال : لكي يرجعوا الى الحق ، وهم لم يكونوا عليه قط؟!

قلنا عنه جوابان :

احدهما ــ انهم مارون على وجوههم الى جهة الباطل فدعوا الى الرجوع الى جهة الحق لأن الانصراف عن الباطل رجوع الى الحق .

الثاني ــ انهم ولدوا على الفطرة وهي دين الحق الذي يلزمهم الرجوع اليه .

قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٨) آية بلاخلاف.

معنى الآية ان الله اخبر انه خلف ــ بعد القوم الذين كانوا فرقاً في الارض ــ خلف ، وهم قوم نشؤوا بعدهم من اولادهم ونسلهم ، يقال للقرن الذي يجيء في اثر قرن خلف ، والخلف ما اخلف عليك بدلا مما اخذ منك . ويقال في هذا خالف ايضاً . فأما ما اخلف عليك بدلا مما ذهب منك ، فهو ــ بفتح اللام ــ افصح . قال الفراء : يقال : اعطاك الله خلفاً مما ذهب لك ، فأنت خلف صدق وخلف سوء ، قال الله تعالى « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة »(١) واكثر ما يجيء في المدح

(١) سورة ١٩ مريم آية ٥٩

ـ بفتح اللام ـ وفي الذم بتسكينها ـ وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح ، فمن ذلك في تسكين اللام في المدح قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع (١)

ويقال : خلف اللبن إذا حمض من طول تركه في السقاء حتى يفسد ، فالرجل الفاسق مشبه به ، ومنه خلوف فم الصائم وهو تغيره . وأما بتسكين اللام في الذم فقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب (٢)

وقيل ان الخلف الذين ذكرهم الله في هذه الآية أنهم خلفوا من قبلهم النصارى ـ ذهب اليه مجاهد ـ وهذا الذي قاله جائز ، وجائز أيضاً أن يكون المراد به قوم خلفوهم من اليهود .

وقوله تعالى « ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى » قال قوم : كانوا يرتشون على الأحكام ، ويحكمون بجور . وقال آخرون : كانوا يرتشون ويحكمون بحق ، وكل ذلك عرض خسيس ، ومعنى « هذا الأدنى » هذا العاجل ، و « يقولون سيغفر لنا » معناه إذا فعلوا ذلك يقولون الله يغفر لنا ذلك تمنياً منهم للاباطيل كما قال تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » (٣).

وقوله تعالى « وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » دليل على اصرارهم وأنهم تمنوا أن يغفر لهم مع الاصرار ، لان المعنى وان جاءهم حرام من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه ، ولم يرتدعوا عنه ـ وهو قول سعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن عباس وقال الحسن : معناه لا يشبعهم شيء .

---

(١) ديوانه : ٨٤ . واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٧/ ٣١٠

(٢) ديوانه القصيدة : ٨ . واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٧/ ٣١٠

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٧٩

وقوله « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لايقولوا على الله الا الحق ودرسوا مافيه » معناه الم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في الاحكام القائلين سيغفر لنا هذا اذا عوتبوا على ذلك و « ميثاق الكتاب » هو ما أخذ الله على بني اسرائيل من العهود باقامة التوراة والعمل بما فيها ، فقال تعالى لهؤلاء الذين قصّهم توبيخاً لهم على خلافهم امره ونقضهم عهده وميثاقه : ألم يأخذ الله عليهم الميثاق في كتابه ان لايقولوا على الله الا الحق ، ولايضيفوا اليه الاما انزله على رسوله موسى في التوراة ولايكذبوا عليه وانما احتج عليهم بميثاق الكتاب، ولم يحتج عليهم بالعقل، ليعلمنا مالانعلمه مما هو في كتبهم من ادلة تؤكد مافي العقل .

وقوله تعالى : « ودرسوا ما فيه » المعنى قرؤوا ما فيه ودرسوه فضيعوه ، وتركوا العمل بـه . والدرس تكرر الشيء يقال درس الكتاب اذا كرر قراءته ، ودرس المنزل : اذا تكرر عليه مرور الأمطار والرياح حتى يمحى اثره .

وقوله تعالى« والدار الآخرة خير للذين يتقون » أي ماأعده الله تعالى لاوليائه في دار الآخرة من النعيم والثواب وذخره للعاملين بطاعته الحافظين لحدوده « خير للذين يتقون » يعني يجتنبون معاصي الله ويحذرون عقابه .

وقوله : « أفلا تعقلون » فمن قرأ بالياء معناه أفلا تعقل هـذه الطائفة التي تقدم ذكرها وهم الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم ويقولون سيغفر لنا . ومن قرأ بالتاء قال : معناه قل لهم : افلا تعقلون ان الامر على مااخبر الله به.

وحكي ان طياً تقول في جمع ميثاق : مياثيق ، وفي جمع ميزان : ميازين، وحكي عن غيرهم من اهل الحجاز أيضاً ذلك وانشد بعض الطائيين :

حمى لايحل الدهر الا باذننا　　　ولا نسل الاقوام عقد المياثيق (١)

---

(١) قائله عياض بن درة الطائي . اللسان (وثق)

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٦٩) آية.

قرأ ابو بكر « يمسكون » بتسكين الميم ، الباقون بفتحها وتشديد السين. من خفف السين فلقوله تعالى « فامساك بمعروف» (١) وقوله «إمسك عليك زوجك» (٢) وقوله « فكلوا مما أمسكن » (٣) . ومن شدد أراد التكثير ، وهو اولى لقوله تعالى « وتؤمنون بالكتاب كله » (٤) اي لاتؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه بل تؤمنون بجميعه . ويقوي التشديد ماروي عن أبي أنه قرأ (مسّكوا بالكتاب » ومعنى « يمسكون » اي يأخذون بما فيه من حلاله وحرامه .

أخبر الله تعالى ان الذين يعملون بما في الكتاب ويقيمون الصلاة مع دخولها في التمسك بالكتاب لجلالة موقعها وشدة تأكدها أنه لايضيع جزاء عملهم، ويثيبهم بما يستحقونه ، لأني لااضيع لاحد ـ أصلح عمله فعمل بطاعتي ـ أجر عمله ، وهو قول ابن زيد ومجاهد ، وجميع المفسرين . والتقدير إنا لانضيع أجر المصلحين منهم لان من كان غير مؤمن واصلح فأجره ساقط ، لأنه يوقعه على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب . ويمسكون بالكتاب ويمسكون ويتمسكون ويستمسكون بمعنى واحد أي يعتصمون به ويعملون بما فيه . وخبر (الذين) قوله « إنا لانضيع اجر المصلحين » فاستغنى بذكر العلة عن ذكر المعلول .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٩ (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧ .

(٣) سورة ٥ المائدة آية ٥

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ١١٩

قوله تعالى :

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٠) آية

هذا خطاب لنبينا محمد ﷺ يقول الله له : اذكر يا محمد الوقت الذي نتقا فيه الجبل اي رفعناه فوقهم حتى صار كأنه ظلة . وقيل : إنه رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ .

وامرأة منتاق وناتق كثيرة الولد . وقال ابن الاعرابي الناتق الرافع ، والناتق الفاتق ، والناتق الباسط ، وقال العجاج :

ينتق انتقاق الشليل نتقا (١)

يعني يرفعه عن ظهره . وقال الآخر :

ونتقوا أحلامنا الاثاقلا (٢)

وقال النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وامهم　　　　دحقت عليك بناتق مذكار (٣)

ويروى طفحت عليك بناتق . ويقال : نتق السير اذا حركه ، ويقال : ماينتق برجله ولا يركض ، والنتق نتق الدابة صاحبها حين تعدو به وتتبعه حتى تربو فذلك النتق . وقال بعضهم : معنى « نتقنا الجبل فوقهم » فرفعناه بنتقه نتقاً . قال ابو عبيدة : سمعت من يقول : أخذ الجراب فنتق مافيه إذا نثر مافيه والاصل نتقت كل شيء وقوله عزوجل « كأنه ظلة » يعني به غماماً من الظلال وقوله « وظنوا أنه واقع بهم » قال الحسن معناه علموا . وقال الجبائي والرماني : هو الظن بعينه ، لأنه قوي في

(١) ديوانه ٤٠ وتفسير الطبري الطبعة الثانية ١٠٩/٩

(٢ ، ٣) اللسان (نتق) . وتفسير الطبري الطبعة الثانية ٩ / ١١٠

نفوسهم ذلك .

وقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » أي قلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بجد يعني ماألزمناكم من احكام كتابنا وفرائضه فاقبلوه باجتهاد منكم في اوانه من غير تقصير ولا توان . وقال الجبائي : معناه خذوه بالقدرة التي آتاكم الله وأقدركم بها لأنهم لو لم يكونوا قادرين لما كلفهم الله ذلك ، وذلك يفسد مذهب من قال القدرة مع الفعل .

وقوله « واذكروا ما فيه » معناه ما في كتابه من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم ، بالعمل بمافيه لكي تتقوا ربكم فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ماأخذ عليكم فيه من مواثيق .

وكان سبب رفع الجبل عليهم ان موسى عليه السلام لما اتاهم بالتوراة ووقفوا على مافيها من الاحكام والحدود والتشديد في العبادة ابوا أن يقبلوا ذلك وان يتمسكوا به وان يعملوا بما فيه . وقالوا: إن ذلك يغلظ علينا، فرفع الله الجبل كالظلة عليهم، وعرفهم موسى انهم إن لم يقبلوا التوراة ولم يعملوا بما فيها وقع عليهم فأخذوا بالتوراة وقبلوامافيها وصرف الله نزول الجبل عليهم . قال ابن‌عباس فلذلك صارت اليهود تسجد على قرنها الأيسر ، لأنهم سجدوا كذلك ينظرون الى الجبل وكأنها سجدة نصبها الله. وإنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن‌مريم عليهاالسلام‌اتخذت مكاناً شرقياًحين حملت بعيسى . وقال مجاهد : معناه إن أخذتموه بجد وحسن نية وإلاالقي الجبل عليكم.وقال ابو مسلم إن رفع الجبل كان‌ليظلهم من الغمام ، وذلك خلاف اقوال المفسرين ومايقتضيه سياق الكلام .

قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ (١٧١) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٢) آية

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة « ذريتهم » على التوحيد . الباقون ذرياتهم على الجمع . وقرأ ابو عمرو « وان يقولوا ، او يقولوا » بالياء فيهما . الباقون بالتاء.

و(الذرية) قد يكون جمعاً نحو قوله تعالى « وكنا ذرية من بعدهم » وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح » (١) وقد يكون واحداً كقوله : «هب لي من لدنك ذرية طيبة . . . فنادته الملائكة . . . أن الله يبشرك بيحيى » (٢) فهو مثل قوله : « فهب لي من لدنك ولياً يرثني » (٣) فقال الله : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » (٤) .

فمن أفرد جعله اسماً واستغنى عن جمعه بوقوعه على الجمع .

ومن جمع قال :لانه إن كان واقعاً على الواحد فلا شك في جواز جمعه وإن كان جمعاً فجمعه أيضاً حسن،لأنه قد وردت الجموع المكسرة وقد جمعت نحو الطرقات وصواحبات يوسف .

وحجة من أفرد قال : لايقع على الواحد والجميع . فأما وزن (ذرية) فانه يجوز أن تكون (فعلولة) من الذر ، فابدلت من الراء التي هي لام الفعل الأخيرة ياء كما أبدلت من دهرية ، يدلك على البدل فيه قولهم : دهرورة ، ويحتمل ان تكون فعلية منه فأبدلت من الراء الياء ، كما تبدل من هذه الحروف في التضعيف وإن وقع فيها الفصل .ويحتمل أن تكون (فعليه) نسبة الى الذر وأبدلت الفتحة منها ضمة كما أبدلوا في الاضافة الى الدهر دهري والى سهل سهلي .ويجوز أن تكون(فعلية) من ذرأ الله الخلق،أجمعوا على تخفيفها كما أجمعوا على تخفيف البرّية . ويجوز ان

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٣ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٣٨ـ٣٩
(٣) سورة ١٩ مريم آية ٤ (٤) سورة ١٩ مريم آية ٦

تكون من قوله « تذروه الرياح »(١) ابدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها .

وحجة أبي عمرو في قراءته بالياء ان ما تقدم ذكره من الغيبة وهو قوله عز وجل «واذأ خذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم » كراهية ان يقولوا أولئلا يقول ، ويؤكد ذلك ماجاء بعد من الاخبار عن الغيبة وهو قوله: « قالوا بلى » .

وحجة من قرأ بالتاء انه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله « ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » وكلا الوجهين حسن لأن الغيب هم المخاطبون في المعنى .

وهذا خطاب للنبي ﷺ قال الله تعالى له : واذكر أيضاً الوقت الذي اخذ الله فيه من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟.

واختلفوا في معنى هذا الأخذ فيه وهذا الاشهاد :

فقال البلخي والرماني اراد بذلك البالغين من بني آدم واخراجه اياهم ذرية قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر واشهاده إياهم على انفسهم تبليغه إياهم وإكماله عقولهم، وما نصب فيها من الأدلة الدالة بأنهم مصنوعون وان المصنوع لابد له من صانع، وبما اشهدهم مما يحدث فيهم من الزيادة والنقصان والآلام والأمراض الدال بجميع ذلك على ان لهم خالقاً رازقاً تجب معرفته والقيام بشكره ، وما اخطر بقلوبهم من تأكيد ذلك والحث على الفكر فيه ، ثم إرساله الرسل وإنزاله الكتب ، لئلا يقولوا إذا صاروا الى العذاب : إنا كنا عن هذا غافلين ، لم ينبه علينا ولم تقم لنا حجة عليه ولم تكمل عقولنا فنفكر فيه ، اويقول قوم منهم : إنما أشرك آباؤنا حين بلغوا وعقلوا فأما نحن فكنا أطفالا لا نعقل ولا نصلح للفكر والنظر والتدبير .

وقال الجبائي : أخذه ذرياتهم من ظهورهم انه خلقهم نطفاً من ظهور الآباء، ثم خلقهم في ارحام الامهات ، ثم نقلهم من خلقة الى خلقة ،وصورة الى صورة، ثم صاروا حيواناً بأن احياهم الله في الأرحام ، واتم خلقهم، ثم اخرجهم من الارحام بالولادة

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٦

وقوله تعالى : « واشهدهم على انفسهم » يعني عندالبلوغ وكمال العقل وعندما عرفوا ربهم فقال لهم على لسان بعض انبيائه « الست بربكم » ؟ فقالوا : بلى شهدنا بذلك واقررنا به لأنهم كانوا بالله عارفين انه ربهم .

وقوله تعالى « ان تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين » معناه لئلاتقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين فأراد بذلك اني انا قررتكم بهذا لتواظبوا على طاعتي وتشكروا نعمتي ولاتقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين .

وقوله تعالى « اوتقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم » فنشأنا على شركهم فتحتجوا يوم القيامة بذلك ، فبين اني قد قطعت بذلك حجتكم هذه بما قررتكم به من معرفتي واشهدتكم على انفسكم باقراركم وبمعرفتكم إياي .

وقوله « افتهلكنا بما فعل المبطلون » من آبائنا . وهذا يدل على انها مخصوصة في قوم من بني آدم وانها ليست في جميعهم ، لأن جميع بني آدم لم يؤخذوا من ظهور بني آدم لان ولد آدم لصلبه لايجوز ان يقال : إنهم اخذوا من ظهور بني آدم فقد خرج ولد آدم لصلبه من ذلك وخرج ايضاً اولاد المؤمنين من ولد آدم الذين لم يكن آباؤهم مشركين ، لانه بين ان هؤلاء الذين اقروا بمعرفة الله واخذ ميثاقهم بذلك كان قد سلف لهم في الشرك آباء . فصح بذلك انهم قوم مخصوصون من اولاد آدم .

فأما ماروي ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على انفسهم وهم كالذر ، فان ذلك غير جائز لأن الاطفال فضلا عمن هو كالذر لاحجة عليهم ، ولايحسن خطابهم بما يتعلق بالتكليف ، ثم ان الآية تدل على خلاف ماقالوه . لأن الله تعالى قال « وإذ اخذ ربك من بني آدم » وقال « من ظهورهم » ولم يقل من ظهره . وقال « ذريتهم » ولم يقل ذريته ، ثم قال « اوتقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون » فأخبر ان هذه الذرية قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم .

على ان راوي هذا الخبر سليمان بن بشار الجهني ، وقيل مسلم بن بشار عن عمر بن الخطاب وقال يحيى بن معين :سليمان هذا لايدري اين هو . وايضاً فتعليل الآية يفسدماقالوه.لأنه قال : فعلت هذالئلا يقولوا يومالقيامة إنا كنا عنهذاغافلين والعقلاءاليوم في دار الدنيا عن ذلك غافلون .

فان قيل نسوا ذلك لطول العهد اولأن الزمانكان قصيراً كما يعلم الواحدمنا اشياء كثيرة ضرورة ثم ينساها كما ينسى ما فعله في امسه وما مضى من عمره .

قلنا : إنما يجوز ان ينسى مالا يتكرر العلم به ولايشتد الاهتمام به ، فـأما الامور العظيمة الخارقة للعادة ، فلا يجوز ان ينساها العاقل . الاترى ان الواحد منا اودخل بلاد الزنج ورای الأفيلة ولو يوماً واحداً من الدهرلايجوز ان ينسى ذلك حتى لايذكره اصلا مع شدة اجتهاده واستذكاره ؟ ! ولو جاز ان ينساه واحد لما جاز ان ينساه الخلق بأجمعهم . ولو جوزنا ذلك للزمنا مذهب التناسخ وان اللهكان قد كلف الخلق فيما مضى واعادهم ، إما لينعمهم اوليعاقبهم . ونسوا ذلك ، وذلك يؤدي الى التجاهل .

علىانأهلالآخرة يذكرون ماكان منهممناحوال الدنيا ولم يجبان ينسوا ذلك لطول العهد ، ولا المدة التي مرت عليهم وهم اموات وكذلك اصحاب الكهف لم ينسوا ماكانوا فيه قبل نومهم لما انتبهوا مع طول المـدة في حال نومهم ، فعلمنا ان هؤلاء العقلاء لماكانوا شاهدوا ذلك وحضروه وهم عقلاء لما جاز ان يذهب عنهم معرفة ذلك لطول العهد ، ولوجب أن يكونوا كذلك عارفين .

وقال قوم وهو المروي في أخبارنا إنـه لايمنع ان يكون ذلك مختصاً بقوم خلقهم الله وأشهدهم على أنفسهم بعد ان أكمل عقولهم واجابوه بـ (بلى) ، وهـم اليوم يذكرونه ولايغفلون عنه ، ولايكون ذلك عاماً في جميع العقلاء وهذا وجه ايضاً قريب يحتمله الكلام .

وحكى أبوا الهذيل في كتابه الحجة : أن الحسن البصري واصحابـه كانوا

يذهبون الى ان نعيم الاطفال في الجنة ثواب عن إيمانهم في الذر .

وحكى الرماني عن كعب الاحبار : انه كان يخبر خبر الذر غير انه يقول ليس تأويل الآية على ذلك. وإنما فعل ليجروا على الاعراف الكريمة في شكر النعمة والاقرار لله بالوحدانية ، كما روي انهم ولدوا على الفطرة .

ويدل على فساد قولهم قوله تعالى «والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً » (١) فهم لو كانوا أخرجوا من ظهر آدم على صورة الذر كانوا ابعد من ان يعلموا او يعقلوا ومتى قالوا أكمل الله عقولهم فقد مضى الكلام عليهم .

وذكر الأزهري وروي ذلك عن بعض من تقدم ان قوله : « وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى » تمام الكلام . وقوله « شهدنا ان تقولوا يوم القيامة » حكاية عن قول الملائكة انهم يقولون شهدنا لئلا تقولوا.

وهذا خلاف الظاهر وخلاف ماعليه جميع المفسرين لأن الكل قالوا (شهدنا) من قول من قال (بلى) وان اختلفوا في كيفية الشهادة على ان الملائكة لم يجر لها ذكر ، فكيف يكون ذلك إخباراً عنهم .

قوله تعالى :

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٣) آية

إنا كما بينا لكم هذه الآيات كذلك نفصلها للعباد ونبينها لهم . وتفصيله الآيات هو تمييز بعضها من بعض ليتمكنوا من الاستدلال بكل واحدة منها على جهتها وبين أنه فعل ذلك بهم ليتوبوا وليرجعوا عن معاصيه الى طاعته وعن الكفر الى الايمان به .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٨



قوله تعالى :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٤) آية بلاخلاف .

هـذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يأمره بأن يقرأ على بني اسرائيل وغيرهم من أمته خبر الـذي اتاه الله حججه وبيناته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان وكان من جملة الغاوين الخائبين الخاسرين . وقيل معناه الضالين الهالكين .

واختلفوا في المعني بقوله « آتيناه آياتنا » : فقال ابن عباس ومجـاهـد : هو بلعام بن باعورا من بني اسرائيل . وقال : معنى « فانسلخ منها » مـا انزع منه من العـلم . وروي عن عبد الله بن عمر انها نزلت في أمية بن ابى الصلت . وقال مسروق وعبد الله : هي في رجل من بني اسرائيل يقال لـه بلعم بن باعورا . وقال قوم : هو رجل من الكنعانيين . وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله للكافر آتاه الله آيات دينه « فانسلخ منها » يقول اعرض عنها وتركها « فاتبعه الشيطان » خذله الله وخلى عنه وعن الشيطان ، وهو مثل قوله تعالى « كتب عليه انه من تولاه فانـه يضله » (١) اى كتب على الشيطان انه من تولى الشيطان فان الشيطان يضله . وقال الجبائى اراد به المرتد الذي كان الله آتاه العلم به وبآياته فكفر به وبآياته وبدينه من بعد ان كان به عارفاً فانسلخ من العلم بذلك ومن الايمان .

وقوله « فأتبعه الشيطان » معناه ان الشيطان اتبعه كفار الانس وغواتهم حتى اتبعوه على ماصار اليه من الكفر بالله وبآياتـه . وقيل اتبعه الشيطان بالتزيين والأغواء حتى تمسك بحبـله وكان من الغاوين الخائبين من رحمة الله ، قال : هو رجل من المتقدمين يقال له : بلعام بن باعورا .

---

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٤

اتبعه الشيطان، واتبعه لغتان وبالتخفيف معناه قفاه ، وبالتشديد حذا حذوه وإذا اردت اقتدا به فبالتشديد لا غير . فأما ماروي أن الآية كانت النبوة فانه باطل ، فان الله تعالى لايؤتي نبوته من يجوز عليه مثل ذلك ، وقد دل دليل العقل والسمع على ذلك قال الله تعالى « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (١) وقال « المصطفين الأخيار » (٢) فكيف يختار من ينسلخ عن النبوة .

وقيل : إن الآية كانت الاسم الاعظم وهذا ايضاً نظير الاول لايجوز ان يكون مراداً، والقول هوماتقدم من اكثر المفسرين : ان المعني به بلعم بن باعورا ومن قال امية بن ابي الصلت قال كان اوتي علم الكتاب فلم يعمل به . والوجهالذي قاله الحسن يليق بمذهبنا دون الذي قاله الجبائي ، لان عندنا لايجوز ان يرتد المؤمن الذي عرف الله على وجه يستحق به الثواب .

والنبأ الخبر عن الامر العظيم ومنه اشتقاق النبوة : نباه الله جعله نبياً وإنما آتاه الله الايات باللطف حتى تعلمها وفهم معانيها وقال ابومسلم: الاية في كل كافر بين الله له الحق فلم يتمسك به . وقال ابو جعفر عليه السلام في الاصل بلعم ثم ضرب مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله تعالى من اهل القبلة .

قوله تعالى :

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٥) آية .

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢   (٢) سورة ٣٨ ص آية ٤٧

الهاء في (لرفعناه) كناية عن الذي تقدم ذكره ، وهو الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، فأخبره الله تعالى انه لو شاء لرفعه بتلك الايات.

واختلفوا في معنى هذه المشيئة فقال الجبائي : المعنى لوشئنا لرفعناه بايمانه ومعرفته قبل ان يكفر لكن ابقيناه ليزداد الايمان ، فكفر . وقال البلخي هذا اخبار عن قدرته انه لو شاء لحال بينه وبين الكفر والارتداد ، وهو الذي نختاره لانا قد بينا ان المؤمن لايجوز ان يرتد . وقال الزجاج : معناه لوشئنا ان نحول بينه وبين المعصية لفعلنا .

وقوله « ولكنه أخلد الى الارض » معناه سكن الى الدنيا وركن اليها ولم يسم الى الغرض الأعلى . يقال أخلد فلان الى كذا و كذا وخلد ، وبالألف اكثر في كلام العرب ، والمعنى إنه سكن الى لذات الدنيا واتبع هواه أي لم نرفعه بالايات لاتباع هواه . وقيل معنى أخلد قعد ويقال: فلا مخلد إذا أبطأ عنه الشيب ومخلد إذا لم تسقط اسنانه ـ هكذا ذكره الفراء ـ ومن الدواب الذي تبقى ثناياه حتى تخرج رباعيتاه . وأخلد بالمكان اذا اقام به ، قال زهير :

لمن الديار غشيتها بالفدفد		كالوحي في حجر المسيل المخلد (١)

وقال مالك بن نويرة :

بأبناء حي من قبائل مالك		وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا (٢)

وقال ابو عبيدة هو اللزوم للشيء والتقاعس فيه وقال سعيد بن جبير معناه ركن الى الارض ، وقال مجاهد : معناه سكن اليها .

---

(١) ديوانه ٢٦٨ ، واللسان (خلد) . و (الفدفد) الفلاة التي لاشيء بها . وقيل : هي الارض الغليظة ذات الحصى ، وقيل غير ذلك و (الوحي) الكتابة و (حجر المسيل) هو حجر صلب يكتبون فيه .

(٢) الاصمعيات : ٣٢٣ .

وقوله : « فمثله كمثل الكلب » ضرب الله مثل التارك لآياته والعادل عنها بأخس مثل في أخس احواله ، فشبهه بالكلب ، لأن كل شيء يلهث فانما يلهث في حال الاعياء والكلال إلا الكلب فانه يلهث في حال الراحة والتعب ، وحال الصحة وحال المرض . وحال الري وحال العطش وجميع الاحوال ، فقال تعالى إن وعظته فهو ضال وان لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته وزجرته فانه يلهث ، وإن تركته يلهث ، وهو مثل قوله « وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون » (١) .

وقوله تعالى « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » يعني هذا المثل الذي ضربه بالكلب هو مثل الذين كذبوا بآيات الله . وقال الجبائي إنما شبهه بالكلب لانه لما كفر بعد ايمانه صار يعادي المؤمنين ويؤذيهم ، كما ان الكلب يؤذي الناس طردته أو لم تطرده فانه لايسلم من اذاه .

وقوله تعالى « فاقصص القصص » معناه فاقصص على الناس ما نبينه لك لكي يتذكروا ويتفكروا فيرجعوا الى طاعة الله وينزجروا عن معاصيه . وقال ابن جريج مثله بالكلب ، لان الكلب لافؤاد له فيقطعه الفؤاد حملت عليه أو تركته ، شبه من ترك الآيات كأنه لافؤاد له . واللهث التنفس الشديد من شدة الاعياء ، وفي الكلب طباع يقال : لهث يلهث لهثاً فهو لاهث ولهثان .

قوله تعالى :

سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٦) آية بلا خلاف .

التقدير ساء مثلا مثل القوم ، وحذف لدلالة الكلام عليه و « أنفسهم » نصب

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٩٢

(يظلمون) وصف الله تعالى هـذا المثل الذي ضربه وذكره بأنه ساء مثلا اي بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وانهم بذلك لايظلمون إلا انفسهم دون غيرهم ، لأن عقاب مايفعلونه من المعاصي يحل بهم فان الله تعالى لايضره كفرهم ولا معصيتهم كما لاينفعه طاعتهم وإيمانهم .

قوله تعالى

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٧) آية .

« فهو المهتدي » كتب ـ ههنا ـ بالياء ليس في القرآن غيره بالياء ، واثبت الياء في اللفظ ههنا جميع القراء . وقال الجبائي : معنى الآية من يهديه الله الى نيل الثواب . كما يهدي المؤمن إلى ذلك والى دخول الجنة فهو المهتدي للايمان والخير ، لأن المهتدي هو المؤمن فقد صار مهتدياً الى الايمان والى نيل الثواب . ومن يضله الله عن الجنة وعن نيل ثوابها عقوبة على كفره اوفسقه ، « فأولئك هم الخاسرون » لأنهم خسروا الجنة ونعيمها وخسروا انفسهم والانتفاع بها . وقال البلخي المهتدي هو الذي هداه الله فقبل الهداية واجاب اليها ، والذي أضله الله هو الضال الذي اختار الضلالة فأضله الله بمعنى خلى بينه وبين ما اختاره وترك منعه بالخير على انه إذا ضل عن امر الله عند امتحانه وتكليفه جاز أن يقال : ان الله أضله . وقيل : معنى « من يهدي الله » من يحكم الله بهدايته « فهو المهتدى » ومن حكم بضلالته فهو الخائب الخاسر .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

لا يَفقهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أعيُنٌ لاَ يُبصِرونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لاَ يسمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضلُّ أُولئِكَ هُمُ الغَافلُونَ (١٧٨) آية بلاخلاف .

معنى « ذرأنا » خلقنا يقال : ذرأهم يذرأهم واللام في (لجهنم) لام العاقبة. والمعنى انه لما كانوا يصيرون اليها بسوء اختيارهم وقبح أعمالهم جاز أن يقال : إنه ذرأهم لها والذي يدل على ان ذلك جزاء على اعمالهم قوله « لهم قلوب لا يفقهون بها » وأخبر عن ضلالهم الذي يصيرون به الى النار ، وهو مثل قوله تعالى « إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً » (١) ومثل قوله « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك » (٢) ومثل قوله عزوجل « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » (٣) وإنما التقطوه ليكون قرة عين كما قالت امرأة فرعون عند التقاطه « قرة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولداً » (٤) ومثله قول القائل : اعددت هذه الخشبة ليميل الحائط فاسنده بها وهو لايريد ميل الحائط . ومثله قول الشاعر :

وللموت تغذو الوالدات سخالها　　　كما لخراب الدهر تبنى المساكن (٥)

وقال الآخر :

اموالنا لذوي الميراث نجمعها　　　ودورنا لخراب الدهر نبنيها (٦)

وقال الآخر :

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨　　　(٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٨

(٣) سورة ٢٨ القصص آية ٨　　　(٤) سورة ٢٨ القصص آية ٩

(٥) قائله سابق البربري او (البريدي) العقد الفريد ١ / ٢٦٩

(٦) إنظر ٣ / ٦٠ من هذا الكتاب .

وام سماك فــلا تجزعي فللموت ماتلد الوالدة (١)

وقال آخر :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى ذهاب (٢)

وقولــه « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم اعين لايبصرون بهــا ولهم آذان لا يسمعون بها » معناه انهم لما لم يفقهوا بقلوبهم ولم يسمعوا بآذانهم ولم يبصروا بعيونهم ما كانوا يؤمرون به ويدعون اليه سموا بكما عمياً صماً . ولما لم ينتفعوا بجوارحهم اشبهوا العمي البــكم الصم ، لان هؤلاء لا ينتفعون بجوارحهم فأشبهوهم في زوال الانتفاع بالجوارح وسموا باسمائهم ، ومثله قول مسكين الدارمي :

أعمى اذا ماجارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر

ويصم عمــا كان بينهما سمعي ومابي غيره وقر (٣)

فجعل نفسه اصماً واعمى لما لم ينظر ولم يسمع .وقال آخر :

وكلام سيء قـد وقرت أذني عنه ومابي من صمم

وقال آخر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا (٤)

وهذا كثير . ويجوز أن يكون قوله تعالى « ذرأنــا لجهنم » معناه ميزنا .

ويقال : ذرأت الطعام والشعير أي ميزت ذلك من التبن والمدر ، فلما كان الله

(١ ، ٢) إنظر ٣/ ٦٠ من هذا الكتاب .

(٣) تفسير الطبري الطبعة الثانية ٩/ ١٣٢ . وروايته « الستر » بدل «الخدر» « وما بالسمع من وقر » بــدل « ومابي غيره وقر » وقد مر البيتان في ١ / ٩٠ وفي ٢/ ١١٣ من هذا الكتاب .

(٤) قائله قنعب بن أم صاحب اللسان والتاج (أذن) وفي مجاز القرآن ١/١٧٧ هكذا :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

تعالى قـد ميز اهل النار من اهل الجنة في الدنيا بالتسمية والحكم والشهادة جاز ان يقول ذرأناهم اي ميزناهم . ثم وصفهم بصفة تخالف اوصاف اهل الجنة يعرفون بها فقال « لهم قلوب لايفقهون بها » إلى آخرها .

ويجوز ان يكون قوله « ذرأنا » بمعنى سنذرأ كما قال : « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار » (١) بمعنى سينادون ، فكأنـه قال سيخلقهم خلقاً ثانياً للنار بأعمالهم التي تقدمت منهم في الدنيا إذ كانوا استحقوا النار بتلك الاعمال . ولايجوز أن يكون معنى الاية إن الله خلقهم لجهنم وارادمنهم ان يفعلوا المعاصي ، فيدخلوا بها النار ، لأن الله تعالى لايريـد القبيح ، لأن إرادة القبيح قبيحة ، ولان مريـد القبيح منقوص عند العقلاء تعالى الله عن صفة النقص ، ولأنه قال « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » (٢) فبين انه خلق الخلق للعبادة والطاعة وقال « وماأرسلنا من رسول إلا ليطاع » (٣) وقال « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا » (٤) وقال « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنامعهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» (٥) وقال « إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله » (٦) ونظائر ذلك اكثر من ان تحصى ، فكيف يقول بعد ذلك « ولقد ذرأنا لجهنم » وهل هـذا إلا تناقض تنزه كلام الله عنه .

وقوله « اولئك كالانعام » يعني هؤلاء الـذين لايتدبرون بآيات الله ولا يستدلون بها على وحدانيته وصدق رسله اشباه الانعام والبهائم التي لاتفقه ولاتعلم ثم قال « بلهم اضل » يعني من البهائم ، لأن فيالبهائمما إذا زجرتها انزجرت واذا أرشـدتها الى طريق اهتدت . وهؤلاء لعتوهم وكفرهم لايهتدون الى شيء من الخيرات مع ماركب الله فيهم من العقول التيتدلهمعلى الرشاد وتصرفهم عنالضلال

(١) سورة ٧ الأعراف آية ٤٣　　(٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٦
(٣) سورة ٤ النساء آية ٦٣　　(٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٠
(٥) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥　　(٦) سورة ٦٣ المؤمنون آية ٤٥

وليس ذلك في البهائم . ومع ذلك تهتدي الى منافعها وتتحرز عن مضارها ، والكافر لايفعل ذلك. ثم قال «أولئك هم الغافلون » يعني هؤلاء هم الغافلون عن آياتي وحججي والاستدلال بها والاعتبار بتدبرها على ماتدل عليه من توحيده ، لان البهائم التي هي مسخرة مصروفة لااختيار لها .

قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧٩) آية اجماعاً .

قرأ حمزة « يلحدون » بفتح الحاء والياء - ههنا - وفي النحل وحم السجدة وافقه الكسائي وخلف في النحل ، والباقون بضم الياء .من قرأ بكسر الحاء ، فلقوله « ومن يرد فيه بالحاد » (١) وألحد أكثر في الكلام قال الشاعر :

ليس الامام بالشحيح الملحد ولايكاد يسمع لأحد (٢)

والالحاد العدول عن الاستقامة والانحراف عنها ومنه اللحد الذي يحفر في جانب القبر خلاف الضريح الذي يحفر في وسطه فمعنى « يلحدون في آياتنا » يجورون عن الحق فيها . وروى ابو عبيدة عن الأحمر : لحدت جرت وملت وألحدت ماريت وجادلت قال : وقال ابو عبيدة : لحدت له والحدت للميت بمعنى واحد .

قال أبن جريج اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وكان ذلك إلحاداً . وقال ابن عباس : الحادهم تكذيبهم . وقال قتادة : هو شركهم . وقال قوم : هو تسميتهم الاصنام بأنها آلهة .

أخبر الله تعالى ان له الاسماء الحسنى نحو قوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم »

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢٥

(٢) قائله حميد بن ثور . اللسان « لحد »

وغير ذلك من الاسماء التي تليق به، وهي الأسماء الراجعة إلى ذاته اوفعله نحو العالم العادل، والسميع البصير المحسن المجمل، وكل اسم لله فهو صفة مفيدة لأن اللقب لايجوز عليه. وامر تعالى ان يدعوه خلقه بها وان يتركوا اسماء اهل الجاهلية وتسميتهم اصنامهم آلهة ولاتاً وغير ذلك. وقال الجبائي: يحتمل أن يكون اراد تسميتهم المسيح بأنه ابن الله وعزيراً بأنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال قوم: هذا يدل على أنه لايجوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه.

وقوله «وذروا الذين يلحدون» فيه تهديد للكفار وأن الله تعالى سيعاقبهم على عدولهم عن الحق في تغيير أسمائه.

وقوله تعالى «سيجزون ما كانوا يعملون» معناه سيجزون جزاء ما كانوا يعملون من المعاصي بانواع العذاب. قال الرماني الاسم كلمة تدل على المعنى دلالة الاشارة، والفعل كلمة تدل على المعنى دلالة الافادة. والصفة كلمة مأخوذة للمذكور من اصل من الاصول لتجري عليه تابعة له.

قوله تعالى:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٠) آية.

أخبر الله تعالى أن من جملة من خلقه جماعة يهدون بالحق، وهداهم بالحق هو دعاؤهم الناس الى توحيد الله والى دينه وتنبيههم إياهم على ذلك. وقال قوم معنى (يهدون) يهتدون «وبه يعدلون» معناه إنهم يعملون بالعدل والانصاف فيما بينهم وبين الناس.

وهذا إخبار ان فيما خلق قوماً هذه صفتهم ولايدل ذلك على ان في كل عصر يوجد قوم هذه صفتهم ولو لم يوجدوا إلا في وقت واحد كانت الفائدة حاصلة بالاية، فلا يمكن الاستدلال بها على ان اجماع اهل الاعصار حجة. على ان عندنا انه لايخلوا وقت من الاوقات ممن يجب اتباعه وتثبت عصمته ويكون حجة الله على

خلقه فيمكن أن يكون المراد بالآية من ذكرناه . وقال ابو جعفر عليه السلام وقتادة وابن جريج : الآية في أمة محمد صلى الله عليه وآله وهو مثل قوله تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » (١) فكما أنه لايدل على وجود أئمة في كل وقت فكذلك ماقالوه .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨١) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٢) آيتان

المعنى إن الذين كذبوا بآيات الله التي تضمنها القرآن والمعجزات الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وآله وكفروا بها سنستدرجهم من حيث لايعلمون استدراجاً لهم الى الهلكة حتى يقعوا فيها بغتة من حيث لايعلمون ، كما قال تعالى «بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها » (٢) وقال : « فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون » (٣) فيقولوا هل نحن منظرون ؟ ويجوز ان يكون من عذاب الآخرة .

فأما من قال من المجبرة : إن معنى الآية أن الله يستدرجهم الى الكفر والضلال فباطل ، لأن الله تعالى لايفعل ذلك لانه قبيح ينافي الحكمة، ثم إن الآية بخلاف ذلك لأنه بين أن هؤلاء الذين يستدرجهم كفار بالله وبرسوله وبآياته ، وانه سيستدرجهم في المستقبل لأن السين لاتدخل إلا على المستقبل فلا معنى لقوله « إن الذين كفروا سنستدرجهم » الى الكفر ، لأنهم كفار قبل ذاك ، ولايجب في الكافر أن يبقى حتى يواقع كفراً آخر ،لأنه يجوز أن يميته الله تعالى، فبان بذلك أن المراد أنه سيستدرجهم الى العذاب والعقوبات من حيث لايعلمون في مستقبل أمرهم بقوا أو لم يبقوا . على ان الاستدراج عقوبة من الله والله لايعاقب أحداً على فعل نفسه كما لا يعاقبهم

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٧٣ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٠

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٠٢

على طولهم اوقصرهم .

ويحتمل ان يكون معنى الآية إنا نعاقبهم على استدراجهم للناس وإغوائهم إياهم ونعاقبهم على كيدهم ، فجعل العقوبة على الاستدراج استدراجاً ،والعقوبةعلى الكيد كيداً ، كما قال « سخرالله منهم » (١) وقال « الله يستهزىء بهم » (٢) وقال « يخادعون الله وهو خادعهم » (٣) وقال « والله خير الماكرين » (٤) وما اشبه ذلك .

ويحتمل ان يكون المراد : إني سأفعل بهم مايدرجون في الفسوق والضلال عنده ويكون ذلك إخبارعن بقائهم على الكفر عند إملائه لهم ، فسمى ذلك استدراجاً لأنهم عند البقاء كفروا وازدادوا كفراً ومعصية . وان كان الله لم يرد منهم ذلك ولابعثهم عليه، كما قال « أولم نعمر كم ما يتذكر فيه من تذكر » (٥) كما يقول القائل : أبطر فلان فلاناً بانعامه عليه . ولقد ابطرته النعمة واكفرته السلامة ، وإن كان المنعم لايريد ذلك بل اراد ان يشكره عليها .

ومعنى قوله « وأملي لهم » أؤخر هؤلاءالكفار في الدنيا وابقيهم مع إصرارهم على الكفر ولاأعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ، لانهم لايفوتوني ولايعجزوني ، ولا يجدون مهرباً ولا ملجأ .

وقوله تعالى « إن كيدي متين » معناه إن عذابي وسماه كيداً لنزوله بهم من حيث لايشعرون . وقيل : إنه اراد أن جزاء كيدهم وسماه كيداً للازدواج على مابينا نظائره . ومعنى « متين » شديد قوي قال الشاعر :

عدلن عدول اليأس والشيخ يبتلي   افانين من الهوب شد مماتني (٦)

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠   (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١   (٤) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

(٥) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٧

(٦) تفسير الطبرى ١٣/ ٢٨٨ و الطبعة الثانية ٩/ ١٣٦ وفيه اختلاف

يعني شد او شديداً باقياً لاينقطع .والمتن أصله اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب وهما متنان . والكيد والمكر واحـد ، وهو الميل الى الشرّ في خفى ، كاد يكيد كيداً ومكيدة ، وفلان يكيد بنفسه .

وأصل الاستدراج اغترار المستدرج من حيث يرى أن المستدرج محسن اليه حتى يورطه مكروهاً . والاستدراج أن يأتيه من مأمنه من حيث لايعلم .

و(أملي) بمعنى أؤخرمن الملي ـ ثقيلة الياء ـ يقال مضى عليه ملي من الدهر وملاؤ من الدهر ـ بفتح الميم وضمها و كسرها ـ أي قطعة منه . ووجه الحكمة في اخذهم من حيث لايعلمون أنه لواعلمهم وقت مايأخذهم وعرفهم ذلك لأمنوه قبل ذلك وكانوا مغريين بالقبيح قبله تعويلا على التوبة فيما بعد وذلك لايجوز عليه تعالى. والاستدراج على ضربين :

احدهما ـ ان يكون الرجل يعادي غيره فيطلب له المكايدة والختل من وجه يغتره به ويخدعه ويدس اليه من يوقعه في ورطة حتى يشفي صدره ولايبالي كيف كان ذلك ، فهذا سفيه غير حكيم .

والآخر ـ أن يحلم فيه ويتأنى ويترك العجلة في عقوبته التي يستحقها على معاصيه كيداً ومكراً واستدراجاً . ألا ترى لوان إنساناً عادى غيره فجعل يشتمه ويعيبه وذاك يعرض عنه ولايكافيه مع قـدرته على مكافاته جاز أن يسمى كيداً واستدراجاً ومكراً وحيلة ، ولجاز ان يقال : فلان متين الكيد شديد الاستدراج ، بعيد الغور محكم التدبير .

وقيل في معنى « سنستدرجهم » سنأخذهم قليلا قليلا ولانباغتهم ، يقال : امتنع فلان على فلان واتى عليه حتى استدرجه اي خدعه حتى حمله على ان درج اليه درجاناً أي اخـذ في الحركة نحوه كما يدرج الصبي اول مايمشي ، ويقال : صبي دارج : ويقال : درجوا قرناً بعد قرن اي فنيوا قليلا قليلا .

قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٤) آيتان

هـذا خطاب من الله تعالى للكفار الـذين كانوا ينسبون النبي ﷺ الى الجنون على وجه التوبيخ لهم والتقريع « أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة » اي وليس بالنبي ﷺ جنة وهي الجنون ، فانه لايأتي بمثل مايأتي به المجنون ، وهم يرون الاصحاء منقطعين دونه ويرون صحة تدبيره واستقامة أعمالـه وذلك ينافي أعمال المجانين .

وبين انه ليس به ﷺ إلا الخوف للعباد من عقاب الله ، لأن الانـذار هو الاعلام عن المخاوف،فبين لهم ماعليهم من أليم العذاب بمخالفته ثم قال « أولم ينظروا » ومعناه يفكروا « في ملكوت السماوات والارض » وعجيب صنعهما فينظروا فيهما نظر مستدل معتبر ، فيعرفون بما يرون من اقامـة السماوات والارض مع عظم أجسامهما وثقلهما على غير عمد وتسكينها من غير آلـة فيستدلوا بذلك على انـه خالقها ومالكها وأنه لايشبهها ولاتشبهه .

وقوله« وما خلق الله من شيء » يعني وينظروا فيما خلق الله تعالى من اصناف خلقه فيستدلوا بذلك على انه تعالى خالق جميع الاجسام وأنه أولى بالالهية من الاجسام المحدثة .

وقوله تعالى « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » معناه اولم يتفكروا

في ان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم ، وهو اجل موتهم فيدعوهم ذلك إلى ان يحتاطوا لدينهم ولا نفسهم فيما يصيرون اليه بعد الموت من امور الآخرة ويزهدهم في الدنيا وفيما يطلبونه من فخرها وعزها وشرفها فيدعوهم ذلك الى النظر في الأمور التي أمرهم بالنظر فيها .

وقوله تعالى « فبأي حديث بعده يؤمنون » معناه بأي حديث بعد القرآن يؤمنون مع وضوح دلالته على أنه كلام الله إذ كان معجزاً لايقدر أحد من البشر ان يأتي بمثله ، وسماه حديثاً لأنه محدث غير قديم . لأن إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً .

وفي الآية دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد ، لان النظر المراد به الفكر دون نظر العين ، لان البهائم ايضاً تنظر بالعين ، وكذلك الاطفال والمجانين ، والفكر موقوف على العقلاء .

وقال الحسن وقتادة سبب نزول الآية ان النبي صلى الله عليه وآله وقف على الصفا يدعوا قريشاً فخذاً فخذاً ، فيقول : يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون بأن يصوت على الصباح : فأنزل الله الآية .

والملكوت هو الملك الاعظم للمالك الذي ليس بمملك .

قوله تعالى :

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٥) آية .

قرأ أهل العراق « ويذرهم » بالياء ، واسكن الراء منه حمزة والكسائي وخلف الباقون بالنون وضم الراء . من قرأ بالنون قال لأن الشرط من الله ، فكأنه قال « من يضلل الله ... فنذرهم » . ومن قرأ بالياء رده الى اسم الله تعالى وتقديره الله يذرهم .

ومن ضم الراء قطعه عن الأول ولم يجعله جواباً . ويجوز ان يكون أضمر المبتدأ وكان تقديره ونحن نذرهم ، فيكون في موضع الجزم . ويجوز أن يكون استأنف الفعل فيرفعه ومن جزمه فانه عطفه على موضع الفاء وما بعدها من قوله « فلا هادي له » لان موضعه جزم ، فحمل« ونذرهم»على الموضع ، ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى «فأصدق وأكن » (١) لأنه لو لم يلحق الفاء لقلت لولا أخرتني أصدق، لان معنى « لولا أخرتني » (٢) أخرني أصدق . فحمل قوله تعالى « وأكن » على الموضع .

ومعنى قوله « من يضلل الله فلا هاي له » اي يمتحنه الله فيضل عند امتحانه وأمره إياه بالطاعة والخير والرشاد « فلا هادي له » أي لايقدر أحد أن يأتيه بالهدى والبرهان بمثل الذي آتاه الله تعالى، ولا بما يقارنه أو يزيد عليه « ويذرهم في طغيانهم» بمعنى يخلي بينهم وبين ذلك ، وترك اخراجه بالقسر والجبر ، ومنعه إياه لطفه الذي يؤتيه من آمن واهتدى وقيل الوعظ .

والطغيان الغلو في الكفر،والعمه : التحير والتردد في الكفر . ويحتمل ان يكون المراد من يضلل الله عن الجنة عقوبة على كفره فلا هادي له اليها وإن الله لايحول بين الكافر بل يتركه مع اختياره لأن مافعله من الزجر والوعيد كاف في ازاحة علة المكلف . وقيل معناه من حكم الله تعالى بضلاله وسماه ضالاً بما فعلهمن الكفر والضلال فلا احد يقدر على إزالة هذا الاسم عنه ولايوصف بالهداية ، وكل ذلك واضح بحمد الله تعالى .

قوله تعالى :

يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ

(١ ، ٢) سورة ٦٣ المنافقين آية ١٠

رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٦) آية بلاخلاف.

« أيان » معناه متى ، وهي سؤال عن الزمان على وجه الظرف .

أخبر الله تعالى ان الـكفار يسألون النبي ﷺ عن الساعة ، وهي القيامـة « أيان مرساها » أي وقت قيامها وثباتها . ومعنى « أيان » متى قال الراجز :

ايان تقضي حاجتي أيانا أما ترى لنجحها إبانا (١)

و «مرساها » في موضع رفع بالابتداء ، يقال: رسى يرسوا إذا ثبت فهوراس وجبال راسيات ثابتات ، وارساها الله اي ثبتها . وقيل معنى « مرساها » الوقت الذي يموت فيه جميع الخلق ، ومعنى سؤالهم عنها اي متى وقوعها و كونها .فأمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يجيبهم ويقول لهم « علمها عند الله » لم يطلع عليها احداً كما قال « إن الله عنده علم الساعة » (٢) وقوله تعالى « لا يجليها لوقتها الا هو » اي لايظهرها في وقتها إلا الله .

وقوله تعالى « ثقلت في السموات والارض » قيل في معناه قولان :

احدهما — ثقل علمها على السماوات والأرض ذهب اليه السدي وغيره .

الثاني — ثقل وقوعها على اهل السموات والارض — ذكره ابن جريج وغيره.

ثم اخبر الله تعالى نبيه ﷺ بكيفية وقوعها فقال « لا تأتيكم إلا بغتة » يعني فجأة.

وقوله « يسألونك كأنك حفي عنها » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها — ان معناه وتقديره حفي عنها يسألونك عن الساعة ووقتها كأنك عالم بها

(١) تفسير القرطبي ٣٣٥/٧ ومجاز القرآن ٢٣٤/١ واللسان (ابن)

(٢) سورة ٣١ لقمان آية ٣٤ .

وذلك يفسد تأويل المجبرة الذين قالوا : معنى الاية إن الله يريد جميع ما ينال الناس من النفع والضرر وإن كان ظلماً وجوراً من أفعال عباده .

وقوله عزوجل « ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء » معناه إني لو كنت أعلم الغيب لعلمت ما يربح من التجارات في المستقبل ومايخسر من ذلك فكنت اشتري ما اربح واتجنب ما اخسر فيه ، فتكثر بذلك الاموال والخيرات عندي ، وكنت أعده في زمان الخصب لزمان الجدب « ومامسني السوء » يعني الفقر إذا فعلت ذلك . وقيل : ومامسني تعذيب . وقيل : ومامسني جنون جواباً لهم حين نسبوه الى الجنون. وقال ابن جريج « لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت » من العمل الصالح قبل حضور الاجل ، وهو قول مجاهد وابن زيد . وقال البلخي : لو كنت اعلم الغيب لكنت قديماً ، والقديم لايمسه السوء لان احداً لايعلم الغيب الا الله .

وفي الآية دلالة على ان القدرة قبل الفعل ، لأن قوله « لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير » يفيد أنه كان قادراً لأنه لولم تكن القدرة إلا مع الفعل لوعلم الغيب لما امكنه الاستكثار من الخير وذلك خلاف الآية .

وقوله تعالى « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » معناه لست الا مخوفاً من العقاب محذراً من المعاصي ومبشراً بالجنة حاثاً عليها غير عالم بالغيب « لقوم يؤمنون » فيصدقون بما اقول ، وخصهم بذلك لانهم الذين ينتفعون بانذاره وبشارته دون من لايصدق به كما قال « هدى للمتقين ».

قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ

دَعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ (١٨٨) فَلَمَّا آتَيهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيهُمَا فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨٩) آيتان .

قرأ اهل المدينة وابو بكر وعكرمة والاعرج « شركاً » بكسر الشين منوناً الباقون بضم الشين على الجمع . وقرا ابن يعمر « فمرت» بتخفيف الراء وهوشاذ .

قال ابوعلي الفارسي :من قرا « شركاً » بكسر الشين منوناً ـ حذف المضاف كأنه اراد جعلا له ذا شرك اي ذا نصيب او ذوي شرك ، ويكون كقول من جمع فالقراءتان يؤلان الى معنى واحد . والضمير في قوله « له » يعود الى اسم الله كأنه قال جعلا لله شركاء .

وقال ابوالحسن : كان ينبغي لمن قرأ ـ بكسر الشين ـ أن يقول جعلا لغيره شركا . وقول من قرا « جعلا له شركاء » يجوز ان يريد جعلا لغيره فيه شركاء ، فحذف المضاف ، فالضمير على هذا ايضاً في « له » راجع الى الله تعالى . وقال ابوعلي يجوز ان يكون الكلام على ظاهره،ولايقدر حذف المضاف في قوله تعالى «جعلاله» وانت تريد لغيره ولكن يقدر حذف المضاف الى شرك فيكون المعنى جعلا له ذوي شرك ، واذا جعلا له ذوي شرك كان في المعنى مثل لغيره شركاً ، فلا يحتاج الى تقدير جعلا لغيره شركاً .

قال ابو علي : ويجوزان يكون قوله تعالى « جعلا له شركاء» جعل احدهما له شركاء او ذوي شرك فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه كما حذف من قوله تعالى «لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » والمعنى على رجل واحد من احد رجلي القريتين . وحكى الازهري ان الشرك والشريك واحد ويكون بمعنى النصيب .

قولـه « هو الذي » كناية عن الله تعالى وإخبار عن الذي خلق البشر من نفس واحدة وهي آدم وخلق منها زوجها يعني حواء.

وقيل : انه خلقهامن ضلع من اضلاعه وبين انه إنما خلقها ليسكن اليها آدم ويأنس بها .

وقوله « فلما تغشاها » معناه لما وطأها وجامعها . وقيل : تغشاها بدنوه بها لقضاء حاجة ، فقضى حاجته منها «حملت » ففي الكلام حذف « حملت حملاخفيفاً » لأن الحمل اول مايكون خفيفاً ، لانه المـاء الـذي يحصل في رحمها . والحمل ـ بفتح الحاء ماكان في الجوف وكـذلك ماكان على نخلة اوشجرة فهو مفتوح . ـ وبكسر الحاء ـ ماكان من الثقل على الظهر .

وقوله تعالى « فمرت به » معناه استمرت به وقامت وقعدت وقيل : شكت له وآلمها ثقلها . ومن خفف الراء اراد شكت ومارت فلم تدر هي حامل ام لا . وقال الحسن أغلاماً ام جارية .

وقوله تعالى « فلما اثقلت » اي صارت ذات ثقل كما يقال اثمر اي صار ذا ثمر ، وذلك قرب ولادتها . « دعوا الله ربهما » يعني آدم وحواء دعوا الله اي سألاه « لئن آتيتنا صالحاً » اي لو أعطيتنا ولداً صالحاً . قال الجبائي : صالحاً يعني سليماً من الآفات صحيح الحواس والآلات. وقال غيره : معنى صالحاً مطيعاً فاعلاللخير « لنكونن من الشاكرين » اي نكونن معترفين بنعمك علينا نعمة بعـد نعمة تسديها الينـا .

وقوله عز وجل « فلما آتاهما صالحاً » يعني فلما آتى الله آدم وحواء ولداً صالحاً جعلا له شركاء ، واختلفوا في الكناية الى من ترجع في قوله « جعلا »:

فقال قوم هي راجعة الى الـذكور والاناث من اولادهما او الى جنسي من اشرك من نسلهما ، وإن كانت الادلة تتعلق بهما . ويكون تقدير الكلام فلما آتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذي تمنياه وطلباه جعل كفار اولادهما ذلك مضافاً الى غير

الله . ويقوي ذلك قوله تعالى « فتعالى الله عما يشركون» فلو كانت الكناية عن آدم وحواء لقال عما يشركان . وإنما اراد تعالى الله عما يشرك هذان النوعان اوالجنسان وجمعه على المعنى . وقد ينتقل الفصيح من خطاب الى خطاب غيره . ومن كناية الى غيرها . قال الله تعالى « إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله » (١) فانصرف من مخاطبة الرسول الى المرسل اليهم ثم قال « وتعزروه وتوقروه » (٢) يعني الرسول ثم قال « وتسبحوه » يعني الله تعالى ، قال الهذلي :

يالهف نفسي كان جده خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر (٣)

ولم يقل وبياض وجهه . وقال كثير :

اسيء بنا او احسني لاملومة لدنيا ولا مقلية إن تقلت (٤)

فخاطبها ثم ترك الخطاب . وقال الاخر :

فدى لك ناقتي وجميع اهلي ومالي إنه منه آتاني

ولم يقل منك اتاني . وليس لاحد ان يقول كيف يكني عمن لم يجر له ذكر ، وذلك ان لنا عنه جوابين :

احدهما ـ انه يجوز ذلك إذا دل الدليل عليه ، كما قال « حتى توارت بالحجاب (٥) ولم يتقدم للشمس ذكر . وقال الشاعر :

لعمرك مايغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر(٦)

ولم يتقدم للنفس ذكر .

والجواب الثاني ـ انه تقدم ذكر ولد آدم في قوله« هو الذي خلقكم من نفس واحدة » واراد بذلك جميع ولد آدم ، وتقدم ايضاً في قوله « فلما آتاهما صالحاً »

(١ ، ٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٨ ـ ٩

(٣) مر هذا البيت في ١ : ٣٥ من هذا الكتاب .

(٤) اللسان (سوأ) (٥) سورة ٣٨ ص آية ٣٢

(٦) اللسان (حشرج)

لان معناه ولداً صالحاً ، ويريد بذلك الجنس . وإن كان لفظه واحداً ، وإذا تقدم مذكوران وعقبا بأمر لايليق بأحدهما وجب ان يضاف الى الاخر ،والشرك لايليق بآدم ، لأنه نبي نزهه الله عن ذلك ، وعن جميع القبائح ، ويلق بكفار ولده ونسله فوجب ان نرده اليهم .

وقال الزجاج وإبن الاخشاد : جعل من كل نفس زوجها كأنه قال وجعل من النفس زوجها على طريق الجنس واضمر لتقدم الذكر .

وقال ابو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : الكناية في جميع ذلك غير متعلقة بآدم وحواء وجعل الهاء في « تغشاها » والكناية في « دعوا الله ربهما ، وآتاهما صالحاً » راجعين الى من اشرك ولم يتعلق بآدم وحواء إلاقوله : « خلقكم من نفس واحدة» والاشارة بذلك الى جميع الخلق . وكذلك قوله « وجعل منها زوجها » ثم خص بها بعضهم ، كما قال « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » (١) فخاطب الجماعة ثم خص راكب البحر ، فكذلك اخبر الله تعالى عن جملة امر البشر بأنهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء ثم عاد الذكر الى الذي سأل الله تعالى ما سأل فلما اعطاه إياه ادعى له الشركاء في عطيته .

وقال قوم: يجوز ان يكون عنى بقوله « هو الذي خلقكم من نفس واحدة» المشركين خصوصاً ، إذ كان كل بني آدم مخلوقون من نفس واحدة كأنه قال : خلق كل احد من نفس واحدة وخلق من النفس الواحدة زوجها ،ومثله كثير نحو قوله عزوجل « فاجلدوهم ثمانين جلدة » (٢) والمعنى فاجلدوا كل واحد منهم . وقال قوم : ان الهاء في قوله : « جعلا له شركاء » راجعة إلى الولد لا إلى الله ويكون المعنى انهما طلبا من الله تعالى امثالا للولد الصالح فاشركا بين الطلبتين، كما يقول القائل: طلبت مني درهما فلما اعطيتكه شركته بآخر أي طلبت آخر مضافاً اليه ، فعلى هذا

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢ (٢) سورة ٢٤ النور آية ٤

يجوز أن تكون الكناية من اول الكلام إلى آخره راجعة إلى آدم وحواء .

فان قيل : فعلى هذا فأي تعلق لقوله « فتعالى الله عما يشركون » بذلك . وكيف ينزه نفسه عن ان يطلب منه ولدآخر ؟ !

قلنا : لم ينزه نفسه عن ذلك وإنما نزهها عن الاشراك به ، وليس يمتنع ان يقطع هذا الكلام عن حكم الاول ، لانه قال بعد ذلك « ايشركون مالايخلق شيئاً وهم يخلقون » فنزه نفسه عن هذا الشرك دون ماتقدم .

فأما الخبر المدعى في هذا الباب ، فلا يلتفت اليه ،لأن الاخبار تبنى على ادلة العقول ، فاذا علمنا بدليل العقل ان الأنبياء لايجوز عليهم المعاصي تأولنا كل خبر يتضمن خلافه او ابطلناه ، كما نفعل ذلك بأخبار الجبر والتشبيه . على ان هذا الخبر مطعون في سنده ، لأنه يرويه قتادة عن الحسن عن سمرة ، وهومرسل ، لأن الحسن لم يسمع من سمرة شيئاً ـ في قول البغداديين ـ ولان الحسن قال بخلاف ذلك فيما روى عنه عروة ـ في قوله عزوجل « فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما » قال هم المشركون . ويعارض ذلك ماروي عن سعيد بن جبير وعكرمة والحسن وغيرهم : من ان الشرك غير منسوب الى آدم وزوجته ، وأن المراد به غيرهما على ان في الخبر اشركا إبليس اللعين فيما ولد لهما بأن سمياه عبد الحرث، والاية تقتضي انهم اشركوا الاصنام التي لاتخلق وهي تخلق ، والتي لاتستطيع ضرّاً ولا نفعاً وليس لابليس في الآية ذكر ، ولو كان له ذكر لقال أتشركون من . وقال في آخر القصة « ألهم ارجل يمشون بها ... » وكذا ، ولايليق ذلك بابليس . ويقوي ان الاية مصروفة عن ادم الى ولده انه قال « فلما تغشاها » ولو كان منسوقاً على النفس الواحدة لقال فلما تغشتها، لان ذلك هو الأجود والأفصح وإن جاز خلافه. وحكى البلخي عن قوم انهم قالوا : لو صح الخبر لم يكن في ذلك الا إشراكاً في التسمية ، وليس ذلك بكفر ولامعصية كبيرة ، وذهب اليه كثير من المفسرين واختاره الطبري .

قوله تعالى :

أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٠) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩١) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٢) ثلاث آيات

قرأ نافع « لايتبعوكم » وفي الشعراء « يتبعهم » بالتخفيف . الباقون بالتشديد وهما لغتان ، وبالتشديد اكثر . قال ابو زيد تقول : رأيت القوم فأتبعتهم إتباعاً إذا سبقوك فأسرعت نحوهم ومروا علي فاتبعتهم اتباعاً إذا ذهبت معهم ولم يسبقوك، قال : وتبعتهم اتبعهم تبعاً مثل ذلك .

وفي الآية توبيخ من الله وتعنيف للمشركين ، وإن خرج مخرج الاستفهام، بأنهم يعبدون مع الله جماداً لايخلق شيئاً من الاجسام ولا ما يستحق به العبادة ،وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم. ونبههم بذلك على انه لاينبغي أن يعبد إلا من يقدر على إنشاء الاجسام واختراعها وخلق اصول النعم التي يستحق بها العبادة ، وان ذلك لايقدر عليه إلا الله تعالى الذي ليس بجسم ، والقادر لنفسه ، ثم بيّن أن هذه الاشياء التي يعبدونها ويتخذونها آلهة واشركوا بها مع الله تعالى لاتقدر لمن عبدها واتخذها إلهاً على نفع ولاعلى ضرّ ولا أن ينصروهم ، ولا ان ينصروا انفسهم إن ارادبهم غيرهم سوءاً ، ومن هذه صورته فهو على غاية العجز ، ولايجوز أن يكون إلهاً . وإنما يجب ان يكون كذلك من يقدر على الضرّ والنفع ونصرة اوليائه .

وقوله تعالى « وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم » معناه إن الاصنام والأوثان

التي كانوا يعبدونها ويتخذونها آلهة إن دعوها إلى الهدى والرشد لم يستمعوا ذلك ، ولاتمكنوا من اتباعهم ، لأنها جمادات لاتفقه ولاتعقل ـ في قول ابي وغيره ـ وقال الحسن: إن ذلك راجع الى قوم من المشركين قد عموا بالكفر فهم لايعلمون .

ثم قال « سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون » يعني سواء عندها دعاؤها والسكوت عنها لكونها جماداً لاتعقل وإنما قال « أم انتم صامتون » ولـم يقل أم صمتم ليكون في مقابلة «ادعوتموهم» فيفيد الماضي والحال لأن المقابلة دلت على معنى الماضي ، واللفظ يدل على معنى الحال ، وعليه أكثر الكلام يقولون : سواء عليّ أقمت ام قعدت ، ولايقولون أقمت أم انت قاعد ، قال الشاعر :

سواء إذا ما اصلح الله امرهم   علينا ادثر مالهم ام اصارم (١)

وانشد الكسائي :

سواء عليك النفر ام بت ليلة   بأهل القبا من نمير بن عامر (٢)

وانشد بعضهم :   (ام انت بائت)

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٣) آية.

إنما قال « إن الذين » وهو يريد الاصنام ، لأنها لما كانت عندهم معبودة تنفع وتضرّ ، جاز أن يكني عنها بما يكنى عن الحيّ ، كما قال في موضع آخر « بل فعله كبيرهم

---

(١) معاني القرآن ١ /٤٠١ « الدثر » المال الكثير . و « اصارم » جمع اصرام وهو الفريق القليل العدد ويقصد ـ هنا ـ الفريق من الابل . واصله اصاريم، وحذف الياء لضرورة الشعر .

(٢) معاني القرآن ١ /٤٠١ . يريد النفر من منى .

هذا فاسألوهم »(١) ولم يقل فعله كبيرها فاسألوها ، وقال « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » (٢) لما أضاف السجود إليها جمعها بالواو والنون التي تختص بالعقلاء ومعنى « من دون الله » غير الله ، كأنه قال كل مدعو إلهاً غير الله « عباد امثالكم » و« من » لابتداء الغاية في أن الدعاء دون دعاء الله إلى حيث انتهى إنما هو لعباد الله. ثم قال « عباد أمثالكم » فانما سماها كذلك لأن التعبد التذلل ، فلما كانت الاصنام تنصرف على مشيئة الله ، وهي غير ممتنعة عما يريد الله تعالى بها كانت بذلك في معنى العباد . ويقال عبدت الطرق إذا وطئته حتى تقرر وسهل سلوكه . ومنه قوله تعالى « وتلك نعمة تمنها علي ان عبّدت بني اسرائيل » (٣) اي ذللتهم واستخدمتهم ضروباً من الخدم . وقال الجبائي وغيره : معنى « عباد » أي املاك لربهم كما انتم عبيد له ، فان كنتم صادقين في ادعائكم انها آلهة فادعوهم فليستجيبوا لدعائكم ، وهذه لام الأمر على معنى التهجين كما قال « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٤) فاذا لم يستجيبوا لكم ، لانها لاتسمع دعاءكم فاعلموا انها لاتنفع ولاتضرّ ولا تستحق العبادة .

فأما من قال الاصنام تعبد الله على الحقيقة كما يعبد العقلاء ، وان كنا لا نفقه ذلك فقد تجاهل ، لأن العبادة ضرب من الشكر ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . والعبادة وان كانت شكراً فانه يقارنها خضوع وتذلل . وكل ذلك يستحيل من الجماد .

ويحتمل من حيث انهم توهموا انها تضر وتنفع فقيل لهم ليس يخرج هؤلاء بذلك عن حكم الله تعالى . وقال الحسن : معناه إنها مخلوقة امثالكم . والعبد المملوك من جنس مايعقل ، لأن الثوب مملوك ، ولايسمى عبداً .

وقيل الدعاء الأول في الآية تسميتهم الاصنام آلهة كأنه قال « إن الذين تدعون »

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٦٣ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤
(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٢ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٦٤

آلهة من دون الله فاطلبوا منهم المنافع وكشف المضار ، فاذا كان ذلك ميؤساً منها ، فعبادتها جهل وسخف . وقوله « إن كنتم صادقين » قال الحسن : معناه في أنهم آلهة.

قوله تعالى .

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٤) آية

قرأ ابو جعفر « يبطشون » ويبطش ـ بظم الطـاء ـ حيث وقـع . الباقون بكسرها. وهما لغتان ، والكسر افصح واكثر . وقرأ « كيدوني» بياء في الحالين الوقف والوصل الحلواني عن هشام ويعقوب وافقهما في الوصل أبو عمرو وابو جعفر واسماعيل والدحواني عن هشام . الباقون بغير ياء في الحـالين . و« تنظروني » بياء في الحالين عن يعقوب .

قال ابو علي الفارسي : الفواصل وما أشبهها من الـكلام التام تجري مجرى القوافي لاجتماعهما في أن الفاصلة آخر الآية ، كما ان القافية آخر البيت وقـد الزموا الحذف في هذا الباب في القوافي كقوله :

فهل يمنعن ارتيـادي البلاد من قـدر الموت أن يأتين

والياء التي هي لام الكلمة كذلك نحو قوله :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المصلّ(١)

أكد الله تعالى في هذه الآية الحجة على المشركين في انه لاينبغي لهم أن يعبدوا هذه الاصنام ولايتخذونها آلهة ، فقال « ألهم ارجل يمشون بها » . لأن لفظه وإن

(١) قائله لبيد . اللسان « لمس » والأحلاس ملازمة المنزل وعـدم التدخل بشؤون الدولة . و« المصل » بمعنى الخاسر الذي ليس له شيء في الامر .

كان لفظ الاستفهام ، فالمراد بـه الانكار ، اي ليس لهم ارجل يمشون بها ولالهم أيد يبطشون بها ولا اعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فعرفهم بـذلك انهم دون منزلتهم وأن الكفار مفضلون عليهم بما انعم الله عليهم من هـذه الحواس التي لم تؤت الاصنام . واذا كنتم مفضلين عليها وكنتم أقدر على الاشياء وأعلم ، فكيف يجوز لكم ان تتخذوها مع ذلك آلهة لأنفسكم .

وقوله تعالى « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » معناه ادعواهذه الاوثان والاصنام التي تزعمون أنها آلهة وتشركونها في اموالكم فتجعلون لهاحظاً من الاموال والمواشي وتوجهون عبادتكم اليها اشركاباالله لها .واسألوهم ان يضروني وان يكيدوني معكم ، ولاتؤخروا ذلك إن قدروا عليه، ومتى لم يتمكنوا من ذلك فتبينوا انها لاتستحق العبادة ، لانها في غاية الضعف والعجز .

قوله تعالى :

إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ

(١٩٥) آية بلاخلاف .

روى ابن خنيس عن السوسي « ان وليّ الله » بياء مشددة مفتوحة .الباقون بثلاث ياءات الأولى ساكنة والثانية مكسورة والثالثة مفتوحة ـ على الاضافة ـ ومن قرأ مشدداً حذف الوسطى وادغم الاولى في الثالثة . ولايجوز إدغام الثانية في الثالثة ، لأنها متحركة وقبلهاساكن لايمكن الأدغام .

امر الله تعالى نبيهﷺ ان يقول للمشركين «ان وليي الله الذي » يحفظني وينصرني ويحوطني ويدفع شركم عني هو الله الذي خلقني وإياكم جميعاًويملكني ويملككم الذي نزل القرآن ، وهوينصر الصالحين الذين يطيعونه ويجتنبون معاصيه تارة بالحجة واخرى بالدفع عنهم .

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٦) آية .

هذا عطف على الاية الاولى ، فكأنه قال قل وليي الله القادر على نصرتي عليكم وعلى من اراد بي ضرّاً . والذين تتخذونهم انتم آلهة لا يقدرون على ان ينصروكم ولا أن يدفعوا عنكم ضرّاً . ولا يقدرون ان ينصروا أنفسهم ايضاً لو ان إنساناً اراد بهم سوءاً من كسر اوغيره .

وإنما كرر هذا المعنى لأنه ذكره في الاية التي قبلها على وجه التقريع ، وذكره ههنا على وجه الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ممن لا تجوز ، كأنه قال : إن ناصري الله ولا ناصر لكم ممن تعبدون .

وانما قال تدعون من دونه وهم يدعونهم معه ، لأن معنى من دونه من غيره ومع ذلك فانه بمنزلة من افرد غيره بالعبادة في عظم الكفر والشرك .

قوله تعالي

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٧) آية .

قال الفراء والزجاج : المعنى إن دعوتم هؤلاء الذين تعبدونهم من الأصنام الى صلاح ومنافع لا يسمعوا دعاءكم ، وتراهم فاتحة اعينهم نحوكم على ماصورتموهم عليه من الصور ، وهم مع ذلك لا يبصرونكم .

قال الجبائي : جعل الله انفتاح عيونهم في مقابلتهم نظراً منهم اليهم مجازاً ، لان النظر حقيقة تقلب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته وذلك لا يتأتى في الجماد .

ويقال في اللغة : تناظر الحائطان إذا تقابلا و كلشيء قابل غيره يقال : نظر اليه.

وقال الحسن: المعنى وإن تدع يامحمد المشركين ، فلم يجعل الكناية عن الاوثان

وقال الرماني: الكناية عن الاوثان لأنهم جعلوها تضر وتنفع ، كما يكون ذلك فيما يعقل .

وفي الآية دلالة على ان النظر غير الرؤية، لانه تعالى أثبت النظر ونفى الرؤية وقوله « وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون » وجه الخطاب الى النبي ﷺ ولو كان امره بخطاب المشركين بمعنى قل لهم لقال وترونهم . وقال السدي ومجاهد: اراد به المشركين ، فعلى هذا يكون قوله « وإن تدعوهم » خطاباً للنبي ﷺ انه ن دعا المشركين الى الهدى لايسمعوا بمعنى لايقبلوا وهم يرونه ولاينتفعون برويته.

قوله تعالى :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٨) آية

امر الله تعالى نبيه أن يأخذ مع الناس بالعفو ،وهو التساهل فيما بينه وبينهم وقبول اليسير منهم الذي سهله عليهم ويسر فعله لهم ، وان يترك الاستقصاء عليهم في ذلك ، وهذا يكون في مطالبة الحقوق الواجبة لله تعالى وللناس وغيرها . وهو في معنى الخبر عن النبي ﷺ « رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء » . ولا ينافي ذلك ان لصاحب الحق والديون وغيرها استيفاء الحق وملازمة صاحبه حتى يستوفيه ، لأن ذلك مندوب إليه دون ان يكون واجباً . وقد يكون العفو في قبول العذر من المعتذر وترك المؤاخذة بالاساءة .

وقوله « وامر بالعرف » يعني بالمعروف ، وهو كل ما حسن في العقل فعله او في الشرع ، ولم يكن منكراً ولاقبيحاً عند العقلاء .

وقوله عزوجل « وأعرض عن الجاهلين » امر بالاعراض عن الجاهل :السفيه الذي إن كلمه سفه عليه وآذاه بكلامه . وأمره إذا أقام عليهم الحجة وبين بطلان

ماهم عليه من الكفر والمعاصي أن يعرض عنهم ولايجاوبهم فيمكروه يسمعه ، صيانة لنفسه عنهم . وقال عطا العفو : الفضل . وقال مجاهد: العفو من اخــلاق الناس ، وعفو أموالهم من غير تجسس عليهم . وقال : ماعفــا لك من أموالهم ، وذلك قبل فرض الزكاة . وقال السدي : نسخ ذلك بآية الزكاة. وقال ابن زيد: امره بالاعراض عنهم ثم نسخ بقوله « واغلظ عليهم » (١) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « وامر بالعرف » أن جبرائيل قال لــه معناه تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

قوله تعالى :

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٩٩) آية .

النزغ ادنى حركة تقول : نزغته اذا حركته . والمعنى ان نالك يامحمد من الشيطان ادنى حركة من معاندة وسوء عشرة « فاستعذ بالله » اي سل الله ان يعيذك، ويحفظك منه فانه سميع للمسموعات وعالم بالخفيات يسمع دعاء من يدعوه ويعلم دعاءه ومايستحقه بذلك من الله .

والنزغ الفساد ايضاً يقال : نزغ فلان بيننا اي افسد ، ومنه قوله تعالى :« نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » (٢) ونزغ ينزغ ونغز ينغز اذا افسد . وموضع ينزغنك جزم بـ (إن) التي للجزاء الا انه لايبين فيه الاعراب ، لأنه مبني مع نون التأكيد على الفتح واذا كانت مشددة لابد من تحريك ماقبلها في الجزم لالتقاء الساكنين والنزغ الازعاج بالاغواء واكثر مايكون ذلك عند الغضب واصل النزغ الازعاج بالحركة نزغته انزغه نزغاً .

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٤ وسورة ٦٦ التحريم آية ٩

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٠) آية بلاخلاف .

قرأ ابن كثيرواهل البصرة والكسائي « طيف » بغير الف وبغير همز. الباقون بألف بعدها همزة . قال الحسن : الطيف في كلام العرب اكثر من طائف . وقال ابو زيد : : طاف الرجل يطوف طوفاً إذا اقبل وادبر واطاف يطوف طوفاً إذا جعل يستدبر القوم ويأتيهم من نواحيهم . وطاف الخيال طيفاً إذا ألم في المنام . وقال ابو عبيدة : طيف من الشيطان بأن يلم به ، لما يقال منه : طفت اطيف طيفاً .وقال قوم : الطائف ماأطاف بك من وسوسة الباطل . والطيف اللمم والمس . وقال ابوعمرو ابن العلا : الطيف الوسوسة . وحكى الرماني : ان الطيف اصله طوف من الواو مثل سيد وميت . فخفف ،وانشدابو عبيدة للاعشى في الالمام .

ونصبح عن غب السرى وكأنما ألم بها من طائف الجن اولق(١)

وكأن معنى الآية إذا مسهم من ينظر لهم نظرة من الشيطان. ويكون طائف مثل العاقبة والعافية ، مما جاء المصدر منه على فاعل وفاعلة ، فالطيف اكثر لان المصدر على هذا الوزن اكثر منه على وزن فاعل ، والطائف كالخاطر . وقال الحسن معناه يطوف عليهم الشيطان بوساوسه ، فيقبل بعض وحبه من يعصي الله . وقوله « تذكروا » أي تذكروا ماعندهم من المخرج والتوبة « فاذا هم مبصرون » قد تابوا . وقال مجاهد: هم المؤمنون إذا مسهم طيف أي غضب تذكروا . وقال سعيد ابن جبير : هو الرجل يغضب الغضب فيذكر فيكظم غيظه . وقال مجاهد : هوالرجل يهم بالذنب فيذكر الله تعالى فيتركه .

(١) ديوانه ١٤٧ ومجاز القرآن ٢٣٦/١ واللسان «طيف»

اخبر الله تعالى بأن الذين يتقون الله باجتناب معاصيه إذا وسوس اليهم الشيطان واغراهم بمعاصيه تذكروا، فعرفوا ماعليهم من العقاب بذلك فيجتنبونه ويتركونه. وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الطيف الغضب . وقال ابن عباس والسدي : هي الزلة التي إذا ارتكبها تاب منها . و « اذا » الأولى بمنزلة الجزاء ولها جواب ، والثانية بمعنى المفاجأة كقولك خرجت ، فاذا زيد . وقال ابن عباس الطيف النزغ . وقال أبو عمرو بن العلا : الوسوسة . وقال غيره هو اللمم .

قوله تعالى :

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠١) آية.

قرىء « يمدونهم » بضم الياء وكسر الميم عن نافع . الباقون بفتح الياء وضم الميم ومعنى الآية أن إخوان الشياطين من الكفار يمدهم الشياطين في الغي، ومعناه يزيدونهم في الغواية ، والاضلال ، ويزينون لهم ماهم فيه .

ثم اخبر ان هؤلاء مع ذلك « لايقصرون » كما يقصر الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان . وهو قول ابن عباس والسدي وابن جريج وابي علي ، وأكثر المفسرين . وقال مجاهد :هم إخوان المشركين من الشياطين . وقال قتادة قوله « ثم لايقصرون » يعني الشياطين « لايقصرون » عن استغوائهم ولايرحمونهم .

وقصرت واقصرت لغتان، والقراءة على لغة اقصرت، ومن ضم الياء من « يمدونهم » فلقوله تعالى « إنما نمدهم به من مال وبنين » (١) وقوله عز وجل « وأمددناهم بفاكهة » (٢) وقوله « اتمدونني بمال » (٣) ومن فتح الياء فلقوله تعالى « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (٤) . وأمددت فيما يستحب ، ومددت فيما يكره . قال ابوزيد : امددت القائد بالجند وامددت الدواة وامددت القوم بالمال والرجال . وقال ابو عبيدة

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥٥　　(٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢٢

(٣) سورة ٢٧ النمل آية ٣٦　　(٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥

« يمدونهم في الغي » اي يزينون لهم يقال : مد له في غيه . هكذا يتكلمون به ووجه قراءة نافع قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » .

قوله تعالى :

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٢) آية .

معنى الآية انك يا محمد إذا لم تأتهم بآية يقترحونها ، قالوا : لم لا تطلبها من الله فيأتينا بها . وقوله « لولا » معناه هلا « اجتبيتها » معناه اختلقتها واقتلعتها من قبل نفسك في قول الزجاج ، والفراء ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد ، وابن عباس .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وقتادة : معناه هلا اخذتها من ربك وتقبلتها منه . ويكون الاجتباء بمعنى الاختيار . وقال الفراء : اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته إذا اقتعلته من قبل نفسك . وقال ابو عبيدة : اخترعته مثل ذلك . وقال ابو زيد : هذه الحروف تقولها العرب للكلام يبتدؤه الرجل لم يكن اعده قبل ذلك في نفسه .

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم إني لست آتي بالآيات من عندي وإنما يفعلها الله ويظهرها على حسب ما يعلم من المصلحة في ذلك لا بحسب اقتراح الخلق ، وإنما اتبع ما يوحى إلي .

وقوله « هذا بصائر من ربكم » يعني هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة من ربكم . والبصائر جمع بصيرة ، وهي البراهين الواضحة والحجج النيرة . وتكون البصائر جمع بصيرة . وهي طريق الدم . والبصيرة الرأس ايضاً . وجمها بصائر ، ومعناه ظهور

الشيء وبيانه. وإنما قال « هذا بصائر »لأن المراد بهالقرآن ، وقوله تعالى «وهدى» يعني بيان وحجة ورحمة لقوم يؤمنون ، فأضافه اليهم لأنهم هم المنتفعون بها، دون غيرهم من الكفار ، وان كان بياناً للكل . وقال الجبائي قوله « هذا بصائر »إشارة إلى الادلة الدالة على توحيده وصفاته وعدله وحكمته وصحة نبوة النبي وصحة ماأتى به النبي ﷺ .

قوله تعالى:

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٣) آية بلا خلاف.

امر الله تعالى المكلفين بأنه إذا قرىء القرآن ان يسمعوا له ويصغوا إليه ليفهموا امعانيه ويعتبروا بمواعظه وان ينصتوا لتلاوته ويتدبروه ولايلغوا فيه ليرحمهم بذلك ربهم ، وباعتبارهم به وإتعاضهم بمواعظه .

واختلفوا في الوقت الذي أمروا بالانصات والاستماع:

فقال قوم :امروا حال كون المصلي في الصلاة خلف الامام الذي يأتم به.وهو يسمع قراءة الامام ، فعليه أن ينصت ولايقرأ ويتسمع لقراءته .

ومنهم من قال : لأنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض،وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم كم صليتم فيخبرونه وكان مباحاً فنسخ ذلك ، ذهب اليه عبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة والزهري وعطا وعبيد الله بن أبي عمير ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبيروالضحاك وابراهيم وعامر الشعبي وابن عباس وابن زيد ، واختاره الجبائي .

وقال قوم : هو امر بالانصات للامام إذا قرأ القرآن في خطبته . روي ذلك عن مجاهد . **وقال قوم** : هو امر بذلك في الصلاة والخطبة . وروي ذلك عن مجاهد

مثل ذلك فبنوا آدم بذلك اولى واحق ولهم أوجب والزم .

قال الجبائي معنى « عندربك » إنهم في المكان الذي لايملك فيه الحكم بين الخلق سواه لأنه ملك عباده الحكم في الارض على وجه حسن .قال : ويجوز ان يكون المراد بذلك أنهم رسله الذين يبعثهم في أمور الانس ، واذا كانوا رسلهجاز أن ينسبهم الى نفسه فيقول : إنهم عنده ، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير ، ولا يراد به في مكانه ، ولا بالقرب منه ، وإنما يراد انهم اصحابه وإن كانوا متفرقين في البلاد . وقال الزجاج : من قرب من رحمةالله وفضله فهو عند الله اي قريبمن تفضله وإحسانه .

وهذه اول سجدات القرآن ، وهي ـ عندنا ـ مستحبة غير واجبة وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .

وسبب نزول الآية ان قريشاً لما قالت : ومالرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟! نزلت هذه الآية .

٨ ـ سورة الانفال

هذه السورة مدنية في قول قتادة وابن عباس ومجاهد وعثمان ، وقال : هي اول ما نزل على النبي ﷺ بالمدنية ، وحكي عن ابن عباس : انها مدنية إلا سبع آيات: أولها « وإذ يمكر بك الـذين كفروا) إلى آخر سبع آيات بعدها . وهي خمس وسبعون آيـة في الكوفي ، وسبع وسبعون آيـة في الشامي ، وست وسبعون في المدنيين والبصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) آية.

اختلف المفسرون في معنى الأنفال ـ ههنا ـ فقال بعضهم : هي الغنائم التي غنمها النبي ﷺ يوم بدر، فسألوه لمن هي ؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم : هي لله ولرسوله ـ ذهب اليه عكرمة ومجاهد والضحاك وابن عباس وقتادة وابن زيد ـ وقال قوم : هي أنفال السرايا ـ ذهب اليه علي بن صالح بن يحيى ـ وقال قوم : وهو ماشـذ من المشركين الى المسلمين من عبد اوجارية من غير قتال او ما اشبه ذلك ـ عن عطا ـ وقال : هو للنبي ﷺ خاصة يعمل به ما يشاء .

وروي عن ابن عباس ـ في رواية اخرى ـ انه ماسقط من المتاع بعد قسمة

الغنائم من الفرس والدرع والرمح . وفي رواية اخرى - أنـه سلب الرجل وفرسه ينفل النبي ﷺ من شاء .

وقال قوم : هو الخمس ، روي ذلك مجاهد ، قال :قال المهاجرون : لِمَ يرفع منا هذا الخمس ويخرج منا ؟ فقال الله : هو لله والرسول .

وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام (أن الانفال كل ما اخذ من دار الحرب بغير قتال إذا انجلى عنها أهلها) . ويسميه الفقهاء فيئاً ، وميراث من لاوارث لـه ، وقطائع الملوك إذا كانت في أيديهم من غير غصب ، والآجام وبطون الأودية والموات وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه . وقالا : هو لله وللرسول وبعده للقائم مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالح نفسه ومن يلزمه مؤنته ليس لاحـد فيه شيء . وقالا : إن غنائم بدر كانت للنبي ﷺ خاصة ، فسألوه أن يعطيهم .

وفي قراءة اهل البيت : « يسألونك الأنفال » فأنزل الله تعالى قولـه « قـل الأنفال لله والرسول » ولذلك قال « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » ولو سألوه عن موضع الاستحقاق لم يقل لهم : اتقوا الله .

والانفال جمع نفل والنفل هو الزيادة على الشيء ، يقال : نفلتك كذا إذا زدته قال لبيد بن ربيعة :

إن تقوى ربنا خير نفل وباذن الله ريثي والعجل(١)

والنفل هو ما أعطيته المرء على البلاء ، والفناء على الجيش على غير قسمة . و كل شيء كان زيادة على الأصل فهو نفل ونافلة ، ومنه قيل لولد الولد : نافلة ، ولما زاد على فرائض الصلاة نافلة .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال قوم : نزلت في غنائم بدر ، لأن النبي ﷺ كان نفل أقواماً على بلاء، فأبلى اقوام وتخلف آخرون مع النبي ﷺ فلما انقضى الحرب اختلفوا ، فقال قوم : نحن اخذنا ، لأنا قتلنا . وقال آخرون:

(١) تفسير القرطبي ٨/٣٦١ واللسان (نفل) ومجاز القرآن ١/ ٢٤٠ .

نحن احطنا بالنبي ﷺ ولو أردنا لأخذنا. وقال آخرون: نحن كنا وراءكم نحفظكم فأنزل الله هذه الآية يعلمهم أن ما فعل فيها رسول الله ﷺ ماض جائز ـ ذهب اليه ابن عباس وعكرمة وعبادة بن الصامت ـ.

وقال قوم: نزلت في بعض اصحاب النبي ﷺ سأل من المغنم شيئاً قبل قسمتها فلم يعطه إياها إذ كان شركاً بين الجيش، فجعل الله جميع ذلك للنبي ﷺ روي ذلك عن سعد بن مالك، وهو ابن ابي وقاص. قال: وكان سيف سعد بن العاص لما قتله اخوته، وكان يسمى ذا الكثيفة، قال سعد أتيت النبي ﷺ فسألته سيفاً فقال: ليس هذا لي ولا لك فوليت عنه. قال: فاذا رسول الله ﷺ خلفي فقال: إن السيف قد صار لي فأعطانيه، ونزلت الآية.

وروي عن ابي أسيد مالك بن ربيعة قال: اصبت سيفا ابن عابد، وكان يسمى المرزبان فألقيته في النفل، فقام الأرقم بن ابي الأرقم المخزومي، فسأل رسول الله فأعطاه إياه.

وقال آخرون: إن أصحاب النبي ﷺ سألوه أن يقسم غنيمة بدر عليهم يوم بدر، واعلمهم الله أن ذلك لله ولرسوله دونهم ليس لهم فيه شيء.

وقالوا معنى «عن» ههنا معنى «من» وكان ابن مسعود يقرأه «يسألونك الانفال» على هذا التأويل. وهذا مثل ما رويناه عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام وروي ذلك عن الأعمش، والضحاك عن ابن مسعود، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جريج وعمرو ابن شعيب عن ابيه عن جده وعن الضحاك، وعكرمة، واختاره الطبري وهو قول الحسن. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: أيما سرية خرجت بغير إذن إمامها فما أصابت من شيء، فهو غلول. وقال الزجاج: كانت الغنائم قبل النبي ﷺ حراماً، فسألوا النبي عن ذلك، فنزلت الآية، وهذا بعيد.

واختلفوا هل هي منسوخة أم لا؟

فقال قوم: هي منسوخة بقوله «واعلموا انما غنمتم من شيء ...» الاية. وروي

ذلك عن مجاهدوعكرمة والسدي وعامر الشعبي واختاره الجبائي .

وقال آخرون : ليست منسوخة ، ذهب اليه ابن زيد واختاره الطبري ، وهو الصحيح ، لأن النسخ محتاج إلى دليل ، ولاتنافي بين هذه الآية وبين آية الخمس ، فيقال انها نسختها .

واختلفوا هل لأحد بعد النبي ﷺ ان ينفل احداً ــ ذكرناه في الخلاف ــ فقال سعيد بن المسيب لانفل بعد رسول الله . وبه قال عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وعندنا وعند جماعة من الفقهاء واختاره الطبري : أن للأئمة أن يتأسوا بالنبي ﷺ في ذلك .

وقوله « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » امر من الله للمكلفين أن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته وان يصلحوا ذات بينهم .

واختلفوا في معناه ، فقال قوم : هو ان النبي ﷺ كان ينفل الرجل من المؤمنين سلب الرجل من الكفار إذا قتله ، فلما نزلت الاية امرهم أن يرد بعضهم على بعض ، ذهب اليه قتادة وابن جريج .

وقال قوم : هذا نهي من الله للقوم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة يوم بدر ، ذهب اليه مجاهد وابن عباس وسفيان والسدي .

واختلفوا لم قال « ذات بينكم » فأنث،والبين مذكر ؟ فقال قوم :أراد « ذات بينكم » للحال التي للبين، كمايقولون ذات العشاء يريدون الساعة التي فيها العشاء ، ولم يصفوا مذكراً لمؤنث ولامؤنثاً لمذكر . قال الزجاج : اراد الحال التي يصلح بها أمر المسلمين . وقال الأخفش : جعله « ذات » لأن بعض الاشياء يوضع عليه اسم المؤنث وبعضه يذكر مثل الدار والحائط انث الدار وذكر الحائط .

وقوله « واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » امرمن الله للخلق ان يطيعوه ولايعصوه ، ويطيعوا رسوله فيما يأمرهم به إن كانوا مصدقين لرسوله فيما يأتيهم به من قبل الله ، لأنهم متى لم يطيعوه ولم يقبلوا منه لم يكونوا مؤمنين .

وروي : ان رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر بينهم عن تواء ، يعني سواء ، ولم يخمس وإنما خمس بعد ذلك .

وقال الزجاج : « ذات بينكم » معناه حقيقة وصلكم ، والبين الوصل ، لقوله تعالى « لقد تقطع بينكم » اي وصلكم .

قوله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

ثلاث آيات بلا خلاف .

استدل ـ من قال : إن الايمان يزيد وينقص وان أفعال الجوارح قد تكون إيماناً ـ بهذه الآيات ، فقالوا : نفى الله ان يكون المؤمن إلا من إذا ذكر الله وجل قلبه وإذا تليت عليه آياته أي قرئت زادتهم الاية إيماناً ، بمعنى أنهم يزدادون عند تلاوتها ايماناً ، وانهم على الله يتوكلون في جميع أمورهم « الذين يقيمون الصلاة » بمعنى يأتون بها على ما بينها النبي ﷺ وينفقون مما رزقهم الله في ابواب البر . وإخراج الواجبات من الزكاة وغيرها . ثم وصفهم بأن هؤلاء الذين وصفهم بهذه الأوصاف هم المؤمنون حقاً . يعني الذين اخلصوا الايمان ، لا كمن كان له اسمه على الظاهر ، وإن لهم الدرجات عند الله وهي المنازل التي يتفاضل بها بعضهم على بعض وإن لهم المغفرة والرزق الكريم فدل على أن من ليس كذلك ليس له ذلك .

ومن خالف في ذلك قال : هذه اوصاف افاضل المؤمنين ، وخيارهم ، وليس

يمتنع أن يتفاضل المؤمنون في الطاعات وان لم يتفاضلوا في الايمان، يبين ذلك انه قال في اول الاية « اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ووجل القلب ليس بواجب بلا خلاف ، وانما ذلك من المندوبات . وقوله « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون » لانه اذا صدق بآية آية انها من عند الله ، فلا شك ان معارفه تزداد وإن لم يزد بفعل الجوارح .

وقوله « الذين يقيمون الصلاة » يدخل في ذلك الفرائض والنوافل ، ولاشك أن الاخلال بالنوافل لايخرج من الايمان ولاينقص منه عند الأكثر . والانفاق أيضاً قد يكون بالواجب والنفل. والاخلال بما ليس بواجب منه لايخرج من الايمان بلا خلاف . وقوله « أولئك هم المؤمنون حقاً » يبين ذلك انه اشار به : الى خيارهم وافاضلهم ، لأن هذه اوصافهم فمن اين ان غيرهم وإن كان دونهم في المنزلة لايكون مؤمناً ؟!

وقال ابن عباس : اراد ان المنافق لايدخل قلبه شيء من ذلك عند ذكر الله. وأن هذه الأوصاف منتفية عنه .

والوجل والخوف والفزع واحد، يقال وجل فلان يوجل وجلا ، ويقال ياجل وييجل وأفصحها يوجل . قال الله تعالى « لاتوجل » أي لاتخف وقال الشاعر :

لعمرك ماادري وإني لأوجل　　　على أينا تعدو المنية أول (١)

وإنما وصفهم بالوجل ـ ههنا ـ وباطمئنان القلوب في قوله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله »(٢) لأن الوجل يكون بالخوف من عقابه وبارتكاب معاصيه. والاطمئنان بذكر الله معناه : بنعمه وعدله ، ووصفهم بالوجل يكون في دار الدنيا ، وأما في الآخرة فانه « لايحزنهم الفزع الأكبر » (٣)

(١) قطر الندى ٢٣ الشاهد ٦ باب المعرب والمبني .

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٣٠　　(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٠٣

وقال الربيع : معنى زادتهم إيماناً زادتهم حسنة ، والدرجات عند الله ، قال قوم : معناه أعمال رفيعة وفضائل استحقوها في أيام حياتهم ـ ذهب اليه مجاهد ـ وقال غيره : معناه لهم مراتب رفيعة . والرزق الكريم ، قال قتادة : هو الجنة . وقال غيره : هو ماأعد الله لهم ووعدهم به في الجنة من انواع النعيم والمغفرة يعني لذنوبهم ومعاصيهم سترها الله عليهم .

وقوله « حقاً » منصوب بمعنى دلت عليه الجملة ، وهي قوله « اولئك هم المؤمنون » والمعنى احق ذلك حقاً . والتوكل هو الثقة بالله في كل امر يحتاج اليه تقول وكلت الأمر الى فلان ، إذا جعلت اليه القيام به ، ومنه الوكيل القائم بالامر لغيره . والكريم القادر على النعم من غير مانع ، ولم يزل الله كريماً بهذا المعنى .

قوله تعالى:

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) آيتان

من مد الف (كما) فلأن المد يقع في حروف اللين، وهي الالف والواو والياء، فاذا كان الحرف منها قبل همزة ، وكانت الواو والياء ساكنتين والالف لاتكون الا ساكنة مدوا الالف كألف هذه الكلمة ، وكقوله « من السماء من ماء » (١) بمد الف السماء والف ماء ، والياء نحو قوله « وماينطق عن الهوي ان هو الا وحي يوحي » (٢) بمد الياء من الهوي ، والواو نحو قوله « قالوا أأنت فعلت هذا »(٣) بمد الواو .

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٦٤
(٢) سورة ٥٣ النجم آية ٣ ـ ٤
(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ٦٢

واختلفوا في الكاف من قوله « كما » إشارة الى ماذا ؟ فقال الزجاج وغيره : قوله « كما أخرجك » معطوف على قوله « قل الأنفال لله والرسول » والمعنى في ذلك أن رسول الله لما جعل النفل لمن جعله له وسلمه المؤمنون لذلك على كراهية بعضهم له كراهية طباع ، فقال « الأنفال لله والرسول » فامض لذلك ، وإن كرهه قوم كما مضيت « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » وهم كارهون أيضاً لأنهم كانوا كرهوا خروجه الكراهية التي ذكرناها ، وليس على المؤمنين في هذه الكراهية حرج ، إذا سلموا الأمر لله ورسوله وعملوا بما فيه طاعتهما . وقال غيره : ذلك معطوف على قوله « يسألونك عن الأنفال » كأنه قال : يسألونك الأنفال كما جادلوك عند ما اخرجك ربك من بيتك ، فذلك قوله « يجادلونك في الحق بعد ماتبين » . وقال قوم : يجوز أن يكون الكاف عطفاً على قوله « اولئك هم المؤمنون حقاً ... كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » . وقال بعضهم « كما أخرجك ربك من بيتك ... فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » . وقال مجاهد « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ... يجادلونك في الحق من بعد ما تبين » يعني يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به . وقال الفراء : قوله « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » جواب قوله « وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » فقال : فامض لأمرك في الغنائم على ماشئت « كما أخرجك ربك » مجاز اليمين كأنه، قال والذي اخرجك ربك ، فتكون «ما» في موضع الذي كقوله « وماخلق الذكر والانثى » (١) وتقديره والذي خلق الذكر ، وقال ابو عبيدة معمر بن المثنى : «ما» في قوله « كما اخرجك » كما في قوله « وما بناها » (٢) اي وبنائها . وقال عكرمة : المعنى « اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » فان ذلك خير لكم « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وكان خير لكم.

وقال بعضهم : الكاف بمعنى (على) كأنه قال : إمض على الذي اخرجك

---

(١) سورة ٩٢ الليل آية ٣ (٢) سورة ٩١ الشمس آية ٥

من بيتك . والحق الذي جادلوا فيه هو القتال في قول مجاهد . و« بيتك » يراد به المدينة،اخرجه الله الى بدر ـ في قول ابن جريج،وابن ابي نجيح واكثر المفسرين ـ

ووجه كراهية القتال ـ ماذكره ابن عباس ـ من ان أبا سفيان لما اقبل بعير قريش من الشام فيها أموالهم ، ندب النبي ﷺ المسلمين الى الخروج اليها ، قال لعل الله أن ينفلكموها ، فانتدب اليهم ، فخف بعضهم ، وثقل بعضهم ، ولم يظنوا أن رسول الله ملقي كيداً ولا حزناً ، وهو قول السدي والمفسرين . واختلفوا في المؤمنين الذين كرهوا القتال ، وجادلوا النبي ﷺ . فقال قوم : أراد به أهل الايمان يوم بدر ـ ذكر ذلك عن ابن عباس ، وابن اسحاق ـ وقال قوم : عنى المشركين ـ ذهب اليه ابن زيد ـ وقال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعوهم الى الاسلام ، وهم ينظرون ، قال وتكون هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . وقول ابن عباس هو الظاهر ، وعليه اكثر المفسرين ، وهو ان هذا صفة للمؤمنين لكن كرهوا ذلك كراهية الطبع ، لكونهم غير مستعدين للقتال ، ولقلتهم وكثرة المشركين ، ويقوي ذلك قوله بعد هذه الآية « وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غيرذات الشوكة تكون لكم » فبين بذلك انهم كانوا يودون العير دون الحرب .

وقوله « بعد ماتبين » انك يامحمد لاتصنع إلا ماامرك الله به. وقال ابن عباس معناه يجادلونك في القتال بعد ماامرت به . والجدل شدة الفتل ومنه قولهم : جدلت الزمام إذا شددت فتله ، والاجدل الصقر لشدته.

وقوله « كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » معناه كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدو في كراهتهم للقتال إذا دعوا اليه وصعوبته عليه بمنزلة من يساق الى الموت ، وهم يرونه أويتوقعونه .

والسوق الحث على السير عجلة . والاخراج في الاية معناه الدعاء الى الخروج الذي يقع به ، تقول : اخرجه فخرج اي دعاه فخرج ، ومثله اضربت زيداً عمراً،

فضربه وسمي البيت بيتاً لأنه جامعهيئاً للبيتوتة فيه. وقوله « من بيتك » قال الحسن وابن ابي برة وابن جريج معناه من المدينة .

قوله تعالى :

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨) آيتان

تقدير الاية واذكر يا محمد إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً. قال الحسن كان المسلمون يريدون العير ، ورسول الله يريد ذات الشوكة لما وعده الله . وقوله « إحـدى الطائفتين » يعني عير قريش اوقريشاً ، وكان الله وعـد نبيه حصول احداهما .

وقوله « إحدى الطائفتين » في موضع نصب بـ « يعدكم الله » وقوله « إنها لكم » نصب بدل من قوله « إحدى الطائفتين» ومثله « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » (١) فانها في موضع نصب بدلا من (الساعة) . ومثله : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم » (٢) قال الزجاج : تقديره لو لا أن تطؤهم .

وقوله « وتودون » معناه وتحبون«ان غير ذات الشوكة » يعني القتال .وانما قال «ذات الشوكة » فأنث لأنه عنى الطائفة ، والشوكة الجد ،يقال : ماأشد شوكة بني فلان ، وفلان شاك في السلاح وشائك وشاك ــ بتشديد الكاف ــ من الشكة .

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٦ (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٥

ومثله شاك في قول الشاعر :

فيوهموني انني هو ذا كم شاك سلاحي في الحوادث معلم

وقال الضحاك ، وغيره: كرهوا القتال واعجبهم أن يأخذوا العير .

وقوله « ويريد الله ان يحق الحق » معناه إن الله يريد أن يظهر محمداً صلى الله عليه وآله ومن معه على الحق « ويبطل الباطل » اي يبطل ماجاء به المشركون .

وقيل : هذه الآية نزلت قبل قوله « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » وهي في القراءة بعدها ـ ذكره البلخي والحسن ـ

وفي الاية دلالة على ان الله لايريد الباطل ولا يريد ابطال الحق بخلاف مايقول المجبرة من ان كل مافي الأرض من باطل وسفه وفسق فان الله يريده لأن ذلك خلاف الاية .

وقوله « ويقطع دابر الكافرين » معناه يريد الله ان يجتث الجاحدين من اصلهم والدابر المأخر ، وقطعه الاتيان على جميعهم ـ وهو قول ابن زيد وغيره ـ وقال قوم : الحق في هذا الموضع القرآن . والباطل ابليس . وقيل الحق الاسلام ، والباطل الشرك .

وقال ابن عباس : كان عدة اهل بدر مع النبي صلى الله عليه وآله ثلثمائة وثلاث عشر رجلا وروي ان النبي صلى الله عليه وآله لما بلغه خروج قريش لحماية العير شاور اصحابه ، فقال قوم: خرجنا غير مستعدين للقتال . وقال المقداد : امض لما امرك الله به ، فوالله لو خضت بنا الجمر لتبعناك ، فجزاه خيراً. وأعاد الاستشارة ، فقال سعد بن معاذ (رحمه الله) يارسول الله لعلك تريدنا ؟ قال : نعم ، فقال سعد : إنا آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به حق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ،فامض يارسول الله لما أردت ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضنه معك ، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بقول سعد ونشطه ذلك . ثم قال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر الى مصارع القوم.

و(الحق) وقوع الشيء في موضعه الذي هو له فاذا اعتقد شيء بضرورة او حجة فهو حق ، لأنه وقع موقعه الذي هو له ، وعكسه الباطل .

وروي ان احداً لم يشاهد الملائكة يوم بدر إلا رسول الله ﷺ . ومعنى قوله « ليحق الحق » ليظهر تحقيق الحق للمخلوقين ، ويبطل الباطل ، لأنهما لم يكونا كذلك عنده .

قوله تعالى :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) آية بلاخلاف .

قرأ أهل المدينة ويعقوب « مردفين » بفتح الدال . الباقون بكسرها . قال ابو علي : من قرأ بكسر الدال احتمل شيئين :

أحدهما ـ ان يكونوا مردفين مثلهم ، كما تقول : اردفت زيداً دابتي فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الاية وذلك كثير .

الثاني ـ ان يكون معنى « مردفين » جاءوا بعدهم . قال ابو الحسن : تقول العرب بنو فلان يردفوننا أي هم يجيئون بعدنا . وهو قول ابي عبيدة . وردفني وأردفني واحد . قال الشاعر :

إذا الجوزاء اردفت الثريا　　　ظننت بآل فاطمة الظنونا (١)

وقال قوم : ردفه صار له ردفاً واردفه جعله له ردفاً . ويكون أردفت الثريا الجوزاء . ومعنى البيت ان الجوزاء إذا طلعت في شدة الحر لم يبق حينئذ احد من

---

(١) قائله خزيمة بن مالك وهو من قدماء شعراء الجاهلية الاغاني ١٣ / ٧٥ طبعة دار الثقافة . ومعجم ما استعجم ١٩ ، وسمط اللآلي ١٠٠ واللسان (قرظ). (ردف) .

البوادي في مناجعهم ، لأن مياه الغدران يبست فتفرق الحلل بعد اجتماعها فتفترق ظنونه في امر فاطمة انها اي ماء تأخذ لتعلق قلبه بها ، وهي فاطمة بنت حل بن عدي.

وقول ابي عبيدة : ردفني وأردفني واحد أقوى لقوله « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » اي جاء من بعد إستغاثتكم ربكم فـ « مردفين » على هذه صفة للالف الذين هم الملائكة .

ومن قرأ بفتح الدال فمعناه اردفوا الناس أي انزلوا بعدهم ، فيجوز على هذا أن يكون حالا من الضمير المنصوب في « ممدكم » مردفين بألف من الملائكة ،والعامل في (إذ) يحتمل شيئين :احدهما ـ ويبطل الباطل (إذا) والثاني ـ بتقدير اذكروا (اذ) فعلى الوجه الأول يكون متصلا بما قبله وعلى الثاني يكون مستأنفاً .

والاستغاثة طلب المعونة وهو سد الخلة في وقت شدة الحاجة. وقيل : في معنى « تستغيثون ربكم » تستجيرون به من عدوكم والاستجابة موافقة المسألة بالعطية ، وأصله طلب الموافقة بالارادة وليس في الاجابة معنى الطلب من هذه الجهة .

وقيل في معنى « مردفين » ثلاثة أقوال :

قال ابن عباس : مع كل ملك ملك ردفاً له ، وقال الجبائي : هم ألفان لأن مع كل واحد واحد ردفاً له .

والثاني ـ قال السدي وقتادة : إن معناه متتابعين.

والثالث ـ قال مجاهد ممدين بالارداف وامداد المسلمين بهم. ويقال هذه دابة لاترادف ، ولايقال تردف ، ويقال : أردفت الرجل إذا جئت بعده . وكان يجوز أن يقرأ بتشديد الدال وفتح الراء وضمها ـ لأن الأصل مرتدفين ، وقرىء في الشواذ ـ بضمها ـ فمن فتح الراء نقل فتحة التاء اليها ، ومن كسرها فلاجتماع الساكنين ومن ضمها فللاتباع .

أخبر الله تعالى عن حال اهل بدر انهم لقلة عددهم استغاثوا بالله والتجأوا اليه فأمدهم الله بألف من الملائكة مردفين ، رحمة لهم ورأفة بهم ، وهوقول ابن عباس،

وقال : الداعي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قول ابي جعفر عليه السلام والسدي وابي صالح وهو المروي عن عمر بن الخطاب. وقيل :إنهم قتلوا يومئذ سبعين واسروا سبعين .وقال الحسن : جميع ماامدوا به من الملائكة خمسة آلاف :ماذكر هنا ، وماذكر في آل عمران . وقال غيره : جميعهم ثمانية آلاف . وقال الحسن :اردف بهؤلاء الألف الثلاثة آلاف الذين ذكرهم في آل عمران . ثم أردفهم بألف آخر فصاروا خمسة آلاف .

قوله تعالى :

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) آية .

الهاء في قوله « جعله الله » يحتمل أن تكون عائدة الى الامداد ، لأنه معتمد الكلام . وقال الفراء : هي راجعة الى الارداف .

ويحتمل أن تكون عائدة على الخبر بالمدد ، لان تقديم ذلك اليهم بشارة في الحقيقة اخبر الله تعالى أنه لم يجعل هذا الذي أخبر به من إمداد الملائكة إلا بشرى. وإنما جعله بأن اراده به فقلبه الى هذا المعنى . وقيل : جعله بشرى بأن امر الملائكة أن تبشر به. والجعل على ضروب: اولها ـ أن يكون بمعنى القلب ، كقولك : جعلت الطين خزفاً . وبمعنى الحكم كقولك : جعله الحاكم فاسقاً . وبمعنى الظن كقولك جعلته كريماً بحسن ظني به . وبمعنى الأمر كقولك جعله الله مسلماً بمعنى امره بالاسلام .

وقوله « ولتطمئن به قلوبكم » فالاطمئنان الثقة ببلوغ المحبوب ، وهوخلاف الانزعاج . والطمأنينة : السكون والدعة .

وقوله « وما النصر إلا من عند الله » معناه لايكون النصر وقهر الاعداء من الكفار إلا بفضل من عند الله ونصر من جهته . وليس ذلك بشدتكم وقوة بأسكم

وإنما أضافه الى الله ، لئلا يظن أنه من قبل الملائكة من غير امره .

فأماالغلبة بكثرة العدد ، فقد يتفق للكافر والمبصل ، فعلى هذا المؤمن وان قتل ، فهو منصور غير مخذول ، والكافر وإن غلب وقتل فهو مخذول .

وهل قاتلت الملائكة يوم بدر قيل فيه قولان :

قال ابو علي الجبائي : ماقاتلت ، وإنمـا أراد الله بالامـداد البشارة بالنصر واطمئنان القلب ليزول عنهم الخوف الذي كان بهم ، قال لأن ملكاً واحداً يقدر ان يدمر على جميع المشركين كما اهلك جبرائيل قريات لوط .

وروي عن ابن مسعود : أنها قاتلت . وقيل: سأل ابو جهل من اين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص ، قالوا لـه : من قبل الملائكة ، فقال هم غلبونا لا أنتم .

وقوله « إن الله عزيز » يعني قادر لايغالب « حكيم » في أفعاله ليثقوا بوعده .

قوله تعالى :

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) آية .

قرأ ابن كثيروابو عمرو « يغشاكم » بفتح الياء وسكون الغين وبألف مخفف. وقرأه اهل المدينة ـ بضم الياء وسكون الغين و كسر الشين مخفاً من غير الف. الباقون بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين و كسرها من غير الف . و كلهم نصب النعاس إلا ابن كثير وابو عمرو ، فانهما رفعاه .

وحجة من فتح الياء قوله «أمنة نعاساً يغشى »(١) . فكما اسند الفعل الى النعاس والأمنة ، كذلك ههنا . ومن قرأ بضم الياء وشدد الشين اوخففها ، فالمعنى واحـد.

---

(١) سورة٣ آل عمران آية ١٥٤

قال الله تعالى « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (١) وقال « فغشاها ما غشى » (٢) وقال « كأنما اغشيت وجوههم » (٣) وحجتهما أنه أشبه بما بعده . لأنه قال « وينزل عليكم من السماء ماء » فكما أن (ينزل) مسند الى اسم الله كذلك « يغشي » .
و « الغشيان » لباس الشيء مايتصل به ، ومنه غشي الرجل إمرأته ، فكأن النعاس قد لابسهم بمخالطته إياهم . و « النعاس » ابتداء حال النوم قبل الاستثقال فيه ، وهو السنة ، تقول : نعس ينعس نعاساً فهو ناعس . وحكى الفراء أنه سمع نعسان .
و « الأمنة » الدعة التي تنافي المخافة ، تقول : أمن أمناً وأماناً وأمنة . وانتصب « أمنة » بأنه المفعول له ، والعامل فيه « يغشى » .

وقوله « وينزل عليكم من السماء ماء » يعني مطراً وغيثاً .

وقوله : « ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان » قال ابن عباس : معناه يذهب عنكم وسوسة الشيطان ، بأنه غلبكم على الماء المشركون حتى تصلوا وانتم مجنبين ، لأن المسلمين باتوا ليلة بدر على غير ماء ، فأصبحوا مجنبين ، فوسوس اليهم الشيطان ، فيقول : تزعمون أنكم على دين الله وانتم على غير الماء تصلون مجنبين ، وعدوكم على الماء ، فأرسل الله عليهم السماء ، فشربوا واغتسلوا وأذهب به وسوسة الشيطان ، وكانوا في رمل تغوص فيه الأقدام ، فشدده المطر حتى تثبت عليه الرجال فهو قوله « ويثبت به الاقدام » . والهاء في «به» راجعة الى الماء . وقال ابن زيد : يذهب بوسوسته أنه ليس لكم بهؤلاء طاقة . وقال الجبائي : لان الاحتلام بوسوسة الشيطان .

وقوله « وليربط على قلوبكم » معناه ليشد عليها بما يسكنها

وقوله « ويثبت به الاقدام » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وأكثر المفسرين : لتلبيده الرمل

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٩　　(٢) سورة ٥٣ النجم آية ٥٤

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٢٧

الذي لا يثبت عليه القدم .

والثاني ـ الصبر الذي افرغه عليهم عند ذلك حتى ثبتوا لعدوهم ـ في قول ابي عبيدة والزجاج ـ . و « إذ » في موضع نصب على معنى وما جعله الله إلا بشرى في ذلك الوقت ، ويجوز على تقدير إذكروا « إذ يغشاكم » .

قوله تعالى

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) آية

معنى الآية اذكروا « إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم » يعني بالمعونة والنصرة ، كما يقال : فلان مع فلان بمعني ان معونته معه . وذكر الفراء قال : كان الملك يأتي الرجل من اصحاب النبي ﷺ فيقول سمعت المشركين يقولون ، والله لئن حملوا علينا لنكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً فيقوي انفسهم بذلك و « الايحاء » إلقاء المعنى إلى النفس من وجه يخفى ، وقد يكون ذلك بنصب دليل يخفى إلا على من إلقي اليه من الملائكة .

وقوله « فثبتوا الذين آمنوا » قيل في معناه قولان : احدهما ـ احضروا معهم الحرب. والثاني ـ قال الحسن: قاتلوا معهم يوم بدر . وقال قوم : معنى ذلك الاخبار بأنه لا بأس عليهم من عدوهم .

وقوله « سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» اخبار من الله تعالى انه يلقي في قلوب الكفار الرعب ، وهو الخوف . تقول : رعبته ارعبه رعباً ورعباناً ، فانا راعب ، وذاك مرعوب . و« الرعب » إنزعاج النفس بتوقع المكروه. واصل الرعب التقطيع من قولهم رعبت السنام ترعيباً: اذا قطعته مستطيلا . والرعب يقطع حال

السرور بضده من انزعاج النفس بتوقع المكروه . وجارية رعبوبة اذا كانت شطنة مشبهة بقطعة من السنام . ورعب السيل فهو راعب : اذا امتلأ منه الوادي ، لأنه انقطع اليه من كل جهة . والرعيب من الرجال النصير . قال الراجز :

ولا أجيب الرعب ان دعيت (١)

وقوله « فاضربوا فوق الاعناق » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ اضربوا الاعناق ـ ذهب اليه عطية ـ وقال غيره اضربوا على الاعناق. وقال قوم اضربوا فوق جلدة الاعناق .

وقوله « واضربوا منهم كل بنان » قال ابن جريج والضحاك والسدي : أراد بنان الأطراف من اليدين والرجلين والواحد بنانة . ويقال : للاصبع بنانة . واصله اللزوم من قولهم : أبنت السحابة إبناناً إذا لزمت . وأبن بالمكان اذا لزمه فسمي البنان بناناً ، لأنه يلزم به ما يقبض عليه ، قال الشاعر :

ألاليتني قطعت مني بنانة ولاقيته في البيت يقظان حاذرا (٢)

وقال الفراء: أعلمهم مواضع الضرب، فقال: اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل. وقال الزجاج : اباح الله قتلهم بكل نوع يكون في الحرب . و«اذ» في موضع نصب على قوله « وليربط ... اذ يوحي » ويجوز على تقدير واذكروا .

قوله تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) آية.

أخبر الله تعالى أنه فعل بهؤلاء الكفار ، ما فعل وامر بقتلهم وضرب اعناقهم

---

(١) قائله رؤبة . اللسان (رعب) ويروى (إن رقبت)

(٢) قائله عباس بن مرداس اللسان والتاج (بنن) ومجاز القرآن ١ / ٢٤٢

وقطع بنانهم جزاء بما شاقوا الله ورسوله · قال الزجاج : معناه جانبوا الله ، اي صاروا في جانب غير جانب المؤمنين ، ومثله حاربوا الله· و «الشقاق» اصله الانفصال من قولهم : انشق انشقاقاً ، وشقه شقاً ، واشتق القوم إذا مر بينهم ، وشاقه شقاقاً إذا صار في شق عدوه عليه ، وتشقق تشققاً ، وشقق تشقيقاً ، ومنه اشتقاق الكلام لأنه انفصال الكلمة عما يحتمله الأصل . ومعنى « شاقوا الله » شاقوا اولياء الله كما قال « ان الذين يؤذون الله ورسوله » (١) · وقوله « ومن يشاقق الله » يجوز في العربية الاظهار والادغام ، فاما أن يأتي على الأصل للحاجة إلى حركة الأول ، وإما ان يحرك الثاني ـ لالتقاءالساكنين ـ بالكسر · ويجوز الفتح والأول اجود مع الألف واللام لتأكد سببه ·

وقوله « فان الله شديد العقاب » شدة العقاب عظمه بجنس فوق جنس أدنى منه ، لأن العظم على ضربين : احدهما ـ بالتضاعف في المرتبة الواحدة . والثاني ـ بالترقي الى مرتبة بجنس يخالف الجنس الذي في ادنى مرتبة .

قوله تعالى :

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤) آية ·

العامل في «ذلكم» يحتمل احد وجهين :أحدهما ـ الابتداء على تقدير الأمر « ذلكم » ، قال الزجاج : من قال : إنه يرفع « ذلكم » بما عاد عليه من الهاء او بالابتداء وجعل « فذوقوه » الخبر ، فقد أخطأ ،لأن ما بعد الفاء لا يكون خبر المبتدأ لا يجوز « زيد فمنطلق »ولا « زيد فاضربه » الا أن تضمر هذا كقول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا(٢)

أي هذه خولان· الثاني ـ أن يكون نصباً بذوقوا، كماتقول : زيداًفاضربه.

---

(١) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٥٧ (٢) اللسان (خلا)

والكاف في قوله « ذلكم » لاموضع له من الاعراف لأنه حرف خطاب ، ولو كان اسماً لجاز أن يؤكد بالنفس وذلك غير جائز اجماعاً . والاشارة بذلك الى ماتقدم من انواع العقوبات ، وانما ضم الى الكاف الميم ، لأنه خطاب للمشركين .

وقوله « فذوقوه » فالذوق طلب ادراك الطعم بتناول اليسير بالفم كما ان الشم طلب ادراك الرائحة بالانف ، وليس بالادراك ، لأنه يقال ذقته فلم أجد له طعماً ، وشممته فلم اجد له رائحة ، وانما قال « فذوقوه » والذوق اليسير من الطعام ، لان المعنى كونوا للعذاب كالذائق للطعام ، لان معظمه بعده . وقيل : لان الذائق أشد احساساً بالطعم من المستمر عليه ، فكأن حالهم ابداً حال الذائق في شدة احساسه نعوذ بالله منه .

وقوله «وأن للكافرين » فموضع « أن» يحتمل النصب والرفع، فالرفع بالعطف على ذلكم كأنه قال« ذلكم ، فذوقوه » وذلكم « ان للكافرين عذاب النار » معذا والنصب من وجهين : احدهما ـ وبان للكافرين ، والآخر ـ واعلموا ان للكافرين ، كما انشده الفراء :

تسمع للأحشاء منه لغطا　　　　ولليدين جسأة وبددا (١)

اي وترى لليدين وانما قدم الخبر في قوله : « وأن للكافرين » على الاسم لدلالته على الكفر الذي هو السبب للعذاب . ومرتبة السبب قبل المسبب .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ ٱلأَدْبَارَ (١٥) آية .

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/٤٠٥ . (اللغط) الاصوات المبهمة ، والجسأة ـ بضم الجيم ـ الخشونة والصلابة والغلظ . والبدد تباعد ما بين اليدين.

هذا خطاب للذين آمنوا من بين المكلفين ناداهم الله ليقبلوا الى امر الله بما يأمرهم به وانتهائهم عما ينهاهم عنه بالتأمل له والتدبر لموجبه ليعملوا به ويكونوا على يقين منه . وقوله « اذا لقيتم الذين كفروا » فالالتقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأن الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة، فلا يكون لقاء كاجتماع الاعراض في المحل الواحد . و « الذين كفروا » هم الذين جحدوا نعم الله ومن كان بمنزلة الجاحد. فالمشرك كافر ، لأنه في حكم الجاحد لنعم الله إذ عبد غيره .

وقوله « زحفاً » نصب على المصدر، فالزحف هو الدنو قليلا قليلا والتزاحف التداني، زحف يزحف زحفاً ، وازحفت القوم اذا دنوت لقتالهم وثبت لهم ،والمزحف من الشعر الذى قد تدانت حروفه على ما ابطلت وزنه .

وقوله : « فلا تولوهم الادبار » نهي لهم عن الفرار عند لقائهم الكفار وقتالهم اياهم .

قوله تعالى :

وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) آية

اخبر الله تعالى ان « من يولهم » يعني الكفار «يومئذ» يوم القتال «دبره فقد باء بغضب من الله» . والتولية جعل الشيء يلي غيره وهو متعد الى مفعولين . ولاه دبره اذا جعله يليه ،ومنه ولاه البلد من ولاية الامارة ، وتولى هو اذا قبل الولاية واولاه نعمة ، لانه جعلها تليه .

وقوله « يومئذ » يجوز اعرابه وبناؤه، فاعرابه لانه متمكن اضيف على تقدير الاضافة الحقيقية ، كقولك هذا يوم ذلك ، وأما البناء فلانه اضيف الى مبني اضافة غير حقيقية ، فأشبه الأسماء المركبة . وقوله « الا متحرفاً لقتال » فالتحرف الزوال

من جهة الاستواء الى جهة الحرف . تقول تحرف تحرفاً ، وانحرف انحرافاً وحرفه تحريفاً واحترف احترافاً ، لانه يقصد جهة الحرف لطلب الرزق ، مثل ابعد في طلب الرزق، والمحارف المحدود من جهة الرزق الى جهة الحرف. ومنه حروف الهجاء لأنها اطراف الكلمة كحرف الجبل ، ونحوه .

وقوله « اومتحيزاً الى فئة » فالتحيز طلب حيز يتمكن فيه، تحيز تحيزاً وانحاز انحيازاً وحازه يحوزه حوزاً ، والحيز المكان الذي فيه الجوهر . والفئة القطعة من الناس ، وهي جماعة منقطعة عن غيرها . وذكر الفئة في هذا الموضع حسن جداً ، وهو من فأوت راسه بالسيف اذا قطعته .

وفي تناول الوعيد لكل فار من الزحف خلاف .

فقال الحسن وقتادة والضحاك : انما كان ذلك يوم بدر خاصة .

وقال ابن عباس : هو عام ، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام .

ثم اخبر تعالى ان من ولي دبره على غير وجه التحرف للقتال، اوالتحيز الى الفئة انه باء بغضب من الله . أي رجع بسخطه تعالى واستحقاق عقابه . وان مستقره « جهنم وبئس المصير » هي لمن صار اليها .

وقوله « متحرفاً لقتال » نصب على الحال ، وتقديره الا ان يتحرف لان يقاتل ، وكذلك « متحيزاً » نصب على الحال وتقريره حال تحيزه الى فئة . ويجوز النصب فيهما على الاستثناء ، وتقديره الا رجلا متحيزاً اويكون متفرداً ، فينحاز ليكون مع المقاتلة . واصل متحيز متحيوز فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء.

قوله تعالى :

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) آية بلاخلاف .

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «ولكن الله قتلهم ... ولكن الله رمى » بالتخفيف فيهما ورفع اسم الله فيهما . الباقون بتشديد النون ونصب «الله» .

نفى الله ان يكون المؤمنون قتلوا المشركين يوم بدر فقال « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وإنما نفى القتل عمن هو فعله على الحقيقة ونسبه الى نفسه وليس بفعل له من حيث كانت أفعاله تعالى كالسبب لهذا الفعل ، والمؤدي اليه من إقداره إياهم ومعونته لهم وتشجيع قلوبهم فيه ، والقاء الرعب في قلوب اعدائهم المشركين حتى خذلوا وقتلوا على شركهم عقاباً لهم . وقوله « ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى » مثل الأول في انه نفى الرمى عن النبي ﷺ وإن كان هو الرامي وأضافه الى نفسه من حيث كان بلطفه ، واقداره .

وهذه الرمية ذكر جماعة من المفسرين ، كابن عباس وغيره : أن النبي ﷺ أخذ كفاً من الحصباء فرماها في وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه ، فقسمها الله تعالى على ابصارهم ، وشغلهم بأنفسهم حتى غلبهم المسلمون ، وقتلوهم كل مقتل . وقال بعضهم : اراد بذلك رمي النبي ﷺ أبي امية بن الخلف الجمحي يوم احد فأصابه فقتله . وقال آخرون : اراد بذلك رمية سهمه يوم خيبر ، فأصاب ابن ابي الحقيق في فراشة رأسه ، فقتله . والأول أشهر الأقوال.

فأما تعلق من تعلق بذلك من الغلاة ، بأن قال : لما قال « ولكن الله رمى » ـ وكان النبي هو الرامي ـ دل ذلك على انه هو الله تعالى، فهو جهل وقلة معرفة بوجوه الكلام لانه لوكان على ماقالوه لكان الكلام متناقضاً ، لأنه خطاب للنبي ﷺ بأنه لم يرم ،فان كان هو الله تعالى فالى من توجه الخطاب ؟ وإن توجه اليه الخطاب دل على ان الله غيره . وأيضاً فاذا كان هو الله فقد نفى عنه الرمي فاذا أضافه بعد ذلك الى الله كان متناقضاً على انه قد دلت الأدلة العقلية على ان الله ليس بجسم ، ولا حال في جسم ، فبطل قول من قال إن الله كان حل في محمد ﷺ وليس هذا موضع نقضه . وقد ذكرنا الكلام في ذلك واستوفيناه في الاصول .

وأما من قال : إن الفعل واحد ، وهـو من الله تعالى بالايجاد ، ومن العبد بالاكتساب فباطل ، لأنه خلاف المفهوم من الكلام ، ولو كان كذلك لم يجز أن ينفى عنه إلا بتقييد كما لاينفى عن الله الا بتقييد .

وقوله « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » معناه لينعم عليهم نعمة حسنة . والمعنى ولينصرهم الله نصراً جميلا ويختبرهم بالتي هي احسن،ومعنى يبليهم – ههنا – يسدي اليهم . وقيل للنعمة بلاء وللمضرة أيضاً مثل ذلك ، لأن أصله مايظهر به الأمر من الشكر أو الصبر ، ومنه يبتلي بمعنى يختبر ويمتحن. وسميت النعمة بذلك لاظهار الشكر ، والضر لاظهار الصبر الذي يجب به الأجر .

وقوله « إن الله سميع عليم » معناه انه يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ماله فيه من المصلحة فيجيبه اليه .

قوله تعالى :

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ (١٨) آية .

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : «موهن » خفيفة منونة. وقرا ابو عمرو وابن كثير ونافع شديدة . وقرأ حفص عن عاصم خفيفة مضافة وخفض « كيد » . وقرأ الباقون بنصب كيد .

تقول : وهن الشيء واوهنته انا كما تقول :فرح وافرحته ، وخرج واخرجته فمن قرأ « موهن » مخففاً فمن اوهن اي جعله واهناً ، ومن شدد فمن قولهم :وهنته كما تقول خرج وخرجته وعرف وعرفته . ومنه قوله « فما وهنوا لما اصابهم »(١) وتقول : وهن يهن مثل ومق يمق وولي يلي ، وهو أيضاً ينقل بالهمزة وتثقيل العين ايضاً والامران جميعاً حسنان ، واختار الاخفش القراءة بالتخفيف . والوهن الضعف ومنه قولهم : توهن توهناً اي ضعف ، ومن قال قوله « ذلكم » في موضع رفع قال

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦

الزجاج : تقديره الامر « ذلكم وأن الله » والامر ان الله .

وقوله « ذلكم » اشارة الى قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم وامكانهم من قتلهم واسرهم فعلنا الذي فعلناه . ومعنى « وأن الله موهن كيد الكافرين » يضعف مكرهم حتى يذلوا ويهلكوا . وفي فتح « أن » من الوجوه ما في قوله « ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » ـ وقد بيناه ـ والكيد يقع بأشياء منها الاطلاع على عوراتهم ، ومنها إبطال حيلتهم ، ومنها إلقاء الرعب في قلوبهم ، ومنها تفريق كلمتهم، ومنها نقض ما ابرموا باختلاف عزومهم

قوله تعالى :

إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءكُمُ الْفَتْحُ وَإنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وأنَّ ٱللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) آية

قرأ نافع وابن عامر وحفص « وان الله » بفتح الالف . الباقون بالكسر ، من فتح الهمزة فوجهه « ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت » ولأن الله مع المؤمنين اي لذلك لاتغني عنكم فئتكم شيئاً ، ومن كسر قطعه عما قبله واستأنفه ، وقوي ذلك لما روي ان في قراءة ابن مسعود « والله مع المؤمنين » . والكسر اختيار الفراء، ومن نصب فعلى ان موضعه نصب بحذف حرف الجر ، ويجوز ان يكون عطفاً على قوله « وأن الله موهن » .

والاستفتاح طلب النصرة التي بها يفتح بلاد العدو كأنه قال ان تستنصروا على اعدائكم فقد جاءكم النصر بالنبي صلى الله عليه وآله . وقال الزجاج : يجوز ان يكون المراد استحكموا لأن الاستفتاح الاستقضاء . ويقال للقاضي : الفتاح ، والمعنى فقد جاءكم الحكم من عند الله ، وهو قول الضحاك وعكرمة ومجاهد والزهري ، والأول قول

ابن عباس وغيره ، والمعنيان متقاربان . وقيل في معنى الاية قولان :

أحدهما - قال الحسن ومجاهد والزهري والضحاك والسدي والفراء: انه خطاب للمشركين لانهم استنصروا بان قالوا: اللهم اقطعنا للرحم ، واظلمنا لصاحبه فانصرنا عليه روي ان ابا جهل قال ذلك .

الثاني - قال ابو علي : هو خطاب للمؤمنين والمعنى وان تعودوا الى مثل ما كان منكم يوم بدر في الأشر والبطر بالنعمة بعد الانكار عليكم . وقال الحسن وان تعودوا لقتال محمد صلى الله عليه وآله نعد عليكم بالقتل والاسر يامعشر قريش وجماعة الكفار وان تنتهوا عن الكفر بالله العظيم ورسوله وعن قتال نبيه فهو خير لكم وانفع لكم واقرب الى مرضاة الله .

والانتهاء ترك الفعل لاجل النهي عنه ، تقول نهيته عن كذا فانتهى ، وامرته فاتمر ، على فعل المطاوع وقد يطاوع بأن يقال: كسرته فانكسر ،وقد يكون الانتهاء بمعنى بلوغ الغاية .

وقوله تعالى « ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً » معناه انه لن يغني عنكم جمعكم في الدفاع عنكم والنصرة - وان كانوا كثيرين - وإن الله مع المؤمنين بالنصرة لهم والمعونة .

قوله تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ، وإنما خصهم بالخطاب ، لان غيرهم بمنزلة من لايعتد به في العمل بما يجب عليه مع ما في إفراده إياهم بالخطاب من إعظام لهم واجلال ورفع من اقدارهم ، وإن دخل في معناه غيرهم .

والايمان : هو التصديق بما اوجب الله على المكلف او ندبه اليه .

وقال الرماني : هو التصديق بما يؤمن من العقاب مع العمل به .

امر الله تعالى المؤمنين أن يطيعوا الله ورسولـه ، والطاعـة هي امتثال امره وموافقة إرادته الجاذبة الى الفعل بطريق الرغبة اوالرهبة ، والاجابة موافقة الارادة فيما يعمل من اجلها . وقوله « ولا تولوا عنه وانتم تسمعون » معناه ولاتعرضوا عن امره ونهيه وانتم تسمعون دعاءه لكم،فنهاهم عن التولي في هذه الحال . وقال الحسن: معناه وانتم تسمعون الحجة .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) آية .

« ولاتكونوا » في موضع جزم وحذف النون دلالة على الجزم .

نهى الله تعالى المؤمنين الذين خصهم بالذكر في الآية الاولى عن ان يكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ، وفي الكلام حذف المنهي عنه ، لانه قد دل عليه من غير جهة الذكر له ، وفي ذلك غاية البلاغة ، والتقدير ولايكونوا في قولهم المنكر هذا « كالذين » والتشبيه على ثلاثة اوجه : أعلى وأدنى واوسط ، فالاعلى هو الذي حذف معه أداة التشبيه ، كقولهم للانسان : هذا الأسد ، والاوسط تثبت معه مجردة كقوله « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة »(١) والادنى تأتي معه مقيدة كقولهم الجسم كالعرض في الحدوث .

ومعنى قوله « قالوا سمعنا وهم لايسمعون » معناه سمعنا سماع عالم قابل ، وليسوا كذلك ، وهو من صفة المنافقين في قول ابن اسحاق وابي علي . وقال الحسن : يعني به أهل الكتاب . وقيل : هو من صفة المشركين ، فجعلوا بمنزلـة من لايسمع في أنهم لم ينتفعوا بالمسموع . وقال ابو علي : هي نفي القبول من قولك

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٩

سمع الله لمن حمده . وقال الزجاج : يعني الذين قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هـذا » فسماهم الله لايسمعون لانهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء فلم يتفهموا ولم يتفكروا فكانوا بمنزلة من لم يسمع . وقال ابن اسحاق : أراد به الذين يظهرون الايمان ويسرون النفاق .

قوله تعالى :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى « أن شر الدواب عندالله الصم» والشر إظهار السوء الذي يبلغ من صاحبه وهو نقيض الخير . وقيل الشر الضر القبيح ، والخير النفع الحسن .وقيل الشر الضر الشديد . والخير النفع الكثير ، واصل الشر الاظهار من قول الشاعر :

كما اشرّت بالاكف المصاحف (١)

اي أظهرت ، وشر الرجل يشرشرّاً وشررت الثوب إذا بسطته في الشمس وشرر النار ما تطاير منه لظهوره بانتشاره وتفرقه ، ومنه الشر وهـو مايظهر من الضرر كشرر النار .

والدواب جمع دابة وهي مادب على وجه الارض إلا انـه تخصص في العرف بالخيل دب يدب دبيباً .

فبين ان هؤلاء الكفار شر مادب على الارض من الحيوان . ثم شبههم بالصم

---

(١) نسب الى كعب بن جعيل . وقيل هو لابن الحمام المري . وقيل لابن جهمة الأسدي راجع : وقعة صفين : ٣٣٦ ، ٤١١ ، واللسان « شرر » وروايته :

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم وحتى أشرت بالأكف المصاحف

واشرت ـ بتشديد الراء المفتوحة ، مبني للمفعول ـ اي أظهرت بكثرة .

البكم الذين لا يعقلون من حيث لم ينتفعوا بما كانوا يسمعون من وعظ الله ولا يتكلمون بكلمة الحق ، والصمم آفة في الاذن تمنع السمع ، صم يصم صمماً وهو اصم . وصمم على الامر إذا حقق العزم عليه وتصام عن القول إذا تغافل عنه . وعود اصم خلاف المجوف وأصله المطابقة من غير خلل . والبكم الخرس : الذي يولد به صاحبه لانه قد يكون لآفة عارضة ، وقد يكون لآفة لازمة .

وقال ابو جعفر عليه السلام نزلت الآية في بني عبد الدار لم يكن اسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له سويبط . وقيل : نزلت الآية في النضر ابن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي .

قوله تعالى :

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ (٢٣) آية .

معنى الآية ان الله تعالى اخبر انه لو علم فيهم . يعني هؤلاء الكافرين انهم يصلحون بما يورده عليهم من حججه وآياته لأسمعهم إياها ولم يخلف عنهم شيئاً منها وإن كان قد أزاح علتهم في التكليف بما نصب لهم من الأدلة الموصلة الى الحق، ولكنهم لا يصلحون بل يتولون وهم معرضون .

وقال ابن جريج وابن زيد : لاسمعهم الحجج والمواعظ سماع تفهم .

وقال ابو علي : لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره

وقال الزجاج : لاسمعهم جواب كل ما يسألون عنه .

والاعراض خلاف الاقبال وهو الانصراف بالوجه عن جهة الشيء والاقبال الانصراف بالوجه الى جهته والاستماع إيجاد السماع بايجاده والتعريض له . فان الله تعالى يسمعهم بأن يوجد السماع لهم ، والانسان يسمعهم بأن يعرضهم للسماع

الذي يوجدلهم ، هذا على مذهب من قال : إن الادراك معنى ، ومن قال : انه ليس بمعنى ، فمعنى الاسماع هوان يوجد من كلامه الدال على ما يجب أن يسمعوه لكونهم أحياء لا آفة بهم في حواسهم .

وقال الزجاج المعنى « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم » كلما يسألون عنه ولو اسمعهم كلما يخطر ببالهم لتولوا وهم معرضون . وقال الحسن : هو إخبار عن علمه كما قال « ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه » (١).

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول: يجوز ان يكون في مقدوره لطف لو فعله بالكافر لآمن .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) آية .

أمر الله تعالى المؤمنين ان يجيبوا الله والرسول إذا دعاهم وان يطلبوا موافقته والاستجابة طلب موافقة الداعي فيما دعا اليه على القطع به. وقال ابو عبيدة والزجاج: معنى استجيبوا اجيبوا . وقال كعب بن سعد الغنوي :

وداع دعا يا من يجيب الى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)

اي لم يجبه . والفرق بين الدعاء الى الفعل وبين الامر به أن الامر فيه ترغيب في الفعل المأمور به، ويقتضي الرتبة ، وهي ان يكون متوجهاً الى من دونه ، وليس

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

(٢) مر هذا البيت في ١ / ٨٦ و ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨ .

كذلك الدعاء لأنه يصح من دونك لك .

وقوله « إذا دعاكم لما يحييكم » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ دعاكم الى احياء امركم بجهاد عدوكم مع نصر الله إياكم ، وهو قول ابن اسحاق والفراء والجبائي . وقال البلخي : معناه لما يبقيكم ويصلحكم ويهديكم ويحيي امركم .

الثاني ـ معناه لما يورثكم الحياة الدائمة في نعيم الاخرة من اتباع الحق : القرآن

الثالث ـ معناه لما يحييكم بالعلم الذي تهتدون به من اتباع الحق ، والاقتداء بما فيه .

وقوله « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ ان يفرق بين المرء وقلبه بالموت او الجنون وزوال العقل ، فلا يمكنه استدراك ما فات . والمعنى بادروا بالتوبة من المعاصي قبل هذه الحال .

الثاني ـ ان معناه بادروا بالتوبة لأنه اقرب الى المرء من حبل الوريد لا يخفى عليه خافية من سره وعلانيته وفي ذلك غاية التحذير .

والثالث ـ تبديل قلبه من حال الى حال لانه مقلب القلوب من حال الأمن الى حال الخوف ومن حال الخوف الى حال الأمن على ما يشاء .

وروي عن ابي عبد الله عليه السلام في معنى قوله « يحول بين المرء وقلبه » قال لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ولا يستيقن أن الباطل حق ابداً .

فأما من قال من المجبرة : إن المراد إن الله يحول بين المرء والايمان بعد امره إياه به فباطل ، لانه تعالى لايجوز عليه أن يأمر أحداً بما يمنعه منه ويحول بينه وبينه ، لان ذلك غاية السفه ، تعالى الله عن ذلك . وايضاً فـلا احد من الامة يقول : إن الايمان مستحيل من الكافر ، فانهم وان قالوا إنه لايقدر على الايمان يقولـون يجوز منه الايمان ويتوقع منه ذلك ، ومن ارتكب ذلك فقـد خرج من الاجماع .

ويحتمل ان يكون المراد ان امر الله بالموت يحول بين المرء وقلبه ، كما قال « هل ينظرون إلا ان يأتيهم الله » (١) أي أمر الله .

وقال قوم : يجوز ان يكون معناه يحول بينه وبين قلبه بان يسلبه قلبه فيبقى حياً بلا قلب وهذا قريب من معنى زوال العقل، قالوا : يجوز أن يكون المراد : انه عالم بما ينظرون اليه ، ومايضمره العبد في نفسه من معصيته فهو في المعنى كأنه حائل بينه وبينه ، لأن العبد لايقدر على اضمار شيء في قلبه إلا والله عالم به ، وهذا وجه حسن . وروي في التفسير أن الله يحول بين المؤمن وبين الكفر . والمعنى في ذلك ان الله يحول بينه وبين الكفر بالوعد والوعيد ، والامر والنهي، والترغيب في الثواب والعقاب. فأما ماروي عن سعيد بن جبير وغيره من ان الله يحول بين الكافر والايمان فقد بينا ان ذلك لايجوز على الله . والعقل مانع منه . ولو صح ذلك لكان الوجه فيه ان الله يحول بين الكافر وبين الايمان في المستقبل بان يميته ، لأنه لايجب تبقيته حتى يؤمن ، بل لوابقاه لكان حسناً ، وان لم يبقه كان ايضاً حسناً . وقوله تعالى « وانه اليه تحشرون » معناه انكم تحشرون يوم القيامه للجزاء على اعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فلذلك يجب المبادرة بالطاعة والاقلاع عن المعصية بالتوبة وترك الاصرار على القبائح .

قوله تعالى :

وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥) آية

امر الله تعالى المكلفين من خلقه أن يتقوا فتنة لاتصيب الذين ظلموا منهم خاصة. والفتنة البلية التي يظهر بها باطن امر الانسان فيها . والفتنة الهرج الذي يركب فيه

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٠

الناس بـالظلم قال ابن عباس امر الله المؤمنين ان لايقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وقال عبدالله : هو من قوله تعالى « إنما اموالكم وأولادكم فتنة » (١) وقال الحسن : الفتنة البلية . وقال ابن زيد : هي الضلالة ٠ وقال الجبائي: هي العذاب . « لاتصيبن » فالاصابة الايقاع بالشيء بحسب الارادة ، وضده الخطأ . يقال : أصاب الغرض او أخطأه .

وقوله « لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » معناه انها تعم لان الهرج إذاوقع دخل ضرره على كل أحد . ويجوز أن يقال بخص الظالم ، ولايعتد بما وقع بغيره للعوض الذي يصل إليه . ويحتمل أن يكون اراد إن هذه العقوبة على فتنتكم لاتختص بالظالمين منكم بل كل ظالم منكم كان أومن غيركم فستصيبه عقوبة ظلمه وفسقه وفتنته واراد بذلك تحذير الناس كلهم ، وأنهم سواء في المعصية ، وماتوجبه من العقوبة ليكون الزجر عاماً .

وفي دخول النون الثقيلة في « تصيبين » قولان :

احدهما ـ قال الفراء: لانه نهي بعـد أمر وفيه معنى الجزاء، كقوله « ياايها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده » (٢) ومثله لاارينكم ههنـا .

والثاني ـ أن يكون خرج مخرج جواب القسم .

وقال الزجاج : يحتمل ان يكون نهياً بعد أمر وتقديره اتقوا فتنة ، ثم نهى، فقال « لاتصيبن الذين ظلموا » أي لايتعرض الذين ظلموا لما ينزل معه العـذاب . ومثله قال في قوله « لايحطمنكم » فيكون لفظ النهي لسليمان ، ومعناه النمل، كما يقول القائل لأرينك ههنا ، فلفظالنهي لنفسك ، والمراد لاتكون ههنا ، فاني اراك.

و « الخاصة » للشيء ماكان له دون غيره ونقيضة العامة .

---

(١) سورة ٨ الانفال آية ٢٨ وسورة ٦٤ التغابن آية ١٥

(٢) سورة ٢٧ النمل آية ١٨

وقولـه « واعلموا أن الله شديد العقاب » معناه لمن لـم يتق معاصيه ولـم يتبع اوامره،

وقال الحسن والسدي ومجاهد وابن عباس : نزلت هذه الآية في أهل الجمل. وقال قتادة قال الزبير : لقد نزلت وما نرى ان أحداً منا يقع فيها ثم اختلفنا حتى اصابتنا خاصة . وروي ذلك عن الزبير من جهات .

قوله تعالى :

وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) آية .

الذكر ضد السهو ، وهو إحضار المعنى للنفس . وإنما أمروا بالتعرض له،لان إحضار المعنى بقلوبهم ليس من فعلهم .

وقوله « إذ انتم قليل » فالقلة النقصان عن المقدار في العدد وكان اصحاب النبي صلى الله عليه وآله قليلين في الأصل فلطف الله لهم حتى كثروا وعزوا، وقل اعداؤهم وذلوا وكانوا مستضعفين ، فقووا .

والاستضعاف طلب ضعف الشيء بتهوين حالـه . والضعف خـلاف القوة . والاستضعاف استجلاب ضعفه بتحقير حاله ، فامتن الله عليهم بذلك وبين انهم كانوا قليين فكثرهم وكانوا مستضعفين ، فقواهم بلطفه .

وقولـه « تخافون أن يتخطفكم الناس » فالتخطف الاخذ بسرعة انتزاع ، تخطف تخطفاً وخطف خطفاً واختطف اختطافاً ، فبين انهم كانوا خائفين من ان ينال منهم العدو .

وقوله « فآواكم » اي جعل لكم مأوى حريزاً ترجعون إليه وتسكنون فيه

وقال السدي« آواكم »الى المدينة . وقوله ، « وأيدكم بنصره » يعني بالانصار في قول السدي. وقيل في المعني بقوله « الناس » قولان :

احدهما - مشركوا قريش في قول عكرمة وقتادة .

وقال وهب بن منبة يعني فارس والروم ،

وقوله « ورزقكم من الطيبات » أي أطعمكم غنيمتكم حلالا طيباً « لعلكم تشكرون » أي لكي تشكروه على هذه النعم المترادفة والآلاء المتضاعفة .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) آية .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم ان يخونوا الله والرسول . والخيانة منع الحق الذي قد ضمن التأدية فيه . وهي ضد الامانة . وأصل الخيانة ان تنقص من ائتمنك أمانته ، قال زهير :

بارزة الفقاوة لم تخنها قطاف في الركاب ولا خلاء (١)

أي لم تنقص من فراهتها . والمعنى لاتخونوا مال الله الذي جعله لعباده فلا يخن بعضكم بعضاً فيما ائتمنه عليه في قول ابن عباس . وقال الحسن ، والسدي: لاتخونوه كما صنع المنافقون . وقال الجبائي : نهاهم ان يخونوا الغنائم . وقال ابن زيد : الأمانة ههنا الدين ، نزلت في بعض المنافقين . والامانة مأخوذة من الأمن من منع الحق وهي حال يؤمن معها منع الحق الذي تجب فيه التأدية

وقوله « وأنتم تعلمون » قيل في معناه قولان :

أحدهما - وأنتم تعلمون انها امانة من غير شبهة .

---

(١) مقاييس اللغة ٧٩/١

والثاني ــ وانتم تعلمون ما في الخيانة من الذم والعقاب بخلاف الجهال بتلك المنزلة .

وقوله : « وتخونوا » موضعه الجزم بتقدير ، ولاتخونوا في قول ابن عباس وقال السدي : هو نصب على الظرف (١) أي إنكم إذا خنتم الرسول فقد خنتم أماناتكم قال الفراء ، ومثله قول الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأت مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم (٢)

وحكى الفراء في بعض القراآت : « ولاتخونوا أماناتكم »

وقال جابر بن عبدالله : نزلت الاية في بعض المنافقين حين انذر أبا سفيان بخروج النبي لأخذ العير . وقال الزهري : نزلت في ابي لبابة في قصة بني قريظة وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) .

قوله تعالى

وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) آية .

أمر الله تعالى المكلفين ان يعلموا ويتحققوا ان اموالهم واولادهم فتنة .وإنما يمكنهم معرفة ذلك بالنظر والفكر في الأدلة المؤدية إليه ، وهو مايدعو إليه الهوى في الأموال والاولاد ، ومايصرف عنه فمن تفقد ذلك وتحرز منه نجاه من مضرته

والمراد بالفتنة ههنا المحنة التي يظهر بها ما في النفس من اتباع الهوى او تجنبه فيخلص حاله للجزاء بالثواب او العقاب بحسب الاستحقاق .

---

(١) المقصود من الظرف كونه بعد الواو التي بمعنى (مع)

(٢) قطر الندى ٧٧ الشاهد ٢٣ وقد مر في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

والولد حيوان يتكون من حيوان بخلق الله له ، فعلى هذا لم يكن آدم ولداً وكان عيسى ولد مريم . والمال هو النصاب الذي تتعلق به الزكاة من ذهب او فضة او ابل او بقر او غنم عند بعض المفسرين . وأصله الكسر من العين والورق .

و (العظيم) استحقاق الصفة بالغنى . فالكثير عظيم للاستغناء به عن القليل من جنسه ، والقليل لايستغنى [به] عنه .

بين الله تعالى ان الاموال والاولاد في هذه الدنيا محنة وبلاء وان الله تعالى عنده الثواب العظيم على الطاعات وترك المعاصي .

وروي عن ابن مسود انه قال : ليس احد منكم إلا وهو مشتمل على فتنة لقوله «واعلموا أنما اموالكم واولادكم فتنة» فاسألوا الله تعالى ان يعيذكم منها .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ(٢٩) آية .

هذا خطاب للمؤمنين خاطبهم الله بأنهم ان يتقوا معاصيه ويمتثلوا طاعاته ويتقوا عقابه باجتناب معاصيه يجعل لهم اجراً على ذلك « فرقاناً » . وقيل في معنى الفرقان اقوال : ـ

احدها ـ قال ابن زيد وابن اسحاق يجعل هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل .

وقال مجاهد : معناه يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة .

وقال السدي : معناه يجعل لكم نجاة . وقال الفراء : يجعل لكم فتحاً ونصراً

وعزاً كقوله : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »(١) وقال الجبائي : يجعل لكم نصراً وعزاً وثواباً لكم ، وعلى اعدائكم خذلانا وذلا وعقاباً كل ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة .

وانما جاز الشرط في اخبار الله مع اقتضائه شك المخبر منا من حيث ان الله تعالى يعامل عباده في الجزاء معاملة الشاك للمظاهرة في العدل ولذلك جازت صفة الابتلاء والاختبار لما في ذلك من البيان ان الجزاء على مايظهر من الفعل دون ما في المعلوم مما لم يقع منه . ثم بين انه يضيف الى ذلك تكفير سيئاتهم وغفران ذنوبهم وسترها عليهم تفضلا منه تعالى .

وقوله « والله ذوالفضل العظيم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال الجبائي : معناه ان من ابتدأكم بالفضل العظيم لأنه كريم لفنسه لايمنعكم مااستحقيتموه بطاعاتكم له .

الثاني ـ أنه الذي يملك الفضل العظيم فينبغي ان يطلب من جهته .

قوله تعالى :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللهُ وَٱللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠) آية.

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال : واذكر « إذ يمكر بك الذين كفروا » والمكر الفتل الى جهة الشر في خفى وأصله الالتفاف من قول ذي الرمة .

عجزاء ممكورة خمصانة قلق　　عنها الوشاح وتم الجسم والقصب(٢)

اي ملتفة . والمكر والختل والغدر نظائر . والفرق بين المكر والغدر ان الغدر نقض العهد الذي يلزم الوفاء به ، والمكر قد يكون ابتداء من غير عقد .

---

(١) سورة ٨ الأنفال آية ٤١　　(٢) مقاييس اللغة ٤ / ١٣٣

ووصف الله تعالى بأنه ماكر يحتمل وجهين :

احدهما ـ انه سمى الجزاء على المكر مكراً للازدواج ، كقوله « الله يستهزىء بهم » (١) اي يجازيهم على الاستهزاء فيكون التقدير والله خير المجازين على المكر ، ذكره الزجاج ،

والثاني ـ ان يكون على غير تضمن الحيلة لكن على اصل اللغة . قال ابو علي : ومكره بهم حق وصواب « وهو خير الماكرين » مكراً .

وقوله « ليثبتوك » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ ليثبتوك في الوثاق ، في قول ابن عباس والحسن ومجاهدوقتادة .

والثاني ـ قال عطا وعبدالله بن كثير ، والسدي « ليثبتوك » في حبس .وقال ابو علي الجبائي : معناه ليخرجوك ، يقال : اثبته في الحرب إذا جرحه جراحة ثقيلة .

وقوله « او يخرجوك » قال الفراء : او يخرجوك على بعير تطرد به حتى تهلك او يكفيكموه بعض العرب . وهو قول ابي البختري وهشام .

وكان سبب ذلك أنهم تآمروا في دار الندوة ، فقال عمرو بن هشام : قيدوه تتربصون به ريب المنون . وقال البختري : أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم . وقال أبو جهل :ماهذابرأي ، ولكن اقتلوه بان يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربونه بأسيافهم ضربة رجل واحد ، فترضى حينئذ بنو هاشم بالدية فصوب إبليس هذا الرأي وخطأ الأولين وزيفهما ، فاوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله بذلك فامره بالخروج ، فخرج إلى الغار ، في قول ابن عباس ، ومجاهد وقتادة ، وهو قوله « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ولاخلاف بين المفسرين أنه بات علي تلك الليلة ، وهي الليلة التي أمر النبي صلى الله عليه وآله بالخروج على فراشه إلى أن اصبح ، وكانوا يحرسونه إلى الصباح ، ولما طلع الفجر ثاروااليه

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٥

فاذا علي ، قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لاأدري ، فتركوه وخرجوا في أثره .

قوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) آية .

اخبر الله تعالى عن عناد هؤلاء الكفار ومباهتتهم للحق بأنهم بلغوا في ذلك إلى رفع الحق بما ليس فيه شبهة ، وهو أنه « اذا تتلى عليهم آياته » يعني القرآن قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وقد أبان التحدي كذبهم في ذلك وتخرصهم فيه بما ظهر من عجزهم عن سورة مثله ، وانما قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ولم يجز أن يقولوا لو نشاء لقلبنا الجماد حيواناً ، لأنه يتموه هذا على كثير من الناس ولايتموه ذلك ، على أن قوم فرعون ظنوا أن السحرة يمكنهم قلب الجماد حيواناً .

وقوله « قد سمعنا » معناه أدركناه بآذاننا . والسماع إدراك الصوت بحاسة الأذن ، ولولم نذكر الصوت لانتقض بالحرارة والبرودة والآلام واللذة اذا ادرك بها ، ولايسمى سماعاً . وعلى هذا اذا قيل :ماالرؤية بالبصر ؟ ينبغي أن يقال : هي ادراك المرئيات بها ، لأنه قد يدرك الحرارة والبرودة بها . فاذا قلنا المرئيات لم ينتقض بذلك .

ثم أخبر الله تعالى عن قولهم بأن قالوا ليس هذا الذي سمعناه « إلا أساطير الأولين » والأساطير جمع واحده أسطورة في قول الزجاج . وقال غيره : هو جمع أسطر ، واسطر جمع سطر ، وزيدت الياء للمد ، كما قالوا دراهم ، وارادوا ما هذا إلا ماسطره من الاحاديث بكتبه سطراً بعد سطر .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) آية بلاخلاف .

تقديره واذكر يامحمد إذ قال هؤلاء الكفار « إن كان هذا » القرآن « هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » شديد مؤلم . قال سعيد ابن جبير ، ومجاهد : كان الطالب لذلك النضر بن الحارث بن كلدة لأنه كان سمع سجع اهل الحيرة وكلام الرهبان ، فقتله النبي ﷺ يوم بدر صبراً فقال : يارسول الله من للصبية ؟ قال النار وقيل عقبة بن ابي معيط ، والمطعم بن عدي ، قتل هؤلاء الثلاثة صبراً من جملة من أسر ، وفي النضر نزل قوله « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين » (١) يعني ماسأله ههنا . وهذا القول من قائله يجوز أن يكون عناداً ، فان المعاند قد تحمله شدة عداوته للحق على اظهار مثل هذا القول . ليوهم انه على بصيرة في أمره . ويجوز أن يكون ذلك لشبهة تمكنت في نفوسهم .

وقال الجبائي : ذلك دليل على اعتقادهم خلاف الحق الذي اتى به النبي ﷺ وهو حجة اهل المعارف ، لأنهم لوعرفوا بطلان ماهم عليه ، لما قالوا مثل هذا القول

فان قالوا كيف طلبوا بالحق من الله العذاب وانما يطلب به الخير والثواب ؟ .

قلنا : لانهم قالوا ذلك على أنه ليس بحق من الله عندهم . واذا لم يكن حقاً من الله لم يصبهم البلاء الذي طلبوه .

فان قيل لم قالوا « امطر علينا حجارة من السماء » والامطار لايكون إلا من السماء ؟ قلنا عنه جوابان :

احدهما ــ أن امطار الحجارة يمكن ان يكون من عل دون السماء .

والثاني ــ ان يكون على جهة البيان بــ (من) .

---

(١) سورة ٧٠ المعارج آية ١ــ٢

والحجارة واحد الاحجار ، وهو ماصلب من الاجسام ، يقال استحجر الطين إذا صلب ، فصار كالحجر . واكثر مايقال حجر المدر . ومع ذلك فالياقوت حجر ولذلك يقال الياقوت افضل الحجارة ، ولايقال الياقوت افضل الزجاج ، لانه ليس من الزجاج وكل شيء من العذاب يقال امطرت ومن الرحمة يقال مطرت .

وقوله « هو » يجعل عماداً في ظننت واخواتها . ويسميه البصريون صلة زائدة وتوكيداً كزيادة (ما) ولا يزاد إلا في كل فعل لايستغنى عن خبره ، وفي لغة تميم يرفع ذلك كله ، فيقولون « إن كان هذا هو الحق » وكذلك قوله « ولكن كانوا هم الظالمين » (١) و « تجدوه عند الله هو خيراً واعظم اجراً » (٢) كل ذلك يرفعونه . وعلى الاول ينصب مابعدها ومثله قوله « ويرى الذين اوتوا العلم » إلى قوله « هو الحق » (٣) .

قوله تعالى

وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) آية.

اخبر الله تعالى نبيه ﷺ على وجه الامتنان عليه واعلامه منزلته عنده انه لايعذب احداً من هؤلاء الكفار بهذا العذاب الذي اقترحوه على وجه الفساد للحق « وانت » يامحمد « فيهم » موجود .

والتعذيب تجديد الآلام حالا بعد حال ، لأن اصله الاستمرار ، فالعذب من استمرار الشيء لما فيه من الملاذ . والعذاب من استمراره لما فيه من الآلام واللام في قوله « ليعذبهم » لام الجحد . واصلها لام الاضافة . وإنما دخلت في النفي

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٦ (٢) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠
(٣) سورة ٣٤ سبأ آية ٦

ولم تدخل في الايجاب لتعلق الخبر بحرف النفي ، كما دخلت الباء في خبر(ما) ولم تدخل في الايجاب .

وإنما لم يعاقب الله تعالى الخلق مع كون النبي ﷺ فيهم على سلامته مما ينزل بهم ، لأنه تعالى أرسله رحمة للعالمين . وذلك يقتضي ألا يعذبهم وهو فيهم .

وقوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قيل في معناه أقوال :

احدها ـ ان النبي ﷺ لما خرج من مكة بقي فيها بقية من المؤمنين يستغفرون ، وهو قول ابن عباس ، وعطية، وابي مالك ، والضحاك ، واختاره الجبائي .

وقال آخرون : اراد بذلك لايعذبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ،وهم يقولون يارب غفرانك . ويعذبهم على شركهم في الآخرة، وذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وهو قول أبي موسى، ويزيد بن رومان ، ومحمد بن مبشر .

الثالث ـ أنهم لو استغفروا لم يعذبوا ، وفي ذلك استدعاء إلى الاستغفار روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وبه قال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد .

وقال الزجاج : معناه لايعذب الله من يؤل إلى الاسلام .

وقال الحسن وعكرمة : هذه الآية منسوخة بالتي بعدها . قال الرماني: هذا غلط ، لأن الخبر لاينسخ .

قوله تعالى :

وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

لاَ يَعْلَمُونَ (٣٤) آية .

(ما) في قوله « وما لهم ان لا يعذبهم الله » خرجت مخرج الاستفهام ومعناه إيجاب العذاب ، وجاز ذلك لأنها بلغ في معنى الايجاب ، من حيث انه لا جواب لمن سأل عن مثل هذا — يصح في نفي العذاب ، والمعنى لم لا يعذبهم وهذا فعلهم .

وموضع (أن) نصب بمعنى أي شيء لهم في أن لا يعذبهم ، لكن لما حذف الجار عمل معنى الفعل من الاستقرار ، وجاز الحذف مع (أن) ولم يجز مع المصدر لطول (أن) بالصلة اللازمة من الفعل والفاعل ، وليس كذلك المصدر . وحكي عن الأخفش ان (أن) زائدة مع عملها .

وقوله « وهم يصدون عن المسجد » والصد المنع ، والصد الاعراض عن الشيء من غير حيلولة بينه وبين غيره والمراد ههنا المنع .

وقوله : « وما كانوا اولياءه » جمع ولي وهو الذي يستحق القيام بأمر الشيء ويكون احق به من غيره ، فعلى هذا الله تعالى ولي المتقين دون المشركين . وقال ابو جعفر عليه السلام والحسن قال المشركون : نحن اولياء المسجد ، فرد الله ذلك عليهم ، فقال « وما كانوا اولياءه » . ثم اخبر الله تعالى « إن اولياؤه » بمعنى ليس أولياء المسجد إلا المتقون الذين يتركون معاصي الله ويجتنبونها .

وقال قوم : المعنى إن اوليـاء الله إلا المتقون والاول احسن : لانه مما يقتضيه الانكار .

وقيل في معنى (لا) قولان : احدهما ـ ان معناها الجحد اي مالهم في الامتناع من العذاب . وقيل هي صلة ، لان المعنى ايجاب العذاب ، كما قال الشاعر

لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها ... إذن للام ذووا احسابها عمرا (١)

(١) قائله الفرزدق ديوانه ٢٨٣ والخزانة ٢/٨٧ والطبري ١٣ / ٥١٩ ، ٣٠٢

والاول احسن ، لأن المعنى لم لا يعذبهم الله. فان قيل : كيف تجمعون بين الآيتين على قول من لا ينسخ الاولى ، فان في الاولى نفى ان يعذبهم الله وهم يستغفرون وفي الثانية اثبت ذلك ؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة :

احدها ـ ان يكون أراد ومالهم ان لا يعذبهم الله في الآخرة

والثاني ـ ان يكون يعني بالاولى عذاب الاستئصال كما فعل بالامم الماضية وبالثانية اراد عذاب السيف والاسر وغير ذلك ويكون قوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » اي انه لا يعذبهم بعذاب الدنيا ، والآخرة إذا تابوا واستغفروا .

الثالث ـ أنه لا يعذبهم مادام النبي فيهم وماداموا يستغفرون وإن كانوا يستحقون العذاب بكفرهم وعنادهم .

وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » دليل على بطلان قول من قال المعارف ضرورة .

قوله تعالى

وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) آية .

روى الحسين العجفي عن ابي بكر « صلاتهم » نصباً « إلا مكاء وتصدية » رفع فيهما . والصواب ماعليه القراء ، لان « صلاتهم » معرفة و « مكاء وتصدية » نكرة ولا يجوز ان يجعل اسم كان نكرة وخبره معرفة . ومن قرأ كذلك فلان الصلاة لما كانت مؤنثة ولم يكن في كان علامة التأنيث اضاف الفعل إلى المذكر وهو « مكاء » . وهذا ليس بصحيح ، لأن « صلاتهم » لما كان مضافاً إلى المذكر جاز ان يذكر كما ان المذكر إذا اضيف إلى المؤنث جاز ان يؤنث ، نحو قولهم : ذهبت بعض اصابعه .

ومعنى الآية الاخبار من الله تعالى أنه لم تكن صلاة هؤلاء الكفار الصادين عن المسجد الحرام « إلا مكاء » لئلا يظن ظان ان مع كونهم مصلين ومستغفرين لايعذبهم الله ، كما قال في الآية الاولى ، فبين ان صلاتهم كانت مكاء وتصدية .

والمكاء صفير كصفير المكاء . وهو طائر يكون بالحجاز وله صفير قال الشاعر :

ومكا بها فكأنما يمكو بأعصم عاقل (١)

وأصل المكاء جمع الريح للصفير . ويقال مكا يمكو مكاء إذا صفر بفيه ومنه يمكو است الدابة إذا انتفخت بالريح . والاست : الكوة ، والمكو ان يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح . ومنه قول عنترة :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الاعلم (٢)

اي يصفر بالريح لما طعنه والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه . ومنه الصدى صوت الجبل ، ونحوه . ومنه تصدى للملك إذا تعرض له ليكلمه . وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة والسدي : المكاء الصفير ، والتصدية التصفيق ، قال الراجز :

ضنت بخد وجلت عن خد فأنا من غرو الهوى أصدي

أي اصفق بيدي تعجباً . والغرو : العجب .

وقال ابو علي الجبائي : كان بعضهم يتصدى لبعض ليراه بذلك الفعل ، وكان يصفر له . وقال سعيد بن جبير وابن زيد : التصدية صدهم عن البيت الحرام . وقيل: إنهم كانوا يخلطون ويشوشون بذلك على النبي ﷺ .

وإنما سمي مكاؤهم بأنه صلاة لأمرين :

(١) مجاز القرآن ١ | ٢٤٦

(٢) ديوانه : ٢٤ من معلقته الشهيرة . واللسان (مكا) وتفسير القرطبي ٧ | ٤٠٠ والطبري ١٣ | ٥٢١ .

احدهما ـ انهم كانوا يقيمون فعلهم الصفير والتصفيق مقام الصلاة والدعاء والتسبيح .

والاخر ـ انهم كانوا يعملون كعمل الصلاة مما فيه هذا .

وقوله « فذوقوا العذاب » قال الحسن ، والضحاك ، وابن جريج ، وابن اسحاق : إن معناه عذاب السيف . وقال ابو علي الجبائي : يقال لهم في الاخرة « ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » في دار الدنيا وهو قول البلخي . والمعنى باشروه وليس المراد به من ذوق الفم .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

آية في الكوفي والمدنيين وآيتان في البصري خاصة .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار بأنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وغرضهم المنع عن سبيل الله . وسبيل الله ههنا ، هو دين الله الذي أتى به محمد صلى الله عليه وآله وسمي سبيل الله ههنا ، لان بسلوكه واتباعه يبلغ ما عند الله ، وإن لم يعلموا أنها سبيل الله لانهم قصدوا إلى الصد عنها ، وهي سبيل الله على الحقيقة . ويجوز أن يقال قصد الصد عن سبيل الله ، وإن لم يعلم . ولايجوز قصد أن يصد من غير أن يعلم ، لأن (أن) تفسر الوجه الذي منه قصد ، فلا يكون إلا مع العلم بالوجه كقولك قصد أن يكذب ، وقصد الكذب من غير ان يعلم أنه كذب .

وإنما قال « ينفقون » ثم قال « فسينفقونها » ، لأن الاول معناه ان من

شأنهم ان ينفقوا للصد. والثاني – معناه انه سيقع الانفاق الذي يكون حسرة بما يرونه من الغلبة. والحسرة الغم بما انكشف من فوت استدراك الخطيئة والأصل الكشف من قولهم حسر عن ذراعه يحسر حسراً والحاسر خلاف الدارع. وحسر حسرة وهو حسير قال المراد:

ما انا اليوم على شيء خلا   يا بنة القين تولي يحسرا (١)

وكان الانفاق المذكور في الاية القائم بـه أبو سفيـان: صخر بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة في قول سعيد، وابن ابرى، ومجاهد والحكم ابن عيينة. وفي ذلك قال كعب بن مالك:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه   احابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصية   ثلاث مئين ان كثرن فأربع (٢)

وقال الضحاك: إنما عنى بالآية الانفاق يوم بدر.

وفي الآية دلالة على نبوة النبي ﷺ لانه اخبر بالشيء قبل كونه فكان على ما اخبر به.

قوله تعالى:

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ

(٣٧) آية بلا خلاف.

(١) اللسان (حسر). الحسر: الندامة. والقين العبد المملوك.

(٢) سيرة ابن هشام ٣ / ١٤١، وطبقات فحول الشعراء: ١٨٣. والطبري ١٣ / ٥٣٠ ومقاييس اللغة ٢ / ١٢٩.

قرأ حمزة والكسائي « ليميز » مضمومة الياء مشددة ، والباقون بفتح الياء خفيفاً .

اخبر الله تعالى انه يحشر الكفار إلى جهنم « ليميز الخبيث » الذي هو الكافر « من الطيب » الذي هو المؤمن . (والتمييز) هو إخراج الشيء عما خالفه مما ليس منه ، وإلحاقه بما هو منه . تقول مازه يميزه ' وميزه تمييزاً . وامتاز امتيازاً وانماز انميازاً والخبيث الرديء من كل شيء . وضده الطيب . ومنه خبث الحديد وخبث الفضة . وخبث الانسان خبثاً ، وتخبث تخبثاً ، وتخابث تخابثاً وخبثه تخبيثاً و (الطيب) المستلذ من الطعام والطيب الحلال من الرزق ، والطيب من الولد الذي يفرح به والطيب نقيض الخبيث ، وهو الجيد من كل شيء .

وقيل المعنى ليميز الله ما انفقه المؤمنون في طاعة الله مما انفقه المشركون في معاصيه . وقوله « ويجعل الخبيث بعضه على بعض » معناه إن الكافر يكون على اسوء حال كالمتاع والركام ، هواناً ، وتحقيراً ، وإذلالا .

وقوله « فيركمه جميعاً » معناه تراكب بعضه فوق بعض . كالرمل الركام وهو المتراكب . ركمه يركمه ركماً وتراكم تراكماً وارتكم ارتكاماً . ومنه قوله تعالى في صفة السحاب « ثم يجعله ركاماً » (١) وقال الحسن يركمهم الله مع ما انفقوا في جهنم ، كما قال « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » (٢) ثم اخبر انه اذا ركمه جميعاً يجعله في جهنم واخبر عنهم بأنهم الخاسرون نفوسهم باهلاكهم اياها بارتكاب المعاصي والكفر المؤدي الى عذاب الابد .

قوله تعالى :

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ

(١) سورة ٢٤ النور آية ٤٣ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٣٦

يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للكفار إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف والمعنى إن انابوا عن الكفر والمعاصي وتابوا منها توبة خالصة ، لأن الكف عن المعاصي مع الاصرار لايوجب الغفران . وإنما اطلق الوعد في الآية بالانتهاء عن المعصية ، لان الانتهاء عنها لايكون مع الاصرار عليها ، لان الاصرار معصية .

وقوله « وان يعودوافقدمضت سنة الأولين » معناه وان يعودوا، ويرجعوا إلى المعصية « فقد مضت سنة الاولين » في تعجيل العقاب لهم في الدنيا بعذاب الاستئصال وماجرى مجراه من الاسر والقتل ، يوم بدر ، وبالنصر من الله ،في قول الحسن ومجاهد ، والسدي .

والسلوف : التقدم ، تقول سلف يسلف سلوفاً واسلف إسلافاً وتسلف تسلفاً وسلفه تسلفاً وتسليفاً واستسلف استسلافاً ، والسالفة اعلى العنق ، والسلافة اخلص الخمر واجودها . والسلفان المتزوجان باختين والسنة الطريقة التي يجري عليها الامر ، ومنه قولهم هذا مستمر على سنن واحد .

قوله تعالى :

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) آيتان.

أمر الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ والمؤمنين ان يقاتلوا الكفار « حتى لاتكون فتنة » وهي الكفر من غير اهل العهد، وماجرى مجراه من البغي ،لأنهم يدعون الناس إلى مثل حالهم بتعززهم على اهل الحق وتطاولهم فيفتنونهم في دينهم .

وقال ابن عباس ، والحسن : معناه حتى لايكون شرك . وقال ابن اسحاق حتى لايفتن مؤمن عن دينه . والفرق بين قوله « حتى لايكون فتنة » وبين قوله حتى لايكون كفر هو ان الذليل والأسير والشريد لايفتن الناس في دينهم لان الذل لايدعو الى حال صاحبه كما يدعو العز .

وقوله « ويكون الدين كله لله » معناه ان يجمع اهل الباطل وأهل الحق على الدين الحق فيما يعتقدونه ويعملون به ، فيكون الدين كله حينئذ لله بالاجتماع على طاعته وعبادته ، والدين ههنا الطاعة بالعبادة .

وقوله « فان انتهوا فان الله بما تعملون بصير » معناه فان رجعوا عن الكفر وانتهوا عنه فان الله يجازيهم مجازاة البصير بهم وبأعمالهم باطنها وظاهرها لايخفى عليه شيء منها .

وقوله « وإن تولوا فاعلموا ان الله مولاكم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ وان تولى هؤلاء الكفار واعرضوا عن الدين الحق واتباعه فثقوا بالله وتذكروا ماوعدكم به ايها المؤمنون تسكيناً لنفوسهم وتمكيناً للحق عندهم.

والثاني ـ فاعلموا ان الله ينصركم عليهم على طريق الأمر بعلم هذا ليكونوا على بصيرة في ان الغلبة لهم وقوله « وإن تولوا » شرط . وقوله « فاعلموا أن الله » امر في موضع الجواب ، وإنما جاز ذلك لان فيه معنى الخبر ، فلم يخرج من ان يجب الثاني بالاول ، كأنه قال فواجب عليكم العلم بأن الله مولاكم او فينبغي ان تعلموا ان الله مولاكم .

والمولى ههنا هو الناصر . وهو الذي يوليكم عن الغلبة . والمولى على اقسام بمعنى الناصر وبمعنى الحليف ، وبمعنى المعتق والمعتق . وبمعنى الأولى والأحق كما قال لبيد :

فقدت كلا الفرجين يحسب انه مولى المخافة خلفها وامامها (١)

---

(١) مقاييس اللغة ٢ | ٢١٢

ومنه قول النبي ﷺ «ايما امراة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل»، اي من هو اولى بالعقد عليها . وقال الأخطل يمدح عبد الملك بن مروان :

فاصبحت مولاها من الناس كلهم واحرى قريش ان تهاب وتحمدا (١)

وقال ابو عبيدة : ومنه قوله « النار مولاهم » معناه الاولى بهم واستشهد ببيت لبيد المتقدم ذكره . وقد استوفينا اقسام مولى في غير هذا الموضع (٢) فلا نطول بذكره ههنا . والتولي عن الدين هو الذهاب عنه الى خلافه وهو والاعراض بمعنى واحد والتولي في الدين هو الذهاب إلى جهة الحق ومتابعة النبي ﷺ والنصرة له والمعونة له .

قوله تعالى :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) آية .

الغنيمة ما اخذ من اموال اهل الحرب من الكفار بقتال . وهي هبة من الله تعالى للمسلمين . والفيء ما اخذ بغير قتال في قول عطا بن السائب، وسفيان الثوري وهو قول الشافعي ، وهو المروي في اخبارنا .

وقال قوم : الفيء والغنيمة واحد . وقالوا إن هذه الآية ناسخة للتي في الحشر من قوله « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ، فلله وللرسول ولذي

---

(١) مر هذا البيت في ٣ | ١٨٧ (٢) في ٣ | ١٨٦ ، ١٨٧ .

القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١) لأنه بين في هذه الآية ان الأربعة اخماس للمقاتلة . وعلى القول الأول لايحتاج إلى هذا ، وعند اصحابنا ان مال الفيء للامام خاصة يفرقه فيمن شاء بعضه في مؤنة نفسه وذوي قرابته . واليتامى والمساكين وابن السبيل من اهل بيت رسول الله ليس لسائر الناس فيه شيء .واما خمس الغنيمة ، فانه يقسم عندنا ستة اقسام : فسهم لله ، وسهم لرسوله للنبي ،وهذان السهمان مع سهم ذي القربى . للقائم مقام النبي صلى الله عليه وآله ينفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم ، وسهم لليتامى : وسهم للمساكين : وسهم لأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لايشركهم فيها باقي الناس لأن الله تعالى عوضهم ذلك عما اباح لفقراء المسلمين ومساكينهم وابناء سبيلهم من الصدقات إذ كانت الصدقات محرمة على أهل بيت الرسول عليه السلام وهو قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ،ومحمد بن علي الباقر ابنه عليه السلام رواه الطبري باسناده عنهما .

وقال الحسين بن علي المغربي حاكياً عن الصابوني من اصحابنا ، إن هؤلاء الثلاثة فرق لايدخلون في سهم ذي القربى وإن كان عموم اللفظ يقتضيه ،لأن سهامهم مفردة ، وهو الظاهر من المذهب . والذين يستحقون الخمس عندنا من كان من ولد عبدالمطلب ، لأن هاشماً لم يعقب إلا منه : من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين ، فاما ولد عبد مناف من المطلبيين ، فلا شيء لهم فيه ، وعند اصحابنا الخمس يجب في كل فائدة تحصل للانسان من المكاسب وأرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه .

ويمكن الاستدلال على ذلك بهذه الآية ، لأن جميع ذلك يسمى غنيمة .

وقال ابن عباس ، وابراهيم ، وقتادة ، وعطا : الخمس يقسم خمسة أقسام فسهم الله وسهم الرسول واحد .

وقال قوم : يقسم أربعة أقسام سهم لبني هاشم وثلاثة للذين ذكروا بعد ذلك

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ٧

من سائر المسلمين، ذهب اليه الشافعي .

وقال اهل العراق : يقسم الخمس ثلاثة اقسام ، لان سهم الرسول صرفه الأئمة الأربعة إلى الكراع والسلاح .

وقال مالك : يقسم على ماذكره الله . ويجوز للامام ان يخرج عنهم حسب مايراه وإنما جاء على طريق الاولى في بعض الاحوال .

وقال ابو العالية — وهو رجل من صالحي التابعين — يقسم ستة اقسام ، فسهم الله للكعبة ، والباقي لمن ذكر بعد ذلك .

وقال ابن عباس ومجاهد : ذوالقربى هم بنو هاشم ، وقد بينا نحن ان المراد بذي القربى اهل بيت النبي صلى الله عليه وآله : وبعد النبي القائم مقامه ، وبه قال علي بن الحسين عليه السلام وروى جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وآله انهم بنو هاشم ، وبنو المطلب واختاره الشافعي وقال الحسن وقتادة : سهم الله وسهم رسوله وسهم ذي القربى لولي الأمر من بعده وهو مثل مذهبنا .

وقال ابو علي الجبائي : إن الأئمة الأربعة جعلوا سهم الرسول وذي القربى في الكراع والسلاح واجمعوا على ان سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل شائع في الناس بخلاف ماقلناه .

واليتيم من مات أبوه وهو صغير قبل البلوغ . وكل حيوان يتيم من قبل أمه إلا ابن آدم ، فانه من قبل ابيه .

واما ابن السبيل ، فهو المنقطع به في سفره . وإنما قيل ابن السبيل بمعنى اخرجه إلى هذا المستقر ، كما يخرجه ابوه من مستقره لقي محتاجاً .

والمسكين المحتاج الذي من شأنه ان تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى .

وقوله « فأن لله خمسه » قيل في فتح (ان) قولان احدهما — فعلى ان لله خمسه وحذف حرف الجر فنصب . الثاني — انه عطف على (ان) الاولى وحذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه ، وتقديره اعلموا ان ماغنمتم من شيء يجب قسمته واعلموا ان لله خمسه . قال الفراء : إنه جزاء بمنزلة « الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان لـه نار جهنم خالـداً » (١) قال الرماني : هـــذا غـلط

لأن (ان) لاتدخل على الجزاء إلا مع العماد ، كما لاتدخل (ان) إلا على هذا الوجه .

وقوله « إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » معناه اعلموا أنما غنمتم من شيء لهؤلاء الذين ذكرناهم ان كنتم مؤمنين بالله مصدقين له في اخباره وما انزله على عبده محمد ﷺ من القرآن .

وقال الزجاج يجوز ان يكون قوله « إن كنتم آمنتم بالله » متعلقاً بقوله « فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير . ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان » اي فايقنوا ان الله ناصركم إذ كنتم شاهدتم من نصره ماشاهدتم . ومعنى « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» يوم بدر وسمي يوم الفرقان لانه تميز اهل الحق مع قلة عددهم من المشركين مع كثرة عـددهم بنصر الله المؤمنين .وقيل كان يوم السابع عشر من شهر رمضان وقيل التاسع عشر ، سنـة اثنتين من الهجرة ؟ وهو المروي عن ابي عبدالله عليه السلام ثم قال « والله على كل شيء قدير » اي هو قادر على مجازاة من اطاعه بجزيل الثواب ، وعلى عقاب من عصاه بأليم العذاب .

قوله تعالى :

إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا (٤٢) لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٣)

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٤

آيتان في المدنيين والبصري وآية واحدة في الكوفي .

قرأ ابن كثير وابو عمرو (بالعدوة) بكسر العين ، الباقون بضمها وهما لغتان قال الراعي في الكسر :

وعينان حمر مآقيهما كما نظر العدوة الجؤذر (١)

وقال أوس بن حجر في الضم :

وفارس لايحل الحي عدوته ولوا سراعاً وماهموا باقبال (٢)

والعدوة شفير الوادي . وقال البصريون: الكسر اكثر اللغات . وقال احمد ابن يحيى : بالضم اكثر . وقال قوم :هما لغتان سواء ، وقرأ نافع وابو بكر عن عاصم وابن كثير في رواية البزي وشبل « حيي » باظهار الياءين . وقرأ الباقون بالادغام وإنما جاز الادغام في (حيي) للزوم الحركة في الثاني يجري مجرى (ردّوا) إذا اخبروا عن جماعة قالوا : حيوا فخففوا وقد جاء مدغماً ، فقالوا حيوا ومن اختار الاظهار ، فلامتناع الادغام في مضارعه من يحيي فجرى على شاكلته قال الزجاج ، لأن الحرف الثاني ينتقل عن لفظ الياء تقول حيي يحيى فاما احيا يحيي فلا يجوز فيه الادغام عند البصريين ، لان الثاني إذا سكن في الصحيح من المضاعف في نحو لم يردد كان الاظهار أجود فالمعتل بذلك أولى ، لان سكونه ألزم فلذلك وجه الاظهار في (يحيي) لانه أحق من (لم يردد) لان السكون له ألزم وقد أجاز الفراء الادغام في يحيي وانشد بيتاً لايعرف شاعره :

وكانها بين النساء سبيكة تمشي بشدة بأنها فتعي (٣)

تقدير معنى الآية واذكروا أيها المؤمنون « إذ انتم بالعدوة » وهي الجهة التي هي نهاية الشيء من احد جانبيه . ومنه قولهم عدوتا الوادي . وهما شفيراه وجانباه . و (الدنيا) بمعنى الأدنى الى المدينة . و (القصوى) بمعنى الأقصى

(١، ٢) تفسير الطبري ١٣/٥٦٥ (٣) معاني القرآن ١/٤١٢

منها الى جهة مكة ، وذلك ان النبي ﷺ واصحابه نزلوا بالجـانب الأدنى إلى المدينة . وقريش نزلت بالجانب الأقصى منها الى مكة فنزلا الوادي بهذه الصفة ، قد اكتنفا شفيريه . وقوله « والركب اسفل منكم » يعني ابا سفيان واصحابه في موضع اسفل منكم الى سـاحل البحر . وإنما نصب اسفل ، لان تقديره بمكـان اسفل . فهو في موضع خفض ، ونصب لانه لاينصرف وكان يجوز الرفع على تقدير والركب أشد سفلا منكم ، ومن نصب يجوز ان يكون اراد والركب مكاناً اسفل منكم بجعله ظرفاً . والذي حكيناه ، هو قول الحسن ، وقتادة ، وابن اسحـاق ومجاهد والسدي .

واصل الدنيا الدنو بالواو ، بدلالة قولهم دنوت إلى الشيء أدنو دنواً ، فقلبت الواو ياء . ولم تقلب مثل ذلك في القصوى ، لأنه ذهب بالدنيا مذهب الاسم في قولهم الدنيا والاخرة ، وان كان اصلها صفة ، فخففت . لأن الاسم احق بالتخفيف . وتقول : ادناه ادناء واستدناه استدناء ، وتدانوا تدانياً . وداناه مداناة . و (العلو) قرار تحته قرار . و (السفل) قرار فوقه قرار ، تقول : سفل يسفل سفلا ، وتسفل تسفلا وتسـافل تسـافلا وسفل تسفيلا ، وسـافـله مسافـلة ، وهو الاسفل ، وهي السفلى .

وقوله « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » والمواعدة وعد كل واحد من الاثنين الآخر وتواعدوا تواعداً . و (الاختلاف) مذهب كل واحد من الشيئين في نقيض الآخر ، ومنه الاختلاف في الميعاد لذهاب كل واحد من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التقدم والتأخر والزيادة والنقصان عما انعقد به الميعاد .

وقيل: اختلافهم في الميعاد بمعنى «لو تواعدتم» أيها المؤمنون على الاجتماع في الموضع الذي اجتمعتم فيه ثم بلغكم كثرة عددهم مع قلة عددكم لتأخرتم فنقضتم الميعاد ، في قول ابن اسحاق . ووجه آخر « ولو تواعدتم » من غير لطف الله لكم « لاختلفتم » بالعوائق والقواطع فذكر الميعاد لتـأكيـد امره في الاتفاق ولولا

لطف الله مع ذلك لو وقع على الاختلاف كما قال الشاعر :

جرت الرياح على محل ديارهم　　فكانما كانوا على ميعاد

وقوله « ليقضي الله امراً كان مفعولا » معناه ليفصل الله امراً كان مفعولا من عز الاسلام وعلو اهله على عبدة الاوثان وغيرهم من الكفار بحسن تدبيره ولطفه .

وقوله « ليهلك من هلك عن بينة » معناه ليهلك من هلك عن قيام حجة عليه بما رأى من المعجزات الباهرات للنبي صلى الله عليه وآله في حروبه وغيرها « ويحيى من حي عن بينة » يعني ليستبصر من استبصر عن قيام حجة ، فجعل الله المتبع للحق بمنزلة الحي ، وجعل الضال بمنزلة الهالك .

وقوله : « وإن الله لسميع عليم » معناه « سميع » لما يقوله القائل في ذلك « عليم » بما يضمره ، فهو يجازيه بحسب ما يكون منه .

قوله تعالى

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٤) آية .

التقدير واذكر يا محمد « إذ يريكهم الله في منامك قليلا » والهاء والميم كناية عن الكفار الذين قاتلوه يوم بدر « ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر » وهذه الرؤية كانت في المنام عند اكثر المفسرين . والرؤيا في المنام تصور يتوهم معه الرؤية في اليقظة والرؤيا على اربعة اقسام : رؤيا من الله عز وجل ، ولها تأويل ورؤيا من وسوسة الشيطان ، ورؤيا من غلبة الاخلاط ، ورؤيا من الافكار ، و كلها أضغاث أحلام إلا الرؤيا من قبل الله تعالى التي هي إلهام في المنام يتصور به الشيء

كأنه يرى في اليقظة . ورؤيا النبي صلى الله عليه وآله هذه بشارة له ، وللمؤمنين بالغلبة
وقال الحسن : معنى « في منامك » في عينك التي تنام بها ، وليس من الرؤيا في النوم ، وهو قول البلخي ، وهو بعيد ، لأنه خلاف الظاهر من مفهوم الكلام .

قال الرماني : ويجوز أن يريه الله الشيء في المنام على خلاف ماهو به ، لأن الرؤيا في المنام يخيل له المعنى من غير قطع وإن جاء معه تطلع من الانسان على المعنى وإنما ذلك على مثل تخييل السراب ماء من غير تطلع على أنه ماء ، فهذا يجوز ان يفعله الله . ولايجوز ان يلهمه إعتقاد الشيء على خلاف ماهو به ، لان ذلك يكون جهلا ، ولايجوز أن يفعله الله تعالى .

والنوم ضرب من السهو يزول معه معظم الحس ، تقول نام ينام نوماً ونومه تنويماً وأنامه إنامة وتناوم تناوماً واستنام استنامة . و (المنام) موضع النوم والمضطجع موضع الاضطجاع .

و (القلة) نقصان عن عدد ، كما أن الكثرة زيادة على عدد يقال : قل يقل قلة وقلله تقليلا ، واستقل استقلالا وتقلل تقللا . والشيء يكون قليلا بالاضافة إلى ماهو اكثر منه . ويكون كثيراً بالاضافة إلى ماهو أقل منه وأقله إقلالا إذا أطاقه فصادفه قليلا في طاقته ، فهو مشتق من هذا واستقل من المرض إذا قوي قوة يزول بها المرض اي وجده قليلا في قوته لايعتد به .

وقوله « لفشلتم » فالفشل ضعف الوجل لان الضعف قد يكون لمرض من غير فزع وقد يكون من فزع . فالفشل إنما هو الضعف عن فزع . فشل يفشل فشلا فهو فاشل ، وفشله تفشيلا : إذا نسبه إلى الفشل ، وتفاشلوا تفاشلا .

وقوله « ولتنازعتم » فالتنازع الاختلاف الذي يحاول كل واحد منهم نزع صاحبه مما هو عليه تنازعوا تنازعا ، ونازعه منازعة ونزع عن الامر ينزع نزوعاً ، واستنزعه إذا طلب نزوعه . وانتزعه إذا اقتلعه عن مكانه .

وقوله « ولكن الله سلم » فالسلامة النجاة من الآفة . سلم يسلم سلامة وأسلمه

إسلاماً إذا دفعه على السلامة ، وأسلم الانسان إذا دخل في السلامة من جهة الدين وسلمه تسليماً إذا نجاه .واستسلم استسلاماً اذا سلم نفسه للامر ، وتسلم تسلماً إذا طلب السلامة ، واستلم الحجر إذا طلب لمسه على السلامة وسالمه مسالمة ، وتسالما تسالماً .

وقوله « إنه عليم بذات الصدور » فالصدر الموضع الأجل لكون القلب فيه . وصدر المجلس أجله ، لانه موضع الرئيس ، وصدر الدار مشبه بصدر الانسان لانه المستقبل منه كاستقباله من الانسان يقال صدر يصدر صدوراً واصدره اصداراً وتصدر تصدراً وصدره تصديراً وصادره مصادرة ، وتصادروا تصادراً .

ففائدة الآية إن الله لطف للؤمنين بما لولم يكن لفشلوا ولاضطرب امرهم واختلفت كلمتهم . ولكن سلمهم الله من ذلك بلطفه لهم واحسانه بهم حتى بلغوا ماارادوه من عدوهم .

قوله تعالى:

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٥) آية

التقدير اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم ، فالهاء والميم كناية عن المشركين . والكاف والميم كناية عن المؤمنين ، أرى الله تعالى الكفار قليلين في أعين المؤمنين ليشتد بذلك طمعهم فيهم وجرأتهم عليهم ، وقلل المؤمنين في أعين الكفار لئلا يتأهبوا ولايستعدوا لقتالهم ولايكترثوا بهم ويظفر بهم المؤمنون . والمراد بالرؤية ههنا الرؤية بالبصر ، وهوالادراك بحاسةالبصر والرائي هوالمدرك . والعين حاسة يدرك بها البصر ، والعين مشتركة ، فمنها عين الماء ، وعين الميزان ، وعين الركبة ، وعين الذهب ، والعين النفس ، والالتقاء اجتماع الاتصال ، لان الاجتماع

على وجهين : اجتماع الاتصال واجتماع في معنى من غير اتصال كاجتماع القوم في الدار ، وان لم يكن هناك اتصال . ويقال للعسكرين إذا تصافا التقيا لوقوع العين على العين .

فان قيل كيف قللهم الله في أعينهم مع رؤيتهم لهم ؟

قلنا : بأن يتخيلوهم بأعينهم قليلا من غير رؤية على الصحة لجميعهم وذلك بلطف من ألطافه تعالى مما يصد به عن الرؤية من قتام يستر بعضهم ولايستر بعضاً آخر . وروي عن ابن مسعود انه قال رأيناهم قليلا حتى قلت لمن كان الى جانبي أتراهم سبعين رجلا ؟ فقال لي هم نحو المئة . فلما اسرنا رجلا منهم سألناه كم كانوا ، فقال ألفاً .

وقوله « ليقضي الله امراً كان مفعولا » إنما كرره في هذه الآية مع ذكره في الآية الاولى ، لاختلاف الفائدة ، فمعناه في الآية الاولى « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد . ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولا » من الالتقاء على الصفة التي حصلتم عليها . ومعناه في الثانية يقلل كل فريق في عين صاحبه « ليقضي الله امراً كان مفعولا » من اعزاز الدين بجهادكم على مادبره لكم . وإنما قال « كان مفعولا » والمعنى يكون مفعولا في المستقبل لتحقيق كونه لامحالة حتى صار بمنزلة ماقد كان إذ قد علم الله انه كائن لامحالة .

وقوله تعالى « والى الله ترجع الأمور » اي ترجع الامور الى ملكه وتدبيره خاصة ، ويزول ملك كل من ملكه في دار الدنيا .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٦) آية بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين خاصة يأمرهم بأنهم اذا لقوا جماعة من الكفار لحربهم أن يثبتوا ويذكروا الله كثيراً ، ويستنصروه عليهم لكي يفلحوا ويفوزوا بالظفر بهم ، وبالثواب عند الله يوم القيامة . وقد بينا ان معنى الايمان هو التصديق بما أوجبه الله على المكلفين أو ندبهم اليه . والفئة الجماعة المنقطعة من غيرها وأصله من فأوت رأسه بالسيف اذا قطعته . والثبوت حصول الشيء في المكان على استمرار ، يقال لمن استمر على صفة : قد ثبت كثبوت الطين . والذكر ضد السهو ، وقد يكون الذكر القول من غير سهو . والفئة المذكورة في الآية وان كانت مطلقة ، فالمراد بها المشركة او الباغية ، لأن الله لايأمر المؤمنين بالثبوت لقتال احد الا من هو بهذه الصفة ، ولايأمر بقتال المؤمنين .

قوله تعالى:

وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٤٧) آية.

أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذين ذكرهم بأن يطيعوا الله ورسوله ، ولا يختلفوا فيضعفوا عن الحرب . والعامل في « فتفشلوا » الفاء التي هي بدل من (أن) على معنى جواب النهي كقولك لاتأت زيداً فيهينك ، ولذلك عطف بالنصب في قوله « وتذهب ريحكم » عليه .

وقوله « وتذهب ريحكم » معناه كالمثل أي ان لكم ريحاً تنصرون بها يقال ذهب ريح فلان اي كان يجري في امره على السعادة بريح تحمله اليها ، فلما ذهبت وقف امره ، فهذه بلاغة حسنة . وقيل : المعنى ريح النصرة التي يبعثها الله مع من ينصره على من يخذله ، في قول قتادة وابن زيد . وقيل : تذهب دولتكم ، من قولهم ذهب ريحه ، أي ذهبت دولته . في قول ابي عبيدة وابي علي . وقال عبيد

ابن الابرص :

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد (١)

اي من ريح عز ومن عدد . وقال أبو جعفر عليه السلام : هذه الآية نزلت حين أشار خباب بن المنذر على النبي صلى الله عليه وآله ان ينتقل من مكانه حتى ينزلوا على الماء ويجيؤهم من خلفهم ، فقال بعضهم لاتنغفر معصاتك يارسول الله . فتنازعوا ، فنزلت الآية وعمل النبي صلى الله عليه وآله على قول خباب .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٨) آية .

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية ان يكونوا مثل « الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس » وهم قريش ، لما خرجت لتحمي العير ، فلما نجا ابو سفيان ارسل اليهم ان ارجعوا ، فقد سلمت عيركم وهم بالجحفة : فقال أبو جهل والله لانرجع حتى نرد بدراً وننحر جزراً ، ونشرب خمراً وتعزف علينا القيان ويرانا من غشينا من اهل الحجاز ، ذكره ابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وابن اسحاق . والبطر الخروج عن موجب النعمة ـ من شكرها ، والقيام بحقها ـ الى خلافه .وأصله الشق فمنه البيطار الذي يشق اللحم بالمبضع ، وبطر الانسان بطراً وابطره كثرة النعمة عليه إبطاراً وبطره تبطيراً . والرئاء اظهار الجميل مع ابطان القبيح تقول : راءى يرائي مراءاة ورياء . والمرائي رجل سوء لما بينا . والنفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر . والصد المنع . وقيل هو جعل مايدعو إلى الاعراض

(١) ديوانه : ٤٩ والطبري ١٣/٥٧٥ واعجاز القرآن للباقلاني : ١٣١ و (النعف) ما انحدر من حزونة الجبل و (شطب) اسم جبل .

فهؤلاء يصدون عن سبيل الله بما يدعون الناس إلى الاعراض عنها من معادات اهلها وقتالهم عليها وتكذيبهم بما جاء به الداعي اليها . والفرق بين الصد والمنع أن المنع مايتعذر معه الفعل والصد مايدعو الى ترك الفعل .

وقوله « والله بما تعملون محيط » معناه يحتمل أمرين : احدهما — انه يحيط علمه بما يعملونه . الثاني — انه قادر على جزاء ما يعملونه من ثواب أو عقاب .

قوله تعالى :

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٩) آية .

التقدير : واذكر « إذ زين لهم » يعني المشركين « زين لهم الشيطان اعمالهم بمعنى حسنها في نفوسهم والتزيين هو التحسين . والمعنى أن ابليس حسن للمشركين أعمالهم وحرضهم على قتال محمد ، وخروجهم من مكة ، وقوى نفوسهم ، وقال لهم « لاغالب لكم اليوم من الناس » . تقول غلب يغلب غلبة ، فهو غالب ، وغالبه مغالبة وتغالبا تغالباً وغلبه تغليباً .والغلبة القهر للمنازع ، والملك لامره .

وقوله « وإني جار لكم » حكاية عما قال ابليس للمشكرين ، فانه قال لهم اني جار لكم ، لأنهم خافوا بني كنانة لما كان بينهم، فأراد إبليس بأن يسكن خوفهم ، والجار هو الدافع عن صاحبه السوء أجاره يجيره جواراً . ومنه قوله « وهو يجير ولايجار عليه » (١) اي يعقد لمن احب دفع الضرر عنه من كل احد

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٨٩

ولايعقد عليه ، فالجار المجير . وقوله « فلما تراءت الفئتان » معناه ، فلما التقتا ورأى بعضهم بعضاً « نكص » يعني ابليس « على عقبيه » والنكوص هو الرجوع قهقرى خوفاً مما يرى . نكص ينكص نكوصاً ، قال زهير .

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا   لاينكصون اذا مااستلحموا وحموا (١)

واختلفوا في ظهور الشيطان لهم حتى رأوه ، فقال ابن عباس ، والسدي وقتادة ، وابن اسحاق . : ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي في جماعة من جنده ، وقال لهم : هذه كنانة قد أتتكم نجدة ، فلما رأى الملائكة « نكص على عقبيه » فقال الحارث بن هشام الى اين ياسراقة ، فقال « اني أرى مالا ترون » وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام . وقيل إنه راى جبرائيل بين يدي النبي صلى الله عليه وآله . وقال ابو علي الجبائي حوّله الله على صورة إنسان علماً للنبي صلى الله عليه وآله بما يخبر به عنه . وقال الحسن والبلخي : إنما هو يوسوس من غير ان يحول في صورة انسان .

وقوله « اني اخاف الله والله شديد العقاب » حكاية عن قول ابليس حين ولى فقال لقريش اني ارى من الملائكة مالا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب . وانما خافه من ان يأخذه في تلك الحال بعقوبته دون ان يكون خاف معصيته فامتنع منها .

قال الحسن : إبليس عدو الله لا يخاف الله لكن كلما استؤصل جند من جنوده وقعت بذلك عليه مخافة وذلة . وقال البلخي هو كقولك للرجل جمعت بين الفريقين حتى اذا وقع الشر بينهم خليتهم وانصرفت ، وقلت اعملوا ماشئتم وتريد بذلك انك خليت بينهم دون ان يكون هناك قول ، والاول هو المشهور في التفاسير .

---

(١) ديوانه ١٥٩ من قصيدته في هرم بن سنان . والطبري ١٤/ ١١ و(حبيك البيض) طرائق حديد . و (البيض) الخوذ من سلاح المحارب . و (حموا) من الحمية ، وهي الانفة والغضب .

والواو دخلت في قوله « واذ زين لهم الشيطان » للعطف على خروجهم بطراً ورئاء الناس ، فعطف حالهم في تزيين الشيطان اعمالهم على حالهم في خروجهم بطراً .

قوله تعالى

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٥٠) آية .

العامل في « اذ » يحتمل أن يكون احد شيئين : احدهما ـ الابتداء والتقدير ذاك « اذ يقول » والآخر بتقدير اذكر « اذ يقول المنافقون » وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان « والذين في قلوبهم مرض » الشاكين في الاسلام مع اظهارهم كلمة الايمان ، وهم بمكة جماعة خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا القول ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة (١) والحارث بن زمعة وعلي بن أمية والعاص بن المنبه بن الحجاج ، هذا قول مجاهد ، والشعبي وقال الحسن : المرض الشرك « والذين في قلوبهم مرض » المشركون . وقال ابو علي فصلوا في الذكر لان المنافقين كانوا يضمرون عداوة النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين ، وكانوا هؤلاء مرتبتين وكلهم في معنى المنافقين ، لان الشك في الاسلام كفر .

وقوله « غر هؤلاء دينهم » معناه ان المسلمين اغتروا بالاسلام . والغرور : اظهار النصح مع إبطان الغش تقول : غره يغره غروراً واغتر به اغتراراً ومنه الغرر ، لانه عمل بما لا يؤمن معه الغرور . وقوله « ومن يتوكل على الله » معناه ومن يسلم لأمر الله ويثق به ويرضى بفعله ، لان التوكل على الله هو التسليم لأمره مع الثقة والرضا به ، تقول : وكل امره الى الله ، يكل واتكل عليه يتكل اتكالا وتوكل توكلا وتواكل القوم تواكلا اذا اتكل بعضهم على بعض ، ووكل توكيلا . وقوله

(١) في بعض النسخ (ابو قيس بن الفاكهة بن المغيرة)

« فان الله عزيز حكيم » معناه انه قادر لايغالب واضع للاشياء مواضعها

قوله تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥١) آية .

قرأ ابن عامر « اذ تتوفى » بتاءين فأدغم احـدهما في الاخرى هشام عنه . الباقون بالياء والتاء . من قرأ بالتاء أسند الفعل الى الملائكة كقوله « اذ قالت الملائكة » (١) ومن قرأ بالياء ، فلأن التأنيث غير حقيقي .

هذا خطاب من الله تعالى للنبي ﷺ يقول الله تعالى له : « ولو ترى »الوقت الذي تتوفى الملائكة الذين كفروا بمعنى انهم يقبضون أرواحهم على استيفائها ، لان الموت انما يكون باخراج الروح على تمامها . وجواب « لو » محذوف ،وتقديره لرأيت منظراً عظيماً او امراً عجيباً او عقاباً شديداً ، وحذف الجواب في مثل هـذا أبلغ ، لان الكلام يدل عليه . والمرئي ليس بمذكور في الكلام لكن فيه دلالة عليه لان تقديره: لو رأيت الملائكة يضربون من الكفار الوجوه والادبار ، وحذفه ابلغ وأوجز مع أن الكلام يدل عليه . وقال مجاهد وسعيد بن جبير: معنى أدبارهم استاههم لـكنه كنى عنه . وقال الحسن : معناه ظهورهم . وقال ابو علي : المعنى ستضربهم الملائكة عند الموت . قال الرماني : وهذا غلط ، لأنه خلاف الظاهر ، وخـلاف الاجماع المتقدم أنه يوم بدر . وروى الحسن : ان رجلا قال يارسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشرك ، فقال : ذاك ضرب الملائكة. وروي عن مجاهد ان رجلا قال للنبي ﷺ اني حملت على رجل من المشركين فذهبت لاضربه فبدر رأسه ، فقال : سبقك اليه الملائكة . وعن ابن عباس انه كان يوم بدر .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٤٥

وقوله : « وذوقوا عذاب الحريق » تقديره ، ويقولون يعني الملائكة للكفار يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق يوم القيامة وحذف لدلالة الكلام عليه. ومثلهقوله « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا » (١) أي يقولون ربنا أبصرنا ، ودل الكلام عليه . والحريق تفريق الاجسام الكبيرة العظيمة بالنار العظيمة يقال : احترق احتراقاً واحرق إحراقاً وتحرق تحرقاً وحرقه تحريقاً ، وجواب «لو» محذوف ، وتقديره لرأيت منظراً هائلا وإنما حذف جواب « لو » لأن ذكره يخص وجهاً ومع الحذف يظن وجوه كثيرة فهو أبلغ .

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥٢) آية .

قوله « ذلك »إشارة من الملائكة للكفار الى ماتقدم ذكره من قولهم «ذوقوا عذاب الحريق» قالوا ذلكالعذاب «بما قدمت ايديكم » وموضع « بما قدمتايديكم» يحتمل وجهين من الاعراب : أحدهما ـ الرفع بأنه خبر ذلك . والثاني ـ النصب بأنه متصل بمذوف ، وتقديره ذلك جزاؤكم « بما قدمت أيديكم » وإنما قيل بما قدمت ايديكم مع أن اليد لاتعمل شيئاً لتبين أنه بمنزلة مايعمل باليد في الجناية ، ولذلك لم يذكر القلوب ، وإن كان بها معتمد العصيان ، لانه قصد إظهار مايقع به الجنايات في غالب الأمر وتعارف الناس . والتقديم ترتيب الشيء أولا قبل غيره : قدمه تقديماً وتقدم تقدما واستقدم استقداماً وتقادم عهده تقادماً واقدم على الأمر إقداما .

وقوله : « ان الله ليس بظلام للعبيد » العامل في « ان » يحتمل شيئين : احدهما ـ أن يكون موضعه نصباً بتقدير وبأنالله او خفضاً علىالخلاففيه. والثاني ـ ان يكون رفعاً بمعنى وذلك ان الله كما تقول ذلك هذا .

(١) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١٢

وإنما نفى المبالغة في الظلم عنه تعالى دون نفي الظلم رأساً، لأنه جاء على جواب من اضاف اليه فعل جميع الظلم، ولأن ماينزل بالكفار لو لم يكن باستحقاق لكان ظلماً عظيما، ولكان فاعله ظلاماً.

قوله تعالى

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٥٣) آية.

العامل في قوله: « كدأب آل فرعون » الابتداء وتقديره دأبهم كدأب آل فرعون، فموضعه رفع، لانه خبر المبتدأ، كما تقول زيد خلفك، فموضع خلفك رفع بأنه خبر المبتدأ، ولفظه نصب بالاستقرار، فكذلك الكاف في « كدأب ». والداب العادة والطريقة تقول ماذلك دأبه ودينه وديدنه.

والمعنى انه جوزي هؤلاء بالقتل والأسر كما جوزي آل فرعون بالغرق. وقال الزجاج الدأب إدامة الفعل داب يدأب في كذا إذا دام عليه، ودأب يداب دابا ودؤباً فهو دائب يفعل كذا اي يجري فيه على عادة. وقال خداش بن زهير العامري:

وما زال ذاك الداب حتى تجادلت ... هوازن وارفضت سليم وعامر (١)

وآل فرعون المراد به اتباعه فيما دعاهم اليه من ربوبيته. سموا « آل » لأن مرجع امرهم اليه بسبب اكيد. والفرق بين « آل فلان » و « الأصحاب » ان الاصحاب مأخوذ من الصحبة لطلب علم او غيره، كالأصحاب في السفر، وكثر في الموافقة على المذهب، كما يقولون اصحاب مالك واصحاب الشافعي يراد به الموافقة في المذهب، ولا يوصفون بأنهم آل الشافعي او ابي حنيفة. والآل يرجعون اليه بالسبب الأوكد الأقرب.

(١) روح المعاني ١٠/١٧، ومجاز القرآن ١ ٢٤٨.

وقوله : « إن الله قوي» معناه قادر وقد يكون القوي بمعنى الشديد ، وذلك لايجوز اطلاقه على الله ، وكذلك لايوصف بأنه شديد العقاب وإنما وصف عقابه بأنه شديد دون الله تعالى .

فمعنى الآية تشبيه حال المشركين في تكذيبهم بآيات الله التى اتى بها محمد ﷺ بحال آل فرعون في التكذيب بآيات الله التي اتى بها موسى عليه السلام لأن تعجيل العقاب لهؤلاء بالاهلاك كتعجيله لأولئك بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى :

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٤) آية .

الاشارة بقوله : « ذلك » الى ما تقدم ذكره من اخذ الله الكفار بالعقاب فكأنه قال ذلك العقاب المدلول عليه بأن الله لايغير النعمة الى النقمة إلا بتغيير النفس الى الحال القبيحة ، فـ «ذلك » ابتداء وخبره « بان الله» كما يقول القائل :العقاب بذنوب العباد ، والكاف في «ذلك» للخطاب و«ذلك» إشارة الى البعيد و«ذاك »إشارة الى ما دونـه ، و« ذا » اشارة الى ماهو حاضر . وقولـه « لم يك » اصله يكون فحذفت الواو للجزم وإلتقاء الساكنين، ثم حذفت النون استخفافاً لكثرة الاستعمال مع انه لايقع بالحذف إخلال بالمعنى ، لأن «كان ويكون »أم الافعال الا ترى أن كل فعل فيه معناها ، لأنك إذا قلت ضرب معناه كان ضرب ، ويضرب معناه يكون يضرب فلما قربت بأنها ام الأفعال وكثر استعمالها احتمل الحذف ولم يحتمل نظائرها ، وذلك مثل لم يجز ولم يصن كما جاز فيها . والتغيير تصيير الشيء على خلاف ما كان بما لو شوهد لشوهد على خلاف ما كان . وانما قيل بما لو شوهد لشوهد على خلاف ما كان للتفريق بينه وبين ما يصير على خلاف ما كان بالحكم فيه بما لم يكن عليه ،

ألاترى ان المعلوم بعد ان لم يكن معلوماً لايتغير بهذا العلم ، لأنه لو شوهـد لم يشاهد على خلاف ماكان ، والقدرة شوهدت على خلاف مايشاهد العجز .

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة ، لأنها تدل على انـه لايكون العقاب الا بتغيير النفس الى مالا يجوز ان يغير اليه ، وهذا يبين انه لايحسن من الله العقاب الا لمن فعل قبيحاً او اخل بواجب ، وذلك يبطل قول من قال : يجوز ان يعاقب الله البريء بجرم السقيم ، وجملة معنى الآية إنا اخذنا هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم ،وتغييرهم نعمة الله عليهم من بعث رسوله وتكذيبهم إياه واخراجهم له من بين اظهرهم ، ففعلنـا بهم مثل ما فعلنا بالماضين من الكفار .

قوله تعالى :

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٥) آية

انما اعاد قوله : « كداب آل فرعون والذين من قبلهم » لاعلى وجه التكرار بلافائدة بل لوجهين : احدهما ـ قال ابوعلي : لأنه على نوعين مختلفين من العقاب . وقال الرماني : فيه تصريف القول في الـذم بما كانوا عليه من قبح الفعل وتقدير الكلام : دأب هؤلاء الكفار مثل داب آل فرعون . ويحتمل ان يكون كناية عن هؤلاء الكفار « كذبوا بآياتنا » .

والتكذيب نسبة الخبر الى الكذب ، فالتكذيب بالحق مذموم ، والتكذيب بالباطل ـ لأنه باطل ـ ظاهرامره محمود،وانما وجب في التكذيب بآيات الله تعجيل العقوبة، ولم يجب ذلك في غيره. لما في تعجيل عقوبتهم من الزجر لغيرهم ،فيصلحون به مع علم الله بأنه ليس فيهم من يفلح ـ على مذهب من يقول : لو علم الله ان فيهم

من يؤمن ، لأبقاه . وانما كان التكذيب بآيات الله من اعظم الاجرام، لما يتبعه من تضييع حقوق الله فيما يلزم من طاعاته التي لاتصح الا بالتصديق بآياته التي جاءت بها رسله . اخبر الله انه كما اهلك هؤلاء الكفار بتكذيبهم النبي ﷺ كذلك اهلك من الكفار قوماً آخرين بتكذيبهم بآيات الله ، واغرق آل فرعون بمثل ذلك ، ثم اخبر ان كل هؤلاء كانوا ظالمين لنفوسهم بارتكاب معاصي الله وبترك طاعاته .

قوله تعالىٰ :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٦) آية

الشر الرمي بالمكاره كشرر النار ومثله الضرر ، وضد الشر الخير وضد الضرر النفع . والدابة مامن شأنه ان يدب على الأرض لكن بالعرف لايطلق إلا على الخيل، ومن ذلك قوله « ومامن دابة في الارض إلا على الله رزقها (١) » وقوله « عند الله » معناه في معلوم الله وفي حكمه. وأصل « عند » أن يكون ظرفاً من ظروف المكان إلا أنه قد تصرف فيها على هـذا المعنى . والفاء في قوله « فهم لايؤمنون » عطف جملة على جملة ، وهو من الصلة، كأنه قال : كفروا مصممين على الكفر « فهم لايؤمنون» وانما حسن عطف جملة من ابتداء وخبره على جملة من فعل وفاعل ، لما فيها من التأدية الى معنى الحال وذلك ان صلابتهم بالكفر ادى الى الحال في انهم لايؤمنون.

فاخبر الله تعالى في هذه الآية ان شر خصلة يكون الانسان عليها هو الكفر لما في ذلك من تضييع نعم الله التي توجب اعظم العقاب .

والآية متناولة لمن علم الله منه انه لايؤمن ، لأن قوله « فهم لايؤمنون » اخبار عن نفي ايمانهم فيما بعد .

---

(١) سورة ١١ هود آية ٦ .

قوله تعالى :

أَلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ (٥٧) آية .

قال مجاهد : هذه الآية نزلت في بني قريظة ، لما نقضت عهد النبي صلى الله عليه وآله في ألا يحاربوه ولا يمالؤا عليه ،فنقضوا عهده ، ومالؤا عليه ، وعاونوا قريشاً يوم الخندق ، فانتقم الله منهم . والمعاهدة المعاقدة على أمر يتقدم فيه للوثيقة به بالأيمان المؤكدة على ما يعقد عليه ، ونقض العهد مثل نقض الوعد لأنه حق للمعاهد كما ان ذلك حق للموعود . ونقض العزم هو الرجوع عما عزم عليه . والنقض يكون بشيئين : احدهما ـ فيما كان من بناء وشبهه . الثاني ـ في عقد او امر يعزم عليه. وقوله تعالى « ثم ينقضون » عطف المستقبل على الماضي ، لان الغرض ان من شأنهم نقض العهد مرة بعد اخرى في مستقبل اوقاتهم بعد العهد اليهم . وقوله « فهم لايتقون » معناه نقضوا عهدك من غير ان يتقوا عقاب الله عاجلا وآجلا .

قوله تعالى

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٨) آية

معنى « تثقفن » تصادفن وتلقين . واصله الادراك بسرعة تقول ثقف الكلمة فهو ثقف ، وثقفه اذا قومه وثاقفه مثاقفة اذا تدارك كل واحد منهما امر صاحبه بسرعة ودخلت نون التأكيد لما دخلت « ما » ولو لم تدخله لما حسن دخول النون ، لأن دخول «ما» كدخول القسم في أنه علامة تؤذن أنه من مواضع التأكيد المطلوب من التصديق ، لأن النون تدخل لتأكيد المطلوب فيما يدل على المطلب ، وهي في

ستة مواضع : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والعرض ، والقسم ، والجزاء مع «ما»

وقوله « فشردبهم من خلفهم » يحتمل معنيين :

احدهما _ اذا اسرتهم فنكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضي العهد خوفاً منك،وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد .

الثاني _ افعل بهم من القتل مايفرق من خلفهم،في قول الزجاج .

والتشريد التفريق على اضطراب ، شرد يشرد شروداً وشرده تشريداً وتشرد تشرداً . ودابة شرود . والتشريد والتطريد والتبديد والتفريق نظائر.

وقوله « لعلهم يذكرون » معناه لكي يفكروا فيتعظوا وينزجروا عن الكفر والمعاصي . وروي في الشواذ « من خلفهم » والمعنى نكل بهم انت يامحمد من ورائهم والاول اجود . وعليه القراء .

قوله تعالى :

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ (٥٩) آية .

بني المضارع مع نون التأكيد ، لأن النون لما أبطلت السكون اللازم للجزم الذي هو أمكن في الفعل ، كانت على إبطال غيره من الاعراب أقوى . وإنما بني على الفتح لسلامتها من البابين الكسرة والضمة في المؤنث والجمع ، في قولهم لا تحسبن يا امرأة ، ولا تحسبن يا قوم . وتثبت الألف مع الجازم في (أما تخافن) ولم تثبت مع الجازم في قولك (لا تخف القوم) لان الحركة في هذا عارضة ، لأن التقاء الساكنين من كلمتين .

أمر الله تعالى نبيه انه متى خاف _ ممن بينه وبينه عهد _ خيانة أن ينبذ اليه عهده على سواء . والخيانة نقض العهد فيما ائتمن عليه ، تقول : خانه يخونه خيانة ، واختان

المال اختياناً . وتخونه تخوناً وخونه تخويناً . و(النبذ) القاء الخبر الى من لا يعلمه بما يوجب أنه حرب بنقض عهد أو إقامة على بغي تقول : نبذ ينبذ نبذاً وانتبذ انتباذاً وتنابذ القوم تنابذاً ، ونابذه منابذة .

وقوله « على سواء » قيل في معناه قولان : احدهما ـ على استواء في العلم به أنت وهم في انكم حرب لئلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب . والثاني ـ ان معناه على عدل من قول الراجز :

فاضرب وجوه الغدر الاعداء حتى يجيبوك على السواء (١)

أي على العدل . ومنه قيل للوسط سواء ، لاعتداله الى الجهات ، كما قال حسان بن ثابت :

يا ويح انصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد (٢)

اي في وسطه . وقال الوليد بن مسلم : معناه على مهل وهذا بعيد ، لأنه لا يعرف في اللغة . فان قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة ؟

قيل : انما فعل ذلك لظهور امارات الخيانة التي دلت على نقض العهد ولم تشتهر ولو اشتهرت لم يجب النبذ ، كما حارب رسول الله صلى الله عليه وآله أهل مكة ، لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة النبي صلى الله عليه وآله فلما فعلوا ذلك فعلا ظاهراً مشهوراً أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم ، ولو نقضوه على خفى لم يكن بد من نبذ العهد اليهم ، لئلا ينسب الى نقض العهد والغدر .

وقوله « ان الله لا يحب الخائنين » معناه انه يبغضهم وانما عبر بحرف النفي ، لأن صفة النفي تدل على الاثبات إذا كان هناك ما يدل عليه ، وهو أبلغ في هذا الموضع لأن معناه : انهم حرموا محبة الله بخيانتهم واوجب ذلك بغضه اياهم . ومحبة الله للخلق ارادة منافعهم وبغضه اياهم ارادة عقابهم .

(١) تفسير الطبري ١٤/٢٧ والقرطبي ٨/ ٢٣

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٢٣ وقد مر في ١/ ٤٠٥ من هذا الكتاب .

والآيتان معاً نزلتا في بني قريظة ، قال الواقدي : نزلت هذه الآية في بني قينقاع ، وبهذه الآية سار النبي ﷺ اليهم .

قوله تعالى :

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ(٦٠)آية.

قرأ ابن عامروحمزة وحفص وأبو جعفر « ولايحسبن » بالياء . الباقون بالتاء. وقرأ ابن عامر« انهم » بفتح الهمزة . الباقون بكسرها .

قال أبو علي الفارسي : من قرأ بالتاء جعل « الذين كفروا » المفعول الأول و « سبقوا» المفعول الثاني ، وموضعه النصب ، وهوواضح . ومن قرأ بالياء احتمل ثلاثه اشياء :

احدها ــ (لا يحسبن الذين كفروا) وهو قول أبي الحسن .

الثاني ــ أن يكون أضمر المفعول الأول وتقديره : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا واياهم سبقوا

الثالث ــ ان يقدر على حذف (أن) كانه قال : ولا يحسبن الذين كفروا ان سبقوا . قال الزجاج يقوي ذلك ، ان في قراءة ابن مسعود « إنهم لا يعجزون » فعلى هذا يكون ان سبقوا سد مسد المفعولين ، كما ان قوله « أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا » (١) كذلك . ومن فتح الهمزة جعل الجملة متعلقة بالجملة الاولى والتقدير ولا تحسبنهم سبقوا ، لانهم لا يفوتون فهم يجازون على كفرهم . ومن كسر استأنف الكلام ، قال ابو عبيدة : سبقوا معناه فاتوا ، فانهم لا يعجزون اي لا يفوتون ، ومثله «أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا» ثم استأنف ، فقال : « ساء ما يحكمون(٢)

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢ .

(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٤ .

فكذلك ها هنا استأنف الكلام . وانما امتنع الاقتصار على احد المفعولين في (حسب) لأن المفعول الثاني خبر عن الأول ، والفعل متعلق بما دلت عليه الجملة فهو بخلاف (اعطيت) في هذا .

والحسبان هو الظن . وقال الرماني : هو شك يقوى فيه احدى النقيضين لقوة المعنى في حيز القولين . وأصله الحساب ، لأن المعنى فيه داخل فيما يحسب به ويعمل عليه . والاحتساب قبول الحساب والاعتداد به وفي المضارع لغتان ، فتميم تفتح السين وأهل الحجاز يكسرونها . والسبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به : سبق يسبق سبقاً وتسابقا تسابقاً ، وسابقه مسابقة واستبقوا استباقاً وسبقه تسبيقاً إذا أعطاه السبق . والسابق والمصلي في صفة الفرس . والاعجاز ايجاد ما يعجز عنه : أعجزه إعجازاً وعجزه تعجيزاً وعاجزه معاجزة واستعجز استعجازاً . وقال ابو عبيدة : معنى «لا يعجزون » لا يفوتون . وقال الحسن : معنى لا يعجزون الله لا يفوتونه حتى لا يثقفهم يوم القيامة . وقال الجبائي : معناه لا يعجزونك حتى يظفرك الله بهم . وقال الزجاج: المعنى لا يحسبن من أفلت من هذه الحرب قد سبق الى الحياة . وقال الزجاج : يجوز أن تكون (لا) صلة على ضعف فيه . والمعنى لا يحسبن الذين كفروا انهم يعجزون ، اي يفوتون .

قوله تعالى :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦١) آية.

امر الله تعالى المؤمنين ان يعدوا ما قدروا عليه من السلاح وآلة الحرب والخيل وغير ذلك . والاعداد اتخاذ الشيء لغيره مما يحتاج اليه في امره ولو اتخذه له في

نفسه محبة له لم يكن اعداداً وهو مما يعد فيما يحتاج اليه من غيره والاستطاعة معنى تنطاع بها الجوارح للفعل مع انتفاء المنع، تقول : استطاع استطاعة ، وطاوع مطاوعة واطاع طاعة ، وتطوع تطوعاً ، وانطاع انطياعاً . وقوله تعالى « من قوة » اي مما تقوون به على عدوه . وقيل : معناه من الرمي ،ذكره الفراء . ورواه عن النبي ﷺ عقبة بن عامر ، على ما ذكره الطبري . وقال عكرمة : اراد به الحصون .

وقوله تعالى : « ومن رباط الخيل » فالرباط شد ايسر من العقد : ربطه يربطه ربطاً ورباطاً وارتبطه ارتباطاً ورابطه مرابطة .

وقوله « ترهبون به عـدو الله وعدوكم » فالهاء في (به) راجعة الى الرباط وذكره لأنه على لفظ الواحد وان كان في معنى الجمع ، لانه كالجراب والقراب والذراع . والارهاب ازعاج النفس بالخوف تقول : ارهبه ارهاباً ورهبه ترهيباً ورهب رهبة وترهب ترهباً واسترهبه استرهاباً ، وقال طفيل :

ويل ام حي دفعتم في نحورهم بني كلاب غداة الرعب والرهب(١)

والعدو المراصد بالمكاره لتعديتها الى صاحبها والعدو ضد الولي .

وقوله « وآخرين من دونهم » لا تعلمونهم تقديره وترهبون آخرين ، فهو نصب بـ (ترهبون) ويجوز ان يكون نصباً بقوله : (وأعدوا لهم) وللآخرين من دونهم . وقيل في المعنيين بذلك خمسة اقوال : احدها ـ قال مجاهد : هم بنو قريظة وقال السدي .هم اهل فارس . وقال الحسن وابن زيد : هم المنافقون . الرابع ـ الجن، وهو اختيار الطبري ، قال : لأن الاعداد للاعداء دخل فيه جميع المتظاهرين بالعداوة فلم يبق إلا من لا يشاهد . الخامس ـ قال الجبائي : كل من لا تعرفون عداوته داخل فيه . ومعنى « لا تعلمونهم » لا تعرفونهم فلذلك لم يكن معه المفعول الثاني .

وقوله : « الله يعلمهم » معناه يعرفهم كما قال الشاعر :

---

(١) ديوانه : ٦٥ ومجاز القرآن ١/ ٢٤٩ .

فان الله يعلمني ووهباً وإنا سوف نلقاه كلانا (١)

وقوله تعالى : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون» يعني ما من شيء تنفقونه في الجهاد إلا والله يوفيكم ثوابه على ذلك بأتم الجزاء ولا تبخسون ، فمعنى الآية الأمر باعداد السلاح والكراع لاخافة اعداء الله بما يملأ صدورهم من الاستعداد لقتالهم مع تضمن اخلاف ما انفق في سبيل الله بأحوج ما يكون صاحبه اليه بما تربح فيه تجارته .

قوله تعالى :

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٢) آية.

قرأ ابو بكر عن عاصم «السلم» بكسر السين . الباقون بفتحها وفي ذلك ثلاث لغات: الفتح والكسر مع سكون اللام، وفتح السين واللام معاً . ومعناها المسالمة ولذلك أنث قال رجل من اليمن جاهلي :

أنا بل انني سلم لاهلك فاقبلي سلمى (٢)

قال ابو الحسن : السلم فيها الكسر والفتح لغتان . وقال غيره : السلم بفتح السين واللام على ثلاثة أوجه . تقول : أخذت الأسير سلماً اي على الاستسلام . والسلم السلف على السلامة . والسلم شجر واحده سلمة ، تقول له بالسلامة .

وقوله : « وإن جنحوا للسلم » معناه ان مالوا الى المسالمة ، تقول : جنح يجنح جنوحاً وجنحت السفينة إذا مالت الى الوقوف ، ومنه جناح الطائر لانه يميل به في

---

(١) قائله النمر بن ثولب العكلي . الاقتضاب : ٣٠٣ ، والمفصل للزمخشري: ٨٨ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٩ .

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٥٠ والتاج واللسان (سلم) .

احد شقيه . ولا جناح عليه في كذا اي لاميل الى مأثم ، قال ابو زيد : جنح يجنح جنوحاً إذا اعطى بيـده او عدل الى ما يحب القوم ، وجنح العدو والخيل ، وجنحت الابل إذا اخفضت في السير . وليس في الآية ما يدل على ان الكفـار إذا ما او الى الهدنة وجب اجابتهـم اليها على كل حال ، لأن الأحوال تختلف في ذلك ، فتارة تقتضي الاجابة ، وتارة لا تقتضي ، وذلك إذا وتروا المسلمين بأمر يقتضي الغلظة مع حصول العدة والقوة .

فان قيل : اذا جازت الهدنة مع الكفار فهلا جاز المكافة في أمر الامامة حتى يجوز تسليمها الى من لايستحقها ؟. قلنا : تسليم الامامة الى من لا يستحقها فساد في الدين كفساد تسليم النبوة الى مثله . وقوله « وتوكل على الله » اي فوض امرك اليه تعالى وثق بأنه لا يدبره الا على ما تقتضيه الحكمة .

واختلفوا هل في الآية نسخ ؟ فقال الحسن وقتادة وابن زيد : نسخها قوله : « اقتلوا المشركين » (١) وقال قوم : ليست منسوخة ، لانهـا في الموادعـة لاهل الكتاب والاخرى في عباد الاوثان ، والصحيح أنها ليست منسوخة ، لأن قوله : « اقتلوا المشركين » نزلت في سنة تسع وبعث بها رسول الله الى مكة ثم صالح اهل نجران بعد ذلك على الفي حلة : ألف في صفر وألف في رجب . وقوله « إنه هو السميع العليم » معناه انه يسمع دعاء من يدعوه عليم بما تقتضي المصلحة من اجابته وحسن تدبيره

قوله تعالى

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦ .

جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣) آيتان في الكوفي والمدني ، وآية في البصري.

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول له : « ان يريدوا » يعني الكفار . وقيل هم بنو قريظة ، ومعناه ان قصدوا بالصلح خديعتك . والخديعة اظهار المحبوب في الامر للاستجابة له مع ابطان خلافه : خدع خدعاً وخديعة واختدعه اختداعا وتخادع له تخادعا . وانخدع انخداعاً . وقوله « فان حسبك الله » معناه ، فان الله كافيك يقال : اعطاني ما احسبني اي كفاني . واصله الحساب ، وانما اعطاه بحساب ما يكفيه . وقوله « هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين » فالتأييد التمكين من الفعل على اتم ما يصح فيه ، تقول : ايده تأييداً وتأيد تأيداً . والأيد القوة. والمعنى ان الله قواه بالنصر من عنده ، بالمؤمنين الذين ينصرونه على اعدائه . وقوله « وألف بين قلوبهم » والتأليف الجمع على تشاكل ، فلما جمعت قلوبهم على تشاكل فيما تحبه وتنازع اليه كانت قدالفت ، ولذلك قيل : هذه الكلمة تأتلف مع هذه ، ولا تأتلف . والمراد بالمؤمنين الانصار وبتأليف قلوبهم ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والقتال ، هذا قول ابي جعفر عليه السلام والسدي وبشر بن ثابت الانصاري وابن اسحاق . وقال مجاهد : هو في كل متحابين في الله . وانما كان الجمع على المحبة تأليفاً بين القلوب ، لانه مأخوذ من الالفة وهي الاجتماع على الموافقة في المحبة ، ولايجوز في الجمع على البغضاء ان يسمى بذلك . وقوله « لو انفقت ما في الارض جميعاً » فالانفاق اخراج الشيء عن الملك . والمعنى « لو انفقت ما في الأرض جميعاً » لتجمعهم على الالفة ماتم لك ذاك ، ولكن الله الف بينهم بلطف من الطافه وحسن تدبيره ، وبالاسلام الذي هداهم الله اليه . ونصب « جميعاً » على الحال. وقوله « انه عزيز حكيم » معناه قادر لايمتنع عليه شيء يريد فعله « حكيم عليم » لايفعل الا ماتقتضيه الحكمة فعلى ذلك جمع قلوبهم على الالفة .

قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول له : يكفيك ان يكون ناصرك على اعدائك الله تعالى ، والـذين اتبعوك من المؤمنين من المهاجرين والانصار ، وانما كرر قوله « حسبك » مع انه قـد ذكر فيما قبل ، لأن المعنى هناك إن أرادوا اخـداعك كفاك الله امرهم . وهاهنا معناه عام في كل مايحتاج فيه الى كفاية الله اياه . وقوله « ومن اتبعك » يحتمل اعرابه وجهين :

احدهما ـ ان يكون نصباً . والمعنى ويكفي من اتبعك على التأويل ، لأن الكاف في موضع خفض بالاضافة لكنه مفعول به في المعنى ، فعطف على المعنى، وليس ذلك بكثير . واجاز الفراء الرفع لقوله « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين » ومثله قوله « انا منجوك واهلك » (١) وقال الشاعر :

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند(٢)

وهو معنى قول الشعبي وابن زيد . وقال الحسن : هو عطف على اسم الله ، فيكون رفعاً . والكسائي ، والفراء ، والزجاج أجازوا الوجهين وحمل عليهما معاً ابو علي الجبائي . والاتباع موافقة الداعي فيما يدعوا اليه من اجـل دعائه . والمؤمنون يوافقون النبي ﷺ في كل ما دعا اليه . وقال الواقدي : نزلت هذه الاية في بني قريظة وبني النضير لما قالوا له : نحن نسلم ونتبعك .

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

---

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٣٣ .

(٢) القرطبي ٤٢/٨ ومعاني القرآن ٤١٧/١ وتفسير القاسمي ٣٠٣/٨

عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) آية.

وهذا ايضاً خطاب للنبي ﷺ يأمره الله بأن يحرض المؤمنين على قتال المشركين.

والتحريض والحث نظائر، وهو الدعاء الأكيد بتحريك النفس على أمر من الامور. وضده التفتير. والمعنى حثهم على القتال. والتحريض الحث على الشيء الذي يعلم معه انه حارض إن خالف وتأخر. والحارض هو الذي قارب الهلاك. ومنه قوله: «حتى تكون حرضا» اي حتى تذوب غما على ذلك وتقارب الهلاك «او تكون من الهالكين» (١) وحارض فلان على أمره إذا واظب عليه. والتحريض ترغيب في الفعل بما يبعث على المبادرة اليه مع الصبر عليه. والقتال محاولة الصد والمنع بما فيه تعرض للقتل. والمجاهدة ان يقصد الى قتل المشركين بقتاله، ومن يدفع عن نفسه فليس كذلك. والصبر هو حبس النفس عما تنازع اليه من صد ما ينبغي أن يكون عليه وضده الجزع، وقال الشاعر:

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالامر ما تريان (٢)

والغلبة الظفر بالبغية في المحاربة قتلا او اسراً او هزيمة. وقد يقال في الظفر بالبغية في المنازعة بالغلبة. ومعنى «لايفقهون» ها هنا انهم على جهالة، خلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجو به ثواب الاخرة. وقال قوم: معناه لايعلمون ما لهم من استحقاق الثواب بالقتال. وقوله «ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين» وان كان بلفظ الخبر، فالمراد به الأمر، ويدل على ذلك قوله «الآن خفف الله عنكم» لأن التخفيف لايكون الا بعد المشقة.

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨٥ (٢) مجمع البيان ٢ /٥٥٦

قوله تعالى:

أَلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (٦٦) آية.

قرأ اهل الكوفة « إن يكن ... مئة. وان يكن ... الف » بالياء فيهما وافقهم اهل البصرة في الاولى. وقرأ اهل الكوفة الاالكسائي « ضعفاً » بفتح الضاد الباقون بضمها ، ولكنهم سكنوا العين الا ابا جعفر ، فانه فتحها ومد وهمز على وزن « فعلاء » على الجمع. من قرأ « ان يكن » بالياء فلان المراد به المذكر بدلالة قوله « يغلبوا » وكذلك ماوصف به المئة بقوله « صابرة »لأنهم رجال :حملا على المعنى كما حمل على المعنى في قوله « فله عشر أمثالها » (١) فأنث لما كانت في المعنى حسنات. ومن قرأ بالتاء فلان اللفظ لفظ التأنيث. ومن قرأ الاول بالتاء والثاني بالياء فلان القراءةبالتاء في الاولى أشد مشاكلة لقوله « مئة صابرة » وليس كذلك فيالاخرى ، لانه اخبر عنهم بقوله « يغلبوا ». وقال سيبويه يقال : ضعف ضعفاً فهو ضعيف. قال وقالوا الفقر كما قالوا الضعف ، فعل ذلك انهما لغتان.

هذه الاية نسخت حكم ماتقدمها ، لأن في الاولى كان وجوب ثبات الواحد للعشرة والعشرة للمئة ،فلما علمالله تعالى انذلك يشق عليهموتغيرت المصلحة فيذلك نقلهم الى ثبات الواحد للاثنين والمئة للمئتين،فخفف ذلك عنهم ، وهو قول ابنعباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدي وعطا والبلخي والجبائي والرماني ، وجميع المفسرين. والتخفيف رفع المشقة بالخفة. والخفة نقيض الثقل والخفة والسهولةبمعنى واحد. والضعف نقصان القوة،وهو من الضعف لانه ذهاب بعض القوة

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

وقولـه « باذن الله » فالاذن الاطلاق في الفعل ، لأنه يسمع بالاذن ، ومنه الاذان والايذان والاستئذان ، وقوله « الآن » مبني مع الالف واللام لأنـه خرج عن التمكن بشبه الحرف، لأنه ينكر تارة ويعرف أخرى ، فاستبهم استبهام الحروف بأنه للفصل بين الزمانين على انتقال معناه الى الذي يليه من الوقت كما ينتقل امس ، فالامس والغد والان نظائر واحكامها مختلفة لعلل لزمتها .

وقوله تعالى « والله مع الصابرين » معناه انه معهم بالمعونة لهم . والمعنى ان معونة الله مع الصابرين وحقيقة « مع » ان تكون للمصاحبة للجهة بالمعونة وذلك لايجوز عليه تعالى . وقيل هذه الآية نزلت بعد الاولى بمدة .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) آية .

قرأ اهل البصرة وابن شاهي « ان تكون » بالتاء . الباقون بالياء . وقرأ ابو جعفر «أسارى » ومن الاسارى ـ بفتح الهمزة منهما وبألف بعد السين ـ وافقه ابو عمرو في الثاني . الباقون بفتح الهمزة وسكون السين من غير الف فيهمـا .

من قرأ بالتاء فلان لفظ الأسرى لفظ التأنيث ، فحمله على اللفظ .

ومن قـرأ بالياء فـلان الفعل متقدم والأسرى المراد به المـذكورون . وايضاً فقد وقع الفصل بين الفعل والفاعل وكل واحد من ذلك إذا انفرد يـذكر الفعل معه ، مثل جاء الرجل وحضر القاضي امرأة . فاذا اجتمعت هـذه الاشياء كان التذكير اولى . واختار الأخفش التذكير . وقال ابو علي الفارسي : الاسرى اقيس من الأسارى لأن اسير فعيل بمعنى مفعول ، وما كان كذلك لايجمع بالواو

والنون ، ولا بالالف والتاء . وإنما يجمع على فعلى مثل جريح وجرحى وقتيل وقتلى وعفير وعفرى ، ولديغ ولدغى ، وكذلك كل من اصيب في بدنه مثل مريض ومرضى واحمق وحمقى وسكران وسكرى . ومن قرأ اسارى شبهه بكسالى وقالوا كسلى شبهوه باسرى .واسارى في جمع اسير ليس على بابه، وقال ابو الحسن :الاسرى مالم يكن موثقاً والاسارى موثوقون . قال : والعرب لاتعرف ذلك بل هما عندهم سواء. وقال الأزهري : الاسارى جمع اسرى فهو جمع الجمع ، والأسر الشد على المحارب بما يصير بـه في قبضة الآخذ له . واصله الشد ، يقال : قتب مأسور اي مشدود وكانوا يشدون الاسير بالفداء .

والمعنى : ماكان لنبي ان يحبس كافراً للفداء والمن حتى يثخن في الأرض ، والاثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل . وقال مجـاهد : الاثخان القتل . والثخن والغلظ والكثافة نظائر . وقوله « يريدون عرض الـدنيا » يعني تريدون الفداء والعرض متاع الدنيـا وسماه عرضاً لقلة لبثه لانه بمعنى العرض في اللغة .

وقوله « والله يريد الاخرة » معناه والله يريد عمل الاخرة من الطاعات التي تؤدي الى الثواب وإرادة الله لنا خير من إرادتنا لانفسنا .

وقوله « والله عزيز حكيم » معناه يريد عمل الاخرة، فانه يعزكم ويرشدكم الى اصلاحكم ، لانه عزيز حكيم ، فلا تخافوا قهراً مع إعزازه اياكم .

وهذه الاية نزلت في اسارى بدر قبل ان يكثر الاسلام ، فلما كثر المسلمون قال الله تعالى « فاما منا بعد وإما فداء » (١) وهو قول ابن عباس وقتادة . وقال فادوهم بأربعة آلاف ، وفي الاية دليل على بطلان مذهب المجبرة لانه تعالى فصل إرادة نفسه من إرادتهم ، ولو كان يريد ما ارادوه لم يصح هذا الفعل من التفصيل

فان قيل : كيف يكون القتل فيهم كان اصلح وقد اسلم منهم جماعة ، ومن علـم الله من حاله انه يؤمن يجب تبقيته ؟! قلنا : في ذلك خلاف ، فمن قال :

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٤

لايجب ذلك لايلزمه السؤال. ومن قال : ذلك واجب قال : ان الله اراد ان يأمرهم بأخذ الفداء وإنما عاتبهم على ذلك لانهم بادروا اليه قبل ان يؤمروا به .

قوله تعالى :

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) آية .

قيل في معنى قوله « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم » قولان :

قال الحسن لولا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من انه لايعذبهم على ذلك .

وقال غيره : لولا ما كتب الله فيه انه يغفر لأهل بدر ماتقدم وماتأخر .

الثاني - قال مجاهد : يعني ماذكره من قوله « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١) فكأنه قال : لاعذب إلا بعد المظاهرة في البيان وتكرير الحجة به . وقال قوم « لولا ما كتبه الله » من ان الفدية ستحل لهم فيما بعد ، ذهب اليه سعيد ابن جبير . ومعنى الاية « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم » من فداء الاسرى والغنيمة عذاب عظيم ، لانهم اخذوه قبل ان يؤذن لهم . وقد كان سبق ان الله سيحله لهم في قول ابن عباس والحسن ، وقال الجبائي : والمعنى « لولا كتاب من الله سبق » وهو القرآن الذي آمنتم به واستحقيتم لذلك غفران الصغائر لمسكم فيما اخذتم به من الفداء عذاب عظيم . ولايجوز ان يكون المراد به الا الصغائر لانهم قبل الغفران لم يكونوا فساقاً اجماعاً. قال الجبائي : وقد كان من النبي صلى الله عليه وآله في هذا معصية اجماعاً من غير تعيين ماهي ، واظن انها في ترك قتل الاسرى . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لانه لاإجماع في ذلك بل عندنا لايجوز على النبي صلى الله عليه وآله فعل شيء من القبائح صغيراً كان او كبيراً لما في ذلك من التنفير عنه على ما بيناه

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١٥

في غير موضع . واكثر المفسرين على ان النبي ﷺ لم يقع منه خلاف لأمر الله. وقد روي ان النبي ﷺ كره اخذ الفداء حتى راى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه ، فقال يارسول الله هـذا اول حرب لقينا فيه المشركين اردت ان يثخن فيهم القتل حتى لايعود احد بعد هذا الى خلافك وقتالك ، فقال رسول الله : قـد كرهت ما كرهت ، ولكن رايت ماصنع القوم ، فالمعصية في ذلك كانت من قوم من الصحابة الذين مالوا الى الدنيا واخذ الفداء . وقد قال البلخي ايضاً إن اجلاء الصحابة براء من ذلك. وروي عن النبي ﷺ انه قال إن الغنائم احلت لي ولم تحل لنبي قبلي .

ومعنى « لولا » امتناع الثاني لوقوع الأول كقولك : لولا زيد بالمـكان الذي هو به لاتيتك ، فامتنع الاتيان لمكان زيد . والسبق يكون تقدماً في الزمان والمكان والرتبة بأن يكون له وإن لم يكن فيها . والمس مماسة يقع معها إدراك ، وهو كاللمس في الحقيقة . والعظيم مايصغر فيه قدر غيره ، ويكون ذلك بعظم الجثة تارة وبعظم الشأن أخرى . والعظيم هو المستحق للصفة بأن قدر غيره صغير عنده . وقال أبو جعفر عليه السلام كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية من فضة والاوقية أربعون مثقالا إلا العباس فان فداءه كان مئة اوقية وكان أخذمنه حين أسر اثنين وعشرين اوقية ذهباً ، فقال النبي ﷺ ذاك غنيمة ففاد نفسك وابني اخيك عقيل ونوفل بن الحارث ، فقال: ليس معي ، فقال : اين الذهب الذي سلمته الى ام الفضل وقلت : ان حـدث بي حدث، فهو لك وللفضل وعبد الله وقثم ، فقال من اخبرك بهذا ؟ قال : الله ، قال : اشهد انك رسول الله ، والله مااطلع على هذا احد إلا الله تعالى .

قوله تعالى :

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٦٩) آية .

أباح الله تعالى المؤمنين بهذه الاية أن يأكلوا مما غنموه من اموال المشركين بالقهر من دار الحرب . ولفظه وإن كان لفظ الامر . فالمراد به الاباحة ورفع الحظر. والغنيمة ماأخذ من دار الحرب بالقهر . والفيء ما رجع الى المسلمين ، وانتقل اليهم من المشركين . والاكل تناول الطعام بالفم مع المضغ والبلع ، فمتى فعل الصائم هذا فقد أكل في الحقيقة . والفرق بين الحلال والمباح ان الحلال من حل العقد في التحريم والمباح من التوسعة في الفعل وان اجتمعا في الحل والطيب المستلذ ، وشبه الحلال به فسمي طيباً . واللذة نيل المشتهى . قال الزجاج : الفاء في قوله « فكلوا » على تقدير قد أحللت لكم الفداء فكلوه .

وقوله « واتقوا الله » معناه اتقوا معاصيه فان الله غفور رحيم لمن اطاعه وترك معاصيه .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِمَن فِي أَيْدِيكُم مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) آية

قرأ ابو عمرو وحده من السبعة وابو جعفر « الاسارى » الباقون « الاسرى » وابو عمرو جمع المذهبين في الاول والثاني . وحمله الباقون على النظير في المعنى.

وقد فسرنا فيما مضى الاسير من اخذ من دار الحرب من أهلها ، ولو اخذ مسلم لكان قد فك اسره . خاطب الله بهذه الآية نبيه ﷺ وامره ان يقول لمن حصل في يده من الاسرى يعني من حصل في وثاقه وسماه في يده لانه بمنزلة ما

قبض على يده بالاستيلاء عليه ولذلك يقال في الملك المتنازع فيه لمن اليد ؟ وقوله « ان يعلم الله في قلوبكم خيراً » يعني اسلاماً . وقيل معناه إن يعلم منكم خيراً في المستقبل بأن يفعلوه فيعلمه الله موجوداً ، لان مالم يفعل لايعلمه موجوداً والخير النفع العظيم ، وهو هاهنا البصيرة في دين الله وحسن النية في امرالله . وقولـه « يؤتكم خيراً » يعني يعطيكم خيراً « مما اخذ منكم » من الفداء . وقال الحسن اطلقهم بالفداء ، ولولم يسلموا لم يتركهم .

وقوله « ويغفرلكم» يعني زيادة مما يؤتيهم يغفرلهم معاصيهم ويسترهاعليهم لانه غفور رحيم . وروي عن العباس انه قال : كان معي عشرون اوقية فأخذت مني فاعطاني مكانها عشرين عبداً ووعدني بالمغفرة. وقالالعباس فيّ نزلتوفي اصحابي هذه الاية ، وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى :

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) آية.

معنى الاية ان هؤلاء الاسارى ان علم الله في قلوبهم خيراً اخلف عليهم خيراً مما اخذ منهم . وان عزموا على الخيانة ، ونقض العهد وفعلوا خلاف ماوقع عليه العقد من تأدية فرض الله ، فقد خانوا الله من قبل هذا . والمعنى فقد خانوا أولياء الله ، لأن الله لايمكن ان يخان ، لأنه عالم بالأشياء كلها لايخفى عليه خافية . والخيانة هاهنا نقض عقد الطاعة لله ورسولهالتي شهدت بها الدلالة . وقوله « فامكن منهم » المعنى لما خانوا بأن خرجوا الى بدر وقاتلوا مع المشركين ، فقد امكن الله منهم بان غلبوا واسروا . فان خانوا ثانياًفيمكن اللهمنهم مثل ذلك . والامكان هو القدرة على الشيء مع ارتفاع المانع ، وما لو حرص عليه صاحبه اتم الحرص لم

يصح ان يقع منه لايكون امكاناً ، فالامكان ينافي المنع والالجاء كما ينافي العجز القدرة .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بما تقولونه ومافي نفوسكم وبجميع الاشياء« حكيم » فيما يفعله . والحكيم هوالعالم بوجوه الحكمة في الفعل ممايصرف عن خلافها والاصل في الحكمة المنع فهي تمنع الفعل من الخلل والفساد .

قوله تعالى

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) آية .

قرأ حمزة « ولايتهم » بكسر الواو . الباقون بفتحها . قال الزجاج : إنما جاز الكسر لأنه يشبه الصناعة كالخياطة والقصارة والحياكة ، وقال الشاعر في الفتح :

دعيهم فهم ألبٌ علي ولاية وحفرهم ان يعلموا ذاك دائب (١)

قال ابو عبيدة : بفتح الواو مصدر المولى تقول : مولى بين الولاية وإذا كسرت فهو من وليت الشيء . قال ابو الحسن : يفتح الواو من الولاية إلا الولاية في السلطان بكسر الواو ، وكسر الواو في الاخرى لغة . وقرأ الأعمش بكسر الواو من الولاية في الدين هنا . قال ابو علي الفارسي : الولاية هاهنا في الدين والفتح أجود . قال ابو الحسن . وهي قراءة الناس . وعن الأعمش أنه كسر الواو ، وهي لغة . وليست

(١) معاني القرآن ١/٤١٩

بذلك . قال المبرد عن الاصمعي : ان الأعمش لحن في كسره لذلك . قال ابو علي: إذا كان ذلك لغة لايكون لحناً . قال الفراء : والكسر أحب الي ، لأنها ولاية المواريث . وقال الازهري : في النصرة والنسب بفتح الواو . وفي الامارة بكسرها.

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن احوال المؤمنين الذين هاجروا من مكة الى المدينة بقوله « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » وعن احوال الأنصار بقوله « والذين آووا ونصروا » يعني النبي صلى الله عليه وآله . ثم قال « اولئك » يعني المهاجرين والانصار « بعضهم اولياء بعض » والهجرة فراق الوطن الى غيره من البلاد فراراً من المفتنين في الدين ، لأنهم هجروا دار الكفار الى دار الاسلام . والجهاد تحمل المشاق في قتال اعداء الدين جاهدجهاداً وجهدهالأمر جهداً واجتهد اجتهاداً ، وجاهد مجاهدة . والايواء ضم الانسان صاحبه اليه بانزاله عنده وتقريبه له ، تقول : آواه يؤويه ايواء واوى يأوي اوياً ، وأويت معناه رجعت الى المأوى . والولاية عقد النصرة للموافقة في الديانة .

ثم اخبر تعالى عن الذين آمنوا ولم يهاجروا من مكة الى المدينة فقال «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء » وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ ولاية القرابة نفاها عنهم لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الرحم ـ في قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ـ وعن ابي جعفر عليه السلام انهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى .

الثاني ـ انه نفي الولاية التي يكونون بها يداً واحدة في الحل والعقد ، فنفى عن هؤلاء ماائبته للأولين حتى يهاجروا . ثم قال « وإن استنصروكم » اي طلبوا نصركم « في الدين » يعني الذين آمنوا ولم يهاجروا « فعليكم النصر» اي نصرهم بسبب الايمان الذي يجب عليكم ان تنصروهم على الكفار « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » يعني موادعة ومهادنة تقتضيه من جهة ان عقدهم بخلاف عقدهم .

وقيل انه نسخ ذلك بقوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » (١) .

وقوله «والله بما تعملون بصير » يعني عالم بمايعملونه

قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) آية .

اخبر الله تعالى عن الكافرين أن بعضهم اولياء بعض بمعنى النصرة ، لأنه ينصر بعضهم بعضاً . وقوله « الا تفعلوه » الهاء عائدة الى معنى ما أمروا به في الآية الاولى والثانية ، ومخرجه مخرج الخبر والمراد به الأمر ،وتقديره الا تفعلوا ما امرتم به من التناصر والتعاون والبراءة من الكفار « تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » على المؤمنين الذين لم يهاجروا . فالفتنة هاهنا المحنة بالميل الى الضلال لانه إذا لم يتوال المؤمن المؤمن على ظاهر حاله من الايمان والفضل، ولم يدعه الى التبري من الضلال ادى ذلك الى الضلال. والفساد ضد الصلاح وهو الانقلاب الى الضرر القبيح . والصلاح جريان الشيء على استقامة . والولي هو المختص بالعقد على النصرة في وقت الحاجة ، وقد يعقد بالعزم ، وقد يعقد بالحكم . وقيل في معنى قوله « والذين كفروا بعضهم اولياء بعض » قولان : احدهما - في الميراث ، في قول ابن عباس ، وابي مالك . والثاني - قال قتادة وابن اسحق في النصرة .

قوله تعالى

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

---

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٢

كَرِيمٌ (٧٤) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وهاجروا من ديارهم وأوطانهم، يعني من مكة الى المدينة، وجاهدوا مع ذلك في سبيل الله وقتال اعدائه . والذين آووا من الأنصار ومعناه ضموهم اليهم ونصروا النبي ﷺ بأنهم المؤمنون حقاً ، وقيل في معناه قولان : احدهما انهم المؤمنون الذين حققوا ايمانهم لما يقتضيه من الهجرة والنصرة بخلاف من اقام بدار الشرك . الثاني ـ قال ابو علي الجبائي : معناه انهم المؤمنون حقاً ، لان الله حقق ايمانهم بالبشارة التي بشرهم بها ، ولو لم يهاجروا ولم ينصروا لم يكن مثل هذا .

واختلفوا في هل تصح الهجرة في هذا الزمان أو لا ؟

فقال قوم : لاتصح لان النبي ﷺ قال : لاهجرة بعد الفتح ولأن الهجرة انتقال من دار الكفر الى دار الاسلام على هجر الاوطان ، وليس يقع مثل هذا في هذا الزمان لاتساع بلاد الاسلام إلا أن يكون نادراً لايعتد به .

وقال الحسن : بقيت هجرة الاعراب الى الامصار الى يوم القيامة .

والأقوى أن يكون حكم الهجرة باقياً ، لأن من أسلم في دار الحرب ثم هاجر الى دار الاسلام كان مهاجراً، وسمي الجهاد في سبيل الله لأنه طريق الى ثواب الله في دار كرامته .

وقوله « لهم مغفرة ورزق كريم » اخبار منه تعالى أن لهؤلاء المغفرة لذنوبهم والرزق الكريم يعني العظيم الواسع والكريم الذي يصح منه الكرم من غير مانع. والكرم الجود العظيم والشرف قال الشاعر :

تلك المكارم لاقعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وقيل الرزق الكريم هنا طعام الجنة لانه لايستحيل الى أجوافهم نجواً بل يصير كالمسك ريحاً .

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٥) آية .

اخبر الله تعالى بأن الذين هاجروا بعد هجرة من هاجر، وقيل أراد بعد الفتح وجاهدوا مع المؤمنين بأن قال « فأولئك منكم » ومعناه حكمهم حكمكم في وجوب موالاتهم ومواريثهم ونصرتهم . وقوله « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » قيل في معنى « كتاب الله » قولان :

احدهما – في كتاب الله من اللوح المحفوظ ، كما قال « ماأصاب من مصيبة في الارض ، ولافي أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » (١) .

والثاني – قال الزجاج : يعني في حكم الله .

ومعنى « أولوا » ذووا ، واحده ذو ، ولا واحد له من لفظه .

وفي الآية دلالة على ان من كان قرباه أقرب الى الميت كان أولى بالميراث سواء كان عصبة اولم يكن او له تسمية او لم يكن لان مع كونه اقرب تبطل التسمية. ومن وافقنا في توريث ذوي الارحام يستثني العصبة ، وذوي السهام .

وهذه الآية نسخت حكم التوارث بالنصرة والهجرة فانهم كانوا لايورثون الاعراب من المهاجرين على ماذكره في الايات الاول . ومن قال : الولاية في الاية الأولى ولاية النصرة دون الميراث يقول : ليست هذه ناسخة لها بل هما محكمتان .

ودخلت الفاء في قوله : « فاولئك » كما تقول الذي يأتيني فله درهم، لأن فيه معنى المجازات وقال مجاهد : في هذه الآيات الثلاث ذكر ماولاية رسول الله بين

---

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٢

المهاجرين والانصار في الميراث ، ثم نسخ ذلك بآخرها من قوله « وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله » وقال عبد الله بن الزبير نزلت في العصبات كان الرجل يعاقد الرجل يقول ترثني وارثك فنزلت « وأولو الارحام » الى آخرها .

وقال الحسن : والذين آمنوا من بعد يعني بعد فتح مكة . وقوله « منكم » معناه مؤمنون مثلكم ، ولاهجرة بعد فتح مكة ، وقال : الهجرة الى الامصار قائمة الى يوم القيامة . وكان الحسن يمنع ان يتزوج المهاجر الى اعرابية . وروي عن عمر انه قال : لاتنكحوا أهل مكة ، فانهم اعراب .

وأكثر هذه السورة في قصة بدر . وكانت في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة، من شهد هذه الواقعة فله الفضل .

٩ ـ سورة براءة

وتسمى سورة التوبة

مدنية وهي مئة وتسع وعشرون آية في الكوفي وثلاثون في البصري والمدنيين

قال مجاهد وقتاده وعثمان: هي آخر ما نزلت على النبي ﷺ بالمدينة وروي عن حذيفة انه قال: كيف يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب ؟!

وروي عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة قال: تلك الفاضحة مازالت تنزل وفيهم ومنهم حتى خشينا الا تدع احداً. قال: وسورة الأنفال نزلت في بدر، وسورة الحشر في بني النضير.

قوله تعالى:

بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) آية.

قيل في علة ترك افتتاح هذه السورة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) قولان:

احدهما ـ ماروي عن ابي بن كعب أنه ضمت هذه السورة الى الانفال بالمقاربة، فكانتا كسورة واحدة لأن الاولى في ذكر العهود والاخرى في رفع لعهود. وقال عثمان لاشتباه قصتهما، لان الاولى في ذكر العهود والاخرى في رفع لعهود. وقال المبرد: لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وبراءة نزلت رفع الامان.

ويحتمل رفع « براءة » وجهين:

احدهما ـ ان يكون خبراً لمبتدأ محذوف وتقديره هذه الآيات براءة.

والثاني - ان يكون مبتدأ وخبره الظرف في قوله « الى الذين » . والاول اجود لانه يدل على حصول المدرك كما تقول لما تراه حاضرا : حسن والله اي هذا حسن .

ومعنى البراءة انقطاع العصمة برىء براءة وابرأه ابراءاً وتبرأ تبرؤاًو برئت من المرض و برأتأبرأ وأبرؤ وبرأ تبريئا . وروى أهل اللغة برأت أبرؤ برءاً ، ولم يجيء من المهموز (فعلت أفعل) إلا في هذا الحرف الواحد وبريت القلم أبريه برياً بغير همز ،وبراه السير إذا هزله . وبرىء له يبرىء إذا تعرض له، وباراه إذاعارضه وأبرأت البعير إذا جعلت لانفه براه بالالف.

ومعنى الآية برىء الله من المشركين ورسوله « إلا الذين عاهدتم من المشركين » من اعطائتم الامان ، والعهود والوفاء لهم بها إلا إذا نكثوا ، لانهم كانوا ينكثون ما كان بينهم وبين النبي ﷺ ، فأمر الله تعالى النبي ﷺ ان ينبذ ايضاً اليهم عهدهم . وقوله « إلا الذين عاهدتم من المشركين » فالعهد العقد الذي يتقدم به لتوثيق الامر عهد عهداًوعاهد معاهدة وتعاهد الامر تعاهداً وتعهده تعهداً . وقوله : « عاهدتم » انما جاء بلفظ الخطاب ، لأن فيه دلالة على الأمر بالنبذ الى المشركين برفع الامان ولولا ذلك لجاز عاقدنا ، لان معاقدة النبي ﷺ انما هي عن الله عز وجل . ويجوز رفع الامان والبراءة من غير نقض العهد إذا كان مشروطاً الى ان يرفعه الله اليهم .

قوله تعالى :

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) آية .

السيح السير في الأرض على مهل تقول : ساح يسيح سيحاً وسياحة وسيوحاً

وسيحا نأو إنساح الماء إنسياحاً وسيحه تسييحاً .

امر الله تعالى في هذه الآية ان يقال لهؤلاء المشركين أن يسيحوا في الأرض أربعة اشهر آمنين وإنما احلهم هذه الاشهر لانها الاشهر الحرم الى آخر المحرم من أول شوال ، في قول ابن عباس والزهري . وقال الفراء : كانت المدة الى آخر المحرم لأنه كان فيهم من كان مدته خمسين ليلة ، وهو من لم يكن له عهد من النبي صلى الله عليه وآله فجعل الله ذلك له . قال : ومعنى الاشهر الحرم المحرم وحده وإنما جمعه لانه متصل بذي الحجة وذي القعدة فكأنه قال : فاذا انقضت الثلاثة أشهر . وقال ابو عبد الله عليه السلام اول الاربعة الاشهر يوم النحر وآخرها العاشر من شهر ربيع الآخر ،وهو قول محمد بن كعب القرطي ومجاهد ، وقال الحسن : إنما جعل لهم هذه المدة ، لان منهم من كان عهده اكثر من اربعة اشهر فحط اليها . ومنهم من كان اقل فرفع اليها . وقال ابوعلي الجبائي: كان يوم النحر لعشرين من ذي القعدة الى عشرين من ربيع الاول ، لان الحج كان تلك السنة في ذلك الوقت ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة وفيها حجة الوداع ، وكان سبب ذلك النسيء الذي كان في الجاهلية .

وقرأ براءة على الناس يوم النحر بمكة علي بن ابي طالب عليه السلام لأن أبا بكر كان على الموسم في تلك السنة فاتبعه النبي صلى الله عليه وآله بعلي عليه السلام ، وقال : لايبلغ عني الا رجل مني – في قول الحسن وقتادة ومجاهد والجبائي – وروى أصحابنا ان النبي صلى الله عليه وآله كان ولاه ايضاً الموسم ، وأنه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أبو بكر فقال: يارسول الله انزل فيّ قرآن ؟ فقال : لا ، ولكن لايؤدي إلا أنا او رجل مني. وروى الشعبي عن محرز بن ابي هريرة : قال: قال ابو هريرة: كنت أنادي مع علي عليه السلام حين أذن المشركين فكان اذا اضمحل صوته مما ينادي دعوت مكانه قال فقلت يا ابه اي شيء كنتم تقولون ؟ قال: كنا نقول لايحج بعد عامنا هذا

مشرك ـ قال وما حج بعد عامنا مشرك ـ ولايطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا مؤمن ومن كانت بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فان اجله الى اربعة اشهر فاذا انقضت اربعة اشهر فان الله بريء من المشركين ورسوله . وفتحت مكة سنة ثمان ونزلت براءة سنة تسع وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر . وقوله « واعلموا انكم غير معجزي الله » معناه انكم غير فائتين كما يفوت مايعجز عنه لانكم حيث ماكنتم في سلطان الله وملكه والاعجاز ايجاد العجز والعجز ضد القدرة عند من أثبته معنى .

وقوله « وان الله مخزي الكافرين » فالاخزاء الاذلال بمافيه الفضيحة والعار . والخزي النكال الفاضح .

قوله تعالى :

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (٣) فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٤) آية في الكوفي والمدني ، وآيتان في البصري.

الاذان الاعلام في قول ابن زيد والزجاج والجبائي ، تقول : أذنني فلان كذا فأذنت اي اعلمني فعلمت . وقال بعضهم : معناه النداء الذي يسمع بالاذن .

وقال الفراء والزجاج : انما ارتفع لأنه عطف على قوله « براءة » وقيل معناه عليكم اذان ، لأن فيه معنى الامر . والحج المقصد الى اعمال المناسك على ما امر الله به وقد بينا شرائط الحج واركانه وفرائضه في كتب الفقه ، ولانطول بذكره هاهنا والحج الاكبر قال عطا ، ومجاهد ، وعامر وبشر بن عبادة : هو مافيه الوقوف

بعرفه ، والاصغر العمرة ، وقال مجاهد : الحج الاكبر هو القران ، والحج الاصغر هو الافراد . وقيل في معنى « يوم الحج الاكبر » ثلاثة اقوال :

احدها ـ ماروي عن النبي ﷺ انه قال : عرفـة ، وهو المروي عن عمر وابن عباس بخلاف فيه وبه قال عطا ومجاهد وابن الزبير وابو حنيفة .

الثاني ـ في رواية اخرى عن النبي ﷺ وعلي عليه السلام وابن عباس وسـعيد ابن جبير ، وعبد الله بن ابي أوفى ، وابراهيم ومجاهد أنه يوم النحر ، وهوالمروي عن ابي عبد الله عليه السلام . وسمي بالحج الاكبر لانه حج فيه المشركون والمسلمون ولم يحج بعدها مشرك .

الثالث ـ قال مجاهد وشعبة : هو جميع ايام الحج .

اعلم الله تعالى في هذه الاية المشركين انه ورسوله بريء من المشركين وانه ان تبتم ورجعتم الى الايمان وطاعة الرسول « فهو خير لكم » وان اعرضتم وتوليتم فاعلموا انكم لاتفوتون الله وان الله يبشر الـكافرين بعذاب اليم اي شديد مؤلم .

قال الحسن الحج الاكبر ثلاثة ايام الحج اجتمعت في تلك الايام الثلاثة اعياد المسلمين واعياد اليهود واعياد النصارى ، فقال رسول الله ﷺ لم يكن فيما خـلا ولا يكون الى يوم القيامة .

قوله تعالى

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَاهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٥) آية اجماعاً .

استثنى الله تعالى من براءته عز وجل ، وبراءة ورسوله ﷺ من المشركين من كان لهم العهد، في قول الزجاج، وقال الفراء : هذا استثناء في موضع نصب، وهو

قوم من بني كنانة كان قد بقي من اجلهم تسعة اشهر ، فقال الله تعالى « فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم » لاتحطوهم الى الاربعة اشهر ، وقال مجاهد : عنى بذلك جماعة من خزاعة ومدلج . وقال ابن عباس : توجهذلك الى كل من كان بينهوبين رسول الله عهد قبل براءة . وينبغي أن يكون ابن عباس اراد بذلك من كان بينه وبينه عقد هدنة او الى قوم من المشركين لم يتعرضوا له ﷺ بعداوة ولاظاهروا عليه عدوه ، لان النبي ﷺ صالح اهل هجر واهل البحرين وايلى ودومة الجندل، وادرج ، واهل معنا ، وهم ناس من اليهود في توجهه الى تبوك اوفي مرجعه منها، وله عهود الصلح والحرب غير هذه ، ولم ينبذ اليهم بنقض عهد ، ولا حاربهم بعد ان صاروا اهل ذمة الى ان مضى لسبيله . ووفى لهم بذلك من بعده ، فمن حمل ذلك على جميع العهود فقد اخطأ . وقال الحسن : هذا استثناء من قوله تعالى « اقتلوا المشركين » ، « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » ثم نقلت الى هاهنا وباقي الناس على خلافه .

وقوله « ثم لم ينقصوكم شيئاً » النقصان حط العدة عن عدة ، والزيادة الحاق العدة بعدة . والمعنى ثم لم ينقصوكم من شروطكم العهد شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فالمظاهرة المعاونة على العدو للظهور عليه فهؤلاء إن لم يعاونوا عليكم احداً من اعدائكم ولا نقصوكم شيئاً من حقكم في عهدهم فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم، وهو أمر من الله تعالى الى ان يبلغوا المـدة التي وافقهم عليها . قال قتادة : وهم مشركوا قريش كانوا عاهـدوه في الحديبية وبقي من مدتهم اربعة اشهر بعد يوم النحر . والاتمام بلوغ الحد في العدة من غير زيادة ولا نقصان فهنا معناه امضاء الامر على ما تقدم به العهد الى انقضاء اجل العقد . والمدة زمان طويل الفسحة ، واشتقاقه من مددت له في الاجل للمهلة . والمعنى الى انقضاء مدتهم .

وقرأ عطاء «ثم لم ينقضوكم » بالضاد المعجمة وهي شاذة(وأن) بفتح الهمزة، لان تقديره بأن الله بريءمن المشركين ، ولا يجوز أن يكون المراد نبذ العهدالى

مكة ، لأن مكة فتحت سنة ثمان وصارت دار الاسلام ، ونبذ العهد كان في سنة تسع فعلم بذلك ان المراد غيرهم .

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦) آية .

الانسلاخ اخراج الشيء مما لابسه ، وكذلك سلخ الشاة إذا نزع الجلد عنها وسلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسلوخاً . وقيل في الأشهر الحرم قولان :

احدهما ـ رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثلاثة سرد وواحد فرد

الثاني ـ الاشهر الأربعة التي جعل لهم ان يسيحوا فيها آمنين ، وهي عشرون من ذي الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الاول ، وعشر من ربيع الآخر ، في قول الحسن والسدي وغيرهما .

امر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين انه اذا انقضت مدة هؤلاء المعاهدين ، وهي الاربعة اشهر ان يقتلوا المشركين حيث وجدوهم . قال الفراء : سواء كان في الاشهر الحرم اوغيرها وسواء في الحل اوفي الحرم ، وان يأخذوهم ، ويحصروهم.

والحصر المنع من الخروج عن محيط واحصر الرجل إحصاراً وحاصره العدو محاصرة وحصاراً، وحصر في كلامه حصراً وانحصر الشيء انحصاراً .والحصر والحبس والأسر نظائر . وقوله « واقعدوا لهم كل مرصد » يعني كل موضع يرقب فيه العدو والمرصد الطريق ومثله المرقب والمربأ ، يقال : رصده يرصده رصداً ،ونصب كل

مرصد على تقدير على كل مرصد ـ على قول الاخفش ـ كما قال الشاعر :

نغالي اللحم للاضياف نياً   ونرخصه اذا نضج القدور (١)

اي نغالي باللحم. وقال الزجاج هوظرف كقولك ذهبت مذهباً وقال الشاعر:

إن المنية للفتى بالمرصد (٢)

فجعله بمنزلة المحدود ، والمرصدمبهم ، والطريق محدود ، فهذا فرق ما بينهما

واستدل بهذه الاية على ان تارك الصلاة متعمداً يجب قتله ، لأن الله تعالى اوجب الامتناع من قتل المشركين بشرطين : احدهما ـ ان يتوبوا من الشرك . والثاني ـ ان يقيموا الصلاة ، فاذا لم يقيموا الصلاة وجب قتلهم .

قوله تعالى :

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٧) آية

قوله « احد » ليست التي تقع في النفي في مثل قولك (ماجاءني احد) لأن الايجاب لايصح فيه اعم العام الذي هو هو على الجملة والتفصيل كقولك : ليسوا مجتمعين ،ولا متفرقين . ولايصح مثل ذلك في الايجاب ، ويصح في الاستفهام لان فيه معنى النفي ، ولولا ذلك لم يصح جوابه بـ « لا » والتقدير وإن استجارك احد من المشركين استجارك فاضمر الفعل ، ولم يجز في الجواب ان يقول : إن يقوم احد زيد يذهب ، لقوة « إن » إنها للفعل خاصة ومثله انشد الاخفش :

لاتجزعي إن منفساً اهلكته   فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (٣)

(١) مر تخريج هذا البيت في ١ / ٤٧٠ تعليقة ٣

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٧٣ ومجاز القرآن ١/ ٢٥٣

(٣) القرطبي ٨ / ٧٧ . نسبه للنمير بن تولب .

فاخبر ، ثم جزم على جواب الجزاء ، لانها شرط وليس كذلك الجواب ، لانه قد يكون بالفاء ولايجوز اضمار الفعل في شيء من حروف المجازاة إلا في «إن» لانها ام الباب ، وهي الاصل الذي يلزمه ، قال الشاعر :

فان انت تفعل فللفاعلين　　ن انت المجيرين تلك الغمارا (١)

واما قول الشاعر :

فمتى واغل ينبهم يحيو　　ه ويعطف عليه كأس الساقي

فانما هو ضرورة ، لايجوز مثله في الكلام قال الفراء « استجارك » في موضع جزم ، وانه فرق بين الجازم والمجزوم بـ « احد » وذلك جائز في « ان » خاصة وقد يفرق بينهما وبين المجزوم بالمنصوب والمرفوع ، فالمنصوب مثل قولك : إن اخاك ضربت ظلمت ، والمرفوع مثل قوله تعالى « إن امرؤ هلك ليس له ولد »(٢)

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله انه متى استجارك احد من المشركين الذين امرتك بقتالهم اي طلب منه الجار في رفع الاذى عن صاحبه . وقيل : المعنى ان استأمنك احد فأمنه « حتى يسمع كلام الله » والمشرك يصح ان يسمع كلام الله على الحقيقة لان حكاية كلام الله يطلق عليه الاسم بأنه كلام الله لظهور الامر فيه ، ولايحتاج ان يقدر اصل له ، كما يقال : كلام سيبويه وغيره . ومن ظن ان الحكاية تفارق المحكي لاجل هذا الظاهر فقد غلط ، لان المراد ماذكرناه فيما يقال في العرف انه كلام الله . وقوله « ثم ابلغه مأمنه » فالابلاغ التصيير الى منتهى الحد . والابلاغ والاداء نظائر . وفي الاية دلالة على بطلان قول من قال : المعارف ضرورية لانها لو كانت كذلك لما كان لطلب ماهو عالم به معنى . ومعنى قوله « لايعلمون » اخبار عن جهلهم في افعالهم ، لانهم لايعقلون ، وإنما اراد لا ينتفعون بمثله . ولا يعرفون مالهم وعليهم من الثواب والعقاب .

---

(١) معاني القرآن ٤٢٢/١ . نسبه للكميت .

(٢) سورة ٤ النساء آية ١٧٥

قوله تعالى :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٨) آية.

قال الفراء : هذا على التعجب كما تقول : كيف تستبقي مثلك ؟! اي لا يمبغي ان يستبقى، وفي قراءة عبد الله : كيف يكون لهم عهد عند الله، ولا ذمة، فادخل الكلام « لا » مع الواو ، ولان معنى الاول جحد . وقال غيره : في الكلام حذف لان الكلام خرج مخرج الانكار عليهم . وتقديره كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله مع اضمار الغدر في عهدهم ، فجاء الانكار ان يكون لهم عهد مع ماينبذ من العهد على ذلك ، وذلك يقتضي اضمار الغدر فيما وقع من العهد . ثم استثنى من ذلك « الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » فكان ذلك ايجاباً فيهم لان ماقبله في معنى النفي ، والتقدير ليس للمشركين عهد الا الذين . وموضع « الذين » يحتمل الجر والنصب . وحكى الكسائي : اين كنت لتنجو مني اي ما كنت .

و « المسجد» الموضع المهيأ لصلاة الجماعة ، والمراد هاهنا مسجد مكة خاصة واصله موضع السجود كالمجلس موضع الجلوس و « الحرام » المحظور بعض احواله فالخمر حرام لحظر شربها وسائر انواع التصرف فيها . والام حرام بحظر نكاحها والمسجد الحرام لحظر صيده وسفك الدم فيه وابتذاله ما يبتذل به غيره . وقوله « فما استقاموا لكم » معناه ما استمروا لكم على العهد. والاستقامة الاستمرار على جهة الصواب . ومتى كان الاستمرار على وجه الخطأ لايسمى استقامة . ومعنى « فاستقيموا لهم » استمروا لهم على العهد مثلهم. والمراد بالذين عوهدوا عندالمسجد

الحرام ، قيل فيهم ثلاثة اقول : قال مجاهد:هم خزاعة. وقال ابن اسحاق: هم قوم من بني كنانة . وقال ابن عباس : هم قريش .

وقوله « ان الله يحب المتقين » اخبار منه تعالى انه يحب من يتقي معاصيه ويعمل بطاعاته وانه يريد ثوابه ومنافعه . وفي الآية دليل على ان تمكين الحربي من المقام في دار الاسلام بعد قضاء حاجته ليس بجائز .

قوله تعالى:

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٩) آية.

تقدير الاية كيف لهم عهد وكيف لاتقتلونهم وحذف ، لان قوله في الاية لاولى « كيف يكون للمشركين عهد » دل على ذلك ومثله قول الشاعر :

وخبرتماني أنما الموت في القرى فكيف وهاتا هضبة وقليب (١)

ويروى وهذي اي كيف مات وليس في قرية . وقال الحطيئة في حذف الفعل بعد كيف :

فكيف ولم أعلمهم خذلوكم على معظم ولا اديمكم قدوا (٢)

أي كيف تلومونني على مدح قوم وتذمونهم. والمعنى كيف لهم يعني لهؤلاء المشركين عهد، وهم إن يظهروا عليكم بمعنى يعلوا عليكم بالغلبة ،لان الظهور هو العلو بالغلبة . واصلهخروج الشيء الى حيثيصح ان يدرك « لايرقبوا فيكم »معناه لايراعون فيكم ، والرقوب هو العمل في الامر على ماتقدم به العهد . والمراقبة

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي . الأصمعيات ٩٩ وتفسير الطبري ١٤/١٤٥ وأمالي القالي ٢ / ١٥١ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٤

(٢) معاني القرآن ١/٤٢٤

والمراعاة نظائر في اللغة . وقوله : « إلا ولا ذمة » قيل في معنى الئل ستة اقوال :

اولها ـ قال مجاهد وابن زيد : إن معناه العهد . والثاني ـ في رواية اخرى عن مجاهد أنه اسم الله . ومنه قول أبي بكر لما سمع كلام مسيلمة : لم يخرج هذا من إل ، فأين يذهب بكم . الثالث ـ قال ابن عباس: هو القرابة . الرابع ـ قال الحسن :هو الجوار . الخامس ـ قال قتادة: هو الحلف . السادس ـ قال ابو عبيدة : هو التميز . والاصل في جميع ذلك العهد وهو مأخوذ من الأليل وهو البريق ، يقال : أل يؤل إذا لمع والألة الحربة للمعانها ، وأذن مؤللة مشبهة بالحربة في تحديدها وقال الزجاج : اصله التحديد قال الشاعر :

وجدناهم كاذباً إلهم ... وذو الال والعهد لايكذب (١)

أي ذو العهد ، وقال ابن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا ... قطعوا الال واعراق الرحم (٢)

يعنى القرابة ، وقال حسان :

لعمرك إن إلك في قريش ... كال السقب من رأل النعام (٣)

وقوله « يرضونكم بأفواههم » معناه يقولون قولا يرضيكم بذلك في الظاهر وتأبى قلوبهم أن يذعنوا لكم بتصديق ما يبدونه لكم . ثم اخبر تعالى عن حالهم بأن اكثرهم فاسقون . وقال ابن الاخشاد : اراد بذلك انهم متمردون في شركهم لأن الفاسق هو الخارج من الشيء من قولهم فسقت الرطبة . وإنما كان اكثرهم بهذه الصفة ولم يكن جميعهم وإن كانوا كلهم فاسقين لأن المراد به رؤساءهم .

(١، ٢) تفسير الطبري ١٤ / ١٤٨ ، ١٤٩

(٣) ديوانه : ٤٠٧ واللسان (ألل) وتفسير الطبري ١٤ / ١٤٩

قوله تعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠) آية .

قيل في من نزلت هذه الآية بسببه قولان :

قال مجاهد : نزلت في ابي سفيان لما جمعهم على طعامه فاطعم حلفاءه وترك حلفاء النبي ﷺ . وقال أبو علي الجبائي : نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلت عليه هذه الصفة . ومعنى « اشتروا بآيات الله » استبدلوا بحجج الله وبيناته العظيمة الشأن « ثمناً قليلا » اي عرضاً قليلا . واصل الاشتراء استبدال ما كان من المتاع بالثمن ، ونقيضه البيع ، وهو العقد على تسليم المتاع بالثمن . والثمن ماكان من العين والورق ـ في الأصل ـ ثم قيل لما اخذوه بدل آيات الله ثمن ، لأنه بمنزلته في أنه يستبدل به . وقوله « فصدوا عن سبيله » اي صدوا عن الاسلام ، ومعنى هذه الفاء كمعنى جواب الجزاء ، لان اشتراءهم هذا اداهم الى الصد عن سبيل الله . والصد هو المنع . ثم اخبر تعالى عنهم انهم بئس ماكانوا يعملونه من هذا الاستبدال .

قوله تعالى :

لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١١) آية .

قد بينا ان المراقبة هي المراعاة لما تقدم من العهد الذي يلزم الديانة ، لئلا يقع اخلال بشيء منه . والإل العهد . والذمة عقد الجوار ، وهما متقاربان . وفصل بينهما بأن الذمة عقد قوم يذم نقضه . والإل الذي هو العهد عقد يدعو الى الوفاء والبيان الذي فيه ، لأنه يلوح المعنى الذي يدعو الى الوفاء إذا ضل كل واحد

منهما يقتضي هذا . وانما اعيد ذكر « لايرقبون في مؤمن إلاولا ذمة » لانه في صفة « الذين اشتروا بآيات الله ثمنا » والاول في صفة جميع الناقضين للعهد . وقال في الثاني « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين » ، فلذلك كرر بوصفين مختلفين . وقال الجبائي : لأنه في صفة اليهود خاصة ، والأول في صفة الناقضين عامة ، وإنما ذموا بترك المراقبة ، لأن مع تركها الغالب ان يقع إخلال بما تقدم من العقد ، فلزمت المراقبة لهذه العلة . وترك المراقبة في عهد المؤمن أعظم منها في ترك عهد غيره لكثرة الزواجر عن الغدر بالمؤمن ، لأنه ليس من شأنه الغدر .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المشركين انهم لايراعون في المؤمن عقد العهد ولاذمة الجوار ، وانهم مع ذلك معتدون . والاعتداء الخروج من الحق واصله المجاوزة ، ومنه التعدي وهو تجاوز الحد ومعاداة القوم مجاوزة الحد في البغضة وكذلك العداوة . والاستعداء طلب معاملة العدو في الايقاع به ، والعدو مجاوزة حد السعي . والغرض بالآية حث المسلمين على قتالهم ، وأن لايبقوا عليهم كما انهم لو ظهروا على المسلمين لم يبقوا عليهم .

قوله تعالى :

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٢) آية.

شرط الله لهؤلاء المشركين بأنهم إن تابوا ورجعوا عما هم عليه من الشرك الى طاعة الله، والاعتراف بوحدانيته ،والاقرار بالنبي ﷺ ، وأقاموا الصلاة المفروضة على ماشرعها الله واعطوا الزكاة الواجبة عليهم ، فانهم يكونون اخوان المؤمنين في الدين ، والايمان . وتقديره فهم اخوانكم . والتوبة هي الندم على القبيح لقبحه مع العزم على ترك العود الى مثله في القبح ، وفي الناس من قال الى مثله في صفته

فمن قال ذلك قال توبة المجبوب من الزنا هي الندم على الزنا مع العزم على ترك المعاودة الى مثله على مايصح ويجوز من الامكان ، وهو انه لو رد الله عز وجل عضوه مازنى، فاما من نسي الذنب فان توبته صحيحة لايؤاخذ بالذنب ، لانه مكلف قد ادى جميع ماعليه في الحال ، فقد تخلص بذلك من العقاب . فان قيل لم شرط مع التوبة من الشرك وحصول الايمان ايتاء الزكاة ؟ مع انه ليس كل مسلم عليه الزكاة ! قلنا : انما يجب عليه بشرط الامكان فاذا اقر بحكم الزكاة مع التعذر عليه دخل في حكم الصفة التي يجب بها .

وقوله « ونفصل الايات » معناه نبينها ونميزها بخاصة لكل واحد منها بما يتميز به من غيرها حتى يظهر مدلولها على اتم مايكون من الظهور فيها « لقوم يعلمون » ذلك ويثبتونه دون الجهال الذين لايعقلون عن الله .

قوله تعالى :

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٣) آية .

قرأ أهل الكوفة وابن عامر « أئمة » بهمزتين ، إلا هشاماً عن ابن عامر فانه فصل بين الهمزتين بالف . الباقون بهمزة واحدة وياء بعدها . وفصل بينهما بالف ابو جعفر والمرى عن المسيبي والسوسنجردي عن يزيد بن اسماعيل . وقرأ ابن عامر والحسن « لاإيمان لهم » بكسر الألف .الباقون بفتحها . والكسر يحتمل وجهين : احدهما – انهم ارتدوا ، ولا إسلام لهم ، ذكره الزجاج . قال : ويجوز « لاإيمان لهم » على المصدر ، وتقديره لاتأمنوهم بعد نكثهم العهد . والآخر – لانهم كفروا « لاإيمان لهم » ويحتمل أن يكون المراد أنهم آمنوا إيماناً لايفون به فلا إيمان لهم . ومن فتح الهمزة فلقوله : « وان نكثوا ايمانهم » ولقوله

« عهدهم » وأثبت لهم الايمان . فان قيل كيف نفى فقال « إنهم لاأيمان لهم » وقد اثبتها في الأول من الآية بقوله « وان نكثوا أيمانهم » ؟!

قلنا : اليمين التي اثبتها هي ما حلفوا بها وعقدوا عليها ، ولم يفوا ، وانما المراد به انهم لاأيمان لهم يفون بها ، ويتمسكون بموجبها . وقال ابو علي النحوي « أئمة » على وزن « افعلة » جمع إمام نحو مثال وامثلة فصار أئمة ، واجتمع همزتان الف أفعلة ، والهمزة التي هي فاء الفعل ، والتي هي فاء الفعل ساكنة فنقل اليها حركة التي بعدها ليمكن النطق بها . فمن خففها اتى بالهمزتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة . ومن كره ذلك قلب الثانية ياء ولم يجعلها بين بين ، لأن همزة بين بين في تقدير التحقيق وذلك مكروه عندهم . وقال الرماني : انما جاز اجتماع الهمزتين في كلمة ، لئلا يجتمع على الكلمة تغيير الادغام والانقلاب مع خفة التحقيق لأجل ما بعده من السكون ، وهو مذهب ابن ابي اسحاق من البصريين . والباقون لايجيزونه ، ذكره الزجاج ، قال : لانه يلزم عليه ان يقرأ « آأم » بهمزتين وذلك باطل بالاتفاق . وعلى هذا القول هذا آأم بهمزتين ، قال : وانما قلبت الهمزة في أئمة على حركتها دون حركة ماقبلها ، لان الحركة إنما نقلها الى الهمزة لبيان زنة الكلمة ، فلو ذهبت تقلبها على ماقبلها لكان مناقضاً للغرض فيها واذا بنيت من الامامة هذا افعل من هذا قلت هذا أوم من هذا - في قول المازني - لأن اصله كان أأم فلم يمكنه ان يبدل منها الفاء لاجتماع الساكنين ، فجعلها واواً كما قالوا في جمع آدم أوادم . قال الزجاج : وهو القياس وهذا ايم من هذا في قول الأخفش ، قال : لانها صارت الياء في أيمة بدلا لازماً .

وقوله « وان نكثوا ايمانهم » فالنكث نقض العهد الذي جعل لتوثيق الامر وذلك بالخلاف لما تقدم من العزم . و « الأيمان » جمع يمين ، وهو القسم والقسم هو قول عقد بالمعنى لتأكيده ، وتغليظ الأمر فيه نحو والله ليكونن وتالله ما كان ، فيجوز أن يكون من اعطى صفقة بمينه ، ويجوز أن يكون من يمن

التيسير في فعله وقوله « وطعنوا في دينكم » فالطعن هو الاعتماد بالعيب . واصله الطعن بالرمح ، ونحوه في الشيء لنقض بنيته .

وقوله « فقاتلوا أئمة الكفر » امر من الله تعالى بقتال أئمة الكفر ، وهم رؤساء الضلال والكفار ، والامام هو المتقدم الاتباع ، فأئمة الكفر رؤساء الكفر والامام في الخير مهتد هـاد ، وفي الشر ضال مضل ، كما قال تعالى « وجعلناهم ائمة يدعون الى النار » (١) والمعني بائمة الكفر رؤساء قريش ، في قول ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : هم ابو جهل بن هشام، وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وابو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وهم الذين هموا باخراجه ، وكان حـذيفة يقول : لم يأت أهل هذه الآية .

وروي عن ابي جعفر عليه السلام انها نزلت في اهل الجمل . وروي ذلك عن علي عليه السلام وعمـار ، وغيرهما . ويقول حذيفة قال يزيد بن وهب : قولـه « انهم لا أيمان لهم » معناه لا تأمنوهم . ومن كسر معناه ، لانهم كفروا لا إيمان لهم .

وقوله : « لعلهم ينتهون » معناه لكي ينتهوا .

وفي الاية دلالة على ان الذمي إذا اظهر الطعن في الاسلام فانه يجب قتله ، لان عهده معقود على أن لا يطعن في الاسلام ، فاذا طعن فقد نكث عهده .

قوله تعالى :

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤) آية .

قوله « ألا » كلمة موضوعة للتحضيض على الفعل ، وأصلها « لا » دخلت عليها

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٤١ .

الف الاستفهام ، فصارت تحضيضاً كما انها إذا دخلت على « ليس » صارت تقريراً و « ألا » موافقة للتحضيض بالاستقبال و « أليس » إنما هى للحال ، فهي موافقة للحال بهذا المعنى . وإذا قال : « ألا تقاتلون » كان معناه التحضيض على قتالهم وإذا قال : « الا قاتلتم » كان ذلك تأنيباً ، لأن مايلزم اذا ترك ذم على تركه ويحض على فعله قبل وقته . حض الله تعالى المؤمنين على قتال الكفار الذين « نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول» من مكة اي قصدوه . والهم مقاربة الفعل بالعزم من غير اتباع له ، وقد ذموا بهذا الهم ففيه دليل على العزم وقد يستعمل الهم على مقاربة العزم .

وقوله « وهم بدؤكم اول مرة » فالبدوء فعل مالم يتكرر والمرة الفعلة من المر ، والمرة والكرة والدفعة نظائر . ومعنى « بدؤكم اول مرة » بدؤا حلفاء النبي ﷺ بالقتال من خزاعة ، في قول الزجاج ، وقال ابن اسحاق والجبائي : بدؤوا بنقض العهد . وقال الطبري : بدؤهم بخروجهم الى بدر ، لقتالهم .

وقوله « اتخشونهم » معناه اتخافونهم . ثم قال : « والله احق ان تخشوه » اي تخافوه « ان كنتم مؤمنين » وفي ذلك غاية الفصاحة لانه جمع بين التقريع والتشجيع . والمعنى أتخشون ان ينالكم من قتالهم مكروه ، فالله احق ان تخشوا عقابه في ارتكاب معاصيه إن كنتم مصدقين بعقابه وثوابه .

قوله تعالى

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٥) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٦) آيتان .

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين بأن يقاتلوا هؤلاء الناقضين للعهد البادئين

بقتال حلفاء النبي ﷺ من خزاعة، فانهم اذا قاتلوهم يعذب الله الكفار بأيديهم يعني بأيدي المؤمنين الذين يقاتلونهم ، وينصركم ايها المؤمنون ينصركم الله «عليهم ويشف » بذلك « صدور قوم مؤمنين » وفي ذلك دليل على انه اشتد غضب جماعة المؤمنين لله ، فوعدهم الله النصر ، في قول قتادة والزجاج . وفيها دلالة على نبوة النبي ﷺ لأنه وعده النصر فكان الأمر على ما قال . وقوله « ويذهب غيظ قلوبهم» قيل المراد بهم خزاعة الذين قاتلوهم ، في قول السدي وغيره ، لأنهم كانوا حلفاء النبي ﷺ . والتعذيب ايقاع العذاب لصاحبه والعذاب الم يستمر به ، قال عبيد ابن الابرص :

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

ومعنى « يعذبهم الله بأيديكم » اي انكم اذا تناولتموهم بالسلاح من السيوف والنبل والرماح انزل الله بهم العذاب . وقال ابو علي : ذلك مجاز والمعنى انه لما كان ذلك بأمر الله اضافه الى نفسه ، وهو احسن من الاول .

وقوله « ويخزهم » معناه يذلهم والاخزاء الادلال بما فيه الفضيحة على صاحبه خزي خزياً واخزاه الله إخزاء . ويجوز في « ويخزهم » ثلاثة أوجه من الاعراب : الجزم باللفظ وعليه القراء ، والنصب على الظرف ، والرفع على الاستئناف ولم يقرأ بهما .

وقوله « ويشف صدور قوم مؤمنين » فالشفاء سلامة النفس بما يزيل عنها الأذى ، فكلما وافق النفس وأزال عنها الهم فهو شفاء وقيل « ويشف صدور قوم مؤمنين» يعني خزاعة ، لأنهم نقضوا العهد بقتالهم ـ في قول مجاهد والسدي ـ والصدور جمع الصدر وهو الموضع الاجل الذي يصدر عنه الأمر ، ومنه الايراد والاصدار .

وقوله « ويذهب غيظ قلوبهم » معناه يبطل غيظهم ويعدمه . والاذهاب جعل الشيء يذهب والذهاب الانتقال عن الشيء ، والمجيء الانتقال الى الشيء ، والغيظ نقص الطبع با نزعاج النفس . تقول : غاظه يغيظه غيظاً واغتاظ اغتياظاً وغايظه مغايظة.

وقوله « ويتوب الله على من يشاء » معناه يقبل الله توبة من يشاء من عباده.
ووجه اتصال قوله « ويتوب الله على من يشاء » بما قبله من وجهين :
احدهما ـ بشارتهم بأن فيهم من يتوب ويرجع عن الكفر الى الايمان .
والآخر ـ انه ليس في قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبة .
ورفع « ويتوب » بخروجه عن موجب القتال فاستأنفه .
وقوله « والله عليم حكيم » معناه عليم بتوبتهم إذا تابوا حكيم في أمركم بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا ويرجعوا ، لأن أفعاله كلها صواب وحكمة .

قوله تعالى :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٧) آية .

قوله « ام حسبتم » من الاستفهام الذي يتوسط الكلام فيجعل بـ(أم) ليفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ الذي لم يتصل بكلام ولو كان المراد الابتداء لكان اما بالألف أو بـ (هل) كقوله « هل اتى على الانسان » (١) والمعنى ظننتم أن تتركوا . والظن والحسبان نظائر ، والحسبان قوة المعنى في النفس من غير قطع ، وهو مشتق من الحساب لدخوله فيما يحتسب به « ان تتركوا » معنى الترك هو ضد ينافي الفعل المبتدأ في محل القدرة عليه . ويستعمل بمعنى (ألا يفعل) كقوله « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » (٢) وقوله « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » إذا قيل : لما يفعل ، فهو نفي للفعل مع تقريب لوقوعه . وإذا قيل : لم يفعل ، فهو نفي بعد اطماع في

(١) سورة ٧٦ الدهر آية ١ . (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٧

وقوعه . والمعنى ولما يجاهدوا ويمتنعوا ان يتخذوا وليجة ويعلم الله ذلك منكم فجاء مجيء نفي العلم لنفي المعلوم ، لأنه متى كان علم الله انه كائن . وكان ابلغ وأوجز ، لأنه اتى على طريقة نفي صفات الله تعالى .

وقوله « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجه » تقديره ولما يعلم الله الذين آمنوا لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجه، فالوليجة الدخيلة في القوم من غيرهم تقول : ولج يلج ولوجاً وأولج إيلاجاً وتولج تولجاً بمعنى الدخول. والوليجة والدخيلة والبطانة نظائر . وكل شيء دخل في شيء وليس منه فهو وليجة، قال طرفة :

فان القوافي يتلجن موالجاً تضايق عنها ان تولجها الابر(١)

وقال آخر :

متخذاً من ضعوات تولجا متخذاً فيها اياداً دولجا (٢)

يعني الكأس . وقال الفراء : نهوا ان يتخذوا بطانة يفشون اليهم اسرارهم . وقال الجبائي : اتخاذ الوليجة من دون الله ودون رسوله هو النفاق . نهوا أن يكونوا منافقين ، وهو قول الحسن ، فانه قال : الوليجة هي الكفر والنفاق . وفي الآية دلالة على انه لا يجوز ان يتخذ من الفساق وليجة ، لان في ذلك تأليفاً بالفسق يجري مجرى الدعاء اليه مع ان الواجب معاداة الفساق والبراءة منهم ، ومع ذلك فهو غير مأمون على الأسرار والاطلاع عليها . قال الزجاج : كانت براءة تسمى الحافرة، لانها حفرت عن قلوب المنافقين ، لأنه لما فرض القتال تميز المؤمنون من المنافقين ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي اعداءهم .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

(١ ، ٢) مجاز القرآن ١ / ٢٥٤ واللسان (ولج)

بِالْكُفْرِ أُولَـٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُـهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٨) آية .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « مسجد الله » على التوحيد . الباقون على الجمع ، فمن قرأ على التوحيد ، قال الحسن اراد به المسجد الحرام وبه قال الجبائي. ويحتمل ان يكون اراد المساجد كلها ، لأن لفظ الجنس يدل على القليل والكثير . ومن قرأ على الجمع يحتمل ان يكون اراد جميع المساجد . ويحتمل ان يكون اراد المسجد الحرام . وإنما جمع لأن كل موضع منه مسجد يسجد عليه . والقراءتان متناسبتان. والاصل في المسجد هو موضع السجود وفي العرف يعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه .

اخبر الله تعالى انه ليس لمشرك ان يعمر مسجد الله . والعمارة ان يجدد منه مااسترم من الأبنية ، ومنه قولهم : اعتمر اذا زار ، لأنه يجدد بالزيارة مااسترم من الحال . وقوله « شاهدين على أنفسهم بالكفر » نصب على الحال ، فالشهادة خبر عن علم مشاهد بأن يشاهد المعنى او يظهر ظهور ما يشاهد كظهور المعنى في شهادة أن لا إله إلا الله . والمعني بذلك أحد شيئين :

احدهما ـ ان فيما يخبرون به دليلا على كفرهم ، لا أنهم يقولون نحن كفار ، ولكن كما يقال للرجل ان كلامك ليشهد انك ظالم ـ هذا قول الحسن.

والثاني ـ قال السدي : ان النصراني إذا سئل ما انت ؟ قال نصراني واليهودي يقول انا يهودي وعابد الوثن يقول مشرك فذلك شهادتهم على انفسهم بالكفر . وقال الكلبي : معناه شاهدين على النبي بالكفر ، وهو من انفسهم . وقوله « اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون » اخبار منه تعالى ان اعمال هؤلاء الذين شهدوا على انفسهم بالكفر باطلة بمنزلة ما لم يعمل ، لأنهم اوقعوها على وجه لا يستحق بها الثواب ، وانهم مع ذلك مخلدون في نار جهنم معذبون بأنواع العذاب .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَـٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٩) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه ينبغي الا « يعمر مساجـد الله » إلا « من آمن بالله » واقر بوحدانيته واعترف باليوم الآخر يعني يوم القيامة ثم اقام بعد ذلك « الصلاة » بحدودها . وأعطى « الزكاة » الواجبة ـ انوجبت عليه ـ مستحقيها ولم يخف سوى الله احداً من المخلوقين ، فاذافعلوا ذلك فانهم « يكونون من المهتدين» الى الجنة ونيل ثوابها ، لأن عسى من الله واجبة ليست على طريق الشك ، وهوقول ابن عباس والحسن .وقال قوم : انما قال عسى ليكونوا على طريق الحذر ، ممايحبط اعمالهم ، ويدخل في عمارة المساجد عمارتها بالصلاة فيها ، والذكر لله . والعبادة له . لأن تجـديد احوال الطاعة لله من أوكد الاسباب التي تكون بها عامرة ، كما ان اهمالها من اوكد الأسباب في اخرابها ، وذكر قوله « وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » بعد ذكر قوله « من آمن بالله واليوم الآخر » يدل على ان الايمان لا يقع على افعال الجوارح ، لانه لو كان الايمان متناولا لذلك اجمع لما جاز عطف ما دخل فيه عليه . ومن حمل ذلك على ان المراد به التفصيل وزيادة البيان فيما يشتمل على الايمان تارك للظاهر . والخشية انزعاج النفس لتوقع ما لا يؤمن من الضرر تقول : خشي يخشى خشية فهو خاش ، ومثله خاف يخاف خوفاً ومخافة، فهو خائف . والخاشي نقيض الآمن . والاهتداء المذكور في الآية هو التمسك بطاعة الله التي تؤدي الى الجنة وفاعلها يسمى مهتدياً .

قوله تعالى :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٠) آية .

خاطب الله تعالى بهذه الآية قوماً جعلوا القيام بسقي الحجيج وعمارة المسجد الحرام من الكفار مع مقامهم على الكفر مساوياً أو افضل من ايمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، فأخبر تعالى انهما لا يستويان عند الله في الفضل لان الذي آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله افضل ممن يسقي الحجيج ولم يفعل ذلك . وفي الآية حذف احد امرين : احدهما ـ ان يكون تقديره كايمان من آمن بالله وأقام الاسم مقام المصدر ، لأن اصل السقاية مصدر كما قال الشاعر :

لعمرك ما الفتيان ان تنبت اللحى　　ولكنما الفتيان كل فتى ندى(١)

اي فتيان نبات . والسقاية آلة تتخذ لسقي الماء . وقيل كانوا يسقون الحجيج الماء والشراب . وبيت البئر سقاية ايضاً قال الرماني المشبه لا يجوز ان يكون مجاهداً في سبيل الله لانه لا يعرف الله فيتبع امره في ذلك والمجاهد اذا عرف الله صح ان يكون مطيعاً بالجهاد لاتباعه امر الله فيه . وروي عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام ان الاية نزلت في امير المؤمنين عليه السلام والعباس . وروى الطبري باسناده عن ابن عباس انها نزلت في العباس حين قال يوم بدر : إن سبقتمونا الى الاسلام والهجرة لم تسبقونا الى سقاية الحاج وسدنة البيت ، فأنزل الله الاية . وروى الطبري باسناده عن الحسن انها نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة . وقال الشعبي : نزلت في علي والعباس ، وبه قال ابن وهب والسدي .

(١) تفسير الطبري ١٤ / ١٧٢ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٧

وقوله « والله لايهدي القوم الظالمين » اخبار منه تعالى انه لايهدي احداً ممن ظلم نفسه وكفر بآيات الله ، وجحد وحدانيته الى الجنة كما انه يهدي اليها من كان عارفاً بذلك فاعلا لطاعته مجتنباً لمعصيته .

واختلفوا في سبب نزول الاية فقال قوم : سأل المشركون اليهود فقالوا : نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل ام محمد واصحابه ؟ فقالت اليهود لهم : انتم افضل ، عناداً للنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين . وقال آخرون : تفاخر المسلمون الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا . فنزلت الآية ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ (٢١) آية .

موضع « الذين » رفع بالابتداء وخبره اعظم درجة . اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا يعني صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته ، وأقروا بنبوة نبيه ، وهاجروا عن اوطانهم التي هي دار الكفر الى دار الاسلام ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله . ومعناه يتضاعف فضلهم عند الله مع شرف الجنس . ولو قال اعلى درجة افاد شرف الجنس فقط .

وقوله « اولئك هم الفائزون » اخبار منه تعالى ان من وصفه هم الذين يظفرون بالبغية ويدركون الطلبة ، لان الفوز هو الظفر بالبغية وهو والفلاح والنجاح نظائر . وقيل : إنه يلحق بمثل منزلة المجاهدين من لم يجاهد بأن يجاهد في طلب العلم الديني فيتعلمه ويعلم غيره ويدعو اليه والى الله . وربما كانت هذه المنزلة فوق تلك فان قيل كيف قال « اعظم درجة » من الكفار بالساقية والسدانة ؟ قلنا : على ما روينا عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام وابن عباس وغيرهم لايتوجه السؤال عن

ذلك لان المفاضلة جرت بينهم ، لان لجميعهم الفضل عند الله ومن لايقول ذلك يجيب بجوابين : احدهما ـ انه على تقدير ان لهم بذلك منزلة كما قال تعالى « اصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً » (١) هذا قول الحسن وأبي علي . والثاني ـ قال الزجاج المعنى اعظم من غيرهم درجة . و(الذي) يجوز وصفها ولايجوز وصف « من » اذا كانت بمعنى الذي ، لأن « من » تكون تارة معرفة موصولة فلذلك افترقا. وقيل معنى « الفائزي »انهم الظافرون بثواب الله الذياستحقوه علىطاعتهم.

قوله تعالى :

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢٢) آية .

في الآية اخبار من الله تعالى بالبشارة واعلام للذين آمنوا وهاجروا برحمة من جهته تعالى ، والبشرى والبشارة الدلالة على مايظهر به السرور في بشرة الوجه تقول بشرته أبشره بشرى وابشر ابشاراً واستبشر استبشاراً وتباشر تباشراً وبشره تبشيراً فاما باشره مباشرة ، فبمعنى لاقاه ببشر ورضوان . وهو معنى يستحق بالاحسان ، يدعو الى الحمد على ماكان ، ويضاد سخط الغضبان ، تقول : رضي رضاً ورضواناً وأرضاه إرضاء وترضاه ترضياً وارتضاه ارتضاء واسترضاه استرضاء وتراضوه تراضيا .

وقوله « وجنات » يعني البساتين التي يجنها الشجر ، وأما الرياض فهي الموطأة للخضرة التي قد ينبت فيها نبات الزهر ومنه الرياضة لانها توطئة لتقريب العمل .

وقوله « لهم فيها نعيم مقيم » فالنعيم لين العيش اللذيذ ، وهو مشتق من النعمة

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٤

وهي اللين ، وأما النعمة بكسر النون، فهي منفعة يستحق بها الشكر لانها كنعم العيش والمقيم الدائم بخلاف الراحل فكأنه قال : المقيم ابداً .

قوله تعالى :

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٣) آية

« خالدين » نصب على الحال من الهاء والميم في قوله : « لهم » والخلود في العرف الدوام في الشيء كالخلود في الجنة مأخوذ من قولهم : خلد هـذا الكتاب في الديوان على تقدير الدوام من غير انقطاع . والابد الزمان المستقبل من غير آخر كما أن (قط) للماضي تقول : ما رأيته قط ، ولا أراه ابداً وجمع الابد آباد وأبود تقول لأفعل ذلك أبداً ، وتأبـد المنزل اذا اقفر وأتى عليه الابـد ، والاوابد الوحوش سميت بذلك لطول أعمارها وبقائها . وقيل : لم يمت وحش حتف أنفه وانما يموت بآفة، وجاء فلان بأبدة اي بداهية وأتان آبد تسكن القفر متأبدة .

وقوله « ان الله عنده أجر عظيم » اخبار منه تعالى ان عنده الجزاء أي في مقدوره الجزاء الذي يستحق بالاعمال تقول : أجره يأجره أجراً وآجره إجارة واستأجره استئجاراً ومنه الاجير .

وقوله « عظيم » يعني كبير متضاعف لاتبلغه نعمة غيره من الخلق ، والابـد قطعة من الدهر متتابعة في اللغة قال الحر بن النعيث :

أهاج عليك الشوق اطلال دمنة بناصفة البردين أوجانب الهجل
اتى ابد من دون حدثان عهدها وجرت عليها كل نافحة شمل(١)

ومن الدليل على أن الابد قطعة من الدهر أنه ورد مجموعاً في كلامهم . قالت صفية بنت عبد المطلب تخاطب ولدها الزبير :

وخالجت آباد الدهور عليكم وأسماء لم تشعر بذلك أيم

(١) اللسان « شمل »

فلو كان زيد مشركاً لعذرته   ولكن زيداً يزعم الناس مسلم

ويقال : تأبد الربيع إذا مر عليه قطعة من الدهر وليس يعنون انه مر عليه أبد لاغاية له قال مزاحم العقيلي :

أتعرف بالغرين داراً تأبدت   من الحي واستبقت عليها العواصف

وأما الخلود ، فليس في كلام العرب مايدل على انه بقاء لاغاية له وإنما يخبرون به عن البقاء الى مدة كما قال المخبل السعدي :

الا رماداً هامداً دفعت   عنه الرياح خوالد سحم(١)

اراد دفع الرياح عن النؤي الى هذا الوقت هذه الاثافي التي بقيت الى هذاالوقت.

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ (٢٤) آية.

روي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ان هذه الآية نزلت في حاطب بن بلتعة حيث كتب الى قريش بخبر النبي صلى الله عليه وآله حين أراد فتح مكة .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ آبائهم وإخوانهم أولياء متى استحبوا الكفر ، وآثروه على الايمان . و « الاتخاذ » هو الافتعال من اخذ الشيء . والاتخاذ اعداد الشيء لأمر من الامور . واتخاذهم اولياء : هو ان يعتقدوا موالاتهم ووجوب نصرتهم فيما ينوبهم ، وليس ذلك بمانع من صلتهم . والاحسان اليهم ، لأنه تعالى حث على ذلك ، فقال : « وان جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا

(١) مر هذا البيت في ٢ / ٢٨

معروفاً (١) . والاب والوالد نظائر . والاخ الشقيق في النسب من قبل الأب والام ، وكل من رجع مع آخر الى واحد في النسب من والد ووالدة ، فهو أخ. والأولياء جمع ولي وهو من كان مختصاً بايلاء التصرف في وقت الحاجة . وقال الحسن : من تولى المشرك ، فهو مشرك . وهذا إذا كان راضياً بشركه ، ويكون سبيله سبيل من يتولى الفاسق أن يكون فاسقاً .

وقوله « إن استحبوا الكفر على الايمان » معناه إن طلبوا محبة الكفر على الايمان . وقد يكون استحب بمعنى أحب كما ان استجاب بمعنى اجاب . ثم اخبر تعالى ان من استحب الكفار على المؤمنين فانهم أيضاً ظالمون نفوسهم والباخسون حظها من الثواب ، لأنهم وضعوا الموالاة في غير موضعها.

قوله تعالى

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥) آية.

قرأ ابو بكر عن عاصم و « عشيراتكم » على الجمع . الباقون على التوحيد. من جمع فلان كل واحد من المخاطبين له عشيرة. فاذا جمع قال وعشيراتكم. ومن افرد قال العشيرة تقع على الجمع . وقال ابو الحسن : العرب لاتجمع العشيرة عشيرات . وانما تقول عشائر .

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٥

أمر الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ أن يخاطب هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة الى دار الاسلام . وأقاموا بدار الكفر ، وقال الجبائي : هو خطاب للمؤمنين أجمع وتحذير لهم من ترك الجهاد وحثلهم عليه ، فأمره أن يقول لهم « إن كان آباؤكم » الذين ولدوكم « وأبناؤكم » الذين ولدتموهم ، وهم الأولاد الذكور « وأزواجكم » جمع زوجة وهي المرأة التي عقد عليها عقدة نكاح صحيح ، لأن ملك اليمين والمعقود عليها عقد شبهة لاتسمى زوجة « وعشيرتكم » وهي الجماعة التي ترجع الى عقد كعقد العشرة . ومنه المعاشرة ، وهي الاجتماع على عقد يعم . ومنه العشار النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر « وأموال » جمع مال « اقترفتموها » أي اقتطعتموها واكتسبتموها ، ومثله الاحتراف . والاقتراف اقتطاع الشيء عن مكانه الى غيره « وتجارة تخشون كسادها » يعني مااشتريتموه طلباً للربح تخافون خسرانها ووقوفها « ومساكن » جمع مسكن وهي المواضع التي تسكنونها وترضونها « أحب اليكم من الله ورسوله » يعني آثر في نفوسكم وأقرب الى قلوبكم . والمحبة إرادة خاصة للشيء فمن أحب الجهاد فقد أراد فعله ومن أحب الله أراد شكره وعبادته .ومن أحب النبي أراد إجلاله وإعظامه. والذي اقتضى نزول هذه الاية محبتهم التي منعتهم الهجرة . وقوله « فتربصوا » اي فتثبتوا . والتربص التثبت في الشيء حتى يجيء وقته. والتربص والتنظر والتوقف نظائر في اللغة . ونقيضه التعجل بالامر.

وقال مجاهد قوله « حتى يأتي الله بأمره » من عقوبة عاجلة أو آجلة . وقوله « والله لايهدي القوم الفاسقين » معناه إنه لا يهديهم الى الثواب والجنة لأنه تعالى قد هداهم الى الايمان فقال « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى »(١).

قوله تعالى

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٧

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٦) آية .

أقسم الله تعالى في هذه الاية ـ لأن لام « لقد » لام القسم ـ بأنه نصر المؤمنين في مواطن كثيرة ومواطن في موضع جر بـ « في » وانما نصب ، لأنه لاينصرف لأنه جمع لانظير له في الآحاد ، فلا ينصرف . وجر كثيرة على المواضع وأنثه على اللفظ . ومواطن جمع موطن . ومعنى النصر الغلبة على العدو . والمعونة قد تكون في حمل الثقيل ، وتكون في شراء متاع وتكون في قضاء حاجة ، ولايكون النصر إلا المعونة على العدو خاصة . والموطن هو الموضع الذي يقيم فيه صاحبه وإنما قد أقاموا في هذه المواطن للقتال . ومعنى كثيرة روي عن أبي عبد الله عليه السلام انها كانت ثمانين موطناً ، والكثيرة عدة زائدة على غيرها فهي كثيرة بالاضافة الى مادونها قليلة بالاضافة الى مافوقها .

وقوله « ويوم حنين » ، وحنين اسم واد بين مكة والطائف في قول قتادة. وقال عروة : هو واد الى جانب ذي المجاز ، فلذلك صرف ، ويجوز ترك صرفه على انه اسم للبقعة قال الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الابطال (١)

وقوله « إذ أعجبتكم كثرتكم » فالاعجاب السرور بما يتعجب منه ، والعجب السرور بالنفس على الفخر بما يتعجب منه . وقال قتادة : إنه كان سبب انهزام المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين يوم حنين لانهم كانوا اثني عشر ألفاً ، فقال : لن نغلب اليوم عن قلة. فانهزموا بعد ساعة . وقيل : إنهم كانوا عشرة آلاف . وقال بعضهم : ثمانية آلاف والأول أشهر . ولما انهزموا لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله الا تسعة نفر من بني هاشم وأيمن ابن ام ايمن . والعباس بن عبد

(١) قائله حسان ديوانه ٣٣٤ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٩ واللسان (حنن)

المطلب . وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعلي بن ابي طالب عليه السلام في آخرين . فأخذ النبي صلى الله عليه وآله كفاً من الحصباء فرماهم به ، وقال شاهت الوجوه فانهزم المشركون .

وقوله « فلم تغن عنكم شيئاً » معناه لم تغن كثرتكم شيئاً . والاغناء اعطاء مايرفع الحاجة . ولذلك قيل في الدعاء أغناك الله « فلم تغن عنكم شيئاً » معناه لم تعطكم مايرفع حاجتكم .

وقوله « وضاقت عليكم الارض بمارحبت » معناه ليس فيها موضع يصلح لكم لفراركم عن عدوكم . والضيق مقدار ناقص عن مقدار ، والرحب السعة في المكان وقد يكون في الرزق . والسعة في النفقة .

وقوله « ثم وليتم مدبرين » فالادبار الذهاب الى جهة الخلف والاقبال الى جهة القدام . والمعنى وليتم عن عدوكم منهزمين . وتقديره وليتموهم الادبار .

وكانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أو في شوال سنة ثمان .

فان قيل كيف قال انه نصرهم في مواطن كثيرة ؟ والمؤمنون منصورون في جميع الأحوال ؟

قلنا عنه جوابان : أحدهما ـ ان ذلك اخبار بأنه نصرهم دفعات كثيرة ولايدل على انه لم ينصرهم في موضع آخر ،والثاني ـ لأنهم لما انهزموا لم يكونوا منصورين وكان ذلك منهم خطأ وإن وقع مكفراً .

قوله تعالى :

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ (٢٧) آية .

اخبر الله تعالى أنه حين انهزم المسلمون وبقي النبي ﷺ في نفر من قومه أنه أنزل السكينة ، وهي الرحمة التي تسكن اليها النفس ويزول معها الخوف حتى رجعوا اليهم وقاتلوهم وهزمهم الله تعالى بأن أنزل النصر وأنزل السكينة. وقيل السكينة هي الطمأنينة والامنة . وقال الحسن : هي الوقار قال الشاعر :

لله قبر غالها ماذا يجن لقد اجن سكينة ووقارا(١)

وقوله «وأنزل جنوداً لم تروها» والجنود هي الجموع التي تصلح للحروب. والمراد بها هاهنا الملائكة، جند واجناد وجنود ، فانزل الله الملائكة مدداً للمؤمنين وقال الجبائي : إنما نزلت الملائكة يوم حنين من جهة الخاطر الذي يشجع قلوبهم ويجبن عنهم اعداءهم ، ولم تقاتل إلا يوم بدر خاصة .

وقوله « وعذب الذين كفروا » معناه ـ ها هنا ـ القتل والأسر وسلب الاموال مع الاذلال والصغار . ثم قال « وذلك » يعني ذلك العذاب « جزاء الكافرين » من جحد نعم الله وانكر وحدانيته ، وجحد نبوة نبيه مع ما أعده لهم من عذاب النار .

قوله تعالى :

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) آية

معنى (ثم) ها هنا العطف على الفعل الاول ، وقد ذكرت (ثم) في ثلاثة مواضع متقاربة : فالاول ـ عطف على ما قبلها . والثانية ـ عطف على « وليتم مدبرين ، ثم انزل الله سكينته » والثالثة ـ عطف على (أنزل ... ثم يتوب) وانما حسن عطف المستقبل على الماضي لانه مشاكله فان الأول تذكير بنعمه والثاني وعد بنعمه . والتوبة هي الندم على مامضى من القبيح ، والعزم على أن لا يعود الى مثله إما في

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٨٦ .

الجنس او في القبح على الخلاف فيه ، فشرط الندم بالعزم ، لأن الندم إنما هو على الماضي والعزم على ما يستقبل ، فلو لم يجتمعا لم تكن توبة . ومعنى « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » انه يقبل التوبة من بعد هزيمة من انهزم . ويجوز أن يكون المراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب ويرجع الى طاعة الله والاسلام ويندم على ما فعل من القبيح «على من يشاء » وإنما علقه بالمشيئة ، لأن قبول التوبة واسقاط العقاب عندها تفضل ــ عندنا ــ ولو كان ذلك واجباً لما جاز تعلق ذلك بالمشيئة كما لم يعلق الثواب على الطاعة والعوض على الألم في موضع بالمشيئة . ومن خالف في ذلك قال : إنما علقها بالمشيئة ، لأن منهم من له لطف يؤمن عنده فالله تعالى يشاء أن يلطف له مع صرف العمل في ترك التوبة الى الله .

وقوله « والله غفور رحيم » معناه انه ستار للذنوب لا يفضح احداً على معاصيه بل يسترها عليه إذا تاب منها ، وهو رحيم بعباده .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يخبرهم فيه أن المشركين انجاس ويأمرهم ان يمنعوا المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أي الذي أشار اليه ، وهي سنة تسع من الهجرة التي نبذ فيها براءة المشركين . وكانت بعده حجة الوداع ــ وهو قول قتادة وغيره من المفسرين ــ والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله ــ في قول عطاء وغيره ــ وكل شيء مستقذر في اللغة يسمى نجساً ، فاذا استعمل مفرد قيل : نجس ــ بفتح النون والجيم معاً ــ ويقع على الذكر والانثى سواء . وظاهر

الآية يقتضي أن الكفار أنجاس ، ولا يجوز مع ذلك أن يمكنوا من دخول شيء من المساجد ، لأن شركهم أجري مجرى القذر الذي يجب تجنبه ، وعلى هذا من باشر يد كافر ، وجب عليه ان يغسل يده إذا كانت يده او يد المشرك رطبة . وإن كانت ايديهما يابستين مسحها بالحائط . وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ولم يفصل.

واختلفوا في هل يجوز دخولهم المسجد الحرام بعد تلك السنة أم لا ؟.

فروي عن جابر ابن عبد الله ، وقتادة أنه لا يدخله احد إلا أن يكون عبداً او أحداً من اهل الذمة . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يجوز لهم دخول المسجد الحرام ، ولا يدخل احد من اليهود والنصارى شيئاً من المساجد بحال . وهذا هو الذي نذهب اليه . وقال الطبري وقتادة : سموا انجاساً ، لأنهم لا يغتسلون من جنابة . وقوله « فان خفتم عيلة » فالعيلة الفقر ، تقول : عال يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغني متى يعيل (١)

وكانوا خافوا انقطاع المتاجر بمنع المشركين ، فقال الله تعالى « وإن خفتم عيلة » يعني فقراً بانقطاعهم ، فالله يغنيكم من فضله إن شاء ـ في قول قتادة ومجاهد ـ وإنما علقه بالمشيئة لأحد أمرين : أحدهما ـ لان منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به ، لأنه يجوز ان يموت قبله ـ في قول ابي علي ـ والثاني ـ لتنقطع الآمال الى الله تعالى ، كما قال « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين » (٢) . وقوله « إن الله عليم حكيم » معناه عالم بمصالحكم حكيم في منع المشركين من دخول المسجد الحرام .

قوله تعالى:

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

(١) مر هذا البيت في ٣/ ١٠٩ وهو في مجاز القرآن ١/ ٢٥٥

(٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٧ .

مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَايَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٠) آية .

قوله تعالى « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر » امر من الله تعالى لنبيه وللمؤمنين بأن يقاتلوا الذين لايعترفون بتوحيد الله ، ولايقرون باليوم الاخر والبعث والنشور . وذلك يدل على صحة مذهبنا في اليهود والنصارى وأمثالهم انه لايجوز أن يكونوا عارفين بالله وإن أقروا بذلك بلسانهم . وانما يجوز أن يكونوا معتقدين لذلك اعتقاداً ليس بعلم . والاية صريحة بأن هؤلاء الذين هم أهل الكتاب الذين تؤخذ منهم الجزية لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر وانه يجب قتالهم « حتى يعطوا الجزية عن يد » . ومن قال : إنهم يجوز أن يكونوا عارفين بالله تعالى ، قال : الاية خرجت مخرج الذم لهم ، لأنهم بمنزلة من لايقر به في عظم الجرم ، كما انهم بمنزلة المشركين في عبادة الله بالكفر . وقال الجبائي : لأنهم يضيفون اليه مالايليق به فكأنهم لايعرفونه . وانما جمعت هذه الأوصاف لهم ولم يذكروا بالكفار من اهل الكتاب للتحريض على قتالهم بما هم عليه من صفات الذم التي توجب البراءة منهم والعداوة لهم .

وقوله « ولايدينون دين الحق » يدل على ان دين اليهودية والنصرانية غير دين الحق ، وذلك يقوي انهم غير عارفين بالله ، لأنهم لو كانوا عارفين كانوا في ذلك محقين . فأما اعتقادهم لشريعة التوراة فانما وصف بأنه غير حق لامرين : احدهما - انها نسخت فالعمل بها بعد النسخ باطل غير حق . الثاني - ان التوراة التي هي معهم مغيرة مبدلة لقوله « يحرفون الكلم عن مواضعه » (١) ويقلبونه عن معانيه .

وقوله « ولايحرمون ماحرم الله ورسوله » معناه انهم لايعترفون بالاسلام

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٥ وسورة ٥ المائدة آية ١٤

الذي هو الدين الحق . ولايسلمون لأمر الله الذي بعث به نبيه محمد ﷺ في تحريم حرامه وتحليل حلاله . والدين في الاصل الطاعة قال زهير :

لئن حللت بجو في بني اسـد في دين عمرو وحالت بيننا فدك(١)

وقوله « حتى يعطوا الجزية عن يد » فالجزية عطية عقوبة جزاء على الكفر بالله على ماوضعه رسول الله ﷺ على أهل الذمة ـ وهو على وزن جاسة ، وقعدة ـ لنوع من الجزاء . وإنما قيل « عن يد » ليفارق حال الغصب على اقرار أحد. وقال ابو علي : معناه يعطونا من ايديهم يجيئون بها بنفوسهم لاينوب عنهم فيها غيرهم إذا قدروا عليه . فيكون أذل لهم . وقال قوم : معناه عن نقد كما يقال : باع يداً بيد . وقال آخرون : معناه عن يد لـكم عليهم ونعمة تسدونها اليهم بقبول الجزية منهم . وقال الحسين بن علي المغربي : معناه عن قهر . وهو قول الزجاج .

وقوله « وهم صاغرون » فالصغار الذل والنكال الذي يصغر قدر صاحبه،صغر يصغر صغاراً، فهو صاغر. وقيل : الصغار اعطاء الجزية قائماً ، والآخذ جالس،ذهب اليه عكرمة. والجزية لاتؤخذ عندنا إلا من اليهود والنصارى والمجوس . وأماغيرهم من الكفار على اختلاف مـذاهبهم من عباد الاصنام والأوثان والصابئة وغيرهم فلا يقبل منهم غير الاسلام أو السبي . وانما كان كذلك لما علم الله تعالى من المصلحة في اقرار هؤلاء على كفرهم ومنع ذلك في غيرهم ، لان هؤلاء على كفرهم يقرون بألسنتهم بالتوحيد وبعض الأنبياء . وان لم يكونوا على الحقيقة عارفين . واولئك يجحدون ذلك كله . فلذلك فرق بينهما .

فان قيل : اعطاء الجزية منهم لايخلوا أن يكون طاعـة اومعصية ، فان كان معصية فكيف أمر الله بها ؟ وإن كان طاعة وجب أن يكونوا مطيعين لله .

قلنا : إعطاؤهم ليس بمعصية . وأما كونها طاعة لله فليس كذلك ، لأنهم انما يعطونها دفعاً للقتل عن انفسهم لاطاعة لله ، فان الكافر لايقع منه طاعة عندنا

(١) ديوانه ١٨٣ ومجاز القرآن ١ : ٢٨٦ وتفسير الطبري ١٤ : ١٩٨

بحال ، لأنه لو فعل طاعة لله لاستحق الثواب والاحباط باطل ، فكان يجب ان يكون مستحقاً للثواب وذلك خلاف الاجماع .

قوله تعالى :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣١) آية.

قرأ « عزير » بالتنوين عاصم والكسائي وعبد الوارث عن ابي عمرو . الباقون بترك التنوين . وقرأ عاصم وحده « يضاهؤن » بالهمزة. الباقون بغير همزة .

من ترك التنوين في « عزير » قيل في وجه ذلك ثلاثة أقوال : أحدها ـ انه اعجمي معرفة لاينصرف . والثاني ـ لأن ابن هاهنا صفة بين علمين والخبر محذوف والتقدير معبودنا أو نبينا عزير ابن الله . الثالث ـ انه حذف التنوين لالتقاء الساكنين تشبيهاً بحرف اللين ، كما قال الشاعر :

فالفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

هذا الوجه قول الفراء : وعند سيبويه هو ضرورة في الشعر قال أبو علي : من نونه جعله مبتدأ وجعل ابناً خبره ، ولابد مع ذلك من التنوين في حال السعة والاختيار ، لأن ابا عمرو وغيره يصرف عجمياً كان او عربياً .

ومن حذف التنوين يحتمل وجهين : أحدهما ـ أنه جعل الموصوف والصفة بمنزلة اسم واحد ، كما يقال : لارجل ظريف . وحذف التنوين ولم يحرك لالتقاء الساكنين ، كما يحرك يازيد العاقل ، لان الساكنين كأنهما التقيا في تضاعيف كلمة واحدة ،فحذف الاول منهما ولم يحرك لكثرة الاستعمال . والوجه الآخر ـ

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ٧٦ تعليقة ٣

أن يجعل مبتدأ والاخر الخبر مثل من نون وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وعلى هـذا قراءة من قرأ « قل هو الله احد الله » فحذف التنوين لالتقاء الساكنين .

فان قيل كيف أخبر الله عن اليهود بانهم يقولون عزير ابن الله واليهود تنكر هذا ؟! قلنا : إنما اخبر الله بذلك عنهم ، لأن منهم من كان يذهب اليه، والدليل على ذلك ان اليهود في وقت ما انزل الله القرآن سمعت هذه الآية فلم تنكرها . وهو كقولك: الخوارج تقول بتعذيب الاطفال، وإنما يقول بذلك الازارقة منهم خاصة. قال ابن عباس : القائل لذلك جماعة جاءوا الى النبي ﷺ ، فقالوا له ذلك ، وهم سلام ابن مشكم، ونعمان بن اوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف ، فانزل الله فيهم الآية .

وقوله « ذلك قولهم بأفواههم » معنا انه لا يرجع الى معنى صحيح : فهو لا يجاوز افواههم ، لأن المعنى الصحيح ما رجع الى ضرورة العقل او حجته او برهانه او دليل سمعي. وقوله « يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل » معناه يشابهون .ومنه قولهم امرأة ضهياء التي لا تحيض ، ولا يخرج ثدياها اي اشبهت الرجال . وقال أبو علي الفارسي : ليست يضاهؤن من قولهم امرأة ضهياء ، لأن هذه الهمزة زائدة غير اصلية لأنه ليس في الكلام شيء على وزن (فعيآء) ويشبه ان يكون ذلك لغة، كما قالوا ارجأت وأرجيت . واختار الزجاج أن تكون الهمزة أصلية ، كما جاء كثير من الاشياء على وزن لا يطرد نحو (كنهبل) وهو الشجر العظام ، وكذلك (قرنفل) لا نظير له . ووزنه (فعنلل) .

وقال ابن عباس « الذين كفروا » اراد به عبدة الاوثان، وقال الفراء :يشابهونهم في عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . وقال قوم في قولهم : الملائكة بنات الله . وقال الزجاج : شابهوهم في تقليدهم اسلافهم في هذا القول .

وقوله « قاتلهم الله » قيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ قال ابن عباس معناه لعنهم الله . الثاني ـ معناه قتلهم الله كقولهم عافاه الله من السوء . الثالث ـ

كالمقاتل لغيره في عداوة الله .

وقوله « انى يؤفكون » معناه كيف يصرفون عن الحق الى الافك الذي هو الكذب ، ورجل مأفوك عن الخير وارض مأفوكة صرف عنها المطر قال الشاعر :

أنى الم بك الخيال تطيف

قوله تعالى :

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣٢) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء اليهود والنصارى الذين حكى حكايتهم انهم اتخذوا احبارهم ، وهو جمع حبر ، وهو العالم الذي صناعته تحبير المعاني بحسن البيان وقيل حبر وحبر ـ بفتح الباء وكسرها ـ حكاه الفراء . والرهبان جمع راهب وهو الخاشي الذي يظهر عليه للناس الخشية . وقد كثر استعماله في متنسكي النصارى وروي عنه صلى الله عليه وآله أن معنى اتخاذهم أرباباً أنهم قبلوا منهم التحريم والتحليل بخلاف ماأمر الله تعالى ، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ، فسمى الله ذلك اتخاذهم إياهم أرباباً من حيث كان التحريم والتحليل لايسوغ إلا لله تعالى . وهو قول أكثر المفسرين .

وقوله « والمسيح ابن مريم » عطف على الارباب أي واتخذوا عيسى رباً .

وقوله « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » معناه ان الله تعالى لم يأمر هؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم إلا بعبادة الله وحده لاشريك لـه . ثم أخبر فقال « لا إله إلا هو سبحانه » يعني تنزيهاً عما يشركون . ومعنى سبحانـه براءة الله من السوء كما قال الشاعر :

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر (١)

والآية تدل على أن المشرك مع الله في التحليل والتحريم على مخالفة امر الله كالمشرك في عبادة الله، لأن استحلال ماحرم الله كفر بالاجماع . وكل كافرمشرك ولايلزم على ذلك أن يكون من قبل من الشيطان باغوائه فارتكب المعاصي أن يكون كافراً على مااستدل به بعض الخوارج ، لأنه إذا قبل من الشيطان مايعتقد انه معصية ولا يقصد بذلك طاعة الشيطان ولاتعظيمه يكون فاسقاً ، ولايكون كافراً . وليس كذلك من ذكره الله تعالى في الاية ، لأنهم كانوا يقبلون تحريم علمائهم واحبارهم ويقصدون بذلك تعظيمهم . ولايلزم على ذلك قبول المعاصي من العالم ، لأن العامي يعتد بالرجوع الى العالم فيقبل منه ماأدى اجتهاده اليه وعلمه ، فاذا قصد العالم وافتاه بغير ماعلمه فهو المخطيء دون المستفتي . وليس كذلك هؤلاء ، لأنهم ما كانوا تعبدوا بالرجوع الى الاحبار والقبول منهم لأنهم لو كانوا تعبدوا بذلك لما ذمهم الله على ذلك .

قوله تعالى :

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ (٣٣) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى انهم « يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم » والاطفاء اذهاب نور النار . ثم استعمل في اذهاب كل نور . و « نور الله » القرآن والاسلام ، في قول المفسرين : السدي والحسن . وقال الجبائي : نور الله : الدلالة والبرهان ، لأنه يهتدى بها كما يهتدى بالأنوار .

وواحد الأفواه فم في الاستعمال ، وأصله فوه فحذفت الهاء وأبدلت من الواو

(١) قائله الاعشى . وقد مر تخريجه في ٣/ ٨١

ميم ، لأنه حرف صحيح من مخرج الواو مشاكل لها . ولما سمى الله تعالى الحجج والبراهين نورا سمى معارضتهم لـه اطفاء . وأضاف ذلك الى الافواه ، لأن الاطفاء يكون بالافواه ، وهو النفخ ، وهذا من عجيب البيان مع مافيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم ، لأن النفخ يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة ذكره الحسين بن علي المغربي . وقوله « ويأبى الله الا ان يتم نوره » الاباء الامتناع مما طلب من المعنى . قال الشاعر :

وإن أرادوا ظلمنا أبينا

أي منعناهم من الظلم ، وليس الاباء من الكراهة في شيء على مايقول المجبرة لأنهم يقولون : فلان يأبى الضيم ، فيمدحونه ، ولامدحة في كراهة الضيم لتساوي الضعيف والقوي في ذلك . وإنما المدح في المنع خاصة ، ولذلك مدح عورة بن الورد بأنه أبى للضيم بمعنى أنه ممتنع منه ، وقوله (وإن ارادوا ظلمنا أبينا) يدل على ذلك لأنه لامدحة في ان يكرهوا ظلم من يظلمهم . وإنما المدحة في منع من أراد ظلمهم . والمنع في الاية يمنع الله إلا إتمام نوره . وإن كره الكافرون . ولايجوز على قياس « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » أن تقول : ضربت إلا أخاك ، لأن في الاباء معنى النفي ، فكأنه قال : لايمكنهم الله إلا أن يتم نوره . وإذا لم يكن في اللفظ مستثنى منه لم تدخل « إلا » في الايجاب ، وتدخل في النفي على تقدير الحذف قال الشاعر :

وهل لي أم غيرها ان تركتها　　أبى الله إلا أن اكون لها ابنما(١)

والتقدير في الآية ويأبى الله كل شيء الا اتمام نوره . في قول الزجاج ، وأنكر أن يكون في الآية معنى الجحد .

---

(١) تفسير القرطبي ٨ \ ١٢١ ومعاني القرآن ٤٣٣١ .

قوله تعالى

هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٤) آية .

اخبر الله تعالى انه « هوالذي ارسل رسوله » ﷺ وحمله الرسالة التي يؤديها الى امته « بالهدى » يعني بالحجج والبينات والبيان لما يؤديهم العمل به الى ابواب الجنة . و « دين الحق » هو الاسلام وماتضمنه من الشرائع ، لأنه الذي يستحق عليه الجزاء بالثواب . وكل دين سواه باطل لأنه يستحق به العقاب . ومن شأن الرسول أن يكون أفضل من جميع أمته من حيث يجب عليهم طاعته وامتثال ما يأمرهم به بما هو مصلحة لهم ، ولأنه رئيس لهم في الدين ؛ ويقبح تقديم المفضول على الفاضل فيما كان أفضل فيه .

وقوله « ليظهره على الدين كله » معناه ليعلي دين الاسلام على جميع الأديان بالحكم والغلبة والقهر لهم . وقال البلخي : ظهوره على جميع الاديان بالحكم ، لأن جميع الأديان نال المسلمون منهم وغزوا فيهم وأخذوا سبيهم وجزيتهم .

وفي الآية دلالة على صدق نبوته ﷺ لأنها تضمنت الوعد بظهور الاسلام على جميع الاديان ، وقد صح ظهوره عليها . وقال ابو جعفر عليه السلام ان ذلك يكون عندخروج القائم عليه السلام . وقال ابن عباس : إن الهاء في « ليظهره » عائدة الى الرسول ﷺ أي ليعلمه الله الاديان كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٥) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يعلمهم أن كثيراً من احبار اليهود وعلمائهم ورؤسائهم ، وكثيراً من رهبان النصارى ليأكلون أموال الناس بالباطل من حيث كانوا يأخذون الرشا في الاحكام ـ في قول اسحاق والجبائي ـ وأكل المال بالباطل تملكه من الجهات التي يحرم منها اخذه . وقيل في معنى « ليأكلون اموال الناس بالباطل » وجهان : احدهما ـ انهم يتملكون . فوضع يأكلون موضعه لأن الاكل غرضهم . والثاني ـ يأكلون اموال الناس من الطعام ، فكأنهم يأكلون الأموال ، لانها من المأكول ، كما قال الشاعر :

ذر الآكلين الماء لوماً فما أرى　　ينالون خيراً بعد أكلهم الماء (١)

اي ثمن الماء . وقوله « ويصدون عن سبيل الله » معناه يمنعون غيرهم من اتّباع الاسلام الذي هو سبيل الله التي دعاهم الى سلوكها . والغرض بذلك التحذير من اتباعهم والتهوين على المسلمين مخالفتهم .

وقوله « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله » معناه الذين يخبؤن أموالهم من غير ان يخرجوا زكاتها . لانهم لو اخرجوا زكاتها وكنزوا ما بقي لم يكونوا ملومين بلاخلاف . وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وابن عمر ، والحسن والسدي ، والجبائي . قال : وهو إجماع . واصل الكنز كبس الشيء بعضه على بعض . ومنه قولهم كنز التمر والطعام قال الهذلي :

لا درّ درّي إن أطعمت نازلكم　　قرف الحتي وعندي البر مكنوز (٢)

---

(١) اللسان (أكل) وروايته (من) بدل (ذر) و (ظلماً) بدل (لوماً) .

(٢) مقاييس اللغة ٢/١٣٦ واللسان « كنز » .

الحتي ـــويق المقل . وقوله « ولا ينفقونها في سبيل الله » إنما لم يقل ولا ينفقونهمالأحد أمرين : احدهما ـ ان تكون الكناية عائدة الى مدلول عليه وتقديره ولا ينفقون الكنوز أو الأموال . والآخر ـ ان يكون اكتفى بأحدهما عن الآخر للايجاز ومثله « وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها » (١) وقال حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الاســـ ـــود ما لم يعاص كان جنونا (٢)

وقال الآخر :

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف (٣)

وكان يجب ان يقول راضيان . ومعنى البيت نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض وحذف الخبر من الاول لدلالة الثاني عليه كما حذف المفعول في الثاني لدلالة الأول عليه في قوله « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (٤) والتقدير والذاكرات الله . ومثل ذلك الآية . وتقديرها والذين يكنزون الذهب ولا ينفقونه في سبيل الله ويكنزون الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله . وموضع « والذين يكنزون » يحتمل وجهين من الاعراب : أحدهما ـ ان يكون نصباً بالعطف على اسم (إنّ) وتقديره : يأكلون والذين يكنزون الذهب : والثاني ـ ان يكون رفعاً على الأستئناف.

وقال ابن عمر كل ما اخرجت زكاته فليس بكنز ، وبه قال عكرمة . وقال الجبائي وغيره : « الذين يكنزون » نزلت في مانعي الزكاة من أهل الصلاة . وقال قوم : نزلت في المشركين ، والأولى أن تحمل الآية على العموم في الفريقين .

وقوله « فبشرهم بعذاب اليم » قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ان اصل البشرى مما يظهر في بشرة الوجه من فرح او غم ، إلا

---

(١) سورة ٦٢ الجمعة آية ١١

(٢) تفسير القرطبي ٨ /١٢٨ ومجاز القرآن ١/ ٢٥٨

(٣) تفسير القرطبي ١٢٨/٨ ومعاني القرآن ٤٣٤/١ ، ٤٤٥ .

(٤) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥ .

انه كثر استعماله في الفرح كما قال الجعدي .

وأراني طرباً في إثرهم   طرب الواله او كالمختبل (١)

لان أصل الطرب مايستخف من سرور او حزن .

والثاني - انه وضع الوعيد بالعذاب الاليم موضع البشرى بالنعيم . وروي عن علي عليه السلام انه قال : كلما زاد على أربعة آلاف ، فهو كنز . أديت زكاته او لم تؤد ، وما دونها فهو نفقة . وقال أبو ذر : من ترك بيضاء او صفراء كوي بها وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عند نزول هذه الآية أي مال يتخذ ، فقال : لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين احدكم على دينه .

قوله تعالى :

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٦) آية .

قوله « يوم يحمى » متعلق بقوله « فبشرهم بعذاب اليم » في يوم يحمى عليها. ومعناه انه يدخل الذهب والفضة الى النار فيوقد عليها يعني على الكنوز التي كنزوا فالهاء في قوله « عليها » عائدة على الكنوز او الفضة .

والاحماء جعل الشيء حاراً في الاحساس ، وهو فوق الاسخان ، وضده التبريد تقول : حمي حماً وأحماه احماء إذا امتنع من حر النار .

وقوله « فتكوى » فالكي إلصاق الشيء الحار بالعضو من البدن . ومنه قولهم اخر الداء الكي لغلظ أمره كقطع العضو إذا عظم فساده تقول : كواه يكويه كياً

(١) مقاييس اللغة ٣/٤٤٥ واللسان (خبل) .

واكتوى اكتواء. وقوله «جباهم» جمع جبهة وهي صفحة اعلى الوجه فوق الحاجبين وجبهه بالمكروه يجبهه جبهاً إذا استقبله به «وجنوبهم» جمع جنب والجنب والضلع والأبطل نظائر «وظهورهم» جمع ظهر، وهو الصفحة العليا من خلف، المقابلة للبطن يقال: كتب في ظهر الدرج وبطنه إذا كتب في جانبيه. والمعنى ان الله يحمي هذه الكنوز بالنار ليكوي بها جباه من كنزها ولم يخرج حق الله منها وجنوبهم وظهورهم، فيكون ذلك اشد لعذابهم وأعظم لخزيهم.

وقوله «هذا ما كنزتم» اي يقال لهم: هذا ما ذخرتموه لانفسكم «فذوقوا ما كنتم تكنزون» ومعناه فاطعموا جزاء ما كنتم تدخرونه من منع الزكوات والحقوق الواجبة في أموالكم.

قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٧) آية.

قرأ ابو جعفر «اثنا عشر» و «أحدعشر» و «تسعة عشر» بسكون الشين فيهن إلا أن النهرواني روى عنه حذف الألف التي قبل العين.

لما ذكر الله تعالى وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير اخراج الزكاة وغيرها من الحقوق التي لله منه اقتضى ذلك ان يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الاشهر الحرم التي تؤدي الى مثل حاله او شر منها في سوء المنقلب، فأخبر تعالى «ان عدة الشهور» في السنة على ما تعبد الله المسلمين بأن يجعلوه لسنتهم دون ما يعتبره مخالفوا الاسلام «إثنا عشر شهراً» وانما قسمت السنة اثني عشر شهراً لتوافق أمر

الاهلة مع نزول الشمس في اثني عشر برجاً تجري على حساب متفق ، كما قال: « الشمس والقمر بحسبان » (١) والشهر مأخوذ من شهرة أمره لحاجة الناس اليه في معاملاتهم ومحل ديونهم وحجهم وصومهم ، وغير ذلك من مصالحهم المتعلقة بالشريعة .

وقوله « في كتاب الله » معناه فيما كتبه الله في اللوح المحفوظ وفي الكتب المنزلة على أنبيائه .

وقوله « يوم خلق السماوات والارض » متصل بـ « عند الله » والعامل فيها الاستقرار . ثم بين أمرهذه الاثني عشر شهراً «منها أربعة حرم » وهي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب : ثلاثة سرد وواحد فرد كما يعتقده العرب . ومعنى « حرم » انه يعظم انتهاك المحارم فيها اكثر مما يعظم في غيرها ، وكانت العرب تعظمها حتى ان الرجل لو لقي قاتل أبيه لم يهجه لحرمته . وانما جعل الله تعالى بعض الشهور اعظم حرمة من بعض لما علم في ذلك من المصلحة في الكف عن الظلم فيها، فعظم منزلتها ،وانه ربما أدى ذلك الى ترك الظلم اصلا لانطفاء النائرة تلك المدة وانكسار الحمية ، فان الأشياء تجر الى اشكالها .

وقوله « ذلك الدين القيم » معناه التدين بذلك هو الدين المستقيم .

وقوله « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » نهي منه تعالى لخلقه عن أن يظلموا انفسهم لأن من فعل قبيحاً يستحق عليه العقاب ، فقد ظلم نفسه بذلك بادخال الضرر عليها وقال ابو مسلم: معناه لاتدعوا قتال عدوكم في هذه الأشهر بأجمعكم ، ولاتمتنعوا من أحد الا من دخل تحت الجزية والصغار ، وكان من أهلها بدلالة قوله «وقاتلوا المشركين كافة » وكافة مشتقة من كفة الشيء وهي طرفه وانما أخذ من أن الشيء إذا انتهى الى ذلك كف عن الزيادة ، ولايثنى كافة ولا يجمع .

وقوله « وقاتلوا المشركين كافة » امر منه تعالى بقتال المشركين أجمع :امر

---

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٥

الله تعالى المؤمنين بأن يقاتلوهم كما أن المشركين يقاتلونهم كذلك، والضمير في قوله « فيهن » يحتمل أن يكون عائداً على الشهور كلها على ما قال ابن عباس ، ويحتمل أن يعود على الأربعة الحرم على ما قال قتادة لعظم أمرها. واختار الفراء رجوعه الى الاشهر الحرم . قال لانه لورجع الى الاثني عشر لقال فيها. والصحيح ان الجميع جائز وانما خص الأربعة اشهر بذلك في قول قتادة لتعاظم الظلم لا أن الظلم يجوز فعله على حال من الأحوال .

وقوله « ذلك الدين القيم » معناه ذلك الحساب الصحيح هو الدين القيم لا ما كانت عليه العرب من النسيء . وقيل : معناه ذلك التدين هو الدين القيم .وقوله « كافة » نصب على المصدر ، ولايدخل عليها الالف واللام ، لأنه من المصادر التي لاتنصرف لوقوعه موقع معاً وجمعاً بمعنى المصدر الذي هو في موضع الحال المذكورة ، فهو في لزوم النكرة نظير أجمعين في لزوم المعرفة .

وقوله « واعلموا ان الله مع المتقين » لمعاصيهم وما يؤدي الى عقابه ويكون معهم بالنصرة والولاية دون الاجتماع في مكان اومحل ، لأن الله لايجوز عليه ذلك لانه من امارات الحدث .

قوله تعالى :

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِؤُا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ(٣٨)آية

قرأ ابو جعفر وابن فرج عن البزي « انما النسيّ » من غيرهمز قلب الهمزة ياء وادغم الياء الاولى فيها فلذلك شدد . الباقون « النسيء » ممدود مهموز على وزن فعيل . وروي عن ابن مجاهد وابن مسعود عن عبيد بن عقيل عن شبل عن ابن كثير

« النسء » على وزن النسع . وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « يضل » بضم الياء وفتح الضاد . وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد . الباقون بفتح الياء وكسر الضاد . قال ابو علي : وجه قراءة ابن كثير اذا قرأت على وزن النسع ان (النسيء) التأخير . قال ابو زيد : نسأت الابل في ظمئها يوماً او يومين او اكثر من ذلك ، والمصدر « النسيء » ويقال : الابل نسأتها على الحوض وأنا أنسأها نسئاً إذا اخرتها عنه . قال : ومارويَ عن ابن كثير من قراءته بالياء فذلك على ابدال الياء من الهمزة ، ولاأعلمها لغة في التأخير ، كما ان ارجيت لغة في ارجأت وماروي فيه من التشديد فعلى تخفيف الهمز ، لأن النسيّ بتشديد الياء على وزن فعيل بالتخفيف قياسي . وسيبويه لايجيز نحو هذا القلب الذي في النسيء الافي ضرورة الشعر . وابن زيد يراه ويروي كثيراً عن العرب . ومن قرأ بالمد والهمز فلأنه اكثر هذا في المعنى . قال أبو زيد : أنسأته الدين إنساء إذا أخترته واسم ذلك النسيئة والنسأ . وكان النسيء في الشهور تأخير حرمة شهر الى شهر ليست له تلك الحرمة فيحرمون بهذا التأخير ماأحل الله ويحلون ما حرم الله . والنسيء مصدر كالنذير والنكير وعذير الحي . ولايجوز أن يكون (فعيلا) بمعنى مفعول لأنه حمل على ذلك كأن معناه انما المؤخر زيادة في الكفر . والمؤخر الشهر وليس الشهر نفسه بزيادة في الكفر ، وانما الزيادة في الكفر تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر ليست له تلك الحرمة . وقال ابو عبيدة فيما روى عن الثوري من قوله : انما النسيء زيادة في الكفر قال : كانوا قد وكلوا قوماً من بني كنانة يقال لهم : بنوا فقيم وكانوايؤخرون المحرم وذلك نساء الشهور لايفعلون ذلك الا في ذي الحجة اذا اجتمعت العرب للموسم، فينادي مناد أن افعلوا ذلك لحاجة اولحرب ،وليس كل سنة يفعلون ذلك،فان ارادوا ان يحلوا المحرم نادوا هذا صفر وان المحرم الاكبر صفر ، وربما جعلوا صفراً محرماً مع ذي القعدة حتى يذهب الناس الى منازلهم إذا نادى المنادي بذلك ، وكانوا يسمون المحرم صفراً ويقدمون صفراً سنة ويؤخرونه

وقال الفراء : والذي يتقدم به رجل من بني كنانة يقال لـه نعيم بن ثعلبة وكان رئيس الموسم ، فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء فيقولون : نعم صدقت انسئنا شهراً او أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر وأحل المحرم فيفعل ذلك . وانما دعاهم الى ذلك توالي ثلاثة اشهر حرم لا يغيرون فيها وكان معاشهم في الغارة . والذي كان ينسأها حين جاء الاسلام هو جنادة بن عوف بن ابي امية وكان في بني معد إن قبل بنو كنانة قال الشاعر :

ألسنا الناسئين على معـد شهور الحل نجعلها حراما(١)

وقال ابن عباس كانوا يجعلون المحرم صفراً وقال ابو علي : كانوا يؤخرون الحج في كل سنة شهراً وكان الذين ينسؤن بنو سليم، وغطفان ، وهوازن، ووافق حج المشركين في السنة التي حج فيها ابو بكر في ذي القعدة ، فلما حج النبي ﷺ في العام المقبل وافق ذلك في ذي الحجة فلذلك قال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والارض وقال مجاهد : فكان النسيء المنهي عنه في الآية تأخير الأشهر الحرم عما رتبها الله ، وكانوا في الجاهلية يعملون ذلك وكان الحج يقع في غير وقته واعتقاد حرمة الشهر في غير أوانه ، فبين تعالى أن ذلك زيادة في الكفر .

قال ابو علي : من قرأ « يضل » بفتح الياء وكسر الضاد قال الذين كفروا لا يخلو أن يكونوا مضلين لغيرهم أو ضالين هم في انفسهم فاذا كان كذلك لم يكن في حسن اسناد الضلال في قولـه « يضل » اشكال، ألا ترى أن المضل لغيره ضال بفعله اضلال غيره كمـا ان الضال في نفسه الـذي لم يضله غيره لا يمتنع اسناد الضلال اليه ومن ضم الياء وكسر الضاد فمعناه ان كبراءهم واتباعهم يضلونهم بأمرهم اياهم بحملهم على هذا التاخير في الشهور . وروي في التفسير ان رجلا من كنانـة يقال له ابو ثمامة كان يقول للناس في منصرفهم من الحج إن آلهتكم قد اقسمت

(١) قائله الكميت . تفسير القرطبي ٨/ ١٣٨

لنحرمن" .وربما قال لنحلن هذا الشهر يعني المحرم فيحلونه ويحرمون صفراً وان حرموه احلوا صفراً وكانوا يسمونهما الصفرين فهذا اضلال من هذا المنادي .
ومن قرأ بضم الياء وفتح الضاد - وقيل انها قراءة ابن مسعود - يقوي ذلك قوله « زين لهم سوء اعمالهم » اي زين ذلك لهم حاملوهم عليه وداعوهم اليه . وعلى هذه القراءة يكون « الذين كفروا » في موضع رفع بانهم فاعلون والمفعول به محذوف وتقديره يضل منسؤا الشهور الذين كفروا تابعيهم والآخذين لهم بذلك .

ومعنى قوله « ليواطئوا » فالمواطأة موافقة امر التوطئة والمعنى ليواطئوا العدة في الاربعة اشهر .

وقوله « زين لهم سوء اعمالهم » قال الحسن وأبو علي المزين لهم انفسهم والشيطان. وقيل : زين بالشهوة وليجتنبوا المشتهى فذكر ذلك للتحذير والاعتراف به. والتزيين يكون بمعنى الفعل له ويكون بمعنى تقبل الطبع . وإنما سمي انساؤهم زيادة في الكفر من حيث أنهم اعتقدوا أن ذلك صحيح وصواب فلذلك كان كفراً فلا حجة في ذلك ان تكون افعال الجوارح كفراً .

وقوله « والله لايهدي القوم الكافرين » معناه انه لايهديهم الى طريق الجنة اذ كانوا كفاراً مستحقين لعذاب الابد .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى لجماعة من المؤمنين وعتاب وتوبيخ لهم بأنهم إذا قيل لهم على لسان رسوله « انفروا في سبيل الله » ومعناه اخرجوا في سبيل الله يعني الجهاد

وسماه سبيل الله ، لأن القيام به موصل الى معنى الجنة ورضا الله تعالى والنفر الخروج الى الشيء لامر هيج عليه وضده الهدوء تقول : نفر الى الثغر ينفر نفراً ونفيراً ولا يقال النفور إلا في المكروه كنفور الدابة عما تخاف ، وقوله « اثاقلتم الى الارض » اصله تثاقلتم وادغمت التاء في الثاء لمناسبتها لها وادخلت الف الوصل ليمكن الابتداء بها ومثله اداركوا قال الشاعر :

تولى الضجيع إذا ما استافها خصراً عذب المذاق إذا ما اتابع القبل(١)

والتثاقل تعاطي اظهار ثقل النفس ومثله التباطيء وضده التسرع . ومعنى « اثاقلتم الى الأرض » قيل فيه قولان :

أحدهما ـ الى المقام بارضكم ووطنكم .

الثاني ـ لما اخرج من الارض من الثمر والزرع . قال الحسن ومجاهد : دعوا الى الخروج الى غزوة تبوك بعد فتح مكة وغزوة الطائف ، وكان ايام ادراك الثمرة ومحبة القعود في الظل فعاتبهم الله على ذلك . والآية مخصوصة بقوم من المؤمنين دون جميعهم ، لأن من المعلوم ان جميعهم لم يكن بهذه الصفة من التثاقل في الجهاد ، وهو قول الجبائي وغيره. فقال الله تعالى لهم على جهة التوبيخ ، والتعنيف ارضيتم بالحياة الدنيا على الاخرة ، آثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة الآخرة الباقية . وهو استفهام ، والمراد به الانكار . والرضا هو الارادة غير انها لا توصف بذلك إلا اذا تعلقت بما مضى من الفعل والارادة توصف بما لم يوجد بعد قال تعالى مخبراً « فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل » اي ليس الانتفاع بما يظهر للحواس الاقيل ومنه قولهم : تمتع بالرياض والمناظر الحسان . ويقال للاشياء التي لها أثمان : متاع تشبيهاً بالانتفاع به .

---

(١) معاني القرآن ١/٤٣٨ والطبري ١٤/ ٢٥٢ (استاف) الشيء قرب منه وشمه ، و (القبل) ـ بضم القاف ـ جمع قبلة .

قوله تعالى :

إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) آية.

هذا تحذير من الله تعالى لهؤلاء الذين استبطأهم ووصفهم بالتثاقل عن سبيل الله بقوله « إلا تنفروا » أي إن لم تخرجوا الى سبيل الله التي دعيتم اليها من الجهاد « يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم » يقومون بنصرة نبيه ولا يتثاقلون فيه. والاستبدال جعل أحد الشيئين بدل الاخر مع الطلب له والتعذيب بطول وقت العذاب ، لانه من الاستمرار وقد يكون عقاباً وغير عقاب .

وقوله « ولاتضروه شيئاً » قيل فيمن يرجع اليه قولان : احدهما ـ انه يعود على اسم الله في قول الحسن . قال : لأنه غني بنفسه عن جميع الاشياء والاخر ـ قال الزجاج : إنها تعود الى النبي صلى الله عليه وآله لأن الله عصمه من جميع الناس وقوله « والله على كل شيء قدير » معناه قادر على الاستبدال بكم وعلى غيره من الاشياء . وفيه مبالغة .

قوله تعالى :

إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤١) آية.

قرأ يعقوب وحده «وكلمةَ الله هي العليا» بالنصب على تقدير وجعل كلمة الله هي العليا ومن رفع استأنف ، وهو أبلغ لأنه يفيد أن كلمة الله العليا على كل حال. وهذا ايضاً زجر آخر وتهديد لمن خاطبه في الاية الاولى بانهم إن لم ينصروا النبي صلى الله عليه وآله ولم يقاتلوا معه ولم يجاهدوا عدوه « فقد نصره الله » أي قد فعل الله به النصر حين اخرجه الكفار من مكة «ثاني اثنين» . وهو نصب على الحال اي هو ومعه آخر ، وهو ابو بكر في وقت كونهما في الغار من حيث « قال لصاحبه » يعني ابا بكر « لاتحزن » اي لاتخف . ولاتجزع « ان الله معنا » أي ينصرنا . والنصرة على ضربين : احدهما ـ يكون نعمة على من ينصره . والآخر ـ لايكون كذلك ، فنصرة المؤمنين تكون إحساناً من الناصر الى نفسه لأن ذلك طاعة لله ولم تكن نعمة على النبي صلى الله عليه وآله . والثاني ـ من ينصر غيره لينفعه بما تدعو اليه الحكمة كان ذلك نعمة عليه مثل نصرة الله لنبيه صلى الله عليه وآله .

ومعنى « ثاني اثنين » أحد اثنين يقولون هذا ثاني اثنين، وثالث ثلاثة ،ورابع أربعة ، وخامس خمسة ، لأنه مشتق من المضاف اليه. وقد يقولون خامس اربعة أي خمس الاربعة بمصيره فيهم بعد أن لم يكن .

والغار ثقب عظيم في الجبل. قيل : وهو جبل بمكة يقال له ثور، في قول قتادة. وقال مجاهد : مكث النبي صلى الله عليه وآله في الغار مع ابي بكر ثلاثاً . وقال الحسن : أنبت الله على باب الغار ثمامة ، وهي شجيرة صغيرة . وقال غيره : الهم العنكبوت فنسجت على باب الغار . وأصل الغار الدخول الى عمق الخباء . ومنه قوله « إن أصبح ماؤكم غوراً » (١) وغارت عينه تغور غوراً اذا دخلت في رأسه . ومنه أغار على القوم إذا أخرجهم من أخبيتهم بهجومه عليهم .

وقوله « فأنزل الله سكينته عليه » قيل فيمن تعود الهاء اليه قولان : احدهما ـ قال الزجاج : إنها تعود الى النبي صلى الله عليه وآله . والثاني ـ قال الجبائي : تعود على أبي بكر

(١) سورة ٦٧ الملك آية ٣٠

لأنه كان الخائف واحتاج الى الأمن لأن من وعد بالنصر فهو ساكن القلب. والاول أصح ،لأن جميع الكنايات قبل هذا وبعده راجعة الى النبي ﷺ ألا ترى أن قوله « إلا تنصروه » الهاء راجعة الى النبي ﷺ بلا خلاف ، وقوله « فقد نصره الله » فالهاء أيضاً راجعة الى النبي ﷺ وقوله « اذ اخرجه » يعني النبي ﷺ « اذ يقول لصاحبه » يعني صاحب النبي ﷺ ثم قال « فأنزل الله سكينته عليه » وقال بعده « وأيده بجنود » يعني النبي ﷺ فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره وتأييد الله إياه بالجنود ماكان من تقوية الملائكة لقلبه بالبشارة بالنصر من ربه ومن القاء اليأس في قلوب المشركين حتى انصرفوا خائبين .

وقوله « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » أي جعلها نازلة دنية وأراد بذلك أن يسفل وعيدهم النبي ﷺ وتخويفهم إياه فأبطل وعيدهم ونصر رسول الله والمؤمنين عليهم فعبر عن ذلك بأنه جعل كلمتهم كذلك ، لاانه خلق كلمتهم كما قال « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » (١) .

وقيل :إن كلمة الذين كفروا الشرك ، وكلمة الله التوحيد ، وهي قول : لا اله الا الله . وقيل : كلمتهم هو ماتغامزوا عليه من قتله . و « كلمة الله » ما وعد به من النصر والنجاة . ثم أخبر ان « كلمة الله هي العليا » المرتفعة اي هي المنصورة بغير جعل جاعل ، لأنها لايجوز أن تدعو الى خلاف الحكمة . وقوله « والله عزيز » معناه قادر لايقهر « حكيم » واضع الاشياء مواضعها ليس فيها وجه من وجوه القبح .

وليس في الاية مايدل على تفضيل أبي بكر ، لأن قوله « ثاني اثنين » مجرد الاخبار أن النبي ﷺ خرج ومعه غيره ، وكذلك قوله « اذ هما في الغار » خبر عن كونهما فيه ، وقوله « اذ يقول لصاحبه » لامدح فيه أيضاً ، لأن تسمية الصاحب لاتفيد فضيلة ألاترى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر « قال له صاحبه وهو

---

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٩ .

يحاوره أكفرت بالذي خلقك » (١) وقـد يسمون البهيمة بأنها صاحب الانسان كقول الشاعر (وصاحبي بازل شمول) وقد يقول الرجل المسلم لغيره : ارسل اليك صاحبي اليهودي ، ولا يدل ذلك على الفضل ، وقوله «لا تحزن » إن لم يكن ذماً أفليس بمدح بـل هو نهي محض عن الخوف ، وقوله « إن الله معنا » قيل إن المراد بـه النبي ﷺ ، ولو أريد به أبو بكر معه لم يكن فيه فضيلة ، لأنه يحتمل أن يكون ذلك على وجه التهديد ، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لا تفعل إن الله معنا يريد أنه متطلع علينا ، عالم بحالنا . والسكينة قد بينا أنها نزلت على النبي ﷺ بما بيناه من ان التأييد بجنود الملائكة كان يختص بالنبي ﷺ فأين موضع الفضيلة للرجل لولا العناد ، ولم نذكر هـذا للطعن على ابي بكر بل بينا أن الاستدلال بالاية على الفضل غير صحيح .

قوله تعالى :

إِنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) آية .

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين أن ينفروا الى جهاد المشركين خفافاً وثقالا وقيل في معنى « خفافـاً وثقالا » ثمانية أقوال : احدها ـ قال الحسن ومجـاهد والضحاك والجبائي : إن معناه شباناً وشيوخاً . وثانيها ـ قال صالح : معناه أغنياء وفقراء . وثالثها ـ قال ابن عباس وقتادة : نشاطاً وغـير نشاط . ورابعها ـ قال ابو عمرو : ركباناً ومشاة . وخامسها ـ قال ابن زيد : ذا صنعة وغير ذي صنعة . وسادسها ـ قال الحكم : مشاغيل وغير مشاغيل . وسابعها ـ قال الفراء : ذو العيال ، والميسرة : هم الثقال ، وذو العسرة وقلة العيال هم الخفاف . وثامنها ـ ان يحمل

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣٨

على عمومه فيدخل فيه جميع ذلك ، وهو الأولى والأليق بالظاهر ، وهو اختيار الطبري ، والرماني ويكون ذلك على حال خفة النفير وثقله لأن هذا الذي ذكر يجري مجرى التمثيل لما يعمل هذا العمل به .

وقوله « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » أمر من الله لهم بأن يجاهدوا في قتال اعدائه بأموالهم وأنفسهم . والجهاد بالمال واجب كالجهاد بالأنفس ، وهو الانفاق في سبيل الله، وظاهر الاية يدل على وجوب ذلك بحسب الامكان . فمن لم يطق الجهاد إلا بالمال فعليه ذلك يعين به من ليس له مال .

وظاهر الآية يقتضي وجوب مجاهدة البغاة كما يجب مجاهدة الكفار ،لأنه جهاد في سبيل الله ، ولقوله « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (١) فأوجب قتال البغاة الى حين يرجعوا الى الحق . وقوله « ذلكم خير لكم » إشارة الى الجهاد وتقديره ذلك الجهاد خير لكم . وإنما قال « خير لكم » وان لم يكن في ترك الجهاد خير ؛ لأحد أمرين : احدهما ـ خير من تركه الى المباح . والثاني ـ ان فيه الخير لكم لا في تركه ، فلا يكون خير بمعنى أفعل من كذا .

وقوله « إن كنتم تعلمون » معناه إن كنتم تعلمون الخير في الجملة فاعلموا أن هذا خير . وقال أبو علي : معناه « ان كنتم تعلمون » صدق الله فيما وعد به من الثواب الدائم .

وقال أبو الضحى : أول مانزل من سورة براءة « انفروا » .

وقال مجاهد : أول مانزل قوله « لقد نصركم الله .

وقال ابن عباس: نسخ هذه الاية قوله« وما كان المؤمنون لينفروا كافة»(٢).

وقال جعفر بن قيس : هذا ليس بمنسوخ ، لأن المنسوخ مالا يجوز فعله . وهذا ليس بصحيح ، لأنه يجوز أن يكون وجوبه زال الى الندب او الاباحة .

(١) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩　　(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٣

قوله تعالى :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٣) آية.

هذه الاية في قوم تخلفوا عن النبي ﷺ ولم يخرجوا معه الى غزوة تبوك. وحسن الكناية عنهم وإن لم يجر لهم ذكر لكونهم داخلين في جملة الذين أمروا بالخروج مع النبي ﷺ الى الجهاد وأن ينفروا معه. والمعنى لو كان المدعو اليه عرضاً قريباً من الغنيمة وما يطمع فيه من المال «وسفراً قاصداً» معناه سفراً سهلا باقتصاده من غير طول في آخره. وسمي العدل قصداً، لأنه مما ينبغي أن يقصد «لاتبعوك» يعني خرجوا معك وبادروا الى اتباعك «ولكن بعدت عليهم الشقة» اي بعدت عليهم المسافة. لأنهم دعوا الى الخروج الى تبوك ناحية الشام، فالشقة القطعة من الأرض التي يشق ركوبها على صاحبها لبعدها. ويحتمل أن يكون من الشق ويحتمل ان يكون من المشقة. والشقة السفر والمشاقة. وقريش يضمون الشين، وقيس يكسرونها وقريش يضمون العين من (بعدت).

وقوله «وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم» اخبار منه تعالى ان هؤلاء الذين ذكرهم يحلفون ويقسمون على وجه الاعتذار اليك ويقولون فيما بعد «لو استطعنا لخرجنا معكم» اي لو قدرنا وتمكنا من الخروج لخرجنا معكم ثم اخبر تعالى انهم «يهلكون أنفسهم» بذلك واخبر تعالى انه يعلم انهم يكذبون في هذا الخبر الذي أقسموا عليه. وفي الاية دلالة على أن الاستطاعة قبل الفعل لانهم لايخلون من احد امرين: إما أن يكونوا مستطيعين من الخروج وقادرين عليه ولم يخرجوا اولم يكونوا قادرين عليه وإنما حلفوا أنهم لو قدروا في المستقبل

لخرجوا ، فان كان الاول فقد ثبت ان القدرة قبل الفعل ، وإن كان المراد الثاني فقد أكذبهم الله في ذلك وبين انه لو فعل لهم الاستطاعة لما خرجوا ،وفي ذلك أيضاً تقدم القدرة على المقدور وليس لهم أن يحملوا الاستطاعة على آلة السفر وعدة الجهاد ، لأن ذلك ترك الظاهر من غير ضرورة فان حقيقة الاستطاعة القدرة وإنما يشبه غيرها بها على ضرب من المجاز، على انه إذا كان عدم الالة والعدة يعذر صاحبه في التأخر فمن ليس فيه قدرة اولى بأن يكون معذوراً وفي الاية دلالة على النبوة لأنه اخبر انهم سيحلفون في المستقبل على ذلك بالله « لو استطعنا لخرجنا معكم» فجاؤا فيما بعد وحلفوا على ما اخبر به .

قوله تعالى :

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ (٤٤) آية.

هذا خطاب فيه بعض العتاب للنبي ﷺ في إذنه من استأذنه في التأخر فأذن له ، فأخبر الله بأنه كان الأولى ان لاتأذن لهم وتلزمهم الخروج معك حتى اذا لم يخرجوا ظهر نفاقهم؛ لأنه متى أذن لهم ثم تأخروا لم يعلم بالنفاق كان تأخرهم أم بغيره . وكان الذين استأذنوه منافقين . وحقيقة العفو الصفح عن الذنب ، ومثله الغفران ، وهو ترك المؤاخذة على الاجرام . وقد كان يجوز أن يعفو الله عن جميع المعاصي كفراً كان اوغيره، غير أنه أخبر أنه لايعفو عن عقاب الكفر ، لاجماع الامة على ذلك ،وماعداه من الفسق باق على ما كان عليه من الجواز .

وانما قال « عفا الله عنك » على غير لفظ المتكلم لأنه أفخم من الكناية لأن هذا الاسم من اسماء التعظيم كما أن قولك إن رأي الامير افخم من قولك إني رأيت .

وقال ابو علي الجبائي : في الاية دلالة على ان النبي ﷺ كان وقع منه ذنب

في هذا الاذن . قال : لأنه لايجوز أن يقال لم فعلت ماجعلت لك فعله؟ كما لايجوز أن يقول لم فعلت ماأمرتك بفعله . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن قوله «عفا الله عنك » إنما هي كلمة عتاب له صلى الله عليه وآله لم فعل ما كان الاولى به أن لايفعله، لأنه وان كان له فعله من حيث لم يكن محظوراً فان الأولى ان لايفعله ، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخاً له: لم عاتبته وكلمته بما يشق عليه ؟ وان كان له معاتبته وكلامه بما يثقل عليه . وكيف يكون ذلك معصية وقد قال الله في موضع آخر : « فان استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم » وإنما اراد الله أنه كان ينبغي أن ينتظر تاكيد الوحي فيه . ومن قال هذا ناسخ لذلك فعليه الدلالة .

وقوله «لم أذنت » فالاذن رفع التبعة ، عاتب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله لم أذن لقوم من المتأخرين عن الخروج معه الى تبوك وإن كان له اذنهم لكن كان الاولى ان لايأذن « حتى يتبين لك » حتى يظهر لك « الذين صدقوا » في قولهم لواستطعنا لخرجنا معكم ؛ لأنه كان فيهم من اعتل بالمرض والعجز وعدم الحمولة «وتعلم الكاذبين» منهم في هذا القول .

قوله تعالى

لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٥) آية .

أخبر الله تعالى نبيه بعلامة المنافقين والكاذبين بأن بين أنه لايستأذن احد النبي صلى الله عليه وآله في التأخر عنه والخروج معه الى جهاد أعـدائه ولايسأله الاذن في التأخر القوم الذين يؤمنون بالله ويصدقون به ويقرون بوحدانيته ويعترفون باليوم الاخر. والاستئذان طلب الاذن من الآذن . ومعنى قوله « أن يجاهدوا » فيه حذف وتقديره لأن لايجاهدوا بحذف (لا) لان ذمهم قد دل عليه ــ هذا قول ابي علي

الجبائي _ وقال الحسن : تقديره كراهية أن يجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم . وقال الزجاج : هوفي موضع نصب ، لان تقديره في أن يجاهدوا ، فلما حذف حرف الجر انتصب ، وعند سيبويه وغيره هو في موضع الجر .

وقوله « والله عليم بالمتقين » اخبار منه تعالى بانه يعلم من يتقي معصية الله ويخاف عقابه ، ومن لايتقيه . قال ابن عباس هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوه في القعود عن الجهاد وعذر للمؤمنين ، فقال : لم يذهبوا حتى يستأذنوه . والمعنى انه لم يخرجهم من صفة المتقين إلا انه علم أنهم ليسوا منهم .

فان قيل أي الجهادين أفضل: أجهاد السيف أم جهاد العلم ؟

قيل : هذا بحسب الحاجة اليه والمصلحة فيه ، وكذلك الجهاد بالمال والجهاد بالنفس . وإنما يقع التفاضل مع استواء الأحوال الا بمقدار الخصلة الزائـدة من خصال الفضل . وأجاز الرماني الجهاد مع الفساق إذا عاونوا على حق في قتال الكفار لأنهم يطيعون في ذلك الفعل كما هم مطيعون في الصلاة والصيام وغير ذلك من شريعة الاسلام . والظاهر من مذهب أصحابنا أنه لايجوز ذلك إلا ما كان على وجه الدفع عن النفس وعن بيضة الاسلام .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٦) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الاية بانه إنما يستأذن النبي ﷺ في التأخر عن الجهاد والقعود عن القتال معه القوم « الذين لايؤمنون بالله» اي لايصدقون بالله ولايعترفون بـه « واليوم الآخر » يعني بالبعث والنشور « وارتابت قلوبهم » يعني اضطربت وشكت . والارتياب هو الاضطراب في الاعتقاد بالتقدم مرة والتأخر اخرى . والريبة

شك معه تهمة : رابني ريباً وريبة وارتاب ارتياباً ، واسترابه استرابة .

وقولـه « فهم في ريبهم يترددون » معناه فهم في شـكهم يذهبون ويرجعون والتردد هو التصرف بالذهاب والرجوع مرات متقاربة ، مثل المتحير ، ردّه ردّاً وردّده ترديداً ، وتردّد تردداً وارتدّ ارتـداداً ، وراده مرادة ، وترادّ القوم ترداداً ، واسترده استرداداً . وقوله « في ريبهم يترددون » يدل على بطلان قول من يقول : إن المعارف ضرورة ، لأنه تعالى أخبر أنهم في شكهم يترددون، صفة الشاك المتحير في دينه الذي ليس على بصيرة من أمره. وقيل في معنى اليوم الاخر قولان :

احدهما ـ انه آخر يوم من أيام الدنيا والمؤذن بالكرة الأخيرة .

الثاني ـ وهو الاقوى ـ انه يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة وهو الاظهر من مفهوم هذه اللفظة .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٧) آية .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء المنافقين لو ارادوا الخروج مع النبي ﷺ نصرة له ورغبة في جهاد الكفار كما أراد المؤمنون ذلك لأعدوا للخروج عدة، وهو ما يتهيأ لهم معها الخروج ، ولكن لم يكن لهم في ذلك نية وكان عزمهم على أن النبي ﷺ ان لم يأذن لهم في الاقامة فخرجوا ، أفسدوا عليك وضربوا بين أصحابك ، وأفسدوا قلوبهم ، فكره الله خروجهم على هذا الوجه ،لان ذلك كفر ومعصية .والله لا يكره الخروج الذي أمرهم به ، وهو أن يخرجوا لنصرة نبيه وقتال عـدوه والجهاد في سبيله كما خرج المؤمنون كذلك ،فثبطهم الله عن الخروج الذي عزموا عليه ولـم يثبطهم عن الخروج الذي أمرهم به ، لأن الاول كفر . والثاني طاعة .

وقوله « وقيل اقعدوا مع القاعدين » يحتمل شيئين : أحدهما ـ أن يكون

القائلون لهم ذلك أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبي نصرة لـه ورغبة في الجهاد . والثاني ـ ان يكون ذلك من قول النبي صلى الله عليه وآله لهم على وجه التهديد لا على وجه الاذن ، ويجوز أن يكون إذنه لهم في القعود الذي عاتبه الله عليه . وأنه كان الأولى أن لا يأذن لهم فيه ، ولا يجوز أن يكون ذلك من قول الله ، لأنـه لو كان كذلك لكان مباحاً لهم التأخر . اللهم إلا أن يكون ذلك على وجه التهديد ، فيجوز أن يكون ذلك من قول الله . والعدة والاهبة والآلة نظائر . والانبعاث الانطلاق بسرعة في الأمر ، ولذلك يقال : فلان لاينبعث في الحاجة أي ليس لـه نفاذ فيها . والتثبيط التوقف عن الامر بالتزهيد فيه ومثله التعقيل . وقولـه « مع القاعـدين » يعني مع النساء والصبيان والمرضى والزمنى ،ومن ليس به حراك . قال ابن اسحاق: كان الذين استأذنوه اشرافاً ورؤساء كعبدالله بن أبي بن ابي سلول والجد بن قيس. وزاد مجاهد رفاعة بن التابوت وأوس بن قبطي .

قوله تعالى :

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٨) آية .

بين الله تعالى في هذه الآية الوجوه في كراهية انبعاثهم ووجه الحـكمة في تثبيطهم عن ذلك وهو ماعلم من ان في خروجهم مفسدة للمؤمنين ،لأنه قال«لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا » قال الفراء : لو قال مازادكم يريد خروجهم لـكان جائزاً ، وهـذا من سعة العربية . والخبال الفساد ، والخبال الموت ، والخبال الاضطراب في الرأي بتزيين أمر لقوم وتقبيحه لاخرين ليختلفوا وتفترق كلمتهم . وقوله «ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة» والايضاع الاسراع في السير بطرح العلق

قال الشاعر :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب (١)

وقال آخر :

ياليتني فيها جذع أخب فيها وأضع (٢)

وربما قالوا للراكب : وضع بغير الف ، ومنه وضعت الناقة تضع وضعاً ، وأوضعتها إيضاعاً . ومعنى الايضاع هاهنا إسراعهم في الدخول بينهم للتضريب بنقل الكلام على وجه التخويف . قال الحسن : معناه مشوا بينكم بالنميمة ، لافساد ذات بينكم وقوله « وفيكم سماعون لهم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال قتادة وابن اسحاق : فيكم القابلون منهم عند سماع قولهم ، وقوله « إلا خبالا » استثناء منقطع وتقديره مازادوكم قوة ولكن طلبوا لكم الخبال ويحتمل أن يكون المعنى إنهم على خبال في الرأي فيعقده حتى يصير خبالا فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا .

الثاني ـ قال مجاهد وابن زيد: لهم عيون منهم ينقلون أخباركم الى المشركين.

وقوله «يبغونكم الفتنة » معناه يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة والفرقة. قال الحسن : يبغونكم أن تكونوا مشركين . وأصل الفتنة إخراج خبث الذهب بالنار ، تقول : بغيتك كذا بمعني بغيت لك ومثله جلبتك وجلبت لك و«خلالكم» أي بينكم مشتق من التخلل ، وهي الفرج تكون بين القوم في الصفوف وغيرها ، ومنه قول النبي ﷺ تراصوا في الصفوف لايتخللكم اولاد الخذف .

وقوله : « والله عليم بالظالمين » معناه ـ هاهنا ـ عالم بمن يستأذن

(١) مر تخريجه في ١/ ٣٧٢

(٢) قائله دريد بن الصمة قاله يوم حنين : اللسان (وضع) وسيرة ابن هشام ٤ / ٨٢ وتفسير الطبري ١٤ / ٢٧٨

النبي ﷺ في التأخر شكاً في الاسلام ونفاقاً ، وعالماً بمن سمع حديث المؤمن وينقله الى المنافقين فان هؤلاء ظالمون انفسهم وباخسون لها حظها من الثواب .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (٤٩) آية.

اقسم الله تعالى أن هؤلاء المنافقين « ابتغوا » أي طلبوا إفساد ذات بينكم وافتراق كلمتكم في يوم أحد حتى انصرف عبدالله بن أبي بأصحابه وخذل النبي ﷺ وكان هو وجماعة من المنافقين يبغون للاسلام الغوائل قبل هذا ، فسلم الله المؤمنين من فتنتهم وصرفها عنهم . وقوله « وقلبوا الك الامور » فالتقليب هو تصريف الشيء بجعل أسفله أعلاه مرة بعد أخرى ،فهؤلاء صرفوا القول في المعنى للحيلة والمكيدة وقوله « حتى جاء الحق » أي حتى اتى الحق « وظهر أمر الله وهم كارهون » أي في حال كراهتهم لذلك ، فهي جملة في موضع الحال . والظهور خروج الشيء الى حيث يقع عليه الادراك وقد يظهر المعنى للنفس إذا حصل العلم به .

قوله تعالى

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ (٥٠) آية .

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: نزلت هذه الآية في ألجد بن قيس.وذلك ان النبي ﷺ لما دعا الناس الى الخروج الى غزوة تبوك لقتال الروم جاءه ألجد ابن قيس ، فقال : يا رسول الله إني رجل مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر، قال الفراء : سمي الروم أصفر ، لأن حبشياً غلب على ناحية الروم ، وكان له بنات

قد أخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكنّ صفراً لعساً ، فنزلت هذه الآية فيه.
وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وأبو علي والزجاج : معنى ولا تفتني ولا تؤثمني بالعصيان في المخالفة التي توجب الفرقة ، فتضمنت الآية ان من جملة المنافقين من استأذن النبي ﷺ في التأخر عن الخروج ، والاذن رفع التبعة في الفعل ، وهو والاباحة بمعنى ، وقال الله « لا تفتني » اي لا تؤثمني بأن تكلفني المشقة في ذلك فأهم بالعصيان أو لا تفتني ببنات أصفر على ما حكيناه ، فقال الله تعالى « ألا في الفتنة سقطوا » أي وقعوا في الكفر والمعصية بهذا القول وبهذا الفعل . والسقوط الوقوع الى جهة السفل ووقوع الفعل حدوثه وسقوطه أيضاً . وقوله « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » اخبار منه تعالى أن جهنم مطيفة بما فيها من جميع جهاتها بالكافرين.
والاحاطة والاطافة والاحداق نظائر في اللغة . ولا يدل ذلك على انها لا تحيط بغير الكفار من الفساق الا ترى أنها تحيط بالزبانية والمتولين للعقاب ، فلا تعلق للخوارج بذلك .

قوله تعالى :

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥١) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم متى نال النبي ﷺ والمؤمنين حسنة أي نعمة من الله تعالى وظفر باعدائهم وغنيمة ينالونها ساءهم ذلك وأحزنهم ، وإن تصبهم مصيبة أي آفة في النفس او الأهل او المال ــ وأصلها الصوب ــ وهو الجري الى الشيء ، يقال : صاب يصوب صوباً ، ومنه صوّب الاناء إذا ميله للمجري ، والصواب اصابة الحق « يقولوا » يعني هؤلاء المنافقين « قد أخذنا أمرنا من قبل » ومعناه قد حذرنا واحترزنا ، في قول مجاهد وغيره ، ومعناه ،

اخذنا امرنا من مواضع الهلكة فسلمنا مما وقعوا فيه « ويتولوا » اي يعرضوا « وهم فرحون » يعني فرحين بتأخرهم وسلامتهم مما نال المؤمنين من المصيبة . والاصابة وقوع الشيء بما قصد به .

قوله تعالى :

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥٢) آية .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين الذين يفرحون بمصيبات المؤمنين وسلامتهم منها « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وقيل في معناه قولان : احدهما ــ ان كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو مما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا ، وليس على ما تظنون وتتوهمون من اهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا الى تدبير ربنا ، هذا قول الحسن . الثاني ــ قال الجبائي والزجاج : يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا . وقال البلخي : يجوز ان يكون (كتب) بمعنى علم ويجوز ان يكون بمعنى حكم ، والأولان أقوى . فان قيل : ما الفائدة في كتب ما يكون من افعال العباد قبل كونها ؟ قلنا في ذلك مصلحة للملائكة ما يقابلون به فيجدونه متفقاً في الصحة ، مع ان تصور كثرته اهول في النفس وأملأ للصدر .

وقوله : « هو مولانا » يحتمل معنيين : احدهما ــ انه مالكنا ونحن عبيده . والثاني ــ فان الله يتولى حياطتنا ودفع الضرر عنا .

وقوله « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » امر منه تعالى للمؤمنين ان يتوكلوا عليه تعالى دون غيره . والتوكل تفويض الامر الى الله والرضا بتدبيره والثقة بحسن اختياره . كما قال « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (١) وحرف الجر الذي في

(١) سورة ٦٣ الطلاق آية ٣ .

معنى الظرف متعلق بالامر في قوله « فليتوكل» وتقديره فليتوكل على الله المؤمنون وانما جاز تقديمه لانـه لايلبس ، ولايجوز تقديمه على حرف الجزاء لأنه يلبس بالجزاء في الجواب .

قوله تعالى:

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٣) آية .

روى ابن فليح والبزي إلا النقاش « هل تربصون » بتشديد التاء ، وجهه أنه أراد تتربصون فادغم احد التاءين في الاخرى .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين «هل تربصون بنا» والتربص التمسك بما ينتظر به مجيء حينه ولذلك قيل تربص بالطعام إذا تمسك به الى حين زيادة سعره ، وقوله « إلا احـدى الحسنيين » واحدى الشيئين واحـــدة منهما ، واحد العشر واحد منها ، واحدى النساء معناه واحـدة منهن . والحسنيان عظيمان في الحسن من النعم ومعانيهما ها هنا إما الغلبة بنصر الله عز وجل والشهادة المودية الى الجنة ، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم . و(هـل) حرف من حروف الاستفهام والمراد هاهنا التقريع بالتربص المؤدي صاحبه الى كل مايكرهه من خيبته وفوز خصمه. وقوله « ونحن نتربص بكم » أي قل لهؤلاء : ونحن ايضاً نتوقع بكم ان يوقع بكم عذاباً « من عنده » يهلككم به « اوبأيدينا » بأن ينصرنا عليكم فيقتلكم بأيدينا .وقوله « فتربصوا » صورته صورة الأمر والمراد به التهديد كما قال : « اعملوا ماشئتم » (١) « واستفزز من استطعت » (٢)وانما قلنا ذلك لأن

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ٤٠ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٤

تربص المنافقين بالمؤمنين تمسك بما يؤدي الى الهلاك وذلك قبيح لا يريده الله ولا يأمر به . وقال الفراء : العرب تدغم لام هل وبل في التاء خاصة وهو كثير في كلامهم.

قوله تعالى :

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرهاً لن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين « انفقوا » وصورته صورة الامر وفيه ضرب من التهديد وهو مثل قوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(١) وانما هو بيان عن توسعة التمكين من الطاعة والمعصية ، وقال قوم : معناه الخبر الذي تدخل (إن) فيه للجزاء كما قال كثير :

اسيئي بنا اواحسني لاملومة ‌ ‌ ‌ ‌ لدينا ولامقلية ان تقلت (٢)

كأنه قال : إن أحسنت أو أسأت لم تلامي ، وإنما حسن ان يأتي بصيغة الأمر على معنى الخبر بتوسعة التمكين لأنه بمنزلة الأمر في طلب فعل ما يتمكن الذي قد عرفه المخاطب ، كأنه قيل اعمل بحسب ما يوجبه الحق فيما مكنت من الامرين . ووجه آخر أن كل واحد من الضربين كالمأمور به في انه لا يعود وبال العائد الاعلى المأمور . وقوله « طوعا » فالطوع الانقياد بارادة لمن عمل عليها . والكره فعل الشيء بكراهة حمل عليها . وقوله « لن يتقبل منكم » معناه لايجب لكم به الثواب على ذلك مثل تقبل الهدية ووجوب المكافاة وتقبل التوبة وايجاب الثواب عليها ، ومثله في كل طاعة .

وقوله « إنكم كنتم قوماً فاسقين » اخبار منه تعالى وخطاب لهؤلاء المنافقين بأنهم كانوا فاسقين متمردين عن طاعة الله ، فلذلك لم يقبل نفقاتهم وإنما كانوا ينفقون

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩ . (٢) معاني القرآن ١ : ٤٤١ وقد مر في ١ : ٣٢٧

أموالهم في سبيل الله المرياء ودفعاً عن انفسهم .

قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٥) آية.

قرأ اهل الكوفة الاعاصما « ان يقبل » بالياء . الباقون بالتاء . وجه قراءة من قرأ بالياء ان التأنيث ليس بحقيقي فجاز أن يذكر كقوله « فمن جاءه موعظة »(١) ومن قرأ بالتاء فعلى ظاهر التأنيث .

والمنع أمر يضاد الفعل وينافيه . والمعنى هاهنا أن هؤلاء المنافقين منعوا انفسهم ان يفعل بهم قبول نفقاتهم ، كما يقول القائل : منعته بري وعطائي.

وقوله « ان تقبل » في موضع نصب ، وتقديره ومامنعهم من أن تقبل وحذف (من) . وقوله « إلا أنهم كفروا بالله ورسوله » انهم في موضع رفع والعامل في اعراب انهم يحتمل احد امرين : احدهما ـ مامنعهم من ذلك إلا كفرهم . والثاني ـ أن يكون تقديره مامنعهم الله منه إلا لأنهم كفروا بالله . وعندنا ان الكافر لايقع منه الانفاق على وجه يكون طاعة ، لأنه لو أوقعها على ذلك الوجه لاستحق الثواب . والاحباط باطل ، فكان يؤدي الى ان يكون مستحقاً للثواب. وذلك خلاف الاجماع . وعند من خالفنا من المعتزلة وغيرهم يصح ذلك، غير انه ينحبط بكفره فأما الصلاة فلا يصح أن تقع منهم على وجه تكون طاعة بلا خلاف ، لأن الصلاة طريقها الشرع فمن لا يعترف بالشرع لايصح أن يوقعها طاعة ، وليس كذلك الانفاق ، لأن العقل دال على حسنه غير انهم وإن علموا ذلك لايقع منهم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥

كذلك على ما بيناه .

وقوله « ولايأتون الصلاة إلا وهم كسالى » اي يقومون اليها على وجهالكسل وذلك ذم لهم بانهم يصلون الصلاة على غير الوجه الذي امروا به ، من النفاق الذي يبعث على الكسل عنها دون الايمانالذي يبعث على النشاط لها .

وقوله « ولاينفقون إلا وهم كارهون » اخبار منه تعالى بأنهم لاينفقون ما ينفقونه لكونه طاعة بل ينفقونه كارهين لذلك وذلك يقوي ماقلناه .

قوله تعالى

فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ(٥٦) آية.

هذا نهي للنبي ﷺ والمراد به المؤمنون والمعنى : لايروق ناظركم ايها المؤمنون ظاهر حسنها يعني اموال المنافقين والكفار واولادهم تستحسنونه بالطبع البشري . وانما قلنا ذلك . لأن النبي ﷺ مع زهده لايجوز ان يعجب بها اعجاب مشتهلها. وقوله « إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا» وقيل في معنى ذلك وجوه : احدها ـ قال ابن عباس وقتادة والفراء : ان فيه التقديم والتأخير والتقدير فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة،فيكون الظرف على هذا متعلقاً بأموالهم وأولادهم ، ومثله قوله تعالى « فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » (١) وتقديره فالقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم الثاني ـ قال ابن زيد : معناه انما يريد الله ليعذبهم بحفظها والمصائب فيها مع حرمان النفقة بها . والثالث ـ قال الجبائي : تقديره انما

(١) سورة٢٧ النمل آية ٢٨

يريد الله ليعذبهم في الحياةالدنيا عند تمكن المؤمنين من اخذها وغنمها فيتحسرون عليها ويكون ذلك جزاء على كفرهم نعم الله تعالى بها . والرابـع ـ قال البلخي والزجاج : ان معناه فلا تعجبك اموالهم ، فانها وبال عليهم ، لأن الله يعذبهم بهـا اي بما يكلفهم من انفاقها في الوجوه التي امرهم بهـا فتزهق انفسهم لشـدة ذلك عليهم لانفاقهم، وهم مع هذا كله كافرون وعاقبتهم النار فيكون قوله « وهم كافرون» اخباراً عن سوء احوالهم وقلة نفع المـال والولد لهم ولايكون عطفاً على مامضى . والخامس ـ أن يكون المعنى أن مفارقتها وتركها والخروج عنها بالموت صعب عليهم شديد ، لأنهم يفارقون النعم ولايدرون إلى ماذا يصيرون بعد الموت فيكون حينئذ عذاباً عليهم . بمعنى ان مفارقتها غم وعذاب . ومعنى « وتزهق انفسهم »اي تهلك وتذهب بالموت يقال : زهق بضاعة فـلان اي ذهبت اجمع . السادس ـ قال الحسن : اخبر الله تعالى عن عاقبتهم انهم يموتون على النفاق . وقال : ليعـذبهم بزكاتها وانفاقها في سبيل الله ، وهو قول البلخي ايضاً والزجاج مع اعتقادهم ان ذلك ليس بقربة ، فيكون ذلك عذاباً أليماً .

واللام في قوله « ليعذبهم » يحتمل ان يكون بمعنى (أن) والتقدير إنما يريد الله أن يعذبهم . والزهق الخروج بصعوبة . وأصله الهلاك ، ومنه قوله « قـل جاء الحق وزهق الباطل » (١) وكل هالك زاهق ، زهق يزهق زهوقاً . والزاهق من الدواب السمين الشديد السمن ، لأنه هالك يثقل بدنه في السير والكر والفر .وزهق فلان بين ايدي القوم إذا زهق سابقاً لهم حتى يهلك منهم . والاعجاب السرور بمـا يعجب منه تقول : اعجبني حديثه اي سرني بظرف حديثه .

وليس في الآية مايدل على ان الله تعالى اراد الكفر على مايقوله المجبرة ، لأن قوله « وهم كافرون » في موضع الحال كقولك اريد ان تـذمه وهو كافر واريد ان تضربه وهو عاص وأنت لاتريد كفره ولاعصيانـه بل تريد ذمه في حال

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٨١

كفره وعصيانه ، وتقدير الاية إنما يريد الله عذابهم وازهاق انفسهم اي اهلاكها في حال كونهم كافرين ، كما يقول القائل للطبيب : اختلف الي كل يوم وأنا مريض ، وهو لايريد المرض ، ويقول لغلامه : اختلف الي وأنا محبوس ، ولايريد حبس نفسه .

قوله تعالى

وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَاهُمْ مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٧) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم يقسمون بالله انهم لمنكم يعني من المؤمنين وعلى دينهم الذي يدينون به. ثم قال الله تعالى مكذباً لهم « وماهم منكم » اي ليسوا مؤمنين مثلكم ولا مطيعين لله في اتباع دينه كما انتم كذلك ، ولكنهم قوم يفرقون اخبار منه تعالى ان هؤلاء المنافقين يفرقون من اظهار الكفر لئلا يقتلوا والفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر . وأصله من مفارقة الامن الى حال الانزعاج.

قوله تعالى :

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٨) آية .

قرأ يعقوب « أو مدخلا » بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها . وقرأ شاذ «مدخلا» بضم الميم وسكون الدال.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم لو وجدوا ملجأ. ومعناه لو ادركوا مطلوبهم ، يقال : وجدت الضالة وجداناً ووجدت على الرجل وجداً وموجدة . والملجأ الموضع الذي يتحصن فيه ومثله المعقل والموئل ، والمعتصم والمنتصر .وقال

ابن عباس : معناه هاهنا حرزا . وقال مجاهد : أي حصناً ، ومثله يستعمل في الناصر والمساعد . وقوله « أو مغارات » اي لو وجدوا مغارات ، وهي جمع مغارة وهي المدخل الساتر من دخل فيه . وقال ابن عباس : معناه المغارات والغيران والغار الثقب الواسع في الجبل ، ومنه غارت العين من الماء إذا غابت في الارض ، وغارت عينه إذا دخلت في رأسه . والمدخل المسلك الذي يتدسس بالدخول فيه وهو مفتعل من الدخول كالمتلج من الولوج . وأصله متدخل . وقال ابن عباس وأبو جعفر عليه السلام والفراء : المدّخل الاسراب في الارض . وقوله « لولوا اليه وهم يجمحون » فالجماح مضي الماء مسرعاً على وجهه لا يرده شيء عنه . وقال الزجاج : فرس جموح ، وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام . وقيل : هو المشي بين المشيين قال مهلهل :

لقد جمحت جماحاً في دمائهم حتى رأيت ذوي أجسامهم جمدوا

وقال الزجاج : معنى (مدخلا) اي لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم أو قوماً يدخلونهم في جملتهم يعتصمون بهم لفعلوا .

قوله تعالى :

وَمِنْهُم مَنْ يَلمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ فإِنْ أُعطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٩) آية .

قرأ يعقوب « يلمزك » بضم الميم . الباقون بكسرها ، وهما لغتان ، وهذه الآية فيها اخبار أن من جملة المنافقين الذين ذكرهم من يلمزك يا محمد صلى الله عليه وآله في الصدقات اي يعيبك . في قول الحسن . واللمز العيب على وجه المساترة ، والهمز العيب ـ بكسر العين وغمزها ـ في قول الزجاج ـ تقول : لمزه يلمزه ويلمزه ـ بالكسر والضم ـ وهي صفتهم قال الشاعر :

إذا لقيتك تبدي لي مكاشرة وان تغيبت كنت الهامز اللمزه (١)

وقال رؤبة :

قاربت بين عنقي وجمزي في ظل عصري باطلي ولمزي (٢)

وقال ابو عبيدة : يلزمك معناه يعيبك . وقال قتادة : معنـاه يطعن عليك . والهمز الغيبة . ومنه قوله « هماز مشاء بنميم » (٣) . وقيل لاعرابي : أتهمز الفأرة؟ قال : الهر يهمزها ، فأوقع الهمز على الاكل ، والهمز كاللمز ، ومنه قوله «أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً » (٤) والصدقات جمع صـدقة وهي العطية للفقير على وجه البر والصلة . والصدقة الواجبة في الأموال حرام على رسول الله وأهل بيته كأنهم جعلوا في تقدير الأغنياء ، فأما البر على وجه التطوع فهو مباح لهم .

وقوله « فان أعطوا منها رضوا » يعني من الصدقات رضوا بذلك وحمدوك عليه وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » يعني إذا لم يعطوا ما طلبوه من الصدقات سخطوا وغضبوا . والصدقة محرمة على من كان غنياً .

واختلفوا في حد الغني ، فقال قوم : هو من ملك نصاباً من المال . وقال آخرون : هو من كانت له مادة تكفيه ، ملك النصاب أو لم يملك ، والذي كان يلمز النبي ﷺ في الصدقات بلتعة بن حاطب ، وكان يقول : إنما يعطي محمد الصدقات من يشاء فربما أعطاه النبي ﷺ فيرضى وربما منعه فسخط. فتكلم فيه ،فنزلت الآية فيه .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا

---

(١) قائله زياد الاعجـم مجاز القرآن ١/ ٢٦٣ واللسان « همز » ومقاييس اللغة ٦/٦٦ وتفسير الطبري ١٤/ ٣٠١ وفيه اختلاف كثير في الرواية .

(٢) ديوانه : ٦٤ وتفسير الطبري ١٤/ ٣٠٠ .

(٣) سورة ٦٨ القلم آية ١١ (٤) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٢

ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ (٦٠) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان هؤلاء المنافقين الذين طلبوا منك الصدقات وعابوك بها لو رضوا بما اعطاهم الله ورسوله « وقالوا » مع ذلك « حسبنا الله » اي كفانا الله وانه سيعطينا الله من فضله وانعامه ويعطينا رسوله مثل ذلك وقالوا « انا الى الله راغبون » والجواب محذوف والتقدير لكان خيراً لهم وأعود عليهم وحذف الجواب في مثل هذا ابلغ لأنه لتأكيد الخبر به استغني عن ذكره.

قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦١) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه ليست الصدقات التي هي زكاة الاموال إلا للفقراء والمساكين ومن ذكرهم في الآية.

واختلفوا في الفرق بين الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد والزهري ومجاهد: الفقير المتعفف الذي لايسأل، والمسكين الذي يسأل، ذهبوا الى أنه مشتق من المسكنة بالمسألة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (ليس المسكين الذي ترده الاكلة والاكلتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى فيغنيه ولا يسأل الناس إلحافاً). وقال قتادة: الفقير ذو الزمانة من اهل الحاجة. والمسكين من كان صحيحاً محتاجاً. وقال قوم: هما بمعنى واحد إلا انه ذكر بالصفتين لتأكيد امره قال الشاعر:

انا الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد (١)

(١) اللسان (وفق). الحلوبة: الناقة التي تحلب (وفق العيال) على قدر =

ويسمى المحتاج فقيراً تشبيهاً بأن الحاجة كأنها قد كسرت فقار ظهره يقال: فقر الرجل فقراً وأفقره الله افقاراً وافتقر افتقارا ، وتفاقر تفاقراً . وسمي المسكين بذلك تشبيهاً بأن الحاجة كأنها سكنته عن حال اهل السعة والثروة . قال الله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر » (١) فمن قال : المسكين أحسن حالا احتج بهذه الآية . ومن قال هما سواء قال : السفينة كانت مشتركة بين جماعة لكل واحد منهم الشيء اليسير .

وقوله « والعاملين عليها » يعني سعاة الزكاة وجباتها ، وهو قول الزهري وابن زيد وغيرهم . وقوله « والمؤلفة قلوبهم » معناه أقوام أشراف كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله فكان يتألفهم على الاسلام ويستعين بهم على قتال غيرهم ويعطيهم سهماً من الزكاة . وهل هو ثابت في جميع الاحوال ام في وقت دون وقت ؟ فقال الحسن والشعبي : ان هذا كان خاصاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله . وروى جابر عن ابي جعفر محمد بن علي عليه السلام ذلك . واختار الجبائي انه ثابت في كل عصر الا ان من شرطه ان يكون هناك امام عدل يتألفهم على ذلك .

وقوله « وفي الرقاب » يعني المكاتبين واجاز اصحابنا ان يشترى به عبد مؤمن إذا كان في شدة ويعتق من مال الزكاة ، ويكون ولاؤه لأرباب الزكاة ، وهو قول ابن عباس وجعفر بن مبشر .

وقوله « والغارمين » قال مجاهد وقتادة والزهري وجميع المفسرين ، وهو قول ابي جعفر عليه السلام انهم الذين ركبتهم الديون في غير معصية ولا إسراف فتقضى عنهم ديونهم ، و « في سبيل الله » يعني الجهاد بلا خلاف ، ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين ، وهو قول ابن عمر وعطاء . وبه قال البلخي ، فانه قال : تبنى به المساجد والقناطر وغير ذلك ، وهو قول جعفر بن مبشر . و « ابن السبيل » وهو المسافر

= حاجتهم و (السبد) كناية عن القليل وأصله الوبر وهو الشعر الضعيف .

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠ .

المنقطع به فانه يعطى من الزكاة وان كان غنياً في بلده من غير ان يكون ديناً عليه، وهو قول مجاهد وقتادة قال الشاعر :

انا ابن الحرب ربتني وليـداً الى ان شبت واكتهلت لداتي(١)

وقال بعضهم : جعل الله الزكاة لامرين : احدهما ـ سـد خلة . والآخر ـ تقوية ومعونة لعز الاسلام . واستدل بذلك على ان المؤلفة قلوبهم في كل زمان .

واختلفوا في مقدار ما يعطى الجابي للصدقة ، فقال مجاهد والضحاك : يعطى الثمن بلا زيادة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن وابن زيد : هو على قدر عمالته ، وهو المروي في اخبارنا . وقال ابن عباس وحذيفة وعمر بن الخطاب وعطاء وابراهيم وسعيد بن جبير ، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام ان لقاسم الزكاة ان يضعها في اي الاصناف شاء . وكان بعض المتأخرين لا يضعها الا في سبعة أصناف لأن المؤلفة قد انقرضوا . وان قسمها الانسان عن نفسه ، ففي ستة لأنه بطل سهم العامل ، وزعم انه لا يجزي في كل صنف أقل من ثلاثة . وعندنا ان سهـم المؤلفة والسعاة وسهم الجهاد قد سقط اليوم ، ويقسم في الخمسة الباقية كما يشاء رب المال وان وضعها في فرقة منهم جاز .

وقوله « فريضة من الله » نصب على المصدر اي فرض ذلك فريضة وكان يجوز الرفع على الابتداء ولم يقرأ به ، ومعناه ان ما فرضه الله وقدره واجب عليكم .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بمصالحكم حكيم فيما يوجبه عليكم من اخراج الصدقات وغير ذلك .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢٠ .

يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٢) آية.

قرأ نافع « أذن خير » بالتخفيف الباقون بالتثقيل . وكلهم أضاف ، ورفع « ورحمة » الا أبا عمرو فانه جر (ورحمة) وكان يجوز النصب على (ورحمة) يفعل ذلك ، ولم يقرأ به أحد ، قال أبو علي : تخفيف « أذن » من أذن قياس مطرد نحو طنب وطنب ، وعنق وعنق وظفر وظفر لأن ذلك تخفيف وتثقيل لا تفاقهما في الوزن وفي جمع التكسير تقول : آذان وأطناب وأعناق وأظفار ، فأما الأذن في الآية فانه يجوز ان يطلق على الجملة وان كان عبارة عن جارحة فيها ، كما قال الخليل في الناب من الابل سميت به لمكان الناب البازل ، فسميت الجملة كلها به . ويجوز أن يكون (فعلا) من اذن ياذن اذا استمع . ومعناه انه كثير الاستماع مثل شلل وأنف وشحح ، قال ابو زيد : رجل اذن ويقن اذا كان يصدق بكل ما يسمع فكما ان (يقن) صفة كبطل كذلك (اذن) كشلل . ويقولون : اذن يأذن اذا استمع ، ومنه قوله « وأذنت لربها » (١) اي استمعت ، وقوله « ائذن لي » (٢) اي استمع . وفي الحديث (ما اذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن) قال الشاعر .

في سماع يأذن الشيخ لـه وحديث مثل ماذي مشار (٣)

والمعنى - في الاضافة - مستمع خير لكم وصلاح ومصغ اليه ، لا مستمع شر وفساد . ومن رفع (رحمة) فالمعنى فيه أذن خير ورحمة اي مستمع خير ورحمة فجعله للرحمة لكثرة هذا المعنى فيه ، كما قال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) ويجوز ان يقدر حذف المضاف من المصدر . وأما من جر فعطفه على (خير) كأنه قال اذن خير ورحمة ، وتقديره مستمع خير ورحمة . وجاز هذا كما جاز مستمع

(١) سورة ٨٤ الانشقاق آية ٢ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٥٠

(٣) اللسان (اذن) نسبه الى (عدي) والماذي المشار : العسل المصفى

(٤) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٧ .

خير ، لأن الرحمة من الخير وإنما خص تشريفاً ، كما قال « اقرأ باسم ربك الذي خـلق » ثم قال « خـلق الانسان من علق » (١) وان كان قوله تعالى « خلق » عم الانسان وغيره . والبعد بين الجار وماعطف عليه لايمنع من العطف ألا ترى ان من قرأ « وقيله يارب » انما جعله عطفاً على « وعنده علم الساعة » (٢) وعـــلم قيله . وروي ان الاعمش قرأ قل « اذن خير ورحمة » وهي قراءة ابن مسعود .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان من جمله هؤلاء - المنافقين الذين وصفهم وذكرهم - من يؤذي النبي صلى الله عليه وآله والأذى هو ضرر ربما تنفر منه النفس في عاجل الامر وانهم يقولون هو اذن يعنون النبي صلى الله عليه وآله . ومعنى (اذن) انه يصغي الى كل احد فيقبل مايقوله - في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك - وقيل اصله من اذن اذا استمع على مابيناه قال عدي بن زيد :

ايها القلب تعلل بددن ان همي في سماع واذن (٣)

وقيل السبب في ذلك : ان قوماً من المنافقين تكلموا بما ارادوه ، وقالوا ان بلغه اعتذرنا اليه ، فانه اذن يسمع مايقال له ، فقال الله تعالى « قل » يامحمد « اذن خير لكم » لااذن شر ، وليس بمعنى أفعل . وانما معناه أذن صلاح ولو رفع خيراً لكان معناه أصلح ، وهي قراءة الحسن والاعشى والبرجمي . وانما قال بعد ذلك « يؤمن بالله » لأن معناه انه لايمانه بالله يعمل بالحق فيما يسمع من غيره . وقيل يصغي الى الوحي من قبل الله .

وقوله « ويؤمن للمؤمنين » قال ابن عباس : معناه ويصدق المؤمنين . وقيل دخلت اللام كما دخلت في قوله « ردف لكم » (٤) وتقديره ردفكم ، واللام مقحمة ومثله « لربهم يرهبون » (٥) ومعناه يرهبون ربهم . واللام مقحمة .

(١) سورة ٩٦ العلق ٢ . (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٨ ، ٨٥

(٣) اللسان (اذن) وامالي المرتضى ١/ ٣٣ وتفسير الطبرى ٣٢٥/١٤

(٤) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ . (٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٣ .

وقال قوم : دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق وايمان الامان .

وقوله « ورحمة للذين آمنوا منكم » يعني ان النبي ﷺ رحمة للمؤمنين منكم وانما خص المؤمنين بالذكر وان كان رحمة للكفار أيضاً من حيث انتفع المؤمنون به دون غيرهم من الكفار . ثم قال « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم » اي مؤلم موجع جزاء لهم على أذاهم للنبي ﷺ .

وقال ابن اسحاق : نزلت هذه الآية في نبتل بن الحارث كان يقول : إني لأنال من محمد ماشئت ، ثم آتيه اعتذر اليه وأحلف له فيقبل، فجاء جبرائيل الى رسول الله ﷺ فقال : انه يجلس اليك رجل ادلم ثائر شعر الرأس اسفع الخدين احمر العينين كأنهما قدران من صفر كبده اغلظ من كبد الجمل ينقل حديثك الى المنافقين فاحذره ، وكان ذلك صفة نبتل بن الحارث من منافقي الانصار ، فقال رسول الله ﷺ من اختار أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحارث، ذكره ابن اسحاق .

قوله تعالى :

يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٣) آية .

اخبر الله تعالى أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله أنهم على دينكم وأن الذي بلغكم عنهم باطل « ليرضوكم » ومعناه يريدون بذلك رضاكم لتحمدوهم عليه. ثم قال تعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » أي الله ورسوله أولى بأن يطلبوا مرضاتهما « ان كانوا مؤمنين » مصدقين بالله مقرين بنبوة نبيه ، والفرق بين الاحق والأصلح ان الأحق قد يكون موضعه غير الفعل كقولك: زيد أحق بالمال ، والاصلح لايقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول : الله أحق أن يطاع ولا تقول اصلح ، وقيل في رد ضمير الواحد في قوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » قولان :

احدهما ـ أنه لما كان رضى رسول الله رضى الله ترك ذكره، لأنه دال عليه والتقدير والله احق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف(١)

والثاني ـ أنه لا يذكر على طريق المجمل مع غيره تعظيماً له بافراد الذكر المعظم بما لايجوز إلا له، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول: من أطاع الله ورسوله هدى (ومن يعصمه فقد غوى) وانما أراد ماقلناه.

قوله تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤) آية.

يقول الله تعالى على وجه التهديد والتقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين «ألم يعلموا» أي أو ماعلموا «انه من يحادد الله» اي يتجاوز حدود الله التي أمر المكلفين ان لايتجاوزوها، فالمحادة مجاوزة الحد بالمشاقة ومثله المباعدة. والمعنى مصيرهم في حد غير حد أولياء الله. فالمخالفة والمحادة والمجانبة والمعاداة نظائر في اللغة.

وانما قال: لمن لايعلم «ألم يعلموا» لأحد أمرين: أحدهما ـ على وجه الاستبطاء لهم والتخلف عن علمه. والآخر ـ انه يجب ان تعلموا الآن هذه الاخبار. وقال الجبائي: معناه ألم يخبرهم النبي ﷺ بذلك.

وقوله «فان له نار جهنم خالداً فيها» يحتمل أن يكون على التكرير، لأن الأولى للتأكيد مع طول الكلام، وتقديره فله نار جهنم أو فان له نار جهنم. قال الزجاج: ولو قرىء (فان) بكسر الهمزة على وجه الاستئناف كان جائزاً، غير أنه لم يقرأ به احد. وقوله «ذلك الخزي العظيم» معناه ذلك الذي ذكرناه

---

(١) انظر ١/١٧٢. و ٥/٢١١

من أن له نار جهنم هو الخزي يعني الهوان بما يستحى من مثله . تقول : خزي خزياً اذا انقمع للهوان فأخزاه إخزاء وخزياً .

قوله تعالى :

يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِؤُا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٥) آية.

قيل في معنى يحذر المنافقون قولان :

احدهما ـ قال الحسن ومجاهد واختاره الجبائي : ان معناه الخبر عنهم بأنهم كانوا يحذرون ان تنزل فيهم آية يفتضحون بها لأنهم كانوا شاكين ، حتى قال بعضهم : لوددت ان اضرب كل واحد منكم مئة ولا ينزل فيكم قرآن، ذكره ابو جعفر وقال : نزلت في رجل يقال له مخشي بن الحمير الاشجعي .

الثاني ـ قال الزجاج : انه تهديد ومعناه ليحذروا ، وحسن ذلك لأن موضوع الكلام على التهديد . والحذر اعداد ما يتقي الضرر ، ومثله الخوف والفزع تقول : حذرت حذراً وتحذر تحذراً وحاذره محاذرة وحذاراً وحذره تحذيراً . والمنافق الذي يظهر من الايمان خلاف ما يبطنه من الكفر واشتق ذلك من نافقاء اليربوع لأنه يخفي باباً ويظهر باباً ليكون إذا أتي من احدهما خرج من الآخر .

وقوله « تنبئهم بما في قلوبهم » أي تخبرهم ، غير أن (تنبئهم) يتعدى الى ثلاثة مفاعيل بمنزلة أعلمت . وقوله « قل استهزؤا » أمر للنبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) اي اطلبوا الهزء ، والهزء إظهار شيء وابطان خلافه المتهزىء به ، وهو بصورة الأمر والمراد به التهديد . وقوله « ان الله مخرج ما تحذرون » إخبار من الله تعالى أن الذي تخافون من ظهوره فان الله يظهره بأن يبين لنبيه صلى الله عليه وآله باطن حالهم ونفاقهم.

قوله تعالى :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٦) آية.

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فأقسم ، لأن اللام لام القسم بأنك يا محمد ﷺ إن سألت هؤلاء المنافقين عما تكلموا به « ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » قال الحسن وقتادة : هؤلاء قالوا في غزاة تبوك : أيرجو هذا الرجل ان يفتح قصور الشام وحصونها ـ هيهات هيهات ـ فأطلع الله نبيه ﷺ على ماقالوه ، فلما سألهم النبي عن ذلك على وجه التأنيب لهم والتقبيح لفعلهم : لم طعنتم في الدين بالباطل والزور ؟ فأجابوا بما لا عذر فيه بل هو وبال عليهم : بأنا كنا نخوض ونلعب . والخوض دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء أو الطين هذا في الأصل ثم كثر حتى صار في كل دخول منه أذى وتلويث . واللعب فعل مافيه سقوط المنزلة لتحصيل اللذة من غير مراعاة الحكمة كفعل الصبي، وقالوا: ملاعب الأسنة اي انه لشجاعته يقدم على الاسنة كفعل الصبي الذي لايفكر في عاقبة امره . فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : « قل » لهم « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن » قال ابو علي : ذكر الاستهزاء هاهنا مجاز ، لانه جعل الهزء بالمؤمنين وبآيات الله هزءاً بالله . والهزء ايهام امر على خلاف ماهو به استصغاراً لصاحبه .

قوله تعالى :

لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٧) آية .

قرأ عاصم « ان نعف » بنون مفتوحة وضم الفاء « نعذب » بالنون وكسر

الذال « طائفة » بالنصب . الباقون بضم الياء في (يعف تُعذب طائفـةٌ) بضم التاء ورفع طائفة . من قرأ بالنون فلقولـه « ثم عفونا عنكم » (١) ومن قرأ بالتاء فالمعنى ذاك بعينه . وأما « تعذب » فمن قرأ بالتاء ، فـلان الفعل في اللفظ مسند الى مؤنث .

قوله تعالى : « لاتعتذروا » صورته صورة النهي والمراد به التهديد. والمراد ان الله تعالى امر نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين الذين يحلفون بأنهم ماقالوه إلا لعباً وخوضاً على وجـه التهزيء بآيات الله « لاتعتذروا » بالمعاذير الـكاذبة فانكم بما فعلتموه « قد كفرتم » بعد أن كنتم مظهرين الايمان الذي يحكم لمن اظهره بأنه مؤمن ، ولايجوز ان يكونوا مؤمنين على الحقيقة مستحقين للثواب ثم يرتدّون ، لما قلناه في غير موضع : ان المؤمن لايجوز عندنا أن يكفر لانه كان يؤدي الى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الـدائم ، لبطلان التحابط . والاجماع يمنع من ذلك والاعتذار اظهار مايقتضي العذر ، والعذر مايسقط الذم عن الجناية .

وقوله « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة » اخبار منه تعالى أنه ان عفا عن قوم منهم إذا تابوا يعذب طائفة أخرى لم يتوبوا . والعفو رفع التبعة عما وقع من المعصية وترك العقوبة عليها . ومثله الصفح والغفران . وقولـه « بانهم كانوا مجرمين » معناه انه انما يعذب الطائفة التي يعذبها لكونها مجرمة مذنبة مرتكبة لما يستحق به العقاب . والاجرام الانقطاع عن الحق الى الباطل ، واصله الصرم تقول: جرم الثمر يجرمه جرماًوجراماً إذا صرمه . والجرم مصرم الحق بالباطل وتجرمت السنة اذا تصرّمت قال لبيد :

دمن تجرّم بعدعهد انيسها　　　حجج خلون حلالهاوحرامها (٢)

قال الزجاج والفراء : نزلت الآية في ثلاثة نفر فهزىء إثنان وضحك واحد

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٢ .　　(٢) اللسان «جرم»

قال ابن اسحاق : كان الذي عفا عنه مخشي بن حصين الأشجعي حليف بني سلمة لأنه انكر منهم بعض ماسمع فجعلت طائفة للواحد ويراد بها نفس طائفة . وأما في اللغة فيقال للجماعة طائفة ، لأنهم يطيفون بالشيء . وقوله تعالى « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (١) يجوز أن يراد به واحد على مافسرناه .

قوله تعالى :

أَلْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٨) آية .

أخبر الله تعالى بأن المنافقين الذين يظهرون الايمان ويسرون الكفر بعضهم من بعض . والمعنى إن بعضهم يضاف الى بعض بالاجتماع على النفاق ، كما يقول القائل لغيره: أنت مني وأنا منك والمعنى إن أمرنا واحد لاينفصل. وقيل: بعضهم من بعض فيما يلحقهم من مقت الله وعذابه أي منازلهم متساوية في ذلك . ثم أخبر أن هؤلاء المنافقين يأمرون غيرهم بالمنكر الذي نهى الله عنه وتوعد عليه من الكفر بالله ونبيه وجحد آياته « وينهون عن المعروف » يعني الأفعال الحسنة التي أمر الله بها وحث عليها ، وانهم يقبضون ايديهم اي يمسكون أموالهم عن انفاقها في طاعة الله ومرضاته وهو قول قتادة . وقال الحسن ومجـاهد : أراد إمساكها عن الانفاق في سبيل الله. وقال الجبائي : أراد به إمساك الايدي عن الجهاد في سبيله الله .

وقوله « نسوا الله فنسيهم » معناه تركوا امر الله يعني صار بمنزلـة المنسي بالسهو عنه فجازاهم الله بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته، وذكر ذلك لازدواج الكلام . وقال قتادة : اي نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر . ثم اخبر

(١) سورة ٢٤ النور آية ٢

تعالى فقال « إن المنافقين » الـذين يخادعون المؤمنين باظهار الايمان مع ابطانهم الكفر « هم الفاسقون » الخارجون عن الايمان بالله وبرسوله وعن طاعاته .

قوله تعالى:

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٩) آية.

اخبر الله تعالى بأنه « وعد المنافقين والمنافقات » الـذين يظهرون الاسـلام ويبطنون الكفر « نار جهنم » يعاقبون فيها أبد الآبدين وكذلك الكفار الـذين يتولونهم ، وهم على ظاهر الـكفر ، فلذلك أفردهم بالذكر ليعلم أن الفريقين معاً يتناولهم الوعيد وتقول : وعدته بالشر وعيداً ووعدته بالخير وعداً وأوعدته إيعاداً وتوعـدته توعداً في الشر لا بالخير، وواعدته مواعدة ، وتواعدوا تواعداً .وقوله « هي حسبهم » يعني نار جهنم والعقاب فيها كافيهم ، ولعنهم الله يعني أبعدهم الله من جنته وخيره «ولهم» مع ذلك « عذاب مقيم » ومعناه دائم لايزول وقيل معنى « هي حسبهم » أي هي كفايـة ذنوبهم ، ووفاء لجزاء عملهم . واللعن الابعاد من الرحمة عقاباً على المعصية ، ولذلك لايقال لعن البهيمة كما لايدعا لها بالعفو .

قوله تعالى:

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٧٠) آية.

الكاف في قوله « كالذين » في موضع نصب ، والتقدير احذروا أن يحل بكم من العذاب والعقوبة كالذين . ويحتمل أن يكون المراد وعدكم الله على الكفر كما وعد الذين من قبلكم ، فشبه المنافقين في عدولهم عن أمر الله للاستمتاع بلذات الدنيا بمن قبلكم مع أن عاقبة امر الفريقين يؤل الى العقاب مع أن الأولين كانوا أشد من هؤلاء قوة في ابدانهم وأطول اعماراً واكثر اموالا وأشد تمكيناً فلم يقدروا ان يدفعوا عن نفوسهم ماحل بهم من عقاب الله .

وقوله « فاستمتعوا بخلاقهم » فالاستمتاع هو طلب المتعة وهي فعل مافيه اللذة من المآكل والمشارب والمناكح . ومعناه انهم تمتعوا بنصيبهم من الخير العاجل وباعوا بذلك الخير الآجل فهلكوا بشر استبدال ، كما تمتعتم ايها المنافقون بخلاقكم اي بنصيبكم والخلاق النصيب سواء كان عاجلا او آجلا .

وقوله « وخضتم كالذي خاضوا » خطاب للمنافقين بأن قيل لهم خضتم في الباطل والكذب على الله كالذين تابعوهم على ذلك من المنافقين وغيرهم من الكفار « حبطت اعمالهم » لأنهم كانوا أوقعوها على خلاف ماأمرهم الله به فلم يستحقوا عليها ثواباً بل استحقوا عليها العقاب ، فلذلك كانوا خاسرين أنفسهم ومهلكين لها بفعل المعاصي المؤدي الى الهلاك وروي عن ابن عباس انه قال في هذه الآية : ما أشبه الليلة بالبارحة كذلك من قبلكم هؤلاء بنوا اسرائيل لشبهنا بهم لا أعلم إلا انه قال (والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر ضب لدخلتموه) ومثله روي عن ابي هريرة عن النبي ﷺ وعن ابي سعيد الخدري مثله.

قوله تعالى :

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ * وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧١)

آية في الكوفي والبصري وآيتان في المدنيين آخر الأولى « وثمود »

قوله « ألم » صورته صورة الاستفهام ، والمراد به التقرير والتحذير . وإنما حسن في الاستفهام أن يخرج الى معنى التقرير لأن الاحتجاج بما يلزمهم الاقرار به فقال الله تعالى مخاطباً لنبيه : ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين وصفهم خبر من كان قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين ، على وجه الاحتجاج عليهم فيتعظوا ، لأن الامم الماضية والقرون السالفة إذا كان الله تعالى إنما أهلكها ودمرها لتكذيبها رسلها كان ذلك واجباً في كل أمة يساوونهم في هذه العلة ، فأقل احوالهم ألا يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك . قال الرماني : والحكمة تقتضي إذا تساوى جماعة في استحقاق العقاب ان لايجوز العفو عن بعضهم دون بعض مع تساويهم في الاحوال. وانما يجوز العدول من قوم الى قوم في الواحد منا للحاجة وهذا يتم على قول من يقول بالأصلح ، ومن لايقول بذلك يقول : هو متفضل بذلك وله ان يتفضل على من يشاء ولايلزم ان يفعل ذلك بكل مكلف .

وقوله « والمؤتفكات» قال الحسن وقتادة : هي ثلاث قريّات لقوم لوط ولذلك جمعها بالالف والتاء . وقال في موضع آخر « والمؤتفكة أهوى » (١) فجاء به على طريق الجنس . قال الزجاج : معناه ائتفكت بأهلها انقلبت . ومدين ابن ابراهيم اسم له . وقوله « اتتهم رسلهم بالبينات » معناه جاءت هؤلاء المذكورين الرسل من عند الله معها حجج ودلالات على صدقها فكذبوا بها فأهلكهم الله ، وحذف لدلالة الكلام عليه. ثم قال « فما كان الله ليظلمهم » اي لم يكن الله ظالماً لهم بهذا الاهلاك « ولكن كانوا انفسهم يظلمون » بأن فعلوا من الكفر والمعاصي ما استحقوا به الهلاك .

---

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٥٣

وقيل : ان الله تعالى اهلك قوم نوح بالغرق . واهلك عاداً بالريح الصرصر العاتية . وأهلك ثمود بالرجفة والصاعقة . وأهلك قوم ابراهيم بالتشتيت وسلب الملك والنعمة . وأهلك اصحاب مدين بعذاب يوم الظلة . وأهلك قوم لوط بانقلاب الارض ، كل ذلك عدل منه على من ظلم نفسه وعصى الله واستحق عقابه .

قوله تعالى :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧٢) آية .

لما ذكر الله تعالى المنافقين ووصفهم بأن بعضهم من بعض بالاتفاق والتعاضد اقتضى ان يذكر المؤمنين ، ويصفهم بضد أوصافهم ، فقال تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » أي يلزم كل واحد منهم نصرة صاحبه وان يواليه وقال الرماني : العقل يدل على وجوب موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، لأنها تجري مجرى استحقاق الحمد على طاعة الله والذم على معصيته . ولا يجوز ان يرد الشرع بخلاف ذلك . وإذا قلنا : المؤمن ولي الله معناه أنه ينصر أولياء الله وينصر دينه، والله وليه بمعنى أولى بتدبيره وتصريفه وفرض طاعته عليه . ثم قال « يأمرون بالمعروف » يعني المؤمنين يأمرون بما اوجب الله فعله أو رغب فيه عقلا أو شرعاً وهو المعروف « وينهون عن المنكر » وهو مانهى الله تعالى عنه وزهد فيه إما عقلا أو شرعاً ويضيفون الى ذلك إقامة الصلاة اي إتيانها بكمالها والمداومة عليها ويخرجون زكاة اموالهم حسب ما أوجبها الله عليهم ، ويضعونها حيث امر الله بوضعها فيه ويطيعون

الله ورسوله اي يمتثلون امرهما ويتبعون ارادتها ورضاهما .

ثم قال « اولئك سيرحمهم الله » يعني المؤمنين الذين وصفهم ان ستنالهم في القيامة رحمته . ثم اخبر عن نفسه فقال « ان الله عزيز حكيم » فالعزيز معناه قادر لايغلبه احد من الكفار والمنافقين، حكيم في عقاب المنافقين واثابة المؤمنين. وغير ذلك من الافعال . وإنكار المنكر يجب بلا خلاف سمعاً وعليه الاجماع و كذلك الأمر بالمعروف واجب ، فأما العقل فلا يدل على وجوبهما أصلا . لأنه لو أوجب ذلك لوجب ان يمنع الله من المنكر، لكن يجب على المكلف اظهار كراهة المنكر الذي يقوم مقام النهي عنه . وفي الآية دلالة على ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الاعيان لأن الله تعالى جعل ذلك من صفات المؤمنين ، ولم يخص قوماً دون قوم .

قوله تعالى :

وَعَدَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٧٣) آية .

اخبر الله تعالى بأنه كما وعد المنافقين بنار جهنم والخلود فيها كذلك «وعد الله المؤمنين» المعترفين بوحدانيته وصدق رسله وكذلك « المؤمنات جنات » يعني بساتين يجنها الشجر« تجري من تحتها الأنها » وتقديره تجري من تحت اشجارها الأنهار . وقيل : أنهار الجنة أخاديد في الأرض ، فلذلك قال « من تحتها» وانهم فيها خالدون اي دائمون « ومساكن طيبة » معناه وعدهم مساكن طيبة . والمسكن الموضع الذي يسكن. وروى الحسن انها قصور من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر مبنية بهذه الجواهر . وقوله « في جنات عدن » فالعدن الاقامة والخلود ،

ومنه المعدن قال الاعشى :

وان يستضافوا الى حكمه يضافوا الى راجح قد عدن(١)

وروي أنها جنة لايسكنها إلا النبيون والشهداء والصالحون .

وقوله « ورضوان من الله اكبر » قال الرماني : الرضوان معنى يدعو الى الحمد بالاجابة يستحق مثله بالطاعة فيما تقتضيه الحكمة . وانما رفع (رضوان) لأنه استأنفه للتعظيم كما يقول القائل : اعطيتك ووصلتك ثم يقول . وحسن رأي فيك ورضاي عنك خير من جميع ذلك . وقوله « ذلك هو الفوز العظيم » معناه هذا النعيم الذي وصفه هو النجاح العظيم الذي لاشيء فوقه ولااعظم منه .

قوله تعالى

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٤) آية .

امر الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ أن يجاهد الكفاروالمنافقين .والجهاد هو ممارسة الأمر الشاق والجهاد يجب باليد واللسان والقلب ، فمن امكنه الجميع وجب عليه جميعه . ومن لم يقدر باليد فباللسان فان لم يقدر فبالقلب . واختلفوا في كيفية جهاد الكفار والمنافقين . فقال ابن عباس : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان والوعظ والتخويف ، وهو قول الجبائي . وقال الحسن وقتادة : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم . وكانوا اكثر من يصيب الحدود . وقال ابن مسعود : هو بالانواع الثلاثة حسب الامكان فان لم يقدر فليكفهر في وجوههم وهو الاعم .

---

(١) ديوانه : ١٦ وروايته (هادن قد رزن) بدل « راجح قد عدن » وتفسير الطبري ١٤/ ٣٥٠ ، واللسان « وزن » ومجاز القرآن ١/ ٢٦٤

وروي في قراءة اهل البيت عليهم السلام « جاهد الكفار بالمنافقين ».

وقوله « واغلظ عليهم » امر منه تعالى لنبيه ان يقوي قلبه على احلال الالم بهم واسماعهم الكلام الغليظ الشديد ولا يرق عليهم. ثم قال « ومأواهم جهنم » اي منزلهم جهنم ومقامهم. والمأوى منزل مقام، لامنزل ارتحال. ومثله المثوى والمسكن. وقوله « وبئس المصير » اخبار منه تعالى أن مرجع هؤلاء ومآلهم بئس المرجع والمآل.

قوله تعالى:

يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٥) آية.

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية، فقال عروة وابن اسحاق ومجاهد: إنها نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت بأنه قال: فان كان ماجاء به محمد حقاً لنحن شر من الحمير، ثم حلف بالله أنه ماقال. وقال قتادة: نزلت في عبد الله بن ابي بن سلول حين قال « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » (١) وقال الحسن: كان ذلك في جماعة من المنافقين. وقال الواقدي والزجاج: نزلت في اهل العقبة فانهم ائتمروا أن يغتالوا رسول الله في عقبة في الطريق عند مرجعهم من تبوك. وأرادوا ان يقطعوا انساع راحلته، واطلعه الله على ذلك. وكان ذلك

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ٨

من معجزاته ﷺ لأنه لايمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى ، فسار رسول الله في العقبة وحده وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي وكانوا اثني عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه . وعرفهم واحداً واحداً عمار بن ياسر وحذيفة ، وكان احدهما يقود ناقةرسول الله والآخر يسوقها ، والحديث مشروح في كتاب الواقدي . وقال ابوجعفر عليه السلام كانوا ثمانيةمن قريش واربعة من العرب

وقوله « وهموا بما لمينالوا» قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال مجاهد : همّ المنافقون بما لم يبلغوه من التنفير برسول الله.

الثاني ـ قال قتادة : هموا بما ذكر في قوله « ليخرجن الأعز منها الأذل» فلم يبلغوا ذلك .

والثالث ـ عن مجاهد أنهم هموا بقتل من أنكر عليهم ذلك . وقال بعضهم: كان المنافقون قالوا : لو رجعنا وضعنا التاج على رأس عبد الله ابن ابي ،فلما اوقفوا على ذلك حلفوا بأنهم ماقالوا ذلك ولاهموا به ، فاخبر الله تعالى عن حالهم انهم يحلفون بالله ماقالوا ، ثم اقسم تعالى بانهم قالوا ذلك ، لأن لام لقد لام القسم وانهم قالوا كلمة الكفر ، وهي كل كلمة فيها جحد لنعم الله او بلغت منزلتها في العظم ، وكانوا يطعنون في الاسلام والنبوة ، وأخبر انهم هموا بما لم يبلغوه .والهم مقاربة الفعل بتغليبه في النفس تقول : هم بالشيء يهم هماً ، ومنه قوله « ولقدهمت به وهم بها لولا أن رأى » (١)وليس الهم من العزم في شيء إلا ان يبلغ نهايةالعزم في النفس . والنيل لحوق الأمر . ومنه قوله (نال السيف ونال مااشتهى او قدر او تمنى) فهؤلاءقدّروا في انفسهم من كيد الاسلام مالم يبلغوه .

وقولـه « وما نقموا إلا ان اغناهم الله ورسوله من فضله » يعني ما فتح الله عليهم من الفتوح وأخـذ الغنائم واستغنوا بعد أن كانوا محتاجين وقيل في معناه قولان : احدهما ـ انهم عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر الغنى أن نقموا

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٤ .

قال الشاعر :

مانقموا من بني أمية إلا　　انهم يحلمون ان غضبوا (١)

والآخر - انهم بطروا النعمة بالغنى فنقموا بطراً واشراً فهم لايفلحون بهذه الحال ولابعدها . والفضل الزيادة في الخير على مقدارها ، والتفضل هو الزيادة من الخير الذي كان للقادر عليه ان يفعله وأن لايفعله .

ثم قال تعالى « فان يتوبوا » هؤلاء المنافقون ويرجعوا الى الحق « يك خيراً لهم » في دينهم ودنياهم ، فانهم ينالون بذلك رضى الله ورسوله والجنة « وإن يتولوا » اي يعرضوا عن الرجوع الى الحق وسلوك الطريق الصحيح « يعذبهم الله عذاباً أليماً » اي مؤلماً « في الدنيا » بما ينالهم من الحسرة والغم وسوء الذكر وانواع المصائب وفي « الآخرة » بعذاب النار « ومالهم في الارض » اي ليس لهم في الارض « من ولي » اي محب « ولا نصير » يعني من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله . وقيل : إن خلاساً تاب بعد ذلك ، وقال : استثنى الله تعالى لي التوبة فقبل الله توبته .

قوله تعالى :

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَـٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٧٦) آية .

اخبر الله تعالى أن من جملة المنافقين الذين تقدم ذكرهم « من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن » أي منه « ولنكونن من الصالحين » بانفاقه في طاعة الله وصلة الرحم والمواساة وأن يعمل الاعمال الصالحة التي يكون بها صالحاً .

وقيل : نزلت الآية في ثعلبة بن حاطب كان محتاجاً فنذر لئن استغنى ليصدقن فأصاب اثني عشر الف درهم ، فلم يتصدق ، ولم يكن من الصالحين . هكذا قال

(١) مر تخريجه في ٣/ ٥٥٩

الواقدي . وقال ابن اسحاق : هما بلتعة ومعتب بن قشير . وقيل : سبب ذلك أنـه قتل مولى له فأخذ ديته اثني عشر ألف درهم : أعطاه النبي صلى الله عليه وآله .

فان قيل : كيف يصح أن يعاهد الله من لا يعرفه ؟

قلنا : إذا وصفه بأخص صفاته جاز منه أن يصرف عهده اليه وإن جاز أن يكون غير عارف وقال الجبائي : كانوا عارفين ، وانما كفروا بالنبي صلى الله عليه وآله . والمعاهدة هي أن يقول عليّ عهد الله لأفعلن كذا ، فانـه يكون قد عقد على نفسه وجوب ماذكره ، لأن الله تعالى حكم بذلك وقدر وجوبه عليه في الشرع .

والآية دالة على وجوب الوفاء بالعهد . واللام الاولى من قوله « لئن آتانا من فضله » والثانية من قولـه « لنصدقن » جميعهما لام القسم غير أن الأولى وقعت موقع الجواب، والتقدير علينا عهد الله لنصدقن إن آتانا من فضله . ولا يجوز أن تكون اللام الأولى لام الابتداء ، لأن لام الابتداء لا تدخل إلا على الاسم المبتدأ ، لأنها تقطع ما قبلها أن يعمل فيما بعدها إلا في باب (إنّ) فانها زحلقت الى الخبر لئلا يجتمع تأكيدان ، ويجوز ان يقول : ان رزقني الله مالا صلحت بفعل الصلاة والصوم لأن ذلك واجب عليه آتاه مالا أو لم يؤته.

قوله تعالى :

فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٧) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين الذين عاهدوا الله . وقالوا متى آتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين أنه آتاهم ما اقترحوه ورزقهم ما تمنوه من الأموال ، وانهم لما آتاهم ذلك شحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد .

ومعنى (لمـا) معنى (اذا) إلا أن (لما) الغالب عليها الجزاء ، وهي إسم ، لأنها تقع في جواب (متى) على تقدير الوقت كقولك : متى كان هذا ، فيقول السامع : لما كان ذلك . و(لما) و (لو) لا يكونان إلا لمـا مضى بخلاف (إن)

و (إذا) فانهما لما يستقبل الا أن (لو) على تقدير نفي وجوب الثاني لانتفاء الأول و (لما) يدل على وقوع الثاني لوقوع الاول .

والبخل منع النائل لشدة الاعطاء، ثم صار في اسماء الذي منع الواجب، لأن من منع الزكاة فهو بخيل . قال الرماني : ولايجوز أن يكون البخل منع الواجب بمشقة الاعطاء قال زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ　　ـكن الجواد على علاته هرم (١)

قال : لأنه يلزم على ذلك ان يكون الجود هو بذل الواجب من غير مشقة . وإنما قال زهير ماقاله لأن البخل صفة نقص . قال الرماني : ومن منع مالايضره بذله ولاينفعه منعه مما تدعو اليه الحكمة فهو بخيل ، لأنه لايقع المنع على هذه الصفة إلا لشدة في النفس ، وإن لم يرجع الى ضرر؛ إذ الشدة من غير ضرر معقولة كما يصفون الجوزة بأنها لئيمة لأجل الشدة . وقال عبد الله بن عمر والحسن ومحمد ابن كعب القرطي : يعرف المنافق بثلاث خصال : إذا حدث كذب، وإذا وعدخلف وإذا ائتمن خان . وخالفهم عطاء ابن ابي رياح في ذلك وقال : إن النبي صلى الله عليه وآله إنما قال ذلك في قوم من المنافقين . وروي ان الحسن رجع الى قول عطاء . وقوله « وتولوا » اي أعرضوا عما عاهدوا الله عليه . وقوله « وهم معرضون » اخبار منه بأنهم معرضون عن الحق بالكلية .

قوله تعالى

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٨) آية.

بين الله تعالى أنه أعقب هؤلاء المنافقين ومعناه أورثهم وأداهم الى نفاق في

---

(١) اللسان (هرم) .

قلوبهم بخلهم بما آتاهم الله من فضله مع الاعراض عن أمر الله ، وهو قول الحسن وقال مجاهـد : معناه أعقبهم ذلك بحرمان التوبة كما حرم ابليس ، وجعل ذلك إمارة ودلالة على أنهم لايتوبون أبداً لأحـد شيئين : من قال : اعقبهم بخلهم رد الضمير اليه . والمعنى يلقون جزاء بخلهم . ومن ذهب الى ان الله أعقبهم رد الضمير الى اسم الله.

وقوله « بما أخلفوا الله ماوعـدوه » فالاخلاف نقض ماتقدم بـه العقد من وعد أو عزم وأصله الخلاف ، لأنه فعل خلاف ماتقدم به العقد . والوعـد متى كان بأمر واجب أو ندب أو أمر حسن قبح الاخلاف ، وان كان الوعـد وعـداً بقبيح كان إخلافه حسناً . وقوله « وبما كانوا يكذبون » يقوي قول من قال : إن الضمير عائد الى الله لأنه بين انه انما فعل ذلك جزاء على اخلافهم وعده وجزاء على مـا كانوا يكذبون في اخبارهم عليه .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٩) آية.

الالف في قوله « ألـم يعلموا » الف استفهام والمراد به الانكار . يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « ألم يعلموا » هؤلاء المنافقون« أن الله يعلم سرهم» يعني مايخفون في أنفسهم وما يتناجون بينهم ، والمعنى انـه يجب عليهم أن يعلموا ذلك . تقول: اسره إسراراً ، واستسرّ استسراراً، وساره مسارة وسراراً، وتسارا إسراراً ،والاسرار اخفاء المعنى في النفس والنجوى رفع الحـديث باظهار المعنى لمن يسلم عنده من اخراجه الى عدوّ فيه لأنه من النجاة تقول : ناجاه مناجاة ، وتناجوا تناجياً فكأن هؤلاء المنافقون يسرّون في أنفسهم الكفر ويتناجون به بينهم . وقيل: السرّ والنجوى

واحد مكرر باختلاف اللفظين كما يقول القائل : آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر والمعنى واحد مكرر باختلاف اللفظين . وقوله «ان الله علام الغيوب » معناه يعـلم كل ماغاب عن العباد مما غاب عن احساسهم او ادراكهم من موجود أو معدوم من كل وجه يصح ان يعلم منه ، لأنها صفة مبالغة واقتضى ذكر العـلم ـ هاهنا ـ حال المنافقين في كفرهم سرّاً وإظهارهم الايمان جهراً ، فقيل لهم ان المجازي لكم يعلم سركم ونجواكم ، كما قال : ذو الرمة في معنى واحد بلفظين مختلفين :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي انيابها شنب

فاللعس حوة وكرر لاختلاف اللفظين ، ويمكن ان يكون لما ذكر الحوة خشي أن يتوهم السامع سواداً قبيحاً فبين انه لعس لأنه يستحسن ذلك .

قوله تعالى :

أَلَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨٠) آية .

قيل : نزلت هـذه الآية في علبة بن زيد الحارثي وزيد بن اسلم العجلاني فجاء علبة بصاع من تمر فنثره في الصدقة، وقال: يارسول الله عملت في النخل بصاعين فصاعاً تركته لأهلي وصاعاً اقرضته ربي ، وجاء زيد بن أسلم بصدقة فقال : معتب ابن قشير وعبد الله بن نهيك إنما أراد الرياء . وقال قتادة وغيره من المفسرين : إن هذه الآية نزلت في حجاب بن عثمان ، لأنه أتى النبي ﷺ بصاع من تمر وقال : يـارسول الله إني عملت في النخل بصاعين من تمر فتركت للعيال صاعـاً واهديت لله صاعاً . وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وهي شطر ماله للصدقة ، فقال المنافقون : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء ، وقالوا في الآخر: إن

الله لغني عما أتى به ، فأنزل الله تعالى الآية فقال « الذين يلمزون المطوعين » أي ينسبونهم الى المنقص في النفس يقولون : لمزه يلمزه لمزاً إذا انتقصه وعابه والمطوعين على وزن (المتفعلين) وتقديره المتطوعين . فأدغمت التاء في الطاء ، ومعناه المتنفلين من طاعة الله بما ليس بواجب عليهم ، لأن الخير قد يكون واجباً وقد يكون ندباً وقد يكون مباحاً ولا يستحق المدح الا على الواجب والندب دون المباح ، وقوله « والذين لايجدون الاجهدهم » والجهد هو الحمل على النفس بما يشق تقول : جهده يجهده جهداً وجهداً ـ بالضم والفتح ـ كالوجد والوجد والضعف والضعف . وقال الشعبي : الجهد في العمل والجهد في القوت . وقوله « فيسخرون منهم » يعني المنافقين يهزؤون بالمطوعين « سخر الله منهم » اي يجازيهم على سخريتهم بأنواع العذاب « ولهم عذاب اليم » اي مؤلم موجع . ولما كان ضرر سخريتهم عائداً عليهم جاز ان يقال « سخر الله منهم » لانه يفعل السخرية .

قوله تعالى :

إِسْتَغْفِرْ لَهُم أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُم إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُم سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُم ذَٰلِكَ بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لاَيَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (٨١) آية .

قوله « استغفر لهم » صيغته صيغة الامر والمراد به المبالغة في الأياس من المغفرة انه لوطلبها طلبة المأمور بها أوتركها ترك المنهي عنها لكان ذلك سواء في ان الله لايفعلها ، كما قال في موضع آخر « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » (١) . والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى بالدعاء بها والمغفرة ستر المعصية برفع العقوبة عليها . وتعليق الاستغفار بالسبعين مرة . والمراد

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ٦

به المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل : لو قلت ألف مرة ماقبلت ، والمراد بذلك إني لا أقبل منك ، وكذلك الآية المراد بها نفي الغفران جملة . وما روي عن النبي ﷺ أنه قال (والله لأزيدن على السبعين) خبر واحد لايلتفت اليه؛ ولأن في ذلك ان النبي ﷺ استغفر للكفار وذلك لايجوز بالاجماع . وقد روي أنه قال (لو علمت اني لوزدت على السبعين مرة لغفر لفعلت) .

وكان سبب نزول هذه الاية ان النبي ﷺ كان اذا مات ميت صلى عليه واستغفر له، ولم يكن بمنزلة المنافقين بعد ، فأعلمه الله تعالى ان في جملة من تصلي عليهم من هو منافق وإن استغفاره له لاينفع قل ذلك ام كثر ، ثم نهى الله نبيه أن يصلي على أحد منهم وأن يستغفر له حين عرفه اياهم بقوله « ولا تصل على أحد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره » (١) الاية . وقوله « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » اشارة منه تعالى الى ان ارتفاع الغفران انما كان لأنهم كفروا بالله وجحدوا نعمه، وكفروا برسوله فجحدوا نبوته « والله لايهدي القوم الفاسقين » فمعناه انه لايهديهم الى طريق الجنة والثواب . فأما الهداية الى الايمان بالاقرار بالتوحيد لله والاعتراف بنبوة النبي ﷺ فقد هدى الله اليه كل مكلف متمكن من النظر والاستدلال ؛ بأن نصب له على ذلك الدلالة وأوضحها له .

قوله تعالى :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨٢) آية .

اخبر الله تعالى بأن جماعة من المنافقين الذين خلفهم النبي ﷺ ولم يخرجهم

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٥ .

معه الى تبوك لما استأذنوه في التأخر فأذن لهم ، فرحوا بقعودهم خلاف رسول الله. والمخلف المتروك خلف من مضى ، ومثـله المؤخر عمن مضى تقول : خلف تخليفاً وتخلف تخلفاً . والفرح ضد الغم ، والغم ضيق الصدر بفوت المشتهى ، وعندالبصريين من المعتزلة هو اعتقاد وصول الضرراليه في المستقبل او دفع الضرر المظنون والمعلوم عنه . ومعنى خلاف رسول الله قال أبو عبيدة : بعد رسول الله وأنشد :

عقب الربيع خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا (١)

وقال غيره : معناه المصدر من قولك خالف خـلافاً وهو نصب على المصدر.

وقوله « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » اخبار منه تعالى ان هؤلاء المخلفين فرحوا بالتأخر وكرهوا إنفاق أموالهم والجهاد بنفوسهم في سبيل الله ، فالجهاد بالمـــال هو تحمل لمشقة الانفاق في وجوه البر ، والجهاد بالنفس هو تعريضها لمـا يشق عليها اتباعاً لأمر الله . وقوله « لاتنفروا في الحر» معناه انهم قالوا لنظرائهم ومن يقبل منهم : لاتخرجوا في الوقت الحار ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهم « نار جهنم اشد حرّاً لو كانوا يفقهون » لأنهم توقـّوا بالقعود عن الخروج حرّ الشمس ،فخالفوا بذلك أمر الله وأمر رسوله ، واستحقوا حرّ نار جهنم، وكفى بهذا الاختيار جهلا ممن اختاره . وقوله « لو كانوا يفقهون» معناه لو كانوا يفقهون وعظ الله وتحذيره وتزهيده في معاصيه .

قوله تعالى :

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٣) آية.

---

(١) قائله الحارث بن خالد المخزومي . الاغاني ٣/٣٣٣ وروايته (الرذاذ) بدل (الربيع) واللسان (عقب) ، (خلف).

قوله « فليضحكوا » صيغته صيغة الأمر والمراد به التهديد ، وإنما قلنا : إنه بصورة الأمر ، لأن اللام ساكنة ولو كانت لام الاضافة لكانت مكسورة لأنها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها ، فلذلك الزمت الحركة . والمراد بالاية الاخبار عن حال هؤلاء المنافقين وأنها في وجـه الضحك كحال المأمور منه فيما يؤل اليه من خير أوشرعلى صاحبه، فلذلك دخله معنى التهدد ، والضحك حال تفتح وانبساط يظهر في وجه الانسان عن تعجب مع فرح ، والضحاك هو الانسان خاصة . والبكاء حال يظهر عن غم في الوجه مع جري الدموع على الخد ، وهو ضد الضحك تقول: بكا بكاءاً ، وأبكاه الله ابكاءاً ، وبكاه تبكية وتباكى تباكياً واستبكى استبكاءاً ومعنى الآية أن يقال لهؤلاء المنافقين : فاضحكوا بقليل تمتعكم في الدنيا فانكم ستبكون كثيراً يوم القيامة إذا حصلتم في العقاب الدائم « جزاء بما كانوا يكسبون» نصب (جزاء) على المصدر أي تجزون على معاصيكم ، ذلك جزاء على أفعالكم التي اكتسبتموها .

قوله تعالى :

فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٤) آية .

قال الله تعالى لنبيه ﷺ « فان رجعك الله » يعني ان ردّك الله « الى طائفة منهم يعني جماعة . فالرجوع هو تصيير الشيء الى المكان الذي كان فيه ، تقول : رجعته رجعاً كقولك رددته رداً ، وقـد يكون التصيير الى الحال التي كان عليها كرجوع الماء الى حال البرودة والطائفة الجماعة التي من شأنها أن تطوف ولهذا لايقال في جماعة الحجارة طائفة ،وقد يسمى الواحد بأنه طائفة بمعنى نفس طائفة

والأول اظهر . وقوله « فاستأذنوك للخروج » اي طلبوا منك الاذن في الخروج في غزوة أخرى ، والاذن رفع التبعة في الفعل وأصله أن يكون بقول يسمع بالاذن . والخروج الانتقال عن محيط ، فقال الله لنبيه ﷺ قل لهم حينئذ « لن تخرجوا معي أبداً » اي لايقع منكم الخروج أبداً ، فالابد الزمان المستقبل من غير انتهاء الى حد ، ونظيره للماضي (قط) إلا انه مبني كما بني أمس لتضمنه حروف التعريف واعرب (الابد) كما اعرب (غد) لأن المستقبل أحق بالتنكير .

وقوله « ولن تقاتلوا معي عدواً » اخبار بأنهم لا يفعلون ذلك ابداً ولايختارونه . وقوله « إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » معناه اخبار منه تعالى انهم رضوا بالقعود أول مرة فينبغي ان يقعدوا مع الخالفين . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها - قال الحسن وقتادة : هم النساء والصبيان . وقال ابن عباس : هم من تأخر من المنافقين . وقال الجبائي : هم كل من تأخر لمرض اونقص وقيل : معناه مع اهل الفساد مشتقاً من قولهم : خلف خلوفاً اي تغير الى الفساد . وقيل : الخالف كل من تأخر عن الشاخص .

قوله تعالى :

وَلاَ تُصَلِّ علىٰ أحدٍ منهُم مَات أبداً وَلاَ تَقُمْ علىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٥) آية .

هذا نهي من الله تعالى لنبيه ﷺ عن أن يصلي على أحد من المنافقين او يقوم على قبره ومعناه أن يتولى دفنه او ينزل في قبر كما يقال : قام فلان بامر فلان . وقال ابن عباس وابن عمر وقتادة وجابر : صلى رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أبي بن ابي سلول والبسه قميصه قبل أن ينهى عن الصلاة على المنافقين . وقال أنس : أراد أن يصلي عليه فأخذ جبرائيل بثوبه . وقال له « لا تصل على احد

منهم مات أبداً ولاتقم على قبره ».

والصلاة على الأموات فرض على الكفايات إذا قام به قوم سقط عن الباقين. واقل من يسقط به الفرض واحد. وهي دعاء ليس فيها قراءة ولاتسبيح ،وفيه خلاف . وفيها خمس تكبيرات عندنا ، وعند الفقهاء أربع تكبيرات ، فالتكبيرة الأولى يشهد بعدها الشهادتين ، ويكبر بالثانية ، ويصلي بعـدها على النبي ﷺ ويكبر الثالثة ويدعو للمؤمنين والمؤمنات ، ويكبر الرابعة ويدعو للميت إن كان مؤمناً وعليـه إن كان منافقاً ، ويكبر الخامسة ويقف يومي الى يمينه حتى ترفع الجنازة ،وليس فيها تسليم . وسمعت أبا الطيب الطبري وكان امام أصحاب الشافعي يقول : الخلاف بيننا وبينكم في عبارة ، لأن عندكم ينصرف بالخامسة . وعندنا بالتسليم ، فجعلتم مكان التسليم التكبير . وذلك خلاف في عبارة .

وقوله « مات » موضع (مات) جر لأنه صفة لـ (أحد) لان تقديره على احد ميت منهم و « أبداً» منصوب متصل ، و (أحد) هذه هي التي تكون في النفي دون الايجاب لأنه يصح النهي عن الصلاة عليهم مجتمعين ومتفرقين ، كما يصح في النفي ولايمكن في الايجاب لأنه كنفي الضدين في حال واحدة ، فانه لايصح اثباتها في حال أصلا . والقبر حفرة يدفن فيها الميت، تقول: قبرته اقبره قبراً فأنا قابره وهو مقبور وأقبرت فلاناً اقباراً اذا جعلته بقبره .

وقوله « إنهم كفروا بالله ورسوله » والمعنى انما نهيتك عن الصلاة عليهم لأنهم كفروا بالله ورسوله ، فهي للتعليل ، وانما كسرت لتحقيق الاخبار بأنهم على الصفة التي ذكرها وأنهم « ماتوا وهم فاسقون » اي خارجون عن طاعـة الله الى معصيته .

قوله تعالى :

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ

فِي ٱلدُّنيَا وَتَزهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـافِرُونَ (٨٦) آية

قد مضى تفسير مثل هـــذه الآية فلا وجه لاعادته (١) وبينا أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به الامة، ينهاهم الله أن يعجبوا بما اعطى الله الكفار من الأموال والأولاد في الدنيا حتى يدعوهم ذلك الى الصلاة عليهم، ولاينبغي ان يغتروا بذلك فانما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا، لأنهم لاينفقونها في طاعة الله ولايخرجون حق الله منها. ويجوز أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلحقهم فيها من المصائب والغموم وبما يأخذها المسلمون على وجه الغنيمة وبما يشق عليهم من إخراجها في الزكاة والانفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الاسلام وتشدد ذلك عليهم ويكون عذاباً لهم، وان نفوسهم تزهق اي تهلك بالموت «وهم كافرون» أي في حال كفرهم، فلذلك عذبهم الله في الآخرة. والاعجاب هو ايجاد السرور بمـا يتعجب منه من عظيم الاحسان، تقول: اعجبني امره اعجاباً اذا سررت بموضع التعجب منه. والزهق خروج النفس بمشقة شديدة ومنه قوله «فاذا هو زاهق» (٢) أي هالك.

وقيل: في وجه حسن تكرار هذه الآية دفعتين قولان:

احدهما ـ قال ابو علي: يجوز أن تكون الآيتان في فريقين من المنافقين كما يقول القائل: لايعجبك حال زيد ولايعجبك حال عمرو.

الثاني ـ أن يكون الغرض البيان عن قوة هذا المعنى فيما ينبغي ان يحذر منه مع أنه للتذكير في موطنين بعد احدهما عن الاخر، فيجب العناية به، وليس ذلك بقبيح، لأن الواحد منا يحسن به أن يقوم في مقام بعد مقام، ويكرر الوعظ والزجر والتخويف ولايكون ذلك قبيحاً.

---

(١) في تفسير آية ٥٦ من هذه السورة

(٢) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٨

قوله تعالى

وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٧) آية .

بين الله تعالى في هذه الآية أنه إذا أنزل سورة من القرآن على النبي ﷺ « أن آمنوا » ومعناه بأن آمنوا فحذفت الباء وجعل « أن آمنوا » في موضع نصب والتقدير بالايمان على وجه الأمر ولايجوز الحذف مع صريح المصدر ، وإنما جاز مع (أن) للزوم الصلة والحمل على التأويل في اللفظ كما حمل على المعنى . وهذا خطاب للمؤمنين وأمر لهم بأن يدوموا على الايمان ويتمسكوا به في مستقبل الأوقات ويدخل فيه المنافق ويتناوله الأمر بأن يستأنف الايمان ويترك النفاق ثم يجاهدوا بعد ذلك بنفوسهم وأموالهم لأنه لاينفعهم الجهاد مع النفاق .

وقوله « استأذنك أولوا الطول » معناه أن ذوي الغنى من المنافقين إذا انزلت السورة يأمرهم فيها بالايمان والجهاد يستأذنون النبي ﷺ في القعود والتأخر عنه ، مع اعتقادهم بطلان الاسلام فيشد ذلك عليهم ويكون عذاباً لهم – وهو قول الحسن وابن عباس – فانهما قالا : إنما لحق هؤلاء الذم لأنهم أقوى على الجهاد . وقوله « وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » اخبار منه تعالى أن هؤلاء المنافقين من ذوي الغنى يقولون للنبي ﷺ : اتركنا نكن مع القاعدين من الصبيان والزمنى والمرضى الذين لايقدرون على الخروج . قال الرماني : والسورة جملةمن القرآن تشتمل على آيات قد احاطت بها كما يحيط سور القصر بما فيه، وسؤر الهر بقيته من الماء . والجهاد بالقتال دفعاً عن النفس معلوم حسنه عقلا لأنه مركوز في العقل وجوب التحرز من المضار ، وليس في العقل مايدل على انه يجب على الانسان ان يمنع غيره من الظلم وإنما يعلم ذلك سمعاً .

قوله تعالى :

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُم لا يَفقَهُونَ (٨٨) آية .

اخبر الله تعالى بأن هؤلاء الذين قالوا « ذرنا نكن مع القاعدين » من المنافقين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخوالف وهم النساء والصبيان والمرضى والمقعدون. قال الزجاج : الخوالف النساء لتخلفهن عن الجهاد، ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال ، والخالف والخالفة الذي هو غير نجيب ، ولم يأت في (فاعل) (فواعل) صفة إلا حرفين قولهم : فارس وفوارس . وهالك وهوالك .

وقوله « وطبع على قلوبهم » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه تعالى يجعل نكتة سوداء في قلب المنافق والكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنه ممن لا يفلح أبداً .

الثاني ـ أن يكون المراد بذلك الذم لها بأنها كالمطبوع عليها فلا يدخلها صبر ولا ينتفي عنها شر ، لأن حال الذم لها يقتضي صفات الـذم ، كما أن حال المـدح يقتضي صفات المدح ، كما قال جرير في قصيدة أولها :

أتصحوا أم فؤادك غير صاح عشية هـمّ صحبك بالرّواح

ألستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح (١)

ولا تحمل الا على المدح دون الاستفهام . والطبع في اللغة هو الختم تقول : طبعه وختمه بمعنى واحد .

قوله تعالى :

لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

(١) مر تخريجه في ١/ ١٣٢ ، ٤٠٠ وقد مر في ٢ / ٣٢٧

وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٩) آية.

لما أخبر الله تعالى عن حال المتأخرين عن النبي ﷺ والقاعدين عن الجهاد معه وأنهم منافقون قد طبع على قلوبهم فهم لايفقهون . أخبر عن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين المطيعين لله ورسوله بأنهم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بالاموال التي ينفقونها في مرضاة الله وعـدة الجهاد ويقاتلون الكفار بنفوسهم . ثم اخبر عما أعدّلهم من الجزاء على أفعالهم تلك وانقيادهم لله ورسوله ، فقال «أولئك» يعني النبي والذين معه « لهم الخيرات » في الجنة ونعيمها وخيراتها ، وانهم المفلحون ايضاً الفائزون بكرامة الله . والخيرات هي المنافع التي تسكن النفس اليها وترتاح بها من النساء الحسان وغيره من نعيم الجنان واحده خيرة ـ هذا قول ابي عبيدة ـ وقال رجل من بني عدي :

ولقد طعنت مجامع الربلات　　　ربلات هند خيرة الملكات (١)

والفلاح النجاح بالوصول الى البغية من نجح الحاجة وهو قضاؤها .

قوله تعالى :

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩٠) آية .

بين الله تعالى انه « أعد » لهؤلاء المؤمنين والرسول « جنات » يعني بساتين « تجري من تحتها » ومعناه من تحت اشجارها « الانهار » . والاعداد جعل الشيء مهيئاً لغيره تقول : اعدّ إعداداً واستعدّ له استعداداً وهو من العدد ؛ لأنه قد عـدّ الله جميع مايحتاج الى تقديمه له من الامور ومثله الاتخاذ . والوجه في اعداد ذلك قبل مجيء وقت الجزاء أن تصوره لذلك ادعى الى الطاعة وآكد في الحرص عليها

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٧ واللسان (خير) الربلة لحمة الفخذ

ويحتمل أن يكون المراد أنه سيجعل لهم جنات تجري من تحتها الأنهار غير أنه ترك للظاهر . وقوله « ذلك الفوز العظيم » اشارة الى ما أعده لهم واخبار منه بأنه الفوز العظيم. والفوز النجاة من الهلكة الى حال النعمة ،وسميت المهلكة مفازة تفاؤلا بالنجاة وإنما وصفه بالعظيم لأنه حاصل على جهة الدوام .

قوله تعالى :

وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩١) آية .

قرأ يعقوب وقتيبة (المعذرون) بسكون العين وتخفيف الذال . الباقون بفتح العين وتشديد الذال ، وجه قراءة من قرأ بالتخفيف أنه اراد جاءوا بعذر . ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين : احدهما ــ انه اراد المعتذرون ، كان لهم عذر أولم يكن ، وإنما أدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما مثل قوله « يذكرون ويذّكرون » وغير ذلك ،وأصله يتذكرون . الثاني ــ انه أراد المقصرون ،والمعذر المقصر ، والمعذر المبالغ الذي له عذر . وأما المعتذر فانه يقال لمن له عذر ولمن لا عذر له قال لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما　　ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر(١)

معناه جاء بعذر . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعذرون الذين يعتذرون فيوهمون أن لهم عذراً ولاعذر لهم . وروي عن ابن عباس انه قرأ بالتخفيف ، وقال: لعن الله المعذرين أراد من يعتذر بغير عذر ، وبالتخفيف من بلغ أقصى العذر .

(١) ديوانه القصيدة : ٢١ ،وخزانة الأدب ٢ / ٢١٧ وتفسير الطبري ١١٩/١ ١٤ / ١١٧ واللسان (عذر) .

وأصل التعذير التقصير مع طلب إقامة العذر ، عذر في الامر تعذيراً اذا لم يبالغ فيه . والفرق بين الاعتذار والتعذير ، أن الاعتذار قد يكون بعذر من غير تصحيح الأمر ، والتعذير تقصير يطلب معه اقامة العذر فيه . واختلفوا في معنى « وجاء المعذّرون » على قولين : قال قتادة واختاره الجبائي : انه من عذر في الأمر تعذيراً إذا قصر . وقال مجاهد : جاء أهل العذر جملة على معنى المعتذرين . وقال الحسن: اعتذروا بالكذب . وقال قوم : إنما جاء بنو عفار ، خفاف بن ايماء بن رخصة وقومه.

ومعنى الاية أن قوماً من الأعراب جاءوا الى النبي ﷺ يظهرون أنهم مؤمنون ولم يكن لهم في الايمان والجهاد نية فيعرضون نفوسهم عليه وغرضهم أن يأذن النبي ﷺ لهم في التخلف ، فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذراً في التخلف عن الجهاد.

وقوله « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » يعني المنافقين ، لأنهم الذين كذبوا الله ورسوله فيما كانوا يظهرون من الايمان ، فقال الله « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم » اي ينالهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة .

قوله تعالى:

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٢) آية .

عذر الله تعالى في هذه الآية من ذكره ووصفه ، فقال « ليس على الضعفاء » وهو جمع ضعيف ، وهو الذي قوته ناقصة بالزمانة وغيرها « ولا على المرضى » وهو جمع مريض وهم الاعلاء « ولا على الذين لايجدون ماينفقون » يعني من ليس معه نفقة الخروج وآلة السفر « حرج » يعني ضيق وجناح . وأصل الضيق الذي يتعذر معه الامر . وقوله « اذا نصحوا لله ورسوله » شرط تعالى في رفع الجناح والاسم عن

المذكورين ان ينصحوا الله ورسولـه بأن يخلصوا العمل من الغش، يقال : نصح في عمله نصحاً ، وناصح نفسه مناصحة، ومنه التوبة النصوح . ثم قال « ماعلى المحسنين من سبيل » أي ليس على من فعل الحسن الجميل طريق . والاحسان هو ايصال النفع الى الغير لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح . ويصح أن يحسن الانسان الى نفسه ويحمل على ذلك ، وهو إذا فعل الأفعال الجميلة التي يستحق بها المدح والثواب . وقوله « والله غفور رحيم » معناه ساتر على ذوي الاعذار بقبول العذر منهم « رحيم » بهم لايلزمهم فوق طاقتهم . وقال قتادة : نزلت هذه الآية في عابد بن عمرو المزني وغيره . وقال ابن عباس : نزلت في عبد الله بن معقل المزني ، فانـه وجماعة معه جاءوا الى رسول الله ﷺ فقالوا له : احملنا فقال رسول الله ﷺ لاأجـد ما احملكم عليه .

قوله تعالى

وَلا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٣) آية .

هذه الاية عطف على الاولى والتقدير ليس على الذين جاءوك ـ وسألوك حملهم حيث لم يكن لهم حملان ، فقلت لهم يا محمد « لاأجد ماأحملكم عليه » اي ليس لي حملان فحينئذ « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع » يبكون « حزناً أن لا يجـدوا ماينفقون » في هذا الطريق ويتابعونك ـ حرج وأثم ولاضيق وإنما حذف لدلالـة الكلام عليه . والحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول حمله يحمله حملا إذا أعطاه مايحمل عليه. وحمل على ظهره حملا ، وحمله الأمر تحميلا وتحمل تحملا ،واحتمله احتمالا ، وتحامل تحاملا . واللام في قولـه « لتحملهم »

لام الغرض ، والمعنى جاؤك وأرادوا منك حملهم وتقول : وجدت في المال وجداً وجدة ، ووجدت الضالة وجداناً ووجدت عليه ـ من الموجدة ـ وجداً .. والفيض الجري عن امتلاء من حزن قلوبهم ،والحزن ألم في القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض وهي الغليظة المسلك.

وقال مجاهد : نزلت هذه الاية في نفر من مزينة ، وقال محمد بن كعب القرطي وابن اسحاق : نزلت في سبعة نفر من قبائل شتى . وقال الحسن : نزلت في ابي موسى واصحابه. وقال الواقدي : البكاؤن سبعة من فقراء الأنصار ، فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين ، والعباس بن عبد المطلب رجلين ، ويامين بن كعب بن نسيل النصري من بني النضير ثلاثة، ومن جملة البكائين عبد الله بن معقل . وقال الواقدي: كان الناس بتبوك ثلاثين الفاً ، وعشرة آلاف فارس .

قوله تعالى .

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٩٤) آية.

بين الله تعالى في هذه الآية ان السبيل والطريق بالعقاب والحرج انما هو للذين يطلبون الاذن من رسول الله في المقام ، وهم مع ذلك اغنياء يتمكنون من الجهاد في سبيل الله ،الراضين بكونهم مع الخوالف من النساء والصبيان ومن لاحراك به . ثم قال : وطبع الله على قلوبهم بمعنى وسم قلوبهم بسمة تعرفها الملائكة فيميزون بينهم وبين غيرهم من المؤمنين ، ويحتمل أن يكون المراد انه بمنزلة المطبوع في أن لايدخلها الايمان كما لو طبعوا على الكفر . ومثله قوله « صم بكم عمي » ومعناه لترك تلفظهم بالحق وعدولهم عن سماع الحق وانصرافهم عن النظر الى الصحيح كأنهم صم بكم عمي، وهم لايعلمون ذلك ،ولايدرون الى مايصير أمرهم من

عقاب الابد ، ولايعرفون مايلزمهم من احـكام الشرع مايعرفه المؤمنون . وقال البلخي : معناه لافهم للخلاف والمعصية كأنهم لايعلمون ، والتقدير ان حكم هؤلاء المذكورين بهذه الاوصاف بخلاف من قد تحصن من العقاب بالايمان ، لأنهم قد فتحوا على انفسهم ابواب العذاب .

قوله تعالى :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) آية .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ من غير عذر كان يبيحهم ذلك اذا عاد النبي ﷺ والمؤمنون إنهم كانوا يجيؤن اليهم ويعتذرون اليهم عن تأخرهم بالأباطيل والكذب ، فقال الله تعالى لنبيه : قل يا محمد لهم « لاتعتذروا » فلسنا نصدقكم على ماتقولون ، فان الله تعالى قد اخبرنا من اخباركم واعلمنا من امركم ماقد علمنا به كذبكم « وسيرى الله عملكم ورسوله » أي سيعلم الله فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ويحتمل أن يكون المراد أنه يحل في الظهور محل مايرى « ثم تردون » اي ترجعون الى من يعلم الغيب والشهادة يعني السر والعلانية الذي لايخفى عليه بواطن أموركم « فينبئكم بما كنتم تعملون » أي فيخبركم باعمالكم كلها حسنها وقبيحها فيجازيكم عليها أجمع .

والاعتذار اظهار ما يقتضي العذر ويمكن ان يكون صحيحاً ويمكن ان يكون فاسداً كاعتذار هؤلاء المنافقين . والفرق بين الاعتذار والتوبة ان التوبة اقلاع عن

سيئة قد وقعت ، والاعتذار اظهار مايقتضي انها لم تقع ،ولذلك يجوز ان يتوب الى الله ولايجوز ان يعتذر اليه . والاعتذار الذي له قبول هو ما كان صاحبه محقاً، فأما الاعتذار بالباطل فهو أسوء لحال صاحبه قال الشاعر :

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه   وكل امرىءلايقبل العذر مذنب(١)

قوله تعالى

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) آية .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين يعتذرون بالباطل الى النبي والمؤمنين في تأخرهم عن الخروج معهم أنهم سيقسمون أيضا على ذلك للمؤمنين « اذا انقلبتم اليهم » يعني اذا رجعتم اليهم « لتعرضوا عنهم » اي لتصفحوا عنهم ولاتوبخوهم ولا تعنفوهم . ثم أمر الله تعالى المؤمنين والنبي ﷺ أن يعرضوا عنهم اعراض المقت وبين « انهم رجس » اي هم كالنتن في قبحه وهم انجاس ويقال : رجس نجس على الاتباع، وان « مأواهم » يعنيمصيرهم ومآلهمومستقرهم « جهنم جزاء» اي مكافاة على ما كانوا يكسبونه من المعاصي . والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه من خير اوشر. قال احمد بن يحيى ثعلب : اللام في قوله« لتعرضوا عنهم » ليست لام غرض وانمامعناه لاعراضكم، وانما علق ـ هاهنا ـ بذلكلئلا يتوهمأنه اذا رضيالمؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضاً فـذكر ذلك ليزول هذا الالباس لأن المنافقين لم يحلفوا لهملكي يعرضوا ، ولكنهم حلفوا تبرئاً من النفاق ولاعراض المسلمين عنهموأنشد:

سموت ولم تكن أهلا لتسمو   ولكن المضيع قـد يصاب

(١) العقد الفريد ١٥/٢

أراه ما كنت أهلا للسمو

قوله تعالى :

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ (٩٧) آية .

بين الله تعالى أن هـؤلاء المنافقين يقسمون بالله طلباً لمرضاتكم عنهم « فان ترضوا» ايها المؤمنون«عنهم فان الله لايرضى عنالقوم الفاسقين» الخارجين من طاعته الى معصيته ،والمعنى انه لاينفعهم رضاكم مع سخط الله عليهم وارتفاع رضاه عنهم : رضي المؤمنون عنهم او لم يرضوا ، وانما علق هـا هنا بذلك لئلا يتوهم أنـه اذا رضي المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضاً ، فذكر ذلك ليزول هـذا الالباس ولأن المراد بذلك انه اذا كان الله لايرضى عنهم فينبغي لكم ايضاً أن لاترضوا عنهم .

قوله تعالى :

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن الاعراب الجفاة الذين لايعرفونالله ورسوله حق معرفتهما أشد كفراً ونفاقاً وجحوداً لنعم الله، وأعظم نفاقاً من غيرهم . وقيل: انها نزلت في اعراب كانوا حول المدينة من اسد وغطفان ، فكفرهم اشد ، لأنهم أقصى وأجفى من أهل المدن ، ولأنهم أبعد عن سماع التنزيل ومخالطة أهل العلم والفضل، ويقال : رجل عربي إذا كان من العرب وإن سكن البلاد ، وإعرابي اذا كان ساكناً في البادية . وروي أن زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة وكان قاعداً يوماً يروي الحديث والى جانبه إعرابي ، فقال له : انحديثك

يعجبني وان يدك تريبني فقال زيد : إنها الشمال، فقال : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد : صدق الله ، وقرأ « الأعراب أشد كفراً » الآية .

وقوله « وأجدر » معناه أخلق وأولى وأقرب الى « أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » من الشرائع والأحكام . وموضع (أن) نصب لأن تقديره أجدر بأن ، فحذف الباء فانتصب ، وتقديره أجدر بترك العلم غير أن الباء لا تحذف مع المصدر الصريح ، وإنما تحذف مع (أن) للزوم العلم بها وحملها على التأويل . و(أجدر) مأخوذ من جدر الحائط . وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بأحوالهم وبواطنهم حكيم فيما يحكم به عليهم من الكفر وغير ذلك من أفعاله .

قوله تعالى :

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) آية.

قرأ ابن كثير وابو عمرو « دائرة السوء » بضم السين . الباقون بفتح السين من فتح أراد المصدر ، وإنما أضاف الدائرة الى السوء تأكيداً كما يقال: عيني رأسه وشمس النهار ، تقول : سؤته أسوءه سوءاً ومساءة ومسائية ، وقوله « ما كان أبوك امرأ سوء » (١) لا يجوز فيه غير فتح السين ، وكذلك في قوله « وظننتم ظن السوء » (٢) لأن الضم بمعنى الاسم ، وتقديره عليهم دائرة العذاب والبلاء .

أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء المنافقين من الأعراب من يتخذ ما ينفقه في الجهاد وغيره من طرق الخير « مغرماً » اي غرماً من قولهم : غرمته غرماً وغرامة . والغرم لزوم نائبة في المال من غير جناية ، ومنه قوله « من مغرم مثقلون » (٣)

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٨ . (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ١٢

(٣) سورة ٥٢ الطور آية ٤٠ وسورة ٦٨ القلم آية ٤٦ .

وأصل المغرم لزوم الأمر ، ومنه قوله « إن عذابها كان غراما » (١) أي لازما ، وحبّ غرام أي لازم ، والغريم كل واحد من المتداينين ،وغرمته كذا الزمته إياه في ماله . وقوله « ويتربص بكم الدوائر » فالتربص التمسك بالشيء لعاقبة ومنه التربص بالطعام لزيادة السعر ، فهؤلاء يتربصون بالمؤمنين لعاقبة من الـدوائر . والدائرة جمعها دوائر وهي العواقب المذمومة . وقال الفراء والزجاج : كانوا يتربصون بهم الموت والقتل، وإنما خص رفع النعمة بالدوائر دون رفع النقمة ،لأن النعمة أغلب واعم لأن كل واحد لايخلو من نعم الله وليس كذلك النقمة ، لأنها خاصة . والنعمة عامة . وقد قيل : دارت لهم الدنيا بخلاف دارت عليهم . ثم قال تعالى « عليهم دائرة السوء » يعني على هؤلاء المنافقين دائرة العذاب والبلاء ـ في قراءة من قرأ بالضم ـ وقوله « والله سميع عليم » معناه ـ ها هنا ـ انه يسمع مايقولـه هؤلاء المنافقون ويعلم بواطن أمورهم ، ولايخفى عليه شيء من حالهم وحال غيرهم .

قوله تعالى

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٠) آية .

قرأ ورش واسماعيل « قربة » بضم الراء ، اتبع الضمة التي قبلها . وقال ابو علي : لايجوز ان يكون اتباعاً لماقبله لأن ذلك إنما يجوز في الوقف آخر الكلم وإنما الضمة فيها الأصل ، وإنما خففت في قولهم: رسل وطنب ،فقالوا : رسل وطنب فاذا جمع فلايجوز فيه غير ضم الراء ، لأن الحركة الأصلية لابد من ردها في الجمع.

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥ .

لما ذكر الله تعالى ان من جملة الأعراب من يتخذ انفاقه في سبيل الله مغرماً ذكر ان من جملتهم ايضاً « من يؤمن بالله » اي يصدق به وباليوم الآخر يعني يوم القيامة، وانه يتخذ ماينفقه في سبيل الله قربات عند الله . قال الزجاج : يجوز في (قربات) ثلاثة اوجه ـ ضم الراء وإسكانها وفتحها ـ وما قرئ إلا بالضم ، والقربة هي طلب الثواب والكرامة من الله تعالى بحسن الطاعة ، وهي تدني من رحمة الله والتقدير انه يتخذ نفقته وصلوات الرسول اي دعاءه له قربة الى الله . وقال ابن عباس والحسن : معنى وصلوات الرسول استغفاره لهم ، وقال قتادة : معناه دعاؤه بالخير والبركة قال الاعشى :

تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا يا ربّ جنب ابي الاوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوماً فان لجنب المرء مضطجعاً(١)

ثم قال « ألا إنها » يعني صلوات الرسول « قربة لهم » اي تقربهم الى ثواب الله . ويحتمل ان يكون المراد ان نفقتهم قربة الى الله . وقوله « سيدخلهم الله في رحمته » وعد منه لهم بان يرحمهم ويدخلهم فيها ، وفيه مبالغة ، فان الرحمة وسعتهم وغمرتهم ، ولو قال فيهم رحمة الله لأفاد انهم اتسعوا للرحمة من الله تعالى وقوله « إن الله غفور رحيم » معناه إنه يستر كثيراً على العصاة ذنوبهم ولا يفضحهم بها لرحمته بخلقه « وغفور رحيم » جميعا من الفاظ المبالغة فيما وصف به نفسه من المغفرة والرحمة .

قوله تعالى :

وَٱلسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ

(١) ديوانه ٧٢٠ القصيدة ١٣ وقد مر البيت الثاني في ١/١٩٣

جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠١) آية.

قرأ ابن كثير وحده « جنات تجري من تحتها » باثبات (من) وكذلك هو في مصاحف اهل مكة . الباقون بحذف (من) ونصبوا تحتها على الظرف . وقرأ يعقوب « والأنصار والذين » بضم الراء . الباقون بجرها . من رفع عطف على قوله « والسابقون الأولون » ورفع على الابتداء والخبر قوله « رضي الله عنهم » . ومن جرّ عطفه على « المهاجرين » كأنه قال : من المهاجرين ومن الأنصار .ومن اثبت (من) فلأن في القرآن مواضع لاتحصى « جنات تجري من تحتها » ومن أسقطها تبع مصحف غير أهل مكة . والمعنى واحد .

اخبر الله تعالى أن الذين سبقوا أولا الى الايمان بالله ورسوله والاقرار بهما من الذين هاجروا من مكة الى المدينة والى الحبشة ،ومن الانصار الذين سبقوا اولا غيرهم الى الاسلام من نظرائهم من أهل المدينة ، والذين تبعوا هؤلاء بأفعال الخير والدخول في الاسلام بعدهم وسلوكهم منهاجهم . وقال الفراء : يدخل في ذلك من يجيء بعدهم الى يوم القيامة . وقال الزجاج : مثله .

ثم اخبر أن الله رضي عنهم ورضي أفعالهم ورضوا هم ايضاً عن الله لما أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم وإيمانهم به وبنبيه . والسبق كون الشيء قبل غيره . ومنه قيل في الخيل السابق ، والمصلي هو الذي يجيء في اثر السابق يتبع صلاه . وإنما كان السابق الى الخير أفضل لانه داع اليه بسبقه - والثاني تابع - فهو امام فيه وكذلك من سبق الى الشر كان اسوء حالا لهذه العلة . والاتباع طلب الثاني لحال الاول أن يكون على مثلها على مايصح ويجوز ، ومثله الاقتداء . والاحسان هو النفع الواصل الى الغير مع تعريه من وجوه القبح . فأما قولهم أحسن فمن فعله فقد يكون بفعل النفع وبفعل الضرر ، لأنه تعالى اذا فعل في الآخرة العقاب يقال

إنه أحسن لكن لايقال : أحسن اليه. وقوله « واعدلهم جنات تجري تحتها الأنهار» اخبار منه تعالى انه مع رضاه عنهم ورضاهم عنه أعد لهم الجنات يعني البساتين التي تجري تحت اشجارها الأنهار ، وقيل : ان انهارها اخاديد في الأرض فلذلك قال: تحتها « خالدين فيها ابداً » اي يبقون فيها ببقاء الله لايفنون ، منعمين . وقوله « ذلك الفوز العظيم » معناه إن ذلك النعيم الذي ذكره هو الفلاح العظيم الذي تصغر في جنبه كل نعمة .

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال ابو موسى وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة : نزلت فيمن صلى القبلتين ، وقال الشعبي : نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية ، وقال : من اسلم بعد ذلك وهاجر فليس من المهاجرين الأولين . وقال ابو علي الجبائي : نزلت في الذين أسلموا قبل الهجرة. وروي أن عمر قرأ « والأنصار » بالرفع « الذين اتبعوهم »باسقاط الواو ، فقال أبي: والذين اتبعوهم بأمير المؤمنين فرجعوا الى قوله .

قوله تعالى:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠٢) آية .

معنى قوله « وممن حولكم » من جملة من حولكم يعني حول مدينتكم وحول الشيء المحيط به، وهو مأخوذ من حال يحول إذا دار بالانقلاب .ومنه المحالة لأنها تدور في المحول. وقوله « من الأعراب » والأعراب هم الذين يسكنون البادية إذا كانوا مطبوعين على العربية وليس واحدهم عرباً ، لأن العرب قد يكونوا حاضرة والاعراب بادية . وقوله « منافقون » معناه من يظهر الايمان ويبطن الكفر « ومن

أهل المدينة » أيضاً منافقون ، وانما حذف لدلالة الأول عليه « مردوا على النفاق» يقال : مرد على الشيء يمرد مروداً فهو مارد ومريد إذا عتا وطغى وأعيا خبثاً ، ومنه (شيطان مارد ، ومريد) . وقال ابن زيد : معناه أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب غيرهم . وقال ابن اسحاق : معناه لجوا فيه وأبوا غيره . وقال الفراء : معناه مرنوا عليه وتجرّءوا عليه وقال الزجاج : فيه تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب منافقون مردوا على النفاق ومن اهل المـدينة ايضاً مثل ذلك . وأصل المرود الملاسة ومنه قوله « صرح ممرد من قوارير » (١) اي مملس ومنه الأمرد الذي لاشعر على وجهه ، والمرودة والمرداء الرملة التي لاتنبت شيئاً ، والتمراد بيت صغير يتخذ للحمام مملس بالطين ، والمرداء الصخرة الملساء « لاتعلمهم » معناه لاتعرفهم ياحمد « نحن نعلمهم » اي نعرفهم .

وقوله : « سنعذبهم مرتين » قيل في معناه أقوال :

احدها ـ قال الحسن وقتادة والجبائي : يعني في الدنيا وفي القبر . وقال ابن عباس : نعذبهم في الدنيا بالفضيحة لأن النبي ﷺ ذكر رجالا منهم واخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته قال : اخرجوا فانكم منافقون ، والاخرى في القبر . وقال مجاهد : يعني في الدنيا بالقتل والسبي والجوع . وفي رواية اخرى عن ابن عباس : أن إحداهما اقامة الحدود عليهم ، والاخرى عذاب القبر . وقال الحسن : إحداهما أخذ الزكاة منهم : والاخرى عذاب القبر . وقال ابن اسحاق : إحداهما غيظهم من اهل الاسلام ، والاخرى عذاب القبر . وكل ذلك محتمل غير أنا نعلم ان المرتين معاً قبل ان يردوا الى عذاب النار يوم القيامة . وقوله « ثم يردون الى عذاب عظيم » معناه ثم يرجعون يوم القيامـة الى عذاب عظيم مؤبد في النار . وروي أن الآية نزلت في عيينة بن حصين واصحابه .

---

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٤٤ .

قوله تعالى :

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٣) آية .

روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية في عشرة أنفس تخلفوا عن غزوة تبوك فيهم أبو لبابة ، فربط سبعة منهم أنفسهم الى سواري المسجد الى أن قبلت توبتهم . وقيل : كانوا سبعة منهم ابو لبابة . وقال ابو جعفر عليه السلام : نزلت في ابي لبابة ، ولم يذكر غيره ، وكان سبب نزولها فيه ماجرى منه في غزوة بني قريظة وبه قال مجاهد . وقال الزهري : نزلت في أبي لبابة خاصة حين تأخر عن تبوك . واكثر المفسرين ذكروا أن أبا لبابة كان من جملة المتأخرين عن تبوك . وروي عن ابن عباس أنها نزلت في قوم من الأعراب . وقيل : نزلت في خمسة عشر نفساً ممن تأخر عن تبوك .

هذه الآية عطف على قوله « ومن أهل المدينة » أي ومنهم « آخرون اعترفوا بذنوبهم » أي أقروا بها مع معرفتهم بها فان الاعتراف هو الاقرار بالشيء عن معرفة ،والاقرار مشتق من قرّ الشيء إذا ثبت . والاعتراف من المعرفة . وقوله «خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً» معناه انهم يفعلون افعالا جميلة، ويفعلون افعالا سيئة قبيحة . فيجتمعان ، وذلك يدل على بطلان القول بالاحباط . لأنه لو كان صحيحاً لكان أحدهما إذا طرأ على الآخر أحبطه . فلا يجتمعان .فكيف يكون خلطاً . وقوله « عسى الله ان يتوب عليهم » قال الحسن وكثير من المفسرين : إن (عسى) من الله واجبة . وقال قوم : انما قال (عسى) حتى يكونوا على طمع واشفاق فيكون ذلك أبعد من الاتكال على العفو واهمال التوبة . والتقدير في قوله « خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً» اي بآخر سيء ومثله قولك : خلطت الماء واللبن

اي بالبن . وقد يستعمل ذلك في الجمع من غير امتزاج كقولهم : خلطت الدراهم والدنانير . وقال قوم : هو يجري مجرى قولهم : استوى الماء والخشبة اي مع الخشبة . وقال اهل اللغة : خلط في الخير مخففاً وخلط في الشر مشدداً . وقوله «ان الله غفور رحيم» تعليل لقبول التوبة من العصاة لأنه غفور رحيم .

قوله تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) آية.

قرأ اهل الكوفة الا ابا بكر «إن صلاتك» على التوحيد ونصب التاء. الباقون على الجمع وكسر التاء ، لأنه جمع السلامة . فمن قرأ على التوحيد فلأنه مصدر يقع على القليل والكثير ، فلا يحتاج الى جمعه . ومثله «لصوت الحمير» (١) ومما ورد في القرآن بلفظ التوحيد والمراد به الجمع قوله «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء»(٢) وقوله «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» (٣) ومن جمع فلاختلاف الصلاة ، كما ان قوله «ان انكر الأصوات» (٤) جمع لاختلاف ضروبه والصلاة في اللغة الدعاء قال الأعشى في الخمر :

وقابلها الريح في دنها وصلى على دنها وارتسم (٥)

ومعنى «صلّ عليهم» ادع لهم ، فان دعاءك سكن لهم بمعنى تسكن اليه

---

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٩ (٢) سورة ٨ الانفال آية ٣٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ٧٦ وسورة ٢٢ الحج آية ٧٨ وسورة ٢٤ النور آية ٥٦ وسورة ٥٨ المجادلة آية ١٣ وسورة ٧٣ المزمل آية ٢٠

(٤) سورة ٣١ لقمان آية ١٩

(٥) ديوانه : ٢٩ القصيدة ٤ وقد سلف في ١/ ٥٦ ، ١٩٣

نفوسهم وتطيب به ، ولفظ التوحيد - ها هنا - أحسن لأن المراد دعاء النبي ﷺ لهم لا أداء الصلوات ،والجمع على ضروب دعائه . وقولهم : صلى الله على رسول الله وعلى ملائكته، ولايقال : إنه دعاء لهم من الله كما لايقال في نحو(ويل للمكذبين) أنه دعاء عليهم ،لكن المعنى أن هؤلاء ممن يستحق عندكم أن يقال فيهم هذا اللغو من الكلام . ومثله قوله « بل عجبت ويسخرون » (١) فيمن ضم التاء هذا مذهب سيبويه ، وذكر الفراء وغيره أن هؤلاء الذين تابوا وأفلحوا قالوا للرسول : خذ من أموالنا ماتريد، فقال رسول الله : لاأفعل حتى يؤذن لي فيه ، فأنزل الله « خذ من أموالهم صدقة » فأخذ منهم بعضاً وترك الباقي وروي ذلك عن ابن عباس وزيد بن اسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ، وهي في أبي لبابة وجد بن قيس وأوس وحذام . وقوله « خذ من اموالهم صدقة » امر من الله تعالى أن يأخذ من المالكين لنصاب الزكاة : الورق إذا بلغ مئتين ،والذهب إذا بلغ عشرين مثقالا ،والابل إذا بلغت خمساً ، والبقر إذا بلغت ثلاثين ، والغنم إذا بلغت أربعين . والغلات اذا بلغت خمسةأوسق .

وقوله « خذ من أموالهم » يدل على أن الأخذ من اختلاف الأموال ،لأنه جمعه . ولو قال: خذ من مالهم أفاد وجوب الاخذ من جنس واحد متفق . و(من) دخلت للتبعيض ، فكأنه قال : خذ بعض مختلف الأموال . وظاهر الآية لايدل على انه يجب أن يأخذ من كل صنف لأنه لو اخذ من صنف واحد لكان قد اخذ بعض الأموال وإنما يعلم ذلك بدليل آخر . والصدقة عطية ماله قيمة للفقر والحاجة . والبر عطية لاجتلاب المودة . ومثله الصلة .

وقوله « تطهرهم وتزكيهم بها » انما ارتفع (تطهرهم) لاحد امرين :

احدهما - ان تكون صفة للصدقة وتكون التاء للتأنيث، وقوله « بها »تبيين له والتقدير صدقة مطهرة .

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٢

والثاني - أن تكون التاء خطاباً للنبي ﷺ والتقدير فانك تطهرهم بها، وهو صفة الصدقة ايضاً الا انه اجتزأ بذكر (بها) في الثاني عن الاول . وقيل : انه يجوز ان يكون على الاستئناف ، وحمله على الاتصال أولى ، ولا يجوز ان يكون جواباً للامر لانه لو كان كذلك لكان مجزوماً . وقوله « وتزكيهم » تقديره وأنت تزكيهم على الاستئناف . وقيل في هذه الصدقة قولان : قال الحسن : انها هي كفارة الذنوب التي أصابوها ، وقال أبو علي : هي الزكاة الواجبة . وأصل التطهير إزالة النجس ، والمراد - ها هنا - إزلة النجس : الذنوب بما يكفرها من الطاعة . وقوله « وصل عليهم » أمر من الله تعالى للنبي أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة . وقال الجبائي : يجب ذلك على كل ساع يجمع الزكوات ان يدعوا لصاحبها بالخير والبركة ، كما فعل رسول الله ﷺ . وقوله « والله سميع عليم » معناه انه تعالى يسمع دعاءك لهم بنياتهم في الصدقة التي يخرجونها .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٥) آية.

الالف في قوله « ألم يعلموا » الف استفهام والمراد بها التنبيه على ما يجب ان يعلم المخاطب اذا رجع الى نفسه وفكر فيما نبه عليه علم وجوباً . وإنما وجب ان يعلم ان الله يقبل التوبة ، لانه اذا علم ذلك كان ذلك داعياً له الى فعل التوبة والتمسك بها والمسارعة اليها ، وما هذه صورته وجب عليه ان يعلمه ليتخلص به من العقاب ويحصل له الثواب . وسبب ذلك انهم لما سألوا النبي ﷺ ان يأخذ من مالهم ما يكون كفارة لذنوبهم فامتنع النبي من ذلك وقال : حتى يؤذن لي فيه فبين الله تعالى انه ليس الى النبي قبول توبتكم وان ذلك الى الله تعالى دونه ، فانه

الذي يقبل التوبة ويقبل الصدقات . وفعل التوبة يستحق به الثواب لانها طاعة. فأما اسقاط عقاب المعاصي المتقدمة عندها فالعقل لايوجب ذلك . وانما علم ذلك سمعاً لان السمع قطع العذر بأن الله يسقط العقاب عند التوبة الصحيحة . وقد بينا في غير موضع فيما تقدم ان التوبة التي يسقط العقاب عندها قطعاً هي الندم على القبيح والعزم على ان لا يعود الى مثله في القبح ، لان الامة مجمعة على سقوط العقاب عند هذه التوبة وفيما خالف هذه التوبة خلاف .

وقوله « ويأخذ الصدقات » معناه انه يأخذها بتضمن الجزاء عليها كما تؤخذ الهدية كذلك . وقال ابو علي الجبائي : جعل الله أخذ النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين الصدقة أخذاً من الله على وجه التشبيه والمجاز، من حيث كان بأمره . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله ان الصدقة قد تقع في يد الله قبل ان تصل الى يد السائل ، والمراد بذلك انها تنزل هذا التنزيل ترغيباً للعباد في فعلها، وذلك يرجع الى تضمن الجزاء عليها .

وقوله « وان الله هو التواب الرحيم » عطف على قوله « الم يعلموا » ولذلك فتح (أن) لانها مفعول به . والتوّاب في صفة الله معناه انه يقبل التوبة كثيراً وفي صفة العبد يفيد انه يفعل التوبة كثيراً وقيل في معنى « وتاب الله عليكم » (١) صفح عنكم ولم يكونوا اذنبوا فيتوبوا ليتوب الله عليهم وكذلك قوله «علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم » (٢) بمعنى صفح لانهم لم يتوبوا

قوله تعالى

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٦) آية .

---

(١) سورة ٥٨ المجادلة آية ١٣　　(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٧

هذا امر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمكلفين «اعملوا» ماأمركم الله به من الطاعة واجتنبوا معاصيه فان الله «سيرى عملكم ورسوله والمؤمنون» وفي ذلك ضرب من التهديد، كما قال مجاهد، والمراد بالرؤية ها هنا العلم الذي هو المعرفة ولذلك عداه الى مفعول واحد، ولو كان بمعنى العلم الذي ليس بمعرفة لتعدى الى مفعولين. وليس لأحد أن يقول: ان اعمال العباد من الحركات يصح رؤيتها لمكان هذه الآية، لأنه لو كان المراد بها العلم لعداه الى الجملة وذلك أن العلم الذي يتعدى الى مفعولين ما كان بمعنى الظن، وذلك لايجوز على الله وانما يجوز عليه ما كان بمعنى المعرفة. وروي في الخبر أن أعمال العباد تعرض على النبي ﷺ في كل اثنين وخميس فيعلمها. وكذلك تعرض على الأئمة عليهم السلام فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله «والمؤمنون»، وإنما قال «فسيرى الله» على وجه الاستقبال. وهو عالم بالأشياء قبل وجودها. لأن المراد بذلك انه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة وكونه عالماً بأنها ستوجد من كونه عالماً بوجودها إذا وجدت لايجدد حال له بذلك. وقوله «وستردون الى عالم الغيب والشهادة» معناه سترجعون الى الله الذي يعلم السر والعلانية «فينبئكم» اي يخبركم «بما كنتم تعملون» ويجازيكم عليه.

قوله تعالى:

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٧) آية.

قرأ أهل المدينة عن أبي بكر «مرجون» بغير همزة. الباقون بالهمزة. والوجه فيهما أنهما لغتان ... ويقال: أرجأت وأرجيت بمعنى واحد.

وهذه الآية عطف على قوله «ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ... وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... وآخرون مرجون لأمر الله» والارجاء تأخير الامر

الى وقت، يقال : أرجأت الأمر إرجاء وأرجيته بالهمزة وترك الهمزة لغتان .

وقوله « اما يعذبهم وإما يتوب عليهم » فلفظة (إمّا) لوقوع أحـد الشيئين والله اعلم بما يصير اليه امرهم إلا ان هذا للعباد ، خوطبوا بما يعلمون . والمعنى وليكن امرهم عندكم على هذا اي على الخوف والرجاء . والآية تدل على صحة قولنا في جواز العفو عن العصاة ، لأنه تعالى بين ان قوماً من هؤلاء العصاة أمرهم مرجأ الى الله: انشاء عذبهم وان شاء قبل توبتهم فعفا عنهم . فلو كان سقوط العقاب عند التوبة واجباً، لما جاز تعليق ذلك بالمشيئة على وجـه التخيير ، لأنهم ان تابوا وجب قبول توبتهم عند الخصم واسقاط العقاب عنهم ، وان أصرّوا ولم يتوبوا فـلا يعفي عنهم ،فلا معنى للتخيير ـ على قولهم ـ وانما يصح ذلك على ما نقوله : من أن مع حصول التوبة تحسن المؤاخـذة فان عفا فبفضله وان عاقب فبعدله . وقولـه « وإما يتوب عليهم » معناه وإما يقبل توبتهم . وقوله « والله عليم حـكيم » معناه عالم بما يؤل اليه حالهم « حكيم »فيما يفعله بهم . والفرق بين الآخِر والآخر أن الآخِر يفيد أنه بعد الأول ،والآخر مقابل لأحد في تفصيل ذكر اثنين احدهما كذا والآخر كذا .

وقال مجاهد وقتادة : الاية نزلت في هلال بن امية الرافعي وفزارة بن ربعي وكعب بن مالك من الاوس والخزرج ،وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه ، وانما تخلف توانياً عن الاستعداد حتى فاته المسير وانصرف رسول الله ولم يعتذر اليه بالكذب . وقال : والله مالي من عـذر ، فقال ﷺ : صدقت فقم حتى يقضي الله فيك . وجاء الرجلان الآخران فقالا مثل ذلك وصدقاً ، فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم بعد ماعذر المنافقين وجميع المتخلفين ، وكانوا نيفاً وثمانين رجلا فاقام هؤلاء الثلاثة على ذلك خمسين ليلة حتى هجرهم ولدانهم ونساؤهم طاعة لرسول الله ﷺ بأمره . وبنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده . وقال في ذلك:

أبعد دور بني القين الكرام وما شادوا علي بنيت البيت من سعف

ثم نزلت التوبة عليهم في الليل فأصبح المسلمون يبتدرونهم يبشرونهم ، قال كعب : فجئت الى رسول الله في المسجد وكان اذا سر يستبشر كأن وجهه فلقة قمر فقال لي ووجهه يبرق من السرور : ابشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك أمك قال كعب ، فقلت له : أمن عند الله اومن عندك يارسول الله ؟ قال فقال : من عند الله . وتصدق كعب بثلث ماله شكراً لله على توبته .

قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٨) آية .

قرأ ابن عامر وأهل المدينة « الذين اتخذوا » باسقاط الواو . الباقون باثبات الواو . فمن أثبت الواو ، عطفه على ما تقدم من الآيات وتقديره : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ومن حذفها ابتدأ الكلام وحذف الخبر لطول الكلام قال الزهري، ويزيد بن رومان ،وعبدالله بن أبي بكر. وعاصم بن عمر بن قتادة : نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين ، قال الفراء : كانوا من بني عمرو ابن عوف من الأنصار . وقال غيره : كانوا من بني غنم ابن عوف من الأنصار الذين بنوا مسجد الضرار . وقيل انهم كانوا خمسة عشر رجلا منهم عبد الله بن نفيل — في قول الواقدي — وقال ابن اسحاق : هو نفيل بن الحارث ولم يذكر عبد الله وهذا المختلف في اسمه هو الذي كان ينقل حديث النبي الى المنافقين فأعلم الله نبيه ذلك . وأخبر الله عنهم انهم بنوا المسجد الذي بنوه ضراراً اي مضارة . ونصب على أنه مفعول له أي بنوه للمضارة . والضرار هو طلب الضرّ ومحاولته كما أن الشقاق

محاولة ما يشق ، تقول : ضاره مضارة وضراراً . والآية تدل على ان الفعل يقع بالارادة على وجه القبح دون الحسن ، أو الحسن دون القبح ، لأنهم لو بنوا المسجد للصلاة فيه لكان حسناً ، لكن لما قصدوا المضارة كان ذلك قبيحاً ومعصية .

وقوله « وتفريقاً بين المؤمنين » أي بنوه للمضارة والكفر والتفريق بين المؤمنين . وانما يكون تفريقاً بين المؤمنين بأن يتحزبوا ، فحزب يصلي فيه وحزب يصلي في غيره لتختلف الكلمة وتبطل الالفة . واتخذوه ايضاً ليكفروا فيه بالطعن على النبي ﷺ والاسلام والمسلمين . وقوله « وارصادا لمن حارب الله ورسوله » معناه اتخذوه له ليكون متى أراد الاجتماع معهم حضره وأنس به . وهو رجل يقال له ابو عامر الراهب لحق بقيصر فتنصر وبعث اليهم سآتيكم بجند فأخرج به محمداً واصحابه . فبنوه يترقبونه . وهو الذي حزب الأحزاب وحارب مع المشركين ، فلما فتحت مكة هرب الى الطائف ، فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصر ، وابنه عبد الله قتل يوم احد ـ وهو غسيل الملائكة ـ ذهب اليه اكثر المفسرين كابن عباس ومجاهد وقتادة . وأصل الارصاد الارتقاب تقول : رصده يرصده رصداً وأرصد له وراصده مراصدة وتراصد تراصداً وارتصده إرتصاداً

وقوله « وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى » معناه إن هؤلاء يحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى يعني إلا الفعلة الحسنى ، فقال الله تعالى تكذيباً لهم « والله يشهد انهم لكاذبون » وكفى بمن يشهد الله بكذبه خزياً ووجه رسول الله ﷺ قبل قدومه من تبوك عاصم بن عون العجلاني ومالك بن الدخشم وكان مالك من بني عوف ، فقال لهما (انطلقا الى هذا المسجد الظالم اهله فاهدماه ثم حرّقاه) فخرجا يشتدّان سريعين على أقدامهما ففعلا ما أمرهما به فثبت قوم من جملتهم زيد بن حارثة بن عامر حتى أحترقت البتة .

قوله تعالى :

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٩) آية .

نهى الله نبيه - وعنى معه جميع المؤمنين - أن يقوموا في المسجد الذي بني ضراراً « ابـدا » أويصلوا فيه ، وأقسم ان المسجد الذي « أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه » وقيل في المسجد الـذي اسس على التقوى قولان :

احدهما - قال ابن عباس والحسن وعطية : إنه مسجد قباء .

وقال ابن عمر وابن المسيب : هـو مسجد المـدينة . وقال عمر بن شبه : المسجد الـذي اسس على التقوى مسجد رسول الله ﷺ والذي اسس على تقوى ورضوان مسجدقباء كذلك فصل بينهما . ورواه عن أشياخه . والتقوى خصلة من الطاعة يحترز بها من العقوبة ، والمتقي صفة مدح لاتطلق الا على مستحق الثواب . وواو (تقوى) ابدلت من الياء .لأنه من تقيت وانما ابدلت للفرق بين الاسم والصفة في الابنية ، ومثله شروى من شريت ، فأما الصفة فنحو خزياً . ولو قيل : كيف يبنى (فعلى) من قصيت ؟ قلت : قصوى في الاسم وقصيا في الصفة. وقوله « من أول يوم » معناه اول الأيام اذا ميزت يوماً يوماً . لان افعل بعض ما اضيف اليه .ومثله اعطيت كل رجل في الـدار اي كل الرجال إذا ميزوا رجلا رجلا . والفرق بين من اول يوم ، ومنذ اول يوم ، ان (منذ) اذا كانت حرفاً ، فهي الوقت الخاص كقولك : منذ اليوم ومنذ الشهر ومنذ السنة ، وليس كذلك (من) وإذا كانت اسما وقع على ما بعدها على تقـدير كلامين و (من) على النهاية لأنها نقيض (الى) قال زهير

لمن الديار بقنة الحجر　　أقوين من حجج ومن شهر (١)

وقوله « أحق أن تقوم فيه » مع أن القيام في الآخر قبيح منهي عنه ،وانما قال ذلك على وجه المظاهرة بالحجة بأنه لو كان من الحق الذي يجوز لكان هذا أحق .ويجوز على هذا أن تقول : عمل الواجب أصلح من تركه .وقيل : المراد به القيام فيه حق ظاهراً وباطناً اذ كانت الصلاة في المساجد على ظاهرها حق .

وقوله « فيه رجال » الأولْ ظرف للقيام . والثاني ظرف لكون الرجال وقوله « يحبون ان يتطهروا » قال الحسن : معناه يريدون أن يتطهروا من الذنوب وقيل : يتطهرون بالمـــاء من الغائط والبول ، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ثم قال « والله يحب المطهرين » اي يريد منافع المتطهرين من الذنوب وكذلك المتطهرين من النجاسة بالماء . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لاهل قباء (ماذا تفعلون في طهركم فان الله أحسن عليكم الثناء) قالوا : نغسل أثر الغائط فقال (أنزل الله فيكم والله يحب المطهرين) . وقيل : إن سبب نزول هذه الاية أن أهل مسجد ضرار جاءوا اليه ، فقالوا يارسول الله بنينا مسجداً للضعيف في وقت المطر نسألك أن تصلي فيه و كان متوجهاً الى تبوك فوعدهم أن يفعل إذا عاد فنهاه الله عن ذلك .وقوله « والذين اتخذوا مسجداً » مبتدأ وخبره في قوله « لاتقم فيه ابداً » كما تقول : والذي يدعوك الى الغي فلا تسمع دعاءه . والتقدير في الآية لاتقم في مسجدهم أبداً . واسقط ذلك اختصاراً .

قوله تعالى :

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ

---

(١) اللسان (حجر) وتفسير القرطبي ٨/٢٦٠

لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (١١٠) آية .

قرأ نافع وابن عباس « أسس بنيانه » بضم الهمزة وكسر السين ورفع النون من بنيانه في الموضعين جميعاً . الباقون بفتح الهمزة ونصب النون من بنيانه . وقرأ ابن عامر الا الداحوني عن هشام وحمزة وخلف وأبوا بكر الا الاعشي والبرجمي « جرف » بسكون الراء . الباقون بضمها . وقرأ ابو عمرو والكسائي والداحوني عن ابي ذكوان وهبة الله عن حفص من طريق النهرواني والدوري عن سليم من طريق ابن فرج وابو بكر الا الأعشى والبرجمي « هار » بالامالة . وافقهم على الوقف علي بن مسلم وابن غالب ومحمد في الوقف من طريق السوسي من طريق ابن جيش . قال ابو علي الفارسي : البنيان مصدر ، وهو جمع كشعير وشعيرة لأنهم قالوا في الواحد بنيانة قال أوس :

كبنيانة القريّ موضع رحلها   وآثار نسعيها من الدف أبلق

وجاء بناء المصادر على هذا المثال في غير هذا الحرف نحو الغفران وليس بنيان جمع بناء ، لأن فعلاناً اذا كان جمعاً نحو كثبان وقضبان لم تلحقه تاء التأنيث ، وقد يكون ذلك في المصادر ، نحو : أكل وأكلة وضرب وضربة من ذلك. وقال ابو زيد يقال : بنيت أبني بنياً وبناء وبنية وجمعها البنى وأنشد :

بنى السماء فسواها ببنيتها   ولم تمد باطناب ولا عمد

فالبناء والبنية مصدران ومن ثم قوبل به الفراش في قوله « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء »(١) فالبناء لما كان رفعاً للمبني قوبل به الفراش الذي هو خلاف البناء . ومن ثم وقع على ما كان فيه ارتفاع في نصبته وان لم يكن مبنياً فأما من فتح الهمزة وبنى الفعل للفاعل ، فلأنه الباني والمؤسس فأسند الفعل اليه وبناه له كما اضاف البنيان اليه في قوله « بنيانه » فكما ان المصدر مضاف الى الفاعل

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢ .

كذلك يكون الفعل مبنياً له. ومن بنى الفعل للمفعول لم يبعد ان يكون في المعنى كالاول ، لأنه إذا أسس بنيانه فتولى ذلك غيره بأمره كان كبنائه هو له . والأول أقوى لما قلناه . وقال ابو علي (الجرف) — بضم العين — هو الأصل ، والاسكان تخفيف ومثله الشغل والشغل . ومثله الطنب والطنب . والعنق والعنق . يجوز في جميعه التثقيل والتخفيف . وكلاهما حسن وقال ابو عبيدة « على شفا جرف هار » مثل ، قال : لأن ما يبنى على التقوى فهو أثبت أساساً من بناء يبنى على شفا جرف ويجوز ان تكون المعادلة وقعت بين البنائين ، ويجوز أن تكون بين البناءين . فاذا عادلت بين البنائين كان المعنى المؤسس بنيانه متقياً خير ام المؤسس بنيانه غير متقي لأن قوله « على شفا جرف » يدل على أن بانيه غير متق لله . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف كأنه قال : أبناء من أسس بنيانه على تقوى خير أم بناء من أسس بنيانه على شفا جرف. والبنيان مصدر يراد به المبني ، كما أن الخلق يراد به المخلوق إذا أردت ذلك ، وضرب الامير اذا اردت به المضروب . وكذلك نسج اليمن يراد به المنسوج ، فانما قلنا ذلك لأنه لا يجوز أن يراد به الحدث ، لأنه إنما يؤسس المبني الذي هو عين . يبين ذلك قوله « على شفا جرف » والحدث لا يكون على شفا جرف . والجار في قوله « على تقوى » وفي قوله « على شفا جرف » في موضع نصب ، والتقدير افمن اسس بنيانه متقياً خير ام من اسس بنيانه معاقباً على بنيانه ، وفاعل (انهار) البنيان ، وتقديره انهار البنيان بالباني في نار جهنم . لأنه معصية وفعل لما كرهه الله من الضّرار والكفر والتفريق بين المؤمنين . ومن أمال « هار » فقد أحسن لما في الراء من التكرير فكأنك لفظت براءين مكسورتين وبحسب كثرة الكسرات تحسن الامالة . ومن لم يمل فلأن كثيراً من العرب لا يميلون هذه الألفات . وترك الامالة هو الأصل . وأما ألف « هار » فمنقلبة عن الواو ، لأنهم قالوا : تهوّر البناء إذا تساقط وتداعى ، والانهيار والانهيال متقاربان في المعنى . والالف في قوله « أفمن » الف استفهام يراد بها — ها هنا — الانكار

ومعنى « خير » في الآية أفضل ، وليس فيه إشتراك ، يقولون : هذا خير ، وهذا شر ، ولا يراد به (أفعل من) قال الشاعر :

والخير والشر مقرونان في قرن		فالخير متبع والشر محذور

وأما قوله : وافعل الخير معناه افعلوا الأفضل . و (الشفا جرف) الشيء وشفيره وجرفه نهايته في المساحة ويثنى شفوان ، والجرف جرف الوادي وهوجانبه الذي ينحفر بالماء أصله فيبقى واهياً ، وهو من الجرف والاجتراف ، وهو اقتلاع الشيء من أصله . ومعنى (انهار) انصدع بالتهدم هار الجرف يهور هوراً فهو هائر وتهور تهوراً وانهار انهياراً ، ويقال ايضاً : هار يهار ، وأصل هار هائر إلا انه قلب كما قال الشاعر :

لاث به الأشاء والعبريّ (١)

اي لائث بمعنى دائر ،ومثله شاك في السلاح وشائك . والاشاء النخل،والعبري السدر الذي على ساقي الأنهار ، ومعنى لاث أي مطيف به .

شبه الله تعالى بنيان هؤلاء المنافقين مسجد الضرار ببناء يبنى على شفير جهنم فانهار ذلك البناء بأهله في نار جهنم ، ووقع فيه . وروي عن جابر بن عبد الله انه قال : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان، وهو قول ابن جريح .

قوله تعالى :

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١١) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وابو جعفرويعقوب «تقطع »بفتح التاء الباقون بضمها . وقرأ يعقوب وحده « إلى ان » على أنه حرف جر .

(١) اللسان (عبر)(اوث) (لثي) والتاج (عبر) ومجاز القرآن١/٢٦٩

وقوله « لايزال » من اخوات (كان) ترفع الاسم وتنصب الخبر وانما عمل في الاسم والخبر ، لأنه إنما يتعلق في معنى الجملة ، فيدل على انه يدوم إذ المعنى فيه أن يكون الشيء على الصفة أبداً . قال ابو علي : البنيان مصدر واقع على المبني وتقديره لايزال بناء المبني الذي بنوه ريبة أي شكاً في قلوبهم فيما كان من إظهار اسلامهم وثباتاً على النفاق الى أن تقطع قلوبهم بالموت والبلى لايخلص لهم إيمان ولاينزعون عن النفاق الى ان تقطع قلوبهم بالموت والبلى . ومن قرأ « الى ان تقطع » فانه يريد حتى تبلى وتقطع بالبلى أي لاتثلج قلوبهم بالايمان ابداً ولا ينزعون عن الخطيئة في بناء المسجد ولا يتوبون . ومن ضم الياء اضاف الفعل الى المقطع المبلي المقلوب بالموت ، ومن فتحها اسند الفعل الى القلوب لما كانت هي البالية ، كما قالوا : مات زيد ومرض عمرو ، ووقع الحائط وفي قراءة ابي (حتى الممات) .

ومعنى قوله « الذي بنوا » مع قوله « بنيانهم » انما هو ليعلم ان البناء ماض دون المستقبل اذ قد تجوز الاضافة على جهة الاستقبال كقولك للغير : أقبل على عملك . وقيل في معنى الريبة في الاية ثلاثة اقوال : احدها – ان هذا البنيان الذي بنوه لايزال شكاً في قلوبهم . وقيل معناه حزازة في قلوبهم ، وقيل حسرة في قلوبهم يترددون فيها . وقوله « الا ان تقطع قلوبهم » موضع « ان تقطع » نصب والتقدير الا على تقطع قلوبهم غير ان حرف الاضافة يحذف مع (ان) ولا يحذف مع المصدر . ومعنى (إلا) ها هنا (حتى) لأنه استثناء من الزمان المستقبل ، والاستثناء منه منتد اليه فاجتمعت مع (حتى) في هذا الموضع على هذا المعنى . قال الزجاج : يحتمل ان يكون المراد الا ان يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً واسفاً على تفريطهم . وقوله « والله عليم حكيم » اي عالم بنيتهم في بناء مسجد الضرار « حكيم » في امره بنقضه والمنع من الصلاة فيه .

قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٢) آية

قرأ حمزة والكسائي « فيقتلون ويقتلون » على مفعول وفاعل . الباقون على فاعل ومفعول . من قدم الفعل المسند الى الفاعل ، فلأنهم يقتلون اولا في سبيل الله ويقتلون، ولا يقتلون اذا قتلوا. ومن قدّم الفعل المسند الى المفعول جاز أن يكون اراد ذلك المعنى ايضاً لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم وان لم يقدّر ذلك كأن المعنى يقتل بعضهم ويقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل منهم ، كما أن قوله « فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله » (١) ومعناه ماوهن من بقي منهم لقتل من قتل من المؤمنين . وحقيقة الاشتراء لا تجوز على الله تعالى ، لأن المشتري انما يشتري مالا يملك. والله تعالى مالك الأشياء كلها . وانما هو كقوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » (٢) في أنه اجري بحسن المعاملة والتلطف في الدعاء الى الطاعة مجرى مالا يملكه المعامل فيه ، ولما كان الله تعالى رغب في الجهاد وقتال الأعداء وضمن على ذلك الثواب عبر عن ذلك بالاشتراء. فجعل الثواب ثمناً والطاعات مثمناً على ضرب من المجاز ، وكما أن في مقابلة الطاعة الثواب فكذلك في مقابلة الألم العوض غير أن الثواب مقترن بالاجلال والاكرام، والعوض خال منهما ، والمثاب محسن مستحق على احسانه المدح وليس كذلك المعوض .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥

أخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بما ضمن لهم على بذلها من الثواب في قوله « بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله » اعداء الله واعداء نبيه فيقتلون اعداء الله ويقتلهم اعداء الله فيصبرون على ذلك . ومن قـدم المفعول اراد يقتل بعضهم ، فيقتل الباقون أعداء الله .

وقوله « وعداً عليه حقاً » نصب (وعداً) على المصدر بما دل عليه اشترى اذ يدل على أنه وعد، ومثله « صنع الله الذي أتقن كل شيء » (١) و«فطرة الله التي فطر الناس عليها » (٢) والوعد خبر بما يفعله المخبر من الخير بغيره . والوعيد خبر بما يفعله المخبر من الشر بغيره . وقوله « حقاً » معناه يتبين الوعد بالحق الواجب من الوعد بما لم يكن واجباً . فالوعد بالثواب دل على وجوبه من وجهين : احدهما من حيث انه جزاء على الطاعة . والثاني - أنه إنجاز الوعد . وقوله « في التوراة والانجيل والقرآن » معناه إن هذا الوعد للمجاهـدين مذكور في هـذه الكتب . قال الزجاج : وذلك يدل على أن الجهاد كان واجباً على أهل كل ملة . وقوله « ومن اوفى بعهده من الله؟! »معناه لا أحد أحق بالوفاء بالعهد من الله « فاستبشروا» ايها المؤمنون « ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » يعني ذلك الشراء والبيع هو الفلاح العظيم الذي لا يقارنه شيء .

قوله تعالى :

أَلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٣) آية

قيل في ارتفاع قوله « التائبون » ثلاثة اقوال : احدها - انه ارتفع بالمد-

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٨٨ (٢) سورة ٣٠ الروم آية ٣٠

والتقدير هم التائبون . الثاني ـ بالابتداء وخبره محذوف بعد قوله : « والحافظون لحدود الله » لهم الجنة . الثالث ـ على أن يكون بدلا من الضمير في « يقاتلون» أي إنما يقاتل في سبيل الله من هـذه صفته . وقيل هو كقولـه « لكن الرسول و الذين آمنوا معه(١) ... التائبون » وقرأ أبي كل ذلك بالنصب على أنـه صفة للمؤمنين .

وصف الله تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنهم التائبون ومعناه الراجعون الى طاعـة الله المنقطعون اليه والنادمون على مافعلوه من قبيح « العابدون » اي يعبدون الله وحـده لاشريك له « الحامدون » يعني الشاكرون لنعم الله عليهم على وجه الاخلاص له . وقال الحسن : هم الذين يحمدون الله على كل حال في سرّاء كانوا اوضرّاء، وبه قال قتادة . « السائحون » قيل معناه الصائمون وقال المؤرج : السائحون الصائمون بلغة هذيل . وروي عن النبي ﷺ انـه قال (سياحة امتي الصوم) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . وقال الحسن : هم الذين يصومون ما افترض الله عليهم . وقال غيره : هم الذين يصومون دائماً و كذلك قال في قوله « الراكعون الساجدون » انهم الـذين يؤدون ما افترض الله عليهم من الصلاة والركوع والسجود . وأصل السيح الاستمرار بالذهاب في الارض كما يسيح الماء فالصائم مستمر على الطاعة في ترك المشتهى من المآكل والمشارب والمنكح .

وقوله « الراكعون الساجدون » معناه الذين يقيمون الصلاة التي فيها الركوع والسجود « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» معناه الذين يأمرون بما امر الله به من الواجبات والمندوبات وينهون عمّا نهى الله عنه وزهد فيه من القبائح . وانما عطف الناهون بالواو دون غيره من الصفات لأنه لايكاد يذكر على الافراد بل يقال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجاءت الصفة مصاحبة للاولى ، فأما

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٩

قوله « والحافظون » فلأنه جاء وهو أقرب الى المعطوف ، ومعنى « الحافظون لحدود الله » انهم يحفظون ماأمر الله به ونهى عنه فلا يتجاوزونه الى غيره . وقوله : « وبشر المؤمنين » امر للنبي ﷺ ان يبشر المؤمنين المصدقين بالله المعترفين بنبوته بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة وخاصة إذا جمعوا هذه الأوصاف على كمالها وتمامها دون غيرهم .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٤) آية .

أخبر الله تعالى أنه لم يكن « للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا » ومعناه أن يطلبوا المغفرة «للمشركين » الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر والذين لايوحدونه ولايقرّون بالاهيته « وان كان » الذي يطلب لهم المغفرة أقرب الناس اليهم بعد أن يعلموا أنهم كفار مستحقون للخلود في النار . والقربى معناه القرب في النسب بالرجوع الى أب أو أم باضافة قريبة . ومعنى قوله « ولو كانوا أولي قربى » أي القرابة وإن دعت الى الحنو والرقة ، فانه لا يلتفت الى دعائها في الخصلة التي نهى الله عنها .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٥) آية .

لما ذكر الله تعالى أنه ليس للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين

بين الوجه في استغفار ابراهيم لابيه مع أنه كان كافراً سواء كان أباه الذي ولده او جده لأمه أو عمه على ما يقوله أصحابنا . وهو أن قال : وجه حسن ذلك أنه كان تقدم ذلك موعدة ، فلاجلها وجب عليه الوفاء به .

وقيل في معنى الموعدة التي كانت عليه في حسن الاستغفار قولان :

احدهما ـ ان الموعدة كانت من ابي إبراهيم لابراهيم أنه يؤمن إن استغفر له فاستغفر له لذلك وطلب له الغفران بشرط أن يؤمن « فلما تبين له » بعد ذلك « أنه عدو لله تبرأ منه » .

والثاني ـ أن الوعد كان من ابراهيم بالاستغفار مادام يطمع في الايمان كما قال « إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وماأملك لك من الله من شيء »(١) فاستغفر له على ما يصح ويجوز من شرائط الحكمة « فلما تبين له انه عدو لله » وآيس من ايمانه « تبرأ منه » . والذي عندي وهو الأقوى أن أباه أظهر له الايمان وصار اليه ، وكان وعده أن يستغفر له إن آمن فلما أظهر الايمان استغفر له ، فأعلمه الله ان ماظهر منه بخلاف مايبطنه « فتبرأ منه » ويقوي ذلك قوله « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » (٢) اي فيما مضى ، ويجوز أن يكون أظهر الكفر بعد ذلك فلما تبين ذلك تبرأ منه . فأما من قال : إن الوعد كان من ابراهيم فالسؤال باق لأن لقائل أن يقول ولم وعد كافراً أن يستغفر له ؟ فان قلنا : وعده بأن يستغفر له إن آمن كان الرجوع الى الجواب الآخر.

والعداوة هي الابعاد من النصرة الى اعداد العقوبة والولاية التقريب من النصرة من غير فاصلة بالحياة والكرامة .

وقوله « إن ابراهيم لأواه حليم » قيل في معنى « أواه » ثمانية اقوال : فقال ابن عباس في معنى (اواه) تواب . وقال ابن مسعود : معناه دعاء . وقال الحسن وقتادة : معناه رحيم . وقال مجاهد : معناه موقن . وقال كعب : معناه اذا

---

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٤ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٦

ذكر النار قال أوه . وقال الضحاك : معناه المؤمن الموقن بالخشية الرحيم . وقال آخرون : معناه فقيه . وقال ابو عبيدة : معناه المتوجع المتضرع الى الله خوفاً وإشفاقاً . وأصل الأواه من التأوه وهو التوجع والتحزن تقول ، تأوه تأوهاً وأوه تأويهاً ، قال المثقب العبدي :

إذا ما قمت أرحلها بليل　　　تأوه آهة الرجل الحزين (١)

والعرب تقول : أوه من كذا بكسر الواو وتسكين الهاء قال الشاعر :

فأوه لذكراها إذا ماذكرتها　　　ومن بعد أرض دونها وسماء(٢)

والعامة تقول :أوه يقال ايضاً أوه بسكون الواو وكسر الهاء وينشد البيت المتقدم ذكره كذلك ، وقال الجعدي :

ضروح مروح يتبع الورق بعدما　　　يعرس شكوى آهـة وتنمرا(٣)

وقال الراجز :

فأوه الداعي وضوضاء أكلبه (٤)

ولو جاء منه (فعل يفعل) لكان آه يؤوه أوهاً على وزن (قال يقول قولا) والحليم هو الممهل على وجه حسن . والحلم الامهال على ماتقتضيه الحكمة . وهي صفة مدح . والله حليم عن العصاة بأمهاله لهم مع قدرته على تعجيل عقوبتهم وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إنما تبين عداوته لما مات على كفره . وقال ابو علي الجبائي : لما آيس من فلاحه عند تصميمه على بعد الوعـد في الايمان بالله الذي

---

(١) ديوانـه : ٢٩ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٠ واللسان (أوه) وتفسير الطبري ١٤ / ٥٣٥ يصف ناقته بأنها تحن الى الديار .

(٢) اللسان (أوه) والطبري ١٤/ ٥٣٥

(٣) ديوانه : ٣٣ ، ٥٢ وجمرة أشعار العرب : ١٤٦ والطبري ١٤ / ٥٣٤ ويروى (خنوف) و (ظروح) و (طروح) بدل (ضروح) .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٣٥

كان وعد باظهاره في وقت بعينه .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَٰيهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) آية .

قال مجاهد : وجه اتصال هذه الاية بما قبلها هو أنه لما حرم الله تعالى على المؤمنين الاستغفار للمشركين بين أنه لم يكن الله ليآخذكم به إلا بعد ان يدلكم على تحريمه وأنه يجب عليكم أن تتقوه .

وقوله « ليضل قوماً » معناه ـ ها هنا ـ لم يكن الله ليحكم بضلال من عدل عن طريق الحق على وجه الذم له إلا بعد أن ينصب له على ذلك الدليل ، والهدى هو الحكم بالاهتداء الى الحق على وجه الحمد له . والبيان والبرهان والحجة والدلالة بمعنى واحد ، وفرق الرّماني بين البيان والبرهان ، فقال : البيان إظهار المعنى في نفسه بمثل اظهار نقيضه . والبرهان اظهار صحته بما يستحيل في نقيضه كالبيان عن معنى قدم الاجسام ومعنى حدوثها ، فالبرهان يشهد بصحة حدوثها وفساد قدمها . وقال مجاهد : معناه حتى يبين لهم ما يتقون من ترك الاستغفار للمشركين لأنهم كانوا يستغفرون لهم ، فلما نهوا عنه انتهوا . وقوله « ان الله بكل شيء عليم » معناه انه يعلم جميع المعلومات حتى لا يشذ شيء منها عنه لكونه عالماً لنفسه . وقال الحسن : مات قوم من المسلمين على الاسلام قبل فرض الصلاة والزكاة وغيرهما من فرائض الدين . فقال المسلمون : يارسول الله اخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم ؟ فقال الله تعالى « وما كان الله ليضلّ قوماً » وهم مؤمنون ولم يبين لهم الفرائض .

قوله تعالى

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٧) آية.

وجه اتصال هذه الاية بما قبلها الحض على ماتقدم ذكره من جهاد المشركين ملوكهم وغير ملوكهم، لأنهم عبيد من له ملك السماوات والأرض يأمر فيهم مايشاء ويدبرهم على مايشاء. فأخبر الله ان « له ملك السماوات والأرض » ومعناه انه قادر على التصرف فيهما وليس لأحد منعه منهما. والملك اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير. وخزائن الله لاتفنى وملكه لايبيد ولا يبلى، وكل ذلك يرجع الى مقدوراته في جميع اجناس المعاني. وقوله « يحيي ويميت » معناه انه يحيي الجماد ويميت الحيوان. والحياة معنى يوجب كون الحيوان حياً. والحي المختص بصفة لايستحيل معها كونه عالماً قادراً. والموت عند من اثبته معنى هو مايضاد الحياة. ومن لايثبته معنى، يقول: هو عبارة عن فساد بنية الحياة. وقوله « ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير » فالولي هو المقرب بالنصرة من غير فاصلة. والانسان ولي الله، لأنه يقربه بالنصرة من غير فاصلة. والله وليه بهذا المعنى، والنصير والاستنصار طلب النصرة والانتصار والانتصاف بالنصرة.

قوله تعالى:

لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٨) آية.

قرأ حمزة وحفص « يزيغ » بالياء . الباقون بالتاء . قال أبو علي النحوي: يجوز أن يكون فاعل (كاد) احد ثلاثة اشياء :

احدها ـ ان يضمر فيه القصة أو الحديث ويكون (تزيغ) الخبر وجاز ذلك للزوم الخبر لها ، فأشبه العوامل الداخلة على الابتداء للزوم الخبر لها ، ولايجوز ذلك في (عسى) لأن (عسى) يكون فاعله المفرد في الاكثر ولايلزمه الخبر ، نحو قوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » (١) فاذا كان فاعله المفرد في كثير من الأمر لم يحتمل الضمير الذي احتمله (كاد) كمالم تحتمله سائر الأفعال التي تسند الى فاعلها مما لايدخل على المبتدأ . وما يجيء في الشعر من كاد أن يفعل ، وعسى يفعل ، فلا يعتد به ، لأنه من ضرورة الشعر .

الثاني ـ من فاعل (كاد) أن يضمنه ذكراً مما تقدم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله والمهاجرون والأنصار قبيلا واحداً وفريقاً جاز أن يضمر في (كاد) مايدل عليه ما تقدم ذكره من القبيل والحزب والفريق . وقال : منهم من حمله على المعنى كما قال « من آمن بالله واليوم الآخر » ثم قال « فلا خوف عليهم » (٢) فكذلك فاعل (كاد) .

والثالث ـ من فاعل (كاد) أن يكون فاعلها (القلوب) كأنه من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ وإنما قدم (تزيغ) كما قدم خبر كان في قوله « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٣) وجاز تقديمه وإن كان فيه ضمير من القلوب ولم يكن ذلك من الاضمار قبل الذكر ، لأن النية به التأخير . ومن قرأ بالياء يجوز ان يكون جعل في (كاد) ضمير الحديث فاذا اشتغل (كاد) بهذا الضمير ارتفع القلوب

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦٢ ، وسورة ٥ المائدة آية ٧٢

(٣) سورة ٣٠ الروم آية ٤٧ .

بـ (تزيغ) فـذكر وان كان فاعله مؤنثاً لتقدم الفعل . ومن قرأ بالتاء جاز أن يكون ذهب الى أن القلوب مرتفعة بـ (كاد) فلا يكون يرفع فعلامقدماً فاذا لم يكن مقدماً قبح التذكير لتقدم ذكر الفاعل كما قبح في قول الشاعر :

ولاأرض أبقل إبقالها (١)

ولم يصح أبقل أرض . ويجوز أن يكون الفعل المسند على القصة والحديث يؤنث اذا كان في الجملة التي تفسيرها مؤنث كقوله « فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » (٢) ويجوز إلحاق التاء في « كاد » من وجه آخر ، وهو أن يرفع «تزيغ قلوب » بـ « كاد » فتلحقه علامة التأنيث من حيث كان مسنداً الى مؤنث كقوله « قالت الأعراب » (٣) فعلى هذا يكون في « تزيغ » ضمير القلوب . لأن النية في « تزيغ » التأخير .

اقسم الله تعالى في هذه الاية ـ لأن لام « لقد » لام القسم ـ بأنه تعالى تاب على النبي والمهاجرين والأنصار بمعنى أنه رجع اليهم ، وقبل توبتهم « الذين اتبعوه في ساعة العسرة » يعني في الخروج معه الى تبوك . و « العسرة » صعوبة الأمر وكان ذلك في غزوة تبوك لأنه لحقهم فيها مشقة شـديدة من قلة الماء حتى نحروا الابل وعصروا كروشها ومصوا النوى . وقل زادهم وظهرهم ـ في قول مجاهـد وجابر وقتادة ـ وروي عن عمر أنه قال : أصابنا عطش شـديد فأمطر الله السماء بدعاء النبي صلى الله عليه وآله فعشنا بذلك « من بعـد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » والزيغ ميل القلب عن الحق . ومنه قوله « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٤)ومنه قوله « لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (٥) وكان أبو خيثمة عبد الله بن خيثمة تخلف الى ان مضى من مسير رسول الله عشرة أيام ثم دخل يوماً على امرأتين له ـ في يوم حار ـ عريشين

---

(١) مر تخريجه في ١/ ١٢٦
(٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٧
(٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٤
(٤) سورة ٦١ الصف آية ٥
(٥) سورة ٣ آل عمران آية ٨

لهما قد رشتاهما وبردتا الماء وهيأتا له الطعام ، فقام على العريشين فقال : سبحان الله رسول الله قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر في الضح والريح والحر والقر يحمل سلاحه على عاتقه وأبو خيثمة في ظلال باردة وطعام مهيأ وأمرأتين حسناوين ماهـذا بالنصف ، ثم قال . والله لأكلم واحدة منكما كلمة ولاادخل عريشاً حتى الحـق بالنبي ﷺ فأناخ ناضحه واشتد عليه وتزود وارتحل وامرأتاه تكلمانـه ولايكلمهما ثم سار حتى اذا دنا من تبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق فقال النبي ﷺ كن ابا خيثمة ، فلما دنا قال الناس : هذا أبو خيثمة يارسول الله فأناخ راحلته وسلم على رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ أولى لك . فحدثـه الحديث ، فقال لـه خـيراً ، ودعا له ، فهو الذي زاغ قلبه للمقام . ثم ثبته الله . وقيل : إن من شدة مالحقهم هم كثير منهم بالرجوع فتاب الله عليهم ، وقيل مـن بعد ما كان شك جماعة منهم في دينه ثم تابوا فتاب الله عليهم . وقولـــه « ثم تاب عليهم » أي رجع عليهم بقبول توبتهم « إنه بهم رؤف رحيم » إخبار منه تعالى أنـه بهم رؤوف ، فالرأفة أعظم الرحمة ، قال كعب بن مالك الانصاري :

نطيع نبينا ونطيع رباً هو الرحمن كان بنا رؤوفا«١»

وقال آخر :

ترى للمسلمين عليك حقاً كمثل الوالد الرؤف الرحيم «٢»

قوله تعالى :

وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ

(١) مر تخريجه في ١٢/٢ وهو مجاز القرآن ١/ ٢٧٠

(٢) اللسان «رأف» نسبه الى جرير وروايته« يرى للمسلمين عليه» .و« كفعل» بدل « كمثل » ومجاز القرآن ١ ٢٧١

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٩) آية

تقدير الكلام وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا . وقيل نزلت هذه الاية بسبب الثلاثة الذين تخلفوا عن غزاة تبوك ولم يخرجوا مع النبي ﷺ لا عن نفاق، لكن عن توان ، ثم ندموا، فلما ورد النبي ﷺ جاءوا اعتذروا ، فلم يكلمهم النبي ﷺ وتقدم الى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان وأهاليهم وجاءت نساؤهم الى رسول الله ﷺ تعتزلهم ، فقال: لا ولكن لا يقربونكن فضاقت عليهم المـــدينة ، فخرجوا الى رؤس الجبال ، فكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ويتركونه لهم ولا يكلمونهم ، فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد ، فهلا نتهاجر نحن ايضاً ، فتفرقوا ولم يجتمع منهم اثنان ، وثبتوا على ذلك نيفاً وأربعين يوماً . وقيل سنة يضرعون الى الله تعالى ويتوبون اليه ، فقبل الله تعالى حينئذ توبتهم ، وانزل فيهم هذه الاية والثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن امية وفزارة بن ربيعة ، وكلهم من الأنصار ـ في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجابر ـ والتخليف تأخير الشيء عمن مضى ، فأما تأخير الشيء عنك في المكان ، فليس بتخليف ، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه . وقال مجاهد : خلفوا عن قبول التوبة بعد قبول توبة من قبل توبته من المنافقين ، كما قال تعالى فيما مضى « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » (١) وقال قتادة « خلفوا » عن غزوة تبوك كما تخلفوا هم . وبـه قال الحسن . وفي قراءة اهل البيت عليهم السلام « خالفوا » قالوا لأنهم لو خلفوا لما توجه عليهم العتب .

وقوله « حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت » فالضيق ضد السعة ومنه ضيق الصدر ، خلاف اتساعه بالهم الذي يحدث فيه فيشغله عن غيره ، وليس كذلك

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧

السرور لأنه لايشغل عن ادراك الامور . ومعنى « بما رحبت » اي بما اتسعت تقول : رحبت رحباً ، ومنه مرحباً واهـلا اي رحبت بلادك واهلت ، وضيق انفسهم ههنا بمعنى ضيق صدورهم ، بالهم الذي حصل فيها . وقولــه « وظنوا ان لاملجأ من الله إلا اليه » معناه وعلموا انـه لايعصمهم منه موضع إذا اعتصموا به والتجؤا اليه كأنه قال : لامعتصم من الله إلا به ، لجأ يلجأ لجاء و ألجأه الى كذا إلجاء إذا صيره اليه بالمنع من خلافه . والتجأ اليه التجاء وتلاجؤا تلاجؤاً . وقوله « ثم تاب عليهم ليتوبوا » قيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ لطف لهم في التوبة ، كما يقال في الدعاء : تاب الله عليه . الثاني ـ قبل توبتهم ليتمسكوا بها في المستقبل . الثالث ـ قبل توبتهم لـيرجعوا الى حال الرضا عنهم . وقال الحسن : جعل لهم التوبة ليتوبوا بها ، والمخرج ليخرجوا به . وقوله « ان الله هو التواب الرحيم » اخبار منه تعالى بأنه يقبل توبة عباده كثيراً ويغفر ذنوبهم إذا رجعوا اليه لرحمته عليهم ورأفته بهم . وكان أبو عمرو يحكي عن عكرمة بن خالد « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » بفتح الخاء والتخفيف وكان لايأخذ بها . فان قيل : ما معنى التوبة عليهم واللائمة لهم وهم قد خلفوا فهلا عذروا ؟

قيل : ليس المعنى انهم أمروا بالتخلف اورضي منهم به بل كقولك لصاحبك : أين خلفت فلاناً ؟ فيقول : بموضع كذا ليس يريد انه امره بالتخلف هناك بل لعله ان يكون نهاه وانما يريد انه تخلف هناك .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ (١٢٠) آية

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بالله والمقرين بنبوة نبيه بأن يتقوا معاصي الله ويجتنبوها وأن يكونوا مع الصادقين الذين يصدقون في اخبارهم ولا يكذبون ، قال ابن مسعود : لايصلح من الكذب جد ولاهزل ، ولا ان يعـد

احدكم ولـده شيئاً ثم لاينجزه ثم قرأ «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله... » الآية وقال : هل ترون في هذه رخصة ؟ وقال نافع والضحاك : أمروا بأن يكونوا مع النبيين والصديقين في الجنة بالعمل الصالح . وقيل : إن المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله في قوله «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه » وهم حمزة وجعفر « ومنهم من ينتظر » (١) يعني علياً عليه السلام فأمر الله تعالى بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ، وهم الذين وصفوا في قوله « ليس البر أن تولو وجوهكم قبل ... »الآية الى قوله « أولئك الذين صدقوا » (٢) فأمر بالاقتداء بهؤلاء .

وقال بعضهم : ان (مع) بمعنى (من) وكأنـه أمر بأن يكونوا في جملة الصادقين وفي قراءة ابن مسعود « وكونوا من الصادقين » . وقيل : اراد كونوا مع كعب بن مالك واصحابه الذين صدقوا في اقوالهم ولـم يكذبوا في الاعتذار . والصادق هو القائل بالحق العامل به ، لأنها صفة مدح لاتطلق الا على من يستحق المـدح على صدقه . فأما من فسق بارتكاب الكبائر فلا يطلق عليه اسم صادق ولذلك مدح الله الصديقين وجعلهم تالين للنبيين في قوله «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٣) .

قوله تعالى :

مَاكَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٢٣   (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٧٧

(٣) سورة ٤ النساء آية ٦٨

عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) آية.

لما قص الله تعالى قصة الذين تأخروا عن النبي ﷺ والخروج معه الى تبوك ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفته بهم ورحمته عليهم، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم والازراء على ما كانوا فعلوه فقال: لم يكن لأهل المدينة ولامن يسكن حول المدينةمن الاعراب والبوادي « ان يتخلفوا » بمعنى ان يتأخروا عن رسول الله « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » ومعناه ولاأن يطلبوا نفع نفوسهم، لأن الرغبة طلب المنفعة ونقيضها الرهبة. ويقال رغب فيه اذا طلب المنفعة به ورغب عنه طلب المنفعة بتركه، والترغيب ضدالترهيب ومعنى « يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » اي يطلبون المنفعة بترفيه انفسهم دون نفسه وهذه فريضة الزمهم الله اياها لحقه فيمادعاهم من الهدى الذي اهتدوا به وخرجوا من ظلمة الكفر الى نور الايمان.

وقوله « ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب » اشارة الى ما الزمهم الله اياه من تحمل هذه المشقة لأنهم لايصيبهم ظمأ وهو شدة العطش تقول: ظمىء يظمأ ظمأ وهوظمىء وظمآن وأظمأه الله إظماء. ومنه قيل: أنا ظمآن الى رؤية فلان ومعنى « ولا نصب » اي تعب تقول: نصب ينصب نصباً فهو نصب. ومثله الوصب قال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب (١)

وقوله « ولا مخمصة » يعني مجاعة وأصله ضمور البطن للمجاعة ومنه رجل خميص البطن وامرأة خمصانة. وقوله « في سبيل الله » يعني من قتال اعدائه المشركين. وقوله « ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار » اي لايخطون خطوة إلا كتب لهم اجرها، والموطىء الأرض، والغيظ انتقاض الطبع بما يرى مما يشق. والغضب

(١) اللسان (نصب) والأغاني ١١/ ١٥

هو مايدعو الى الانتقام على ماسلف من المعصية مما هي متعلقة به ، وهو مستحق بها ولذلك جاز ان يطلق الغضب على الله ولم يجز اطلاق الغيض عليه .

وقوله « ولاينالون من عـدو نيلا إلا كتب لهم بـه عمل صالح » والنيل لحوق الشيء تقول : نلته اناله نيلا اذا نلته بيدك وهو منيل ، وليس من التناول لأن هذا من الواو تقول : نلته بخير انوله نولا ونوالا وانالني خيراً انالة .

والمعنى ان هؤلاء المؤمنين لايصيبون من المشركين امراً ،من قتل اوجراح اومال ، او امر يغمهم ويغيظهم الا ويكتب الله للمؤمنين « به عمـلا صالحاً ان الله لايضيع اجر المحسنين » اخبار منه تعالى انه لايضيع اجر من فعل الأفعال الحسنة التى يستحق بها المدح وقد يكون فاعل الحسن لايستحق المدح مثل فاعل المباح. وقال قتادة : حكم هذه الآيـة مختص بالنبي فانه اذا غزا النبي ﷺ لـم يكن لأحد ان يتخلف عنه ، فاما من بعده من الخلفاء فان ذلك جائز ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك والفرازي والسبيعي وأبو جابر وسعيد بن عبد العزيز : ان هـذه الاية لأول الأمة وآخرها من المجاهدين في سبيل الله . وقال ابن زيد :هذا حين كان المسلمون قليلين ، فلما كثروا نسخ بقوله « وما كان المؤمنين لينفروا كافة فلولا نفرمن كل فرقة منهم طائفة » وهذا هو الأقوى لأنه لاخلاف انالجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كل احد النفر لصار من فروض الأعيان

قوله تعالى :

وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجزِيَهُمُ ٱللهُ أَحسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) آية .

هذه الاية عطف على ما تقدم ذكره في الايـة الاولى من قوله « ولا يطؤن موطئاً يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نيلا ... ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة»

اي لاينفق هؤلاء المؤمنون في سبيل الله وجهاد اعدائه نفقة صغيرة ولا كبيرة يريدون بها اعزاز دين الله ونفع المسلمين والتقرب الى الله بها ، لأن الانفاق متى كان للشهوة أوليذكر بالجود كان ذلك مباحاً . وان كان للرياء والسمعة وللمعاونة على فساد كان معصية . والصغير مانقص ثوابه عن ثواب ماهو اكبر منه ، والكبير مازاد ثوابه على ثواب ما هو دونه. وقوله « ولا يقطعون وادياً » معناه ولا يتجاوزون وادياً .

وقوله « إلا كتب لهم » ثواب ذلك لهم « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» معناه انه يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها أحسن مما فعلوه . وقال الرماني : ذلك يدل على انه يكون حسن أحسن من حسن ، قال : لان لفظة أفعل تقتضي التفاضل فيماشاركه في الحسن . وهذا ليس بشيء لأن المعنى ان الله تعالى يجزيهم أحسن ما كانوا يعملون يعني ماله مدخل في استحقاق المدح والثواب من الواجبات والمندوبات دون المباحات التي لامدخل لها في ذلك وان كانت حسنة .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٣) آية .

قوله « فلولا نفر » معناه هلا نفر ،وهي للتحضيض إذادخلت على الفعل،فاذا دخلت على الاسم فهي بمعنى امتناع الشيء لأجل وجود غيره . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ قال الحسن : حث الله تعالى الطائفة النافرة على التفقه لترجع الى المتخلفة فتحذرها وقال قتادة : ان المعنى انه لم يكن لهم انينفروا بأجمعهم في السرايا ويتركوا النبي ﷺ بالمدينة وحده ،ولكن تبقى بقية لتتفقه البقية ثم تنذر

النافرة، وبه قال الضحاك وابن عباس ، وقال ابو علي الجبائي : تنفر الطائفة من كل ناحية الى النبي ﷺ لتسمع كلامه وتتفقه عنه ، ثم يبينوا ذلك لقومهم إذا رجعوا اليهم . وقال مجاهد : نزلت الآية في قوم خرجوا الى البادية ليفقهوهم وينالوا منهم خيراً ، فلما عاتب الله من تأخر عن النبي عند خروجه الى تبوك وذم آخرين خافوا ان يكونوا منهم فنفروا بأجمعهم ، فقال الله : هلا نفر بعضهم ليفقه عن النبي ﷺ ما يجب عليهم ومالايجب ويرجعون فيخبرون اصحابهم بذلك ليحذروا. والنفور عن الشيء هو الذهاب عنه لتكره النفس له، والنفور اليه الذهاب اليه لتكره النفس لغيره . والتفقه تعلم الفقه . والفقه فهم موجبات المعنى المضمنة بها من غير تصريح بالدلالة عليها، وصار بالعرف مختصاً بمعرفة الحلال والحرام ، وماطريقه الشرع . وقوله « لعلهم يحذرون » معناه لكي يحذروا ، لأن الشك لايجوز على الله . والحذر تجنب الشيء لما فيه من المضرة يقال : حذر حذراً وحذّرته تحذيراً وحاذره محاذرة وتحذر تحذراً .

واستدل جماعة بهذه الآية على وجوب العمل بخبر الواحد بأن قالوا : حث الله تعالى الطائفة على النفور والتفقه حتى إذا رجعوا الى غيرهم لينذروهم ليحذروا ، فلولا انه يجب عليهم القبول منهم لما وجب عليهم الانذار والتخويف . والطائفة تقع على جماعة لايقع بخبرهم العلم بل تقع على واحد . لأن المفسرين قالوا في قوله « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » أنه يكفي أن يحضر واحد.

وهذا الذي ذكروه ليس بصحيح ، لأن الذي يقتضيه ظاهر الاية وجوب النفور على الطائفة من كل فرقة، ووجوب التفقه والانذار إذا رجعوا ،ويحتمل ان يكون المراد بالطائفة الجماعة التي يوجب خبرهم العلم ، ولو سلمنا انه يتناول الواحد او جماعة قليلة، فلم اذا وجب عليهم الانذار وجب على من يسمع القبول؟ والله تعالى إنما اوجب على المنذرين الحذر ، والحذر ليس من القبول في شيء بل الحذر يقتضي وجوب البحث عن ذلك حتى يعرف صحته من فساده بالرجوع الى الأدلة ، ألاترى

ان المنذر إذا ورد على المكلف وخوفه من ترك النظر فانه يجب عليه النظر ولا يجب عليه القبول منه قبل ان يعلم صحته من فساده ، وكذلك إذا ادعى مدع النبوة وان معه شرعاً وجب عليه ان ينظر في معجزه ولا يجب عليه القبول منه وتصديقه قبل ان يعلم صحة نبوته . فكذلك لايمتنع ان يجب على الطائفة الانذار ويجب على المنذرين البحث والتفتيش حتى يعلموا صحة ماقالوه فيعملوا به ، وقد استوفينا الكلام في ذلك في كتاب اصول الفقه لانطول بذكره هاهنا .

وقيل : ان اعراب اسد قدموا على النبي صلى الله عليه وآله المدينة فغلت الأسعار وملؤوا الطرق بالعذرة فانزل الله تعالى الآية يقول : فهلا جاء منهم طوائف ثم رجعوا الى قومهم فأخبروهم بما تعلموا . وروى الواقدي ان قوماً من خيار المسلمين خرجوا الى البدو يفقهون قومهم فاحتج المنافقون في تأخرهم عن تبوك بأولئك فنزلت « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » قال : وفيهم نزلت « والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة » (١) يعني ان احتجوا بتأخر هؤلاء في البادية فانهم مستجيبون مؤمنون ، فكيف يكون لهم بهم اسوة او حجة في تأخرهم وهم منافقون مدهنون . وقال ابو جعفر عليه السلام كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله ان ينفر منهم طائفة وتقيم طائفة للتفقه وان يكون الغزو نوباً .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٤) آية .

روى المفضل عن عاصم (غلظة) بفتح الغين . الباقون بكسرها ، قال ابو الحسن قراءة الناس بالكسر ، وهي العربية ، قال وبه أقرأ ولا أعلم الفتح لغة . وقال غيره :

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦ .

هي لغة . وذكر الزجاج أن فيه ثلاث لغات الفتح والضم والكسر ، والكسر أفصحها والكسر لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم .

امر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يلونهم يعني الأقرب فالأقرب وذلك يدل على أنه يجب على اهل كل ثغر أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم اذا خافوا على بيضة الاسلام إذا لم يكن هناك إمام عادل ، وانما جاز من الله تعالى ان يأمر بالقتال ليدعوهم الى الحق، ولم يجز ان يمنعهم من الكفر ، لأن المنع ينافي التكليف. ومن قاتل الأبعد من الكفار وترك الأقرب فالاقرب فان كان باذن الامام كان مصيباً وان كان بغير أمره كان مخطئاً ، ولو قال : قاتلوا الأقرب فالأقرب لصح لأنه يمكن ذلك . ولو قال : قاتلوا الأبعد فالابعد لم يصح لأنه لاحدّ للأبعد يبتدأ منه كما للأقرب . وقوله « وليجدوا فيكم غلظة » معناه وليخشوا منكم بالغلظة، والغلظة ضد اللين وخلاف الرقة ، وهي الشدة في احلال النقمة ، ومخرج الكلام على الأمر بالوجود ، وإنما معناه يجدون ذلك ، ويجوز ان يكون المراد وليعلموا منكم الغلظة .

وقوله « واعلموا ان الله مع المتقين » امر من الله للمؤمنين ان يتيقنوا أن الله مع الذين يتقون معصيته، بالنصرة لهم ، ومن كان الله ناصره في الحرب لم يغلبه احد. فأما إذا نصره بالحجة في غير الحرب فانه يجوز أن يغلب بالحرب لضرب من المحنة وشدة التكليف .

قوله تعالى

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) آية

(ما) في قوله : « وإذا ما » يحتمل امرين: أحدهما ــ ان تكون دخلت لتسليط (اذا)

على الجزاء. والثاني ـ أن تكون صلة مؤكدة، وقوله « فمنهم من يقول » الضمير عائد على المنافقين في قول الحسن والزجاج، والتقدير فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض على وجه الانكار « أيكم زادته هذه ايماناً » وقال الجبائي: يقول المنافقون لضعفة المؤمنين على وجه الاستهزاء. فأخبر الله تعالى انه متى نزلت سورة من القرآن قال المنافقون على وجه الاستهزاء والانكار « أيكم زادته هذه ايماناً » ثم قال تعالى « فاما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً » المعنى ازدادوا عندها ايماناً. وانما أضافه الى السورة لأن عندها ازداوا، فوجه زيادة الايمان انهم يصدقون بأنها من عند الله ويعترفون بذلك ويعتقدونه وذلك زيادة اعتقاد على ما كانوا معتقدين له. وقوله « وهم يستبشرون » جملة في موضع الحال، وتقديره انهم يزدادون الايمان عندها مستبشرين بذلك فرحين بما لهم في ذلك من السرور والثواب. والزيادة ضم الشيء الى جنسه لأنك لو ضممت حجراً الى ذهب لم تكن زدت، ولو ضممت ذهباً الى ذهب أو حجراً الى حجر لكنت زدته.

قوله تعالى:

وأمَّا ٱلذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ فزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (١٢٦) آية.

لما بين الله تعالى ان المؤمنين يزدادون الايمان عند نزول السورة بين ان الذين في قلوبهم مرض يعني شك ونفاق من الاسلام يزدادون عند ذلك رجساً الى رجسهم اي نفاقاً وكفراً الى كفرهم، لانهم يشكون في هذه السورة كما يشكون في الذي تقدم، فكان ذلك هو الزيادة. وسمي الشك في الدين مرضاً، لأنه فساد يحتاج الى علاج كالفساد في البدن الذي يحتاج الى مداواة. ومرض القلب أعضل وعلاجه أعسر ودواؤه أعز واطباؤه أقل. والرجس والنجس واحد، وسمي الكفر رجساً على وجه الذم، وأنه يجب تجنبه كما يجب تجنب الانجاس. وانما أضاف الزيادة الى

السورة لأنهم يزدادون عندها ، ومثله كفى بالسلامة داء ، كما قال الشاعر :

ارى بصري قد رابني بعد صحة　　وحسبك داء أن تصح وتسلما(١)

وقوله « وماتوا وهم كافرون » فيه بيان أن المرض في القلب أدّاهم الى ان ماتوا على شرحال ، لأنها تسوق الى النار نعوذ بالله منها ، وانما قال « وماتوا» على لفظ الماضي لأنه عطف على قوله « زادتهم رجساً الى رجسهم » والمعنى انهم يموتون وهم كافرون .

قوله تعالى :

أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٧) آية.

قرأ حمزة ويعقوب « أولا ترون » بالتاء . الباقون بالياء .

قوله « أو لا يرون » تنبيه وتقريع لمن عنى بالخطاب .

فمن قرأ بالتاء فوجهه أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر لما ينبغي أن ينظروا فيه ويتدبروا ، لأنهم يمتحنون بالأمراض والأسباب التي لايؤمن معها الموت ، فلا يرتدعون عن كفرهم ولاينزجرون عما هم عليه من النفاق ، فلا يقدمون عليه اذا ماتوا فنبه المسلمين على قلة اعتبارهم واتعاظهم .

ومن قرأ بالياء وجّه التقريع ـ بالاعراض عما يجب أن لايعرضوا عنه من التوبة والاقلاع عما هم عليه من النفاق ـ الى المنافقين دون المسلمين، لان المسلمين قد عرفوا ذلك من امرهم. وكان الاولى أن يلحق التنبيه من يراد تنبيهه وتقريعه بتركه ماينبغي ان يأخذ به .وتحتمل الرؤية في الآية على القراءتين أن تكون متعدية الى مفعولين. وأن تكون من رؤية العين أولى فاذا جعلت متعدية الى مفعولين

(١) قائله حميد بن ثور الهلالي العقد الفريد ٢ / ٣٣١

سد (أن) مسدّهما. وإن جعلت من رؤية العين كان أولى، لأنهم مبتلون في الاعراض عند على ترك الاعتبار به، وهذا أبلغ من المتعدية الى مفعولين ألا ترى أن تارك الاستدلال أعذر ممن يكابر المشاهدات. ولو قرىء بضم الياء وبني الفعل للمفعول به كان (ان) في موضع نصب بأنه مفعول الفعل الذي يتعدى الى مفعول، وفتحت الواو في قوله « أولا » لأنها واو العطف دخلت عليها الف الاستفهام، فهو متصل بذكر المنافقين ومتصل بذكر آخرين ذكرهم بدليل العلامتين الواو والألف.

والفتنة المحنة بالقتل والسبي ونصر الله لنبيه حتى يستعلي على كل من ناواه ـ في قول الحسن وقتادة ـ وقال مجاهد: هي بالقحط والجوع. وقال الجبائي: هي بالمرض الذي ينزل بهم. وقيل: تهتك استارهم بما يظهره الله من سوء نياتهم وخبث سرائرهم. وقال الزجاج: معناه انهم يختبرون بالدعاء الى الجهاد، وهو قول الحسن وقتادة. واجاز الرماني أن تفعل التوبة خوفاً من العقاب، كما يجوز أن تفعل لقبح المعصية. قال: لأن كل واحد من الأمرين يدعو اليه الفعل، ومن جحد أحد الأمرين كمن جحد الآخر. والذي عليه أكثر أهل العدل أنه لا يجوز أن تفعل التوبة الا لوجه قبح المعصية. ومتى فعلت لخوف العقاب لم تكن مقبولة.

وقوله « ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » اخبار منه تعالى انه مع ما يمتحنهم في كل سنة دفعة او دفعتين فانهم لا يقلعون عن المعاصي ولا يتوبون منها ولا يتفكرون فيها. والتذكر طلب الذكر بالفكر فيه.

قوله تعالى

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٨) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه متى أنزل سورة من القرآن « نظر بعضهم الى بعض » نظراً يومئون به « هل يراكم من أحد » وانما يفعلون ذلك ؛ لأنهم منافقون يتحذرون أن يعلم بهم ، فكأنهم يقول بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ثم يقومون فينصرفون . ويحتمل أن يكون انصرافهم عن العمل بشيء مما يستمعون. فقال الله تعالى « صرف الله قلوبهم » يعني عن رحمته عقوبة لهم « بأنهم قوم لايفقهون » مواعظ الله ولا أمره ونهيه .وإنما صرف قلوبهم عن السرور بالفائدة التي تحصل للمؤمنين بسماع الوحي ، فيحرمون ماالمؤمنين من الاستبشار بتلك الحال . والفقه فهم موجب المعنى المضمن به، وقد صار علماً على علم الفتيا في الشريعة لان المعتمد على المعنى . وكان القوم عقلاء يفقهون الاشياء ؛ وإنما نفى الله عنهم ذلك لانهم لم ينظروا فيه ، ولم يعملوا بموجبه ، فكأنهم لم يفقهوه ، كما قال« صم بكم عمي » (١) لما لم ينتفعوا بما سمعوه ورأوه .

قوله تعالى :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٩) آية .

أقسم الله تعالى في هذه الآية بأنه قد « جاءكم رسول من أنفسكم » لان لام (لقد) هي اللام التي يتلقى بها القسم . والخطاب متوجه الى جميع الخلق . ومعنى « من انفسكم » أي انكم ترجعون الى نفس واحدة كما قال « قل انما أنا بشر مثلكم » (٢) ويحتمل ان يكون المراد به من العرب كما انكم كذلك . ويكون ـ على هذا ـ الخطاب متوجها الى العرب خاصة ، فأنتم تخبرونه قبل مبعثه . وقيل : إنه لم يبق بطن من العرب إلا وولد النبي ﷺ وإنما ذكر ذلك لانه أقرب الى الالفة ، وأبعد من المحك واللجاج ، واسرع الى فهم الحجة ، فهو

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٨ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ١١١

من انفسكم في اشرف نسبه منكم ، ومن أنفسكم في القرب منكم ، ومن انفسكم بالاختصاص بكم .

وقوله « عزيز عليه » أي شديد عليه لأنه لايقدر على ازالته ، والعزيز في صفات الله معناه المنيع القادر الذي لايتعذر عليه فعل مايريده . والعزة امتناع الشيء بما يتعذر معه مايحاول منه، وهو على ثلاثة أوجه : امتناع الشيء بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة . وقوله « ماعنتم » يعني مايلحقكم من الأذى الذي يضيق الصدر به ولايهتدى للخروج منه ، ومنه قيل : فلان يعنت في السؤال ، ومنه قوله تعالى « ولو شاء الله لأعنتكم » (١) أي ضيق عليكم حتى لاتهتدوا للخروج منه ، والعنت إلقاء الشدة.و (ما) في قوله « ما عنتم » بمعنى الذي ، وهو في موضع رفع بالابتداء وخبره (عزيز) قدّم عليه . وقال الفراء : هو رفع بـ (عزيز). وقوله « حريص عليكم » فالحرص شدة الطلب للشيء على الاجتهاد فيه . والمعنى : حريص عليكم ان تؤمنوا ـ في قول الحسن ـ ثم استأنف فقال « بالمؤمنين رؤوف رحيم »أي رفيق بهم رحيم عليهم .

قوله تعالى

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللهُ لاَ إِلٰـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٣٠) آية .

معنى « فان تولوا »إن ذهبوا عن الحق واتباع الرسول ومايأمرهم بهواعرضوا عن قوله . ونقيض التولي عنه التوجه اليه . ومثل التولي الاعراض . وقال الحسن : المعنى فان تولوا عن طاعة الله . وقيل « فان تولوا » عنك ، ومعناه فان ذهبوا عنك هؤلاء الكفار ، ولم يقروا بنبوتك « فقل »يامحمد « حسبي الله »ومعناه كفاني الله وهو

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٠

من الحساب لأنه تعالى يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمه مالا يبلغ الى حدّ ونهاية؛ اذ نعمه دائمة ومننه متظاهرة. وقوله « لا إله إلا هو » جملة في موضع الحال، وتقديره حسبي الله مستحقاً لاخلاص العبادة والاقرار بأن لا إله إلا هو. وقوله « عليه توكلت » فالتوكل تفويض الامر الى الله على الثقة بحسن تدبيره وكفايته، باخلاص النية في كل شيء يحذر منه. ومنه قوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » (١) أي المتولي للقيام بمصالح عباده وفي هذه الصفة بلطف. وقوله « وهو رب العرش العظيم » قيل في تخصيصه الذكر بأنـه « رب العرش العظيم » ثلاثة أقوال: أحدها - انه لما ذكر الاعظم دخل فيه الاصغر. الثاني - أنه خص بالذكر تشريفاً له وتفخيماً لشأنه. الثالث - ليدل به على أنه ملك الملوك لأنـه رب السرير الاعظم. وجرّ القراء كلهم « العظيم » على أنـه صفة للعرش. وقال الزجاج: يجوز رفعه بجعله صفة لرب العرش.

قال ابي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن وقتادة: هذه آخر آيـة نزلت من القرآن ولم ينزل بعدها شيء.

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٣

١٠ - سورة يونس

[مكية وهي مئة وتسع آيات]

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب الحكيم (١) آية .

إنما لم تعدّ (الر) آية كما عدّ (الم) آية في عدد الكوفيين لأن آخره لايشاكل رؤس الآي التي بعده ؛ إذ هي بمنزلة المردف بالياء . و (طه) عـدّ ؛ لأنه يشاكل رؤس الآي التي بعده . وقرأ (الر) بالتفخيم ابن كثير ونافع وأبو جعفر . وقرأ بالامالة أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي . واختلفوا عن عاصم : فروى هبيرة عن حفص بكسر الراء . الباقون عنه بالتفخيم . قال ابو علي الفارسي : من ترك الامالة ؛ فـلأن كثيراً من العرب لايميل ما يجوز فيه الامالة كما يمنعها المستعلي . ومن أمال ؛ فلانها اسم لما يلفظ به من الاصوات ، فجازت الامالة من حيث كانت اسماً ولم تكن كالحروف التي تمنع فيها الامالة . وقال الرماني : انما جاز إمالة حروف الهجاء ، لأن ألفه في تقدير الانقلاب عن ياء .

وقد بينا في أول سورة البقرة معنى هذه الحروف التي في أول السور ، واختلاف المفسرين ، وقلنا . إن أقوى الوجوه أنها اسماء السور ، فلا وجه لاعادته .

وقوله « تلك » قال ابو عبيدة معناه هـذه وقال الزجاج : المعنى الآيات التي تقدم ذكرها ، وهو قول الجبائي وقال قوم : انما قال « تلك » لتقدم الذكر (الرفي) كقولك هند هي كريمة . وانما اضيفت الآيات الى الكتاب لأنها أبعاض

الكتاب ، كما أن السورة ابعاضه ، وكذلك محكمه ومتشابهه واسماؤه وصفاته ووعده ووعيده وأمره ونهيه وحلاله وحرامه والآية العلامة التي تنبيء عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة . والقرآن مفصل بالايات مضمن بالحكم النافية للشبهات وانما وصف الكتاب بأنه حكيم ،لأنه دليل على الحق كالناطق بالحكمة ، ولأنه يؤدي الى المعرفة التي يميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة . وقال ابو عبيدة : حكيم ههنا بمعنى محكم وأنشد لأبي ذؤيب :

يواعدني عكاظ لننزلنه　　ولم يشعر إذن أني خليف (١)

أي مخلف من اخلفته الوعد . ويؤكد ذلك قوله « الر كتاب أحكمت آياته » والايات العلامات. والكتاب اسم من اسماء القرآن وقد بيناه فيما مضى . وحكي عن مجاهد أنه قال (تلك)اشارة الى التوراة الانجيل .وهذا بعيد لأنه لم يجر لهما ذكر.

قوله تعالى :

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) آية.

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي « لساحر مبين » بألف . الباقون بغير ألف . قال أبو علي الفارسي : يدل على ساحر قوله « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » (٢) ويدل على « سحر » قوله « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » (٣) والقول في الوجهين أنه قد تقدم قوله « أن اوحينا الى رجل منهم » فمن قال « ساحر » أراد به الرجل ومن قال « سحر » أراد الذي أوحي « سحر »

(١) ديوان الهذليين ١/٩٩ واللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٣

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٤　　(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية : ٣٠

أي الذي يقول أنه وحي « سحر » وليس بوحي .

ومعنى قوله «أكان للناس عجباً » أكان أيحاؤنا القرآن الى رجل منهم عجباً؟ وإنذارهم عقاب الله على معاصيه كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى من قبله الى مثله من البشر ، فعجبوا من وحينا اليه الآن ؟ فالألف ألف استفهام والمراد به الانكار. وقال ابن عباس ومجاهد وابن جريج : عجبت العرب وقريش أن يبعث الله منهم نبياً فأنزل الله الآية . وقال الحسن : معناه ليس بعجب مافعلنا في ذلك . والمعنى ألم يبعث الله رسولا من أهل البادية ولا من الجن ولا من الانس . والعجب تغير النفس بما لايعرف سببه مما خرج عن العادة الى ما يجوز كونه . والانذار هو الاخبار على وجه التخويف ، فمن حذّر من معاصي الله فهو منذر . وهذه صفة النبي صلى الله عليه وآله .

وقوله « أن أوحينا » في موضع رفع وتقديره أكان للناس عجباً وحينا و « أن أنذر » في موضع نصب ، وتقديره وحينا بأن أنذر ، فحذف الجار فصار موضعه نصباً . و « أن لهم » نصب بقوله « وبشر الذين آمنوا » ولو قرىء بالكسر كان جائزاً لأن البشارة هي القول إلا أنه لم يقرأ به . وقوله « وبشر الذين آمنوا » أمر للنبي صلى الله عليه وآله أن يبشر المؤمنين ، وهو أن يعرّفهم مافيه السرور بالخلود في نعيم الجنة على وجه الاكرام والاجلال بالأعمال الصالحة . وقوله « أن لهم قدم صدق عند ربهم» معناه ان لهم سابقة إخلاص الطاعة كاخلاص الصدق من شائب الكذب . وقالوا : له قدم في الاسلام ، والجاهلية . وهو كالقدم في سبيل الله ، قال حسان :

لنا القدم العليا اليك وخلفنا		لأولنا في طاعة الله تابع (١)

وقال ذو الرمة :

لكم قدم لاينكر الناس أنها		مع الحسب العادي طمّت على البحر (٢)

وقال أبو سعيد الخدري وأبو عبد الله عليه السلام : معناه إن محمداً صلى الله عليه وآله لهم شفيع يوم القيامة ، وهو المروي عن ابي عبد الله عليه السلام . وقال مجاهد : معناه لهم

(١) ديوانه ٢٥٤ وقد مرّ في ٥/٢١		(٢) ديوانه ١٩ والطبري ١١ / ٥٣

قدم خير بأعمالهم الصالحة .وقال قتادة : معناه لهم سلف صدق . وقال الضحاك : لهم ثواب صدق . وقال ابن عباس : لهم ماقدموه من الطاعات .

وقوله « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »حكاية عن الكفار أنهم يقولون إن النبي ساحر مظهر ، أوما إتى بـه سحر مبين على اختلاف القراءات . والسحر فعل يخفى وجه الحيلة فيه حتى يتوهم أنه معجز . والعمل بالسحر كفر لادعاء المعجزة به ، ولايمكن مع ذلك معرفة النبوة . وقال الزجاج : المراد بـ(الناس) في الآيـة أهل مكة . وقيل إنهم قالوا : لـم يجد الله من يبعثه رسولا إلا يتيم أبي طالب ؟!

قوله تعالى

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) آية

خاطب الله تعالى بهذه الاية جميع الخلق وأخبرهم بأن الله الذي يملك تدبيركم وتصريفكم بين أمره ونهيه ويجب عليكم عبادته « الله الذي خلق السموات والأرض» فاخترعهما وأنشأهما على مافيهما من عجائب الصنعة ومتقن الفعل . وإطلاق الربّ لايقال إلافيه تعالى، فاما غيره فانه يقيد له ، فيقال :رب الدار ، ورب الضيعة بمعنى أنه مالكها . وكذلك معنى قوله « رب العرش » والربوبية ملك التدبير الذي يستحق به العبادة . وقيل في الوجه « الذي خلق السموات والارض في ستة أيام » بلا زيادة ولانقصان مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدة قولان :

أحدهما ـ أن في اظهارهما كذلك مصلحة للملائكة وعبرة لهم .

والثاني ـ لمـا فيه من الاعتبار إذا أخبر عنه بتصرف الحال كما صرّف الله

الانسان من حال الى حال ، لأن ذلك أبعد من توهم الاتفاق فيه .

وقوله « ثم استوى على العرش » معناه استولى عليه بانشاء التدبير من جهته كما يستوي الملك على سرير ملكه بالاستيلاء على تدبيره ، قال الشاعر :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق (١)

يعني بشر بن مروان . ودخلت (ثم) لأن التدبير من جهة العرش بعد استوائه.

وقوله « يدبر الأمر » فالتدبير تنزيل الامور في مراتبها على إحكام عواقبها ، وهو مأخوذ من الدبور ، فتجري على أحكام الدابر في الباري .

وقوله « ومامن شفيع إلا من بعد إذنه » فالشفيع هو السائل في غيره لاسقاط الضرر عنه . وعند قوم أنه متى سأله في زيادة منفعة توصل اليه كان شفيعاً .والذي اقتضى ذكره ـ ههنا ـ صفات التعظيم مع اليأس من الاتكال في دفع الحق على الشفيع . والمعنى ـ ههنا ـ ان تدبيره للأشياء وصنعته لها ليس يكون منه بشفاعة شفيع ولا بتدبير مدبر لها سواه ، وأنه لايجسر أحد أن يشفع اليه إلا بعد ان يأذن له فيه ، من حيث كان تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب من خلقه بمصالحهم. وقوله « ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون » معناه إنّ الموصوف بهذه الصفات هـو ربكم وإلهكم فاعبدوه وحده ، لأنه لا إله لـكم سواه ، ولايستحق هذه الصفات غيره وحثهم على التذكر والتفكر في ذلك وعلى تعرّف صحة ما أخبرهم بـه وقيل: ان العرش المذكور ـ ههنا ـ هوالسموات والارض ، لأنهن من بنائه . والعرش البناء . ومنه قوله « يعرشون » (٢) أي يبنون . وأما العرش المعظم الذي تعبد الله الملائكة بالحفوف به والاعظام لـه وعناه بقوله « الذين يحملون العرش ومن حوله (٣) فهو غير هـذا . وانما ذكر الشفيع في الآية ولم يجر له ذكر ، لأن

---

(١) مر هذا البيت في ١/ ١٢٥ و ٢/ ٣٩٦

(٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨ وسورة ٧ الأعراف آية ١٣٦

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧

المخاطبين بذلك كانوا يقولون الاصنام شفعاؤهم عند الله . وذكر بعدها « ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١) واذا كانت الأصنام لاتعقل فكيف تكون شافعة؟! مع أنه لايشفع عنده الا من ارتضاه الله.

واختار البلخي أن يكون خلق السموات والأرض في ستة أيام إنما كان لان خلقه لهما دفعة واحدة لم يكن ممكناً كما لايمكن الجمع بين الضدين ، ولايمكن الحركة إلا في المتحرك . وهـذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن خلق السموات والأرض خلق الجواهر واختراعها ، والجواهر لا تختص بوقت دون وقت ،فلاحال إلا ويصح اختراعها فيه مالم يكن فيما لم يزل . وانما يصح ماذكره في الاعراض التي لا يصح عليها البقاء او ما يستحيل جمعه للتضاد ، فأما غيره فـلا يصح ذلك فيه .

قوله تعالى :

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُ ٱلْخَـلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَـفَرُوا لَـهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) آية.

قرأ أبو جعفر« حقاً أنه » بفتح الهمزة . الباقون بكسرها . من فتح ،فمعناه اليه مرجعكم ، لأنه يبدأ . ومن كسر استأنف . قال الفراء : من فتح جعلهمفعول حقاً كأنه قال حقاً أنه. قال الشاعر :

أحقاً عباد الله ان لست زائراً　　بثينة او يلقى الثريا رقيبها(٢)

---

(١) آية ١٨ من هذه السورة　　(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٤

اخبر الله تعالى أن الذي خلق السموات والأرض هو الله تعالى ، وهو الذي يستحق العبادة لاغيره وان اليه مرجع الخلق كلهم . والمرجع يحتمل معنيين :

احدهما ـ أن يكون في معنى الرجوع فيكون مصدراً .

والاخر ـ موضع الرجوع فيكون ظرفاً ، كأنه قال : اليه موضع رجوعكم يكوّنه اذا شاء . ومعنى الرجوع اليه يحتمل أمرين : احدهما ـ ان يعود الأمر الى ان لايملك أحد التصرف في ذلك الوقت غيره تعالى بخلاف الدنيا ، لأنه تعالى قد ملك كثيراً من خلقه التصرف في دار الدنيا ومكنهم من ذلك . والثاني ـ ان يكون معناه انكم ترجعون اليه احياء بعد الموت أي الى موضع جزائه

وقوله « وعد الله حقاً » نصب على المصدر وتقديره احقه حقاً او وعـد الله وعداً حقاً ، لأن في قوله « مرجعكم » انه وعـد بذلك الا انه لما لم يذكر الفعل اضيف المصدر الى الفاعل ، كما قال كعب بن زهير :

يسعى الوشاة جنابيها وقيلهم انك يا ابن أبي سلمى لمقتول (١)

اي ويقولون قيلهم . وقوله « انه يبدأ الخلق ثم يعيده » اخبار منه تعالى انه الذي أنشأ الخلق ابتداء ، وهو الذي يعيدهم بعد موتهم النشأة الاخرى ليدل بذلك خلقه على أنه اذا كان قادراً على الابتداء فهو قادر على الاعادة .

وقوله « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فيه بيان أنه انما يعيد الخلق ليعطيهم جزاء اعمالهم من طاعة ومعصية ، والعطاء اذا كان ابتداء لايسمى جزاء .

وقوله « بالقسط » معناه بالعدل ، لأنه لو زاد الجزاء او نقص لخرج عن العـدل ، ولكن يجزيهم وفق اعمالهم حتى لايكون الجزاء على النبوة كالجزاء على الايمان بل كل طاعة يستحق الجزاء على قدرها .

وقوله « والذين كفروا لهم شراب من حميم » معناه ان الذين يجحدون نعم الله ويكفرون بوحدانيته ويجحدون رسله « لهم شراب من حميم » وهو الذي اسخن

(١) ديوانه ١٩ ومجاز القرآن ١/ ١١٢ ، ٢٧٣ وقد مر في ١ /٣٠٠

بالنار اشدّ اسخان . قال المرقش الاصغر :

وكل يوم لها مقطرة فيها كباء معدّ وحميم (١)

الكباء العود الذي يتبخر به . وقوله « وعذاب أليم » معناه مؤلم « بما كانوا يكفرون » اي جزاء على كفرهم .

قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) آية .

روى ابن مجاهد عن قنبل .والمولى عن الربيبي (ضئاء) بهمزة بعد الضاد مكان الياء حيث وقع . الباقون بياء بعد الضاد ومدة بعدها . قال ابو علي الفارسي : لايخلو « ضياء » من أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، او مصدر (ضاء) يضوء ضياء مثل عاذ يعوذ عياذاً أوقام يقوم قياماً ، وعلى أي الوجهين حملته فالمضاف محذوف ، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء ، والقمر ذا نور . أو يكون جعل النور والضياء لكثرة ذلك فيهما ، فأما الهمزة في موضع العين من « ضياء »فيكون على القلب كأنه قدم اللام التي هي همزة الى موضع العين وأخر العين التي هي واو الى موضع اللام ، فلما وقعت طرفاً بعد الف زائدة قلبت همزة . كما فعلوا ذلك في (سقاء وعلاء) وهذا اذا قدّر جمعاً كان أسوغ . كما قالوا قوس وقسي . فصححوا الواحد وقلبوا في الجمع ،واذا قدّرته مصدأ كان أبعد ، لأن المصدر يجري على فعله في الصحة والاعتلال ، والقلب ضرب من الاعتلال فاذا لم يكن في الفعل يمتنع أن يكون أيضاً في المصدر ألا ترى انهم قالوا : لاذ لواذاً

(١) لسان العرب « قطر » ، « حمم » ومجاز القرآن ١/٢٧٤

وباع بياعاً ، فصححوها في المصدر كصحتها في الفعل ، وقالوا : قام قياماً فأعلوه ونحوه ، لاعتلاله في الفعل . وقرأ ابن كثير واهل البصرة وحفص (يفصل) بالياء. الباقون بالنون . من قرأ بالياء فلأنه قد تقدم ذكر الله تعالى فأضمر الاسم في الفعل . ومن قرأ بالنون فهذا المعنى يريد . ويقويه بقوله « تلك آيات الله نتلوها» وقد تقدم « اوحينا » فيكون نفصل محمولاعلى « اوحينا » والياء أقوى ، لأن الاسم الذي يعود اليه أقرب اليه من (اوحينا) .

اخبر الله تعالى ان الذي يرجع اليه الخلق هو الله « الذي جعل الشمس ضياء» والجعل وجود ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها ، فتارة يكون باحداثه وأخرى باحداث غيره . والشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لما فيهما من عظم النور ، ومسيرهما بغير علاقة ولادعامة ، وفيهما أعظم الدلالة على وحدانية الله تعالى . والنور شعاع فيه ماينافي الظلام . ونور الشمس لما كان أعظم الأنوار سماه الله ضياء ، كما قيل للنار ناراً ؛ لما فيها من الضياء ، ولما كان نور القمر دون ذلك سماه نوراً ، لأن نور الشمس وضياءها يغلب عليه ، ولذلك يقال أضاء النهار ، ولا يقال اضاء الليل بل يقال انار الليل ، وليلة منيرة . ويقولون : في قلبه نور ، ولا يقال فيه ضياء ، لأن الضوء يقال لما يحس بكثرته . وقوله « وقدره منازل » انما وحد في قوله « وقدره » ولم يقل وقدرهما ، لأحد أمرين : احدهما ـ أنه أراد به القمر ، لأن بالقمر تحصى شهور الأهلة التي يعمل الناس عليها في معاملتهم. والاخر ـ ان معناه التثنية غير أنه وحده للايجاز اكتفاء بالمعلوم ، كقوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (١) وقال الشاعر :

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن جول الطوي رماني(٢)

وقوله « ماخلق الله ذلك إلا بالحق » معناه لم يخلق ماذكره من السموات والارض والشمس والقمر وقدرهما منازل إلا حقاً . وقوله « يفصل الآيات » اي

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٣ (٢) مر تخريجه في ١/١٧٢ ، ٢٠٣

يميز بعضها من بعض « لقوم يعلمون » ذلك ويتبينونه . وقال قوم : معناه لقوم لهم عقول يتناولهم التكليف ويصح منهم الاستدلال دون البهائم ومن لاعقل له .

قوله تعالى :

إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَاخَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ(٦) آية .

الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في غير جهة الاخر . فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام . والليل عبارة عن وقت غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني ، وهو جمع ليلة كتمرة وتمر . والنهار عبارة عن اتساع الضياء من طلوع الفجر الثاني الى غروب الشمس . والنهار واليوم معناهما واحد إلا أن في النهار فائدة اتساع الضياء . وقوله « وماخلق الله في السموات والارض» معناه ماقدر فيهماوفعلهعلىمقدار تقتضيه الحكمة : من الحيوان والنبات وغيرهما من غير نقصان ولازياد ، . وإن في رفعه السماء بلاعمد ،وتسكينه الارض بلا سند ، مع عظمهالأعظم آيات لمن تفكر في ذلك وتعقله ، ويتقي مخالفته . والخلق مأخوذ من خلقت الأديم اذا قدرته . وإنما خص ما خلق في السموات والأرض بالذكر للاشعار بوجوه الدلالات إذ قد تكون الدلالة في الشيء من جهة الخلق ، وقد تكون من جهة اختلاف الصورة ومن جهة حسن المنظر ، ومن جهة كثرة النفع ومن جهة عظم الأمر ، كالجبل والبحر . وقوله « لآيات لقوم يتقون » معناه ان في هذه الاشياء التي ذكرها دلالات على وحدانية الله لقوم يتقون معاصيه ويخافون عقابه ، وخص المتقين بالذكر لما كانوا هم المنتفعين بها دون غيرهم .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) آية .

معنى « إن الذين لايرجون لقاءنا » يحتمل أمرين :

احدهما ـ لايخافون عقابنا ، كما قال الهذلي :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل (١)

والثاني ـ أن يكون معناه لايطمعون في ثوابنا ، كما يقال تاب رجاءلثواب الله وخوفاً من عقابه . والملاقاة وإن كانت لاتجوز الاعلى الاجسام . فانما اضافها الى نفسه ، لان ملاقاة مالايقدر عليه إلا الله يحسن ان يجعل لقاء الله تفخيماً لشأنه كما جعل إتيان ملائكته اتياناً لله في قوله « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » (٢) وكما قال « وجاء ربك » (٣) وانما يريد وجاء امر ربك .

ومعنى قوله « ورضوا بالحياة الدنيا » قنعوا بها دون غيرها من خير الاخرة ومن كان على هذه الصفة ، فهو مذموم لانقطاعه بها عن الواجب من أمر الله . وقوله « واطمأنوا بها » معناه ركنوا اليها على وجه التمكين فيه ، فهؤلاء مكنوا الاحوال الدنيا ، فصاحبها يفرح لها ويغتم لها ويرضى لها ويسخط لها . وقوله « والذين هم عن آياتنا غافلون » معناه الذين يذهبون عن تأمل هذه الايات ولايعتبرون بها . والغفلة والسو نظائر ، وهو ذهاب المعنى عن القلب بما يضاده وقد تستعمل الغفلة في التعرض لها ، ولذلك يقولون : تغافل ولا يقولون مثله في السهو .

---

(١) اللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٥ وقد مر في ٢ / ٢١٠ و٣/٣١٥

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢١٠ (٣) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

قوله تعالىٰ :

أُولَٰئِكَ مَأْوِيهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) آية

« أولئك » اشارة الى الذين تقدم ذكرهم في الاية الأولى، والكاف في«أولئك» حرف الخطاب ، مثل الكاف في قولهم أنا ذاك ، ولهذا لم يجز تأكيده ولاالبدل منه ، ولو كان اسماً لجاز : أولئك نفسك . وأولاء مبني على الكسر ، وإنما بني لتضمنه معنى الاشارة الى المعرفة لأن أصله أن يتعرف بعلامة ؛اذ لم يوضع للشيء بعينه ، كما وضع زيد وعمرو ، وبني على الحركة لالتقاء الساكنين ، وبني على الكسر لأنها في الأصل في حركة إلتقاء الساكنين إذا كثر ذلك في الفعل لما يدركه من الجزم فاستحق الكسر لأنه لما يدخله في حال الاعراب و (هؤلاء) لمـا قرب و (أولئك) لما بعد ، كما تقول في (هذا) و (ذاك) لأن مابعد يقتضي التعريف بالخطاب وما قرب يكفي فيه التنبيه . اخبر الله تعالى أن الذين تقدم وصفهم في الاية الاولى مستقرهم النار جزاء بما كانوايكسبون من المعاصي .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) آية .

لما ذكر الله تعالى الكفار ومايستحقونه من المصير الى النار في الآيات الأول ذكر في هذه « ان الذين آمنوا » يعني صدقوا بالله ورسوله ، واعترفوا بهماوأضافوا الى ذلك الاعمال الصالحات « يهديهم » الله تعالى جزاء بايمانهم الى الجنة « تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم » يعني البساتين التي تجري تحت أشجارها الانهار التي فيها النعيم يعني أنواع اللذات والمنافع يتنعمون فيها . ومعنى « تجري من تحتهم

الانهار » تجري بين أيديهم ، وهم يرونها من عل ، كما قال تعالى « قد جعل ربك تحتك سرياً » (١) ومعلوم انه لم يجعل السري تحتها وهي قاعدة عليه، لان السري هو الجدول ، وإنما أراد أنه جعل بين يديها . وقال حاكياً عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي » (٢) وقيل من تحت بساتينهم وأسرتهم وقصورهم — في قول ابي علي . ومعنى الهدى ـ هنا ـ الارشاد الى طريق الجنة ثواباً على أعمالهم الصالحة ، ألا ترى انه قال « يهديهم ربهم بايمانهم » يعني جزاء على إيمانهم ، وذلك لايليق إلا بما قلناه . ويحتمل أن يكون وصفهم بالهداية على وجه المدح جزاء على إيمانهم بالله تعالى .

قوله تعالى :

دَعْوَيهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَيهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) آية

معنى « دعواهم فيها » ان دعاء المؤمنين لله في الجنة ، وذكرهم له فيها هو ان يقولوا « سبحانك اللهم » ويقولون ذلك ولهم فيها لذة لاعلى وجه العبادة ، لانه ليس هناك تكليف . وقيل : إنه اذا مرّ بهم الطير يشتهونه قالوا « سبحانك اللهم » فيؤتون به ، فاذا نالوا منه شهوتهم قالوا « الحمد لله رب العالمين » هذا قول ابن جريج . وقال الحسن : آخر كلام يجري لهم في كل وقت « الحمد لله رب العالمين» لأنه ينقطع . والدعوى قول يدعى به الى أمر ، ومعنى « سبحانك اللهم » ننزهك ياألله من كل مالا يليق بك ولايجوز من صفاتك من تشبيه أوفعل قبيح . وقيل معناه براءة الله من السوء فيما يروى عن النبي ﷺ وقال الشاعر :

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٣

(٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥١

أقول لما جاءني فخره   سبحان من علقمة الفاخر (١)

أي براءة منه . والتحية التكرمة بالحال الجليلة ، ولذلك يسمون الملك التحية ، قال عمرو بن معد يكرب :

ازور بها أبو قابوس حتى   أنيخ على تحيته بجند(٢)

وقال زهير بن خباب الكلبي :

من كل ما نال الفتى   قد نلته الا التحيه (٣)

وهومأخوذ من قولهم احياك الله حياة طيبة . والمعنى تحية بعضهم لبعض سلام اي سلمت وامنت مما ابتلى به اهل النار . و (أن) في الآية هي المخففة من الثقيلة وجاز ان لاتعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل ، كما قال الشاعر :

في فتية كسيوف الهند قد علموا   ان هالك كل من يحفى وينتعل(٤)

والميم في اللهم بمعنى (يا) كأنه قال يا ألله ، ولم يجعل في موضع (يا) لئلا يكون كحروف النداء التي تجري في كل اسم .

قوله تعالى :

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) آية

قرا ابن عامر ويعقوب «لقضى اليهم اجلهم» بفتح القاف . الباقون بضمها على مالم يسم فاعله . قال ابو علي الفارسي : اللام في قوله « لقضي اليهم اجلهم » جواب (لو) في قوله « ولو يعجل الله للناس » والمعنى « ولو يعجل الله للناس » دعاء

(١) مر هذا البيت في ١/١٣٤ و٣/ ٨١ و ٥ /٢٤١

(٢ ، ٣) تفسير الطبري ١١/٥٨   (٤) حاشية الصبان ١/٢٩٠

« الشر » اي ما يدعون به من الشر على انفسهم في حال ضجر وبطر « استعجالهم » اياه بدعاء « الخير » فأضاف المصدر الى المفعول بـه وحـذف الفاعل كقوله دعاء الخير ، وحذف ضمير الفاعل ،والتقدير « ولو يعجل الله المناس الشر » استعجالا مثل «استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم» قال ابوعبيدة : معناه الفراغ من اجلهم ومدتهم المضروبة للحياة ، فهلكوا ، وهو قريب من قوله « ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير وكان الانسان عجولا» (١) . وقيل للميت مقضي كأنه قضى إذا مات وقضى فعل ، التقدير استوفى أجله ، قال ذو الرمة :

إذا الشخص فيها هزه الآل أغمضت عليه كاغماض المقضي هجولها(٢)

والمعنى أغمضت هجول هذه البلاد على الشخص الذي فيها ، فلم ير لقربه كاغماض المقضي، وهو الميت . فأما قوله « لقضي اليهم » وبما يتعلق هذا الجار ، فانه لما كان معنى (قضى) معنى (فرغ) وكان قولك (فرغ) قد يتعدى بهذا الحرف وفي التنزيل « سنفرغ لكم » (٣) فانه يمكن أن يكون الفعل يتعدى باللام كما يتعدى بـ (الى) كما ان اوحى في قوله « وأوحينا اليه » قد تعدى بـ (الى) وفي قوله « بأن ربك أوحى لها » (٤) تعدّى باللام ، فلما كان معنى قضى فرغ ، وفرغ تعلق بها (الى) كذلك تعلق بقضى . ووجه قراءة ابن عامر واسناده الفعل الى الفاعل ، لأن الذكر قد تقدم في قوله « ولو يعجل الله للناس » فقال (لقضى) الله ـ على هذا ـ وقوى ذلك بقوله « ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده »(٥)فقوله « قضى اجلا » اضافه الى الفاعل فكذلك في هذه الآية . وقوله « واجل مسمى عنده » يعني أجل البعث بدلالة قوله « ثم انتم تمترون» (٦) أي تشكون في البعث.

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١

(٢) اللسان «غمض » الآل ماأشرف من البعير ومعنى البيت أن الابل مسرعة .

(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣١ (٤) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

(٥ ، ٦) سورة ٦ الانعام آية ٢

ومن ضم القاف وبنى الفعل للمفعول ، فلأنه في المعنى مثل قول من بنى الفعل للفاعل .

أخبر الله تعالى في هذه الاية انه او عجل للخلق الشر ، والتعجيل تقديم الشيء قبل حينه. وقد يكون تقديم الشيء في المكان ، فلا يكون تعجيلا . والفرق بين التعجيل والاسراع ان التعجيل بالشيء عمله قبل وقته الذي هو أولى به . والاسراع عمله في وقته الذي هو احق به ، وضده الابطاء . والشر ظهور مافيه الضرر . واصله الاظهار من قولهم : شررت الثوب اذا اظهرته للشمس ، ومنه شرر النار لظهوره وانتشاره . وقوله « لقضي اليهم اجلهم » قيل : إن معناه لأميتوا كأنه قيل اقتطع اجلهم وفرغ منه قال ابو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما   داود أوصنع السوابغ تبع (١)

وقال الحسين بن علي المغربي : معناه ردّ قطع أجلهم اليهم لكون السبب فيه دعاؤهم . وقوله « استعجالهم بالخير » نصب استعجالهم على المصدر وتقديره ولو يعجل الله للناس تعجيله استعجالهم بالخير اذا دعوا . وقيل في معناه قولان احدهما قال مجاهد وقتادة : وهو كقول الرجل لولده وماله في حال غضبه : اللهم لاتبارك فيه والعنه . وقال الحسن: هو كقوله « ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير » (٢) وقال الجبائي : معناه إنهم يطلبون الخير قبل حينه ،وسبيله في أنه لاينبغي أن يكون كسبيل الشر من الاهلاك بالعقاب قبل حينه لما فيه من الاقتطاع عن التوبة واللطف.

وقوله « فنذر الذين لايرجون لقاءنا » معناه نترك الذين لايخافون لقاءنا أو لايطمعون فيه بمعنى أنهم لايخافون عقاب معاصينا ، ولايطمعون في ثواب طاعتنا «في طغيانهم يعمهون » فالطغيان الغلو في ظلم العباد والطاغي والباغي نظائر. و(العمه) شدة الحيرة ، وتقديره نتركهم وهم يترددون في ضلالتهم ، لأنه يريد منهم العمه

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٧٥ وقد مر في ١/ ٤٢٩ و٨٨/٤ ، ١٦٥
(٢) سورة ١٧ الاسراء آية ١١ .

في الطغيان ، لأنه إنما يتركهم ليتوبوا من ذلك ويؤمنوا لكنه بين أنه لايعاجلهم بالعقاب في الدنيا ، وهم مع ذلك لايرعوون بل يترددون في الطغيان . وقيل المعنى نتركهم في الاخرة يتحيرون في جزاء طغيانهم .

قوله تعالى :

وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن قلة صبر الانسان؛اذا ناله الضر دعا ربه على سائر حالاته التي يصيبه ذلك عليها، سواء كان قائما أوقاعداً إذا أطاقه ، أوعلى جنبه من شدة المرض فيجتهد في الدعاء لأن يهب الله له العافية . وليس غرضه بذلك نيل الثواب للآخرة . وانما غرضه زوال ماهو فيه من الآلام ، فاذا كشف الله عنه ذلك الضرر ، ووهب له العافية ، مرّ معرضاً عن شكر ماوهبه له من نعمة وعافية فلا يتذكر ما كان فيه من الآلام ،وصار في الاعراض عن ذلك بمنزلة من لم يدع الله كشف ألمه ولا سأله ازالة الضرر عنه الذي كان به . وقوله « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » قال ابو علي الجبائي : الشياطين الذين دعوا المسرفين الى المعاصي واغووهم بها وبترك شكر نعم الله زينوا لهؤلاء المسرفين ما كانوا يعملونه من المعاصي والاعراض عن ذكر نعمه واداء شكره . والغرض بذلك انه ينبغي لمن وهب الله له العافية بعد المرض ان يتذكر حسن صنع الله اليه وجزيل نعمه عليه ، فيشكره على ذلك ويسأله ادامة ذلك عليه . ونبه بذلك على انه يجب عليه الصبر عند المرض وترك الجزع عند احتساب الأجر وطلب الثواب في الصبر على ذلك ، وأن يعلم أن الله محسن اليه بذلك . وليس بظالم له . وقال الحسن

التزيين هو التحسين من الشيطان والغواة . وقال غيره هو التحبيب بالشهوة لتحبيب المشتهى . وقوله « أو قاعداً اوقائماً» نصب على الحال . وقوله « كأن » هي المخففة عن الثقيلة، وتقديره كأنه لم يدعنا، ومثله قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى متقى　　　اذ الناس اذ ذاك من عز بز (١)

اي كأنهم . وقوله « مر كأن لم » اي استمر على طريقته الأولى كأنه لم يدعنا ولم يسألنا ذلك . وموضع الكاف نصب على أنه مفعول مالم يسم فاعله والمعنى زين للمسرفين عملهم « كذلك » أي مثل ذلك .

قوله تعالى

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) آية

أقسم الله تعالى في هذه الاية أنه اهلك من كان قبل هذه الأمة من القرون ، وهو جمع قرن . وسمي أهل كل عصر قرناً لمقارنة بعضهم لبعض . والقرن هو المقاوم لقرينه في الشدة ، ويعني بذلك الذين كذبوا رسل الله الذين بعثهم الله اليهم فكفروا بذلك بربهم وظلموا أنفسهم، فأهلكهم الله بأنواع العذاب وفنون الاستئصال كما أهلك قوم لوط وقوم موسى وغيرهم ، وبين بقوله « وما كانوا ليؤمنوا » ان هذه الامم التي أهلكهم لم يكونوا مؤمنين ولو أبقاهم الله لم يؤمنوا بالرسل الذين أتوهم والكتب التي جاؤهم بها ، ولما كان ذلك المعلوم من حالهم استحقوا من الله تعالى العذاب فأهلكهم .

وقوله « كذلك نجزي القوم المجرمين» اي نعاقب مثل عقوبة هؤلاء المجرمين اذا استحقوا أو كانوا ممن لايؤمن ولا يصلح . وجعل ابو علي الجبائي ذلك دليلا

---

(١) ديوانها انيس الجلساء ١٤٤

على ان تبقية الكافر إذا علم من حاله أنه يؤمن فيما بعد واجبة .

قوله تعالى :

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) آية .

بين الله تعالى بهذه الاية أنه إنما جعل المخاطبين بهذا الخطاب بعد إهلاك من أهلك وتكليفه إياهم بطاعته وتصديق رسله مثل مـا كان كلفهم «لننظر كيف تعملون »معناه إنكم إن عملتم بالمعاصي مثل ما عمل بها أولئك وكذبتم الرسل ولم ترجعوا عن الكفر أهلككم ببعض العقاب كما أهلك من تقدم . وإن آمنتم أثابكم الله في الدنيا والآخرة ورضي عنكم ، فجعل قوله « لننظر كيف تعملون » دلالة لهم على اني أفعل بكم احد هذين : الثواب إن آمنتم وأطعتم ، والعذاب إن كفرتم وعصيتم . واستعمل ذلك على هذا المعنى مجازاً كما يستعمله اهل اللغة على هذا المعنى ، لانهم لايعلمون ما يكون من المكلفين ومايفعل بهم من الثواب والعقاب وهو عالم بذلك . ومثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الانسان يقول القائل لغلامه الذي يأمره : إني سأعاقبك وأضربك لأنظر كيف صبرك ، واعطيك مالا لأنظر كيف تعمل ، وإن كان عالماً بما يؤل اليه الأمر في ذلك .

وموضع (كيف) نصب بقوله « تعملون» وإنما قدم لانه للاستفهام ولايجوز أن يكون معمولا « لننظر » لأن ما قبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام ولو قلت لننظر أخيراً يعملون أو شراً ؟ كان العامل في (خير ، وشر) يعملون .

قوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

آئتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الآية أنه إذا قرأ النبي صلى الله عليه وآله على الكفار آيات الله وكلامه . و (بينات) نصب على الحال . وهي الآيات التي امر فيها عباده بأشياء ونهاهم عن اشياء « قال الذين لا يرجون لقاءنا » اي لقاء عذاب الله اوما وعدهم به من ثوابه ان اطاعوه « ائت بقرآن غير هذا » الذي تتلوه علينا « أو بدله » فاجعله على خلاف ماتقرأه علينا ، وإنما فرق بين قوله « ائت بقرآن غير هذا اوبدله » لان الاتيان بغيره قد يكون معه ، وتبديله لايكون إلا برفعه ، والاتيان بغيره . وانما لم يرجوا ثواب الله وعذابه لأنهم كانوا غير مقرين بالله ولامعترفين بنبوة نبيه صلى الله عليه وآله ولا يصدقونه فيما يخبرهم به عن الله ويذكرهم به من البعث والنشور والحساب والجزاء . وكان قولهم هذا له على وجه التعنت والتسبب الى الكفر بـه وتكذيبه ، واحتجاجاً عليه بماليس بحجة لأنه صلى الله عليه وآله كان قـد بين لهم ان هذا القرآن ليس من كلامه وانه ليس له تغييره وتبديله ، فأرادوا أن يوهموا ان الأمر موقوف على رضاهم به ، وليس يرضون بهذا فيريدون غيره .وقال الزجاج : إنه كان غرضهم اسقاط مافيه من عيب آلهتم وتسفيه أحلامهم ومن ذكر البعث والنشور ، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم في جواب ذلك : ليس لي « أن أبدله من تلقاء نفسي » أي من جهة نفسي ومن ناحية نفسي كأنه قيل له: قل ليس لي أن اتلقاه بالتبديل كما ليس لي أن اتلقاه بالرد . والتلقاء جهة مقابلة الشيء إلا أنه قد يستعمل ظرفاً فيقال : هو تلقاءه كما يقال: هو حذاه وقبالته وتجاهه .

قوله « إن أتبع إلا مايوحى الي » أي ليس لي أن أتبع إلا الذي يوحى إلي

« إني أخاف إن عصيت ربي » في اتباع غيره « عذاب يوم عظيم » يعني يوم القيامة.

ومن استدل بهذه الاية على أن نسخ القرآن بالسنة لايجوز فقد أبعد ؛ لأنه اذا نسخ مايتضمنه القرآن بالسنة ، فالسنة لايقولها النبي صلى الله عليه وآله إلا بوحي من الله . وليس بنسخه من قبل نفسه . بل يكون ذلك النسخ مضافاً الى الله . وانما لايكون قرآناً لأنه تعالى قد يوحي الى نبيه ماهو قرآن وماليس بقرآن ، لأن جميع ما بينه النبي صلى الله عليه وآله من الشريعة لم يبينها إلا بوحي من الله لقوله « وماينطق عن الهوى ان هو الاوحي يوحى » (١) وان كان تفصيل ذلك ليس بموجود في القرآن فالاستدلال بذلك على ماقالوه بعيد .

قوله تعالى :

قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) آية .

حكي عن الحسن انه قرأ « ولا أدراكم به » وقرأ ابو ربيعة وقنبل الا المالكي والعطار « ولأدراكم به » يجعلانها (لاماً) ادخلت على (ادراكم) وأمال (أدراكم) و (ادراك) في جميع القرآن ابو عمرو وحمزة والكسائي وخلف والداحوني عن ابن ذكوان ، والكسائي عن ابي بكر ، ووافقهم يحيى والعليمي في هذه السورة . حكى سيبويه : دريته ودريت به ، قالوا كثر الاستعمال التعدي بالباء ، يبين ذلك قوله « ولا أدراكم به » ولو كان على اللغة الاخرى لقال ولاادراكموه ، وقالوا :الدرية على وزن (فعلة) كما قالوا الشعرة والفطنة ، وهي مصادر يراد بها ضروب من العلم .فأما الدراية فكالهداية والدلالة ،وكأن الدراية التأني والتعمل لعلم الشيء وعلى هذا المعنى ماتصرف من هذه الكلمة ، وقالوا : داريت الرجل اذا لاينته وختلته

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣ – ٤

فعلى هذا لا يوصف الله تعالى بالداري ، واما قول الراجز .

اللهم لا أدري وانت الداري

فلا يكون حجة في جواز ذلك لأمرين : احدهما ـ انه لما تقدم قوله : لا أدري استجاز أن يذكر الداري بعده ، ليزدوج الكلام ، كما قال تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (١) ونظائره كثيرة . والثاني ـ إن الأعراب ربما ذكروا أشياء امتنع جوازها كما قال :

لو خافك الله عليه حرمه (٢)

وقال آخر :

اللهم إن كنت الذي بعهدي ولم تغيرك الأمور بعدي

فاما الهمزة على ما حكي عن الحسن ، فلا وجه له لأن الدرء الدفع ، كما قال « فأدرءوا عن انفسكم الموت » (٣) وقال « فادّارأتم فيها » (٤) وقوله عليه السلام (ادرأوا الحدود بالشبهات) قال الفراء : ان كان ما حكي عن الحسن لغة ، وإلا يجوز أن يكون الحسن ذهب الى طبعه وفصاحته فذهب الى درأت الحد ، وقد يغلط بعض العرب في الحرف اذا ضارعه آخر في الهمزة فيهمز ما ليس مهموزاً ، سمعت امرأة من غني تقول : رثأت زوجي بأبيات ، ويقولون : لبأت بالحج وحلأت السويق . وكل ذلك غلط ، لأن (حلأت) انما هو من دفع الابل العطاش عن الماء و « لبأت » من اللباء الذي يؤكل ، و « رثأت » من الرثية اذا حلبت الحليب على الرايب ، ومن أمال فتحة الراء وأمال الالف بعدها ، فلان هذه الألف تنقلب ياء في أدريته ، وهما مدريان . ومن لم يمل فلأن الاصل عدم الامالة ، ولأن كثيراً من الفصحاء لا يميل ذلك .

ومعنى قوله « ولا ادراكم به » قال ابن عباس ولا أعلمكم به من (دريت به)

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤ (٢) قد مر في ٢/١٨٥

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ١٦٨ (٤) سورة ٢ البقرة آية ٧٢

وأدراني الله به . ومعنى الاية الأمر للنبي ﷺ بأن يقول لهؤلاء الكفار لو اراد الله ان يمنعهم فائدته ماأعلمهم به ، ولا أمر النبي ﷺ بتلاوته عليهم .

وقوله « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله » معناه لبثت على هذه الصفة لاأتلوه عليكم ولا يعلمكم الله به حتى أمرني به وشاء اعلامكم . وقال قتادة: لبث في قومه أربعين سنة قبل أن يوحى اليه .

وقوله « أفلا تعقلون » معناه هلاتتفكرون فيه بعقولكم فتتبينوا بذلك ان هذا القرآن من عند الله انزله تصديقاً لنبيه ﷺ . قال الرماني : والعقل هو العلم الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب . والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت فبعضهم أعقل من بعض اذ كان أقدر على الاستدلال من بعض . ومعنى ذلك ان يقول لهم قد لبثت فيكم حيناً طويلا ونشأت بين أظهركم وعرفتم منصرفي ومنقلبي فلو كان ماأتيت به مخترعاً اوكان مافيه من الاخبار من عند غير الله لكنتم عرفتم ذلك اذ فيكم ولدت ونشأت ومعكم تصرفت « أفلا تعقلون » في التدبير والنظر والانصاف فتفعلون فعل من يعقل على انه ﷺ لو كان اخذ ذلك من غيره وخالط اهلها ، او لو كان شاعراً ، اولو كان يعلم السحر ـ كما ادعوا ـ ثم خفي ذلك اجمع عليهم حتى لم يعرفوا الوجه الذي منه اخذ لكان في ذلك أعظم الحجة .وعلى ما روي عن قنبل يكون المعنى « لو شاء الله ماتلوته » يكون نفياً للتلاوة « ولأدراكم » ولأعلمكم ثبوته . ويكون اثباتاً للعلم ، وعلى قراءة الباقين يكون نفياً للأمرين معاً .

قوله تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) آية.

قوله « فمن اظلم ممن » ظاهره الاستفهام والمراد به الاستعظام والاخبار به انه لا احد اظلم ممن اخترع كلاماً اوخبراً ثم اضافه الى الله ويريد به النبي نفسه لو كان فعل « او كذب بآياته » يعنيهم « إنه لايفلح » اي لايفوز « المجرمون » وانما قال : لا احد اظلم ممن هذه صفته ، لانه ظلم كفر ، وهو اعظم من ظلم ليس بكفر . والتقدير لااحداظلم ممن يظلم ظلم كفر، فعلى هذا من يدعي الربوبية داخل في هذه الجملة لان ظلمه ظلم كفر ، كأنه قيل لااحد اظلم من الكافر ، وليس لاحد ان يقول : المدعي للربوبية اظلم من المدعي للنبوة وهو كاذب . والكذاب بآيات الله ظالم لنفسه بما يدخل عليها من استحقاق العقاب وظالم لغيره ممن يجوز ان تلحقه المنافع والمضار بتكذيبه اياه وورده عليه . لان من شأنه ان يعمه مثل هذا التكذيب . و (من) في الآية للاستفهام وهي لاتوصل لانها تضمنت حرف الاستفهام فعوملت معاملته ، كما انها اذا كانت بمعنى الجزاء لم توصل لتضمنها معنى (إن) التي هي ام الباب في الجزاء .

قوله تعالى :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللهِ قُلْ أَتُنَبِّؤُنَ ٱللهَ بِمَالاَ يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آية .

قرأ اهل الكوفة الا عاصماً «عماتشركون » بالتاء ههنا وفي النحل في موضعين وفي الروم . الباقون بالياء . من قرأ بالتاء بناه على ماتقدم من قوله « اتنبئون الله بما لايعلم » فلما خاطبهم بذلك وجه اليهم الخطاب بتنزيهه عما يشركون . ومن قرأ بالياء بناه على الخبر عن الغائب لأن أول الآية مبني على ذلك . وهو قوله « ويعبدون من دون الله » وكلاهما حسن .

اخبر الله تعالى على وجه الذم للكفار بأنهم يوجهون عبادتهم الى من هو دون الله من الأصنام والأوثان التي لاتضر ولاتنفع .

فان قيل : كيف ذمهم على عبادة الوثن الذي لاينفع ولايضر مع انه لونفع وضر لم تجز عبادته ؟! قلنا : لانـه اذا كان من يضر وينفع قد لايستحق العبادة اذا لم يقـدر على اصول النعم ، فمن لايقدر على النفع والضر اصلا ابعـد من ان يستحق العبادة .

وقوله « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله » اخبار منه تعالى عن هؤلاءالكفار انهم يقولون انا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله ، فتوهموا ان عبادتها اشـد في تعظيم الله من قصده تعالى بالعبادة ، فحلت من هذه الجهة محل الشافع عند الله . وقال الحسن : شفعاءفي صلاح معاشهم في الدنيا ، لانهم لايقرون بالبعث بدلالة قوله « واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت » والعبادة خضوع بالقلب في اعلى مراتب الخضوع ، فكل طاعة فعلت على هذا الوجه فهي عبادة . وانما قال « ويعبدون من دون الله » مع انهم كانوا يشركون في عبادة الله لامرين :

احدهما - ان عابد الوثن خاصة قد اشرك في استحقاق العبادة .

الثاني - ان من عبد الله وعبد الوثن فقد عبده من دون اخلاص العبادة لله .

وقوله « اتنبئون الله بمالا يعلم » امر منه تعالى لنبيه ان يقول لهم على وجه الالزام اتخبرون الله بما لايعلم من حسن عبادة الاوثان وكونها شافعة لان ذلك لو كان صحيحاً لكان الله به عالماً ولما نفى العلم بذلك نفي المعلوم .

وقوله « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه منه تعالى لنفسه ، وتنزيه من ان يعبد معه إله او يتخذ من دونه معبود .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

قوله تعالى:

وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) آية.

روى روح « يمكرون » بالياء . الباقون بالتاء .

أخبر الله تعالى بأنه إذا أذاق الناس يعني الكافرين « رحمة » بأن أنعم عليهم واوسع أرزاقهم وأخصب أسعارهم « من بعد ضراء » يعني بعد شدة كانوا فيها من جدب وضيق نالتهم « مكروا في آياتنا » فجواب (اذا) الأولى في (اذا) الثانية وإنما جعلوا (إذا) جواباً إذا كانت بمعنى الجملة على ما فيها من المفاجأة ، كما قال تعالى « وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون » (١). وحقيقة الذوق تناول ما له طعم بالفم ليوجد طعمه . وانما قال : اذقناهم الرحمة على طريق البلاغة لشدة إدراك الحاسة . والمكر فتل الشيء الى غير وجهه على طريق الحيلة فيه ، فهؤلاء محتالون لدفع آيات الله بكل ما يجدون السبيل اليه من شبهة او تخليط في مناظرة أوغير ذلك من الأمور الفاسدة . وقال مجاهد : مكرهم استهزاؤهم وتكذيبهم. فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله « قل » لهم « الله اسرع مكراً » يعني اقدر جزاء على المكر، وذلك أنهم : جعلوا جزاء النعمة المكر مكان الشكر، فقوبلوا بما هو أشد . والسرعة عمل الشيء في وقته الذي هو أحق به ، والمعنى : إن ما يأتيهم من العقاب اسرع مما أتوه من المكر اي وقع في حقه . وقوله « ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » إخبار منه تعالى أن ملائكة الله الموكلين بهم يكتبون ما يمكرون من كفرهم وتكذيبهم، ففي ذلك غاية الزجر والتهديد على ما يفعلونه من المكر والحيل في امر النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٣٦

وقيل انما سمي جزاء المكر مكراً ، لأنهم اذا نالهم العذاب على مكرهم بحيث لا يحتسبونه ولا يتوقعونه فكأنه مكر بهم .

قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) آية

قرأ ابن عامر وابو جعفر « ينشركم » بالنون والشين من النشر . الباقون بالياء والسين وتشديد الياء من التسيير . قال ابو علي : حجة ابن عامر أن (ينشركم) مثل قوله « وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » (١) فالبث تفريق ونشر . وحجة الباقين قوله « قل سيروا في الأرض » (٢) « فامشوا في مناكبها » (٣) فالمعنيان متقاربان .

امتن الله على خلقه في هذه الآية وعدد نعمه التي يفعلها بهم في كل حال، فقال « هو الذي يسيركم في البر والبحر » وتسييره إياهم اما في البحر ، فلأنه بالريح والله المحرك لها دون غيره . فلذلك نسبه الى نفسه، واما في البر فلأنه كائن باقداره وتمكينه وتسبيبه ، فلذلك نسبه الى نفسه . والتسيير التحريك في جهة تمتد كالسير الممدود ، والبر الأرض الواسعة التي تقطع من بلد الى بلد ، ومنه البرّ لاتساع الخير به

(١) سورة ٤ النساء آية ١

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١١ وسورة ٢٧ النمل آيـة ٦٩ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٠ وسورة ٣٠ الروم آية ٤٢ (٣) سورة ٦٧ الملك آية ١٥

والبحر مستقر الماء الواسع حتى لايرى من وسطه حافتاه وجمعه أبحر وبحور ، ويشبه به الجواد ، فيقال انما هـو بحر لاتساع عطائه . وقوله « حتى إذا كنتم في الفلك » خص الخطاب براكبي البحر . والفلك السفن ، وسميت فلكا لدورانها في الماء ، وأصله الدور ، ومنه فلكة المغزل ، والفلك الذي تدور فيه النجوم . وتفلك ثدي الجارية اذا استدار . والفلك ـ ههنا ـ جمع ، وقد يكون واحداً . كقوله « في الفلك المشحون » (١) وقوله « وجرين بهم بريح طيبة » عدل عن الخطاب الى الاخبار عن الغائب تصرفاً في الكلام مع انه خطاب لمن كان في تلك الحال وإخبار لغيره من الناس ، قال لبيد :

باتت تشكي الي النفس مجهشة　　　وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا(٢)

وقوله « وفرحوا بها » يعني بالريح الطيبة « جاءتها ريح عاصف » يعني ريحاً شديدة يقولون : عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة ، ومنهم من يقول : أعصفت فهي معصف ومعصفة . والريح مؤنثة، وانما قال عاصف ، لأنه لايوصف بذلك غير الريح فجرى مجرى قولهم امرأة حائض ، قال الشاعر :

حتى اذا عصفت ريح مزعزعة　　　فيها قطار ورعد صوته زجل (٣)

وقوله « وجاءهم الموج من كل مكان » معناه جاءراكبي الفلك الأمواج العظيمة الهائلة من جميع الوجوه . « وظنوا أنهم أحيط بهم » أي ظنوا انهم هالكون لماأحاط بهم من الأمواج «دعوا الله مخلصين له الدين»اي عند هذه الشدائد والأهوال والتجؤا الى الله ودعوه على وجه الاخلاص ، ولم يذكروا الأوثان والاصنام لعلمهم بأنها لاتنفع ههنا شيئاً وقالوا « لئن انجيتنا » يارب من هذه الشدة « لنكونن » من جملة من يشكرك لنعمك ، ويقوم بآدابها . ويقال لمن اشرف على الهلاك أحيط

---

(١) سورة ٣٦ يس آية ٤١ وسورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩

(٢) مر تخريجه في ١ / ٣٥ ، ٤٧٢ .

(٣) تفسير الطبري « الطبعة الاولى » ١١ /٦٣

به ، ومنه قوله « واحيط بثمره » (١) أي اهلكت .

قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا أَنجَيٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) آية

قرأ حفص « متاع الحياة » بنصب العين . الباقون بالرفع . من رفع يحتمل أمرين : احـــدهما ـ ان يكون رفعاً بأنه خبر المبتدأ والمبتدأ قوله « بغيكم » الثاني ـ ان يكون بغيكم مبتدأ ، وقوله « على انفسكم » خبره . ورفع متاع على تقدير ذلك متاع الحياة الدنيا . ومن نصب فعلى المصدر . قال أبو علي الفارسي « على انفسكم » يحتمل أن يكون متعلقاً بالمصدر ، لأن فعله متعد بهذا الحرف كما قال « بغى بعضنا على بعض » (٢) وقال « ثم بغي عليه لينصرنه الله » (٣) فاذا جعلت الجار من صلة المصدر كان الخبر متاع الحياة الدنيا . والمعنى بغي بعضكم على بعض متاعاً في الحياة الدنيا . ويجوز ان تجعله متعلقاً بمحذوف ، ولا تجعله من صلة المصدر ، وفيه ذكر يعود الى المصدر والتقدير انما بغي بعضكم على بعض عائد على أنفسكم ، فعلى هذا يتعلق بالمحذوف دون المصدر المبتدأ وهو في المعنى كقوله « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله » (٤) وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » (٥) فاذا رفعت متاع الحياة على هذا كان خبر مبتدأ محذوف كأنك قلت: ذاك متاع الحياة الدنيا أو هـــو متاع . ومن نصب احتمل وجهين :

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٣
(٢) سورة ٣٨ ص آية ٢٢
(٣) سورة ٢٢ الحج آية ٦٠
(٤) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٣
(٥) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠

احدهما ـ ان يجعل من صلة المصدر . فيكون الناصب للمتاع هو المصدر الذي هو البغي ، ويكون خبر المبتدأ محذوفاً ، وحسن ذلك لطول الكلام ، لأن بغيكم يدل على تبغون . والآخر ـ ان يجعل على أنفسكم خبر المبتدأ ، ويكون نصب متاع على أحد وجهين : احدهما ـ يمتعون متاع الحياة فيدل انتصاب المصدر عليه . والآخر ـ ان يضمر تبغون كأنه قال تبغون متاعاً ، فيكون مفعولا له . ولايجوز أن يتعلق بالمصدر إذا جعلت (على) خبراً . لقوله إنما بغيكم على انفسكم ، لفصلك بين الصلة والموصول

اخبر الله تعالى في هذه الاية عن هؤلاء الكفار الذين اذا رأوا الأهوال والشدائد في الفلك في البحر فزعوا الى الله ودعوه مخلصين له الدين ، وقالوا متى انجيتنا من هذه « لنكونن من الشاكرين » أنه اذا انجاهم وخلصهم من تلك الشدائد عادوا الى البغي وهو الاستعلاء بالظلم . واصل البغي الطلب . تقول بغاه يبغيه اذا طلبه . والبغية الطلبة ، والنجاة التخلص من الهلاك . والتخليص من الاختلاط لايسمى نجاة . ومعنى « لما » ايجاب وقوع الثاني بالأول كقولك : لما قام قمت ، ولما جاء زيد قام عمرو . والحق وضع الشيء في موضعه على ما يدعو العقل اليه ، والحق والحسن معناهما واحد . وقوله « يا ايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » خطاب من الله تعالى للخلق بأن بغيكم على انفسكم من حيث ان عقابه يلحقكم دون غيركم « متاع الحياة الدنيا » معناه إنكم تطلبون بالبغي بغير الحق التمتع في الحياة الدنيا . ثم بعد ذلك ترجعون الى الله بعد موتكم فيجازيكم بأعمالكم بعد أن يعلمكم ما عملتموه وما استحققتم به من انواع العقاب . وقال مقاتل : معنى « يبغون في الأرض بغير الحق » يعبدون غير الله . وقال غيره : معناه كلما أنعمنا عليهم بغوا للدين وأهله الغوائل .

قوله تعالى

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) آية

المثل قول سائر يشبه بـه حال الثاني بالأول . وقيل « مثل الحياة الدنيا » صفة الحياة الدنيا . وقيل في المشبه والمشبه به في الآية ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال الجبائي : إنه تعالى شبه الحياة الدنيا بالنبات على ماوصفه الله تعالى في الاغترار به والمصير الى الزوال كالنبات الذي يصير الى مثل ذلك .

الثاني ـ انه شبه الحياة الدنيا بالماء فيمايكون به من الانتفاع ثم الانقطاع .

الثالث ـ انه شبه الحياة الدنيا بحياة مقدرة على هذه الأوصاف ، لمايقتضيه « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » أي علموا الانتفاع بها .

وقوله « فاختلط به نبات الأرض » فالاختلاط تداخل الأشياء بعضها في بعض فربما كان على صفة مدح ، وربما كان على صفة ذم . وقوله « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها » فالزخرف حسن الألوان كالزهر الذي يروق البصر ، ومنه قيل زخرفت الجنة لأهلها وقوله « وظن أهلها انهم قادرون عليها » معناه ظنوا أنهم قادرون على استصحاب تلك الحال منها ـ جعلها على غير شيء منها ، لأن القادر عليهم وعليها أهلكها . وقولـه « وازينت » أصله تزينت فأدغمت التاء في الزاي واجلبت الهمزة لامـكان النطق بها . وقرأ الأعرج وغيره « وازينت » على وزن

(افعلت) والأول أجود لأن عليه القراء . وقوله « كأن لم تغن بالامس » معناه كأن لم تقم على تلك الصفة فيما قبل ، يقال : غني بالمكان إذا أقام به والمغاني المنازل ، قال النابغة :

غنيت بذلك إذهم لك جيرة   منها بعطف رسالة وتودد

وقوله « كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون » معناه مثل ذلك نميز الايات ونبينها لقوم يفكرون فيها ويعتبرون بها ، لأن من لا يفكر فيها ولا يعتبر بها كأنها لم تفصل له ، فلذلك خصصهم بالذكر .

قوله تعالى :

وَٱللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) آية .

أخبر الله تعالى بأنه الذي يدعو عباده الى دار السلام . والدعاء طلب الفعل بما يقع لأجله ، والداعي الى الفعل خلاف الصارف عنه . وقد يدعو اليه باستحقاق المدح عليه . والفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيباً في الفعل ، وزجراً عن تركه ، وله صيغة تنبىء عنه ، وليس كذلك الدعاء ، وكلاهما طلب . وايضاً الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة . والدعاء يقتضي أن يكون فوقه . وفي معنى دار السلام قولان احدهما ـ قال الحسن : السلام هو الله . وداره الجنة . وبه قال قتادة . الثاني ـ قال الجبائي والزجاج : معناه دار السلامة . وقوله « ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » قيل في الهداية ههنا ثلاثة اقوال : احدها ـ يفعل الألطاف التي تدعوهم الى طريق الحق لمن كان المعلوم أن له لطفاً . الثاني ـ الأخذ بهم في الآخرة الى طريق الجنة . الثالث ـ قال ابو علي : يريد به نصب الأدلة لجميع المكلفين دون الأطفال والمجانين . والاستقامة المرور في جهة

تؤدي الى البغية ، فالادلة طرق الى العلم على الاستقامة لأنها تؤدي اليه .

قوله تعالى :

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦) آية .

أخبر الله تعالى بأن للذين يفعلون الحسن من الطاعات التي أمرهم الله بها جزاء على ذلك « الحسنى » وهي الجنة ولذاتها . وقيل : جامعةالمحاسن من السرور واللذات على أفضل مايكون وهي تأنيث الأحسن . وقوله « وزيادة » معناه إن لهم زيادة التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب ، وهي المضاعفة المذكورة في قوله « فله عشر أمثالها »(١) ذهب اليه ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعلقمة ابن قيس. وقال ابو جعفر عليه السلام « وزيادة» معناه ماأعطاهم الله في الدنيا لايحاسبهم به في الآخرة . وقوله « ولايرهق وجوههم قترولا ذلة » فالرهق لحاق الأمر ، ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال ، ورهقه في الحرب إذا أدركه . و(الرهاق) الاعجال . و(القتر) الغبار . والقترةالغبرة . ومنه الاقتار في النفقة لقلته، قال الشاعر:

متوّج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقترا(٢)

والذلة صغر النفس بالاهانه . والذلة نقيض العزة . وقد يكون صغر النفس بضيق المقدرة . وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » اخبار منه تعالى بأن الذين وصفهم الملازمون للجنة على وجه الخلود والنعيم فيها ولازوال لذلك عنهم.

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

(٢) قائله الفرزدق ديوانه ٢٩٠ وتفسير الطبري ١١ / ٦٩ وتفسير القرطبي ٣١١/٨ واللسان « قتر» . ورواية الديوان « معتصب » بدل « متوج »

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) آية.

لما وصف الله تعالى المطيعين ، وما لهم من الثواب الجزيل في الجنة والخلود فيها ، ذكر حكم العصاة الذين يرتكبون السيئات ويكسبونها وأن لهم جزاء كل سيئة مثلها يعني قدر ما يستحق عليها من غير زيادة ، لأن الزيادة على قدر المستحق من العقاب ظلم ، وليس كذلك الزيادة على قدر المستحق من الثواب ، لأن ذلك تفضل يحسن فعله ابتداء . فالمثل – في الآية – المراد به مقدار المستحق من غير زيادة ولا نقصان . والكسب فعل يجتلب به نفع او يدفع به ضرر ، وقد يكتسب الانسان الحسنة والسيئة ، ولهذا لا يوصف الله تعالى بالكسب . وقوله « وترهقهم ذلة» اي يلحقهم هوان في أنفسهم . «وما لهم من الله من عاصم » أي ما لهم مانع من عقاب الله . وفي رفع (جزاء) في الآية وجهان : احدهما – ان تقديره فلهم جزاء سيئة بمثلها ليشاكل « للذين أحسنوا » . والآخر – ان يكون الخبر بمثلها والباء زيادة كزيادتها في قولك ليس زيد بقائم . وقوله « كأنما اغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » شبه سواد وجوههم بقطع من الليل المظلم وانما ذكّر ووحّد مظلم لاحد أمرين : احدهما – ان يكون حالا من الليل . والثاني – على قول الشاعر :

لو أن مدحة حيٍّ تنشرن أحداً أحيا أباكنّ ياليلى الأماديح

و(القطع) قرأه بتسكين الطاء ابن كثير والكسائي . الباقون بالتحريك ،

وهما لغتان . وقوله «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» اخبار منه تعالى بأن من وصفهم ملازمون للنار خالدون فيها غير زائل عنهم عذابها. قال ابو عبيدة « قطعاً من الليل » وهو بعض الليل تقول اتيته لقطع من الليل اي ساعة من الليل ، وقطع واقطاع . وقال ابو علي : القطع الجزء من الليل الذي فيه ظلمة. فأما قوله « مظلماً» اذا اجريته على (قطع) فيحتمل نصبه وجهين : احدهما ـ ان يكون صفة من القطع وهو احسن ، لانه على قياس قوله « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » (١) وصف الكتاب بالمفرد بعد ماوصفه بالجملة واجراه على النكرة . والثاني ـ يجوز أن يكون حالا من الذكر الذي في الظرف . ومن قرأ « قطعاً » لم يكن مظلماً صفة لـ (قطع) ولا حالا من الذكر الذي في قوله « من الليل » ولكن يكون حالا من الليل المظلم فلما حذف الألف واللام نصب على الحال .

قوله تعالى :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) آية

اخبر تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلائق أجمعين . والحشر هو الجمع من كل أوب الى الموقف ، وإنما يقومون من قبورهم الى ارض الموقف « ثم نقول للذين أشركوا » يعني من اشرك مع الله في عبادته غيره ، والمشرك بالاطلاق لايقال إلا فيمن أشرك في العبادة ، لأنها صفة ذم مثل كافر وظالم . وقوله « مكانكم » معناه انتظروا مكانكم . « جميعاً » نصب على الحال و (مكانكم) نصب على الامر كأنه قال انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم . ويقول المتوعد لغيره : مكانك

(١) سورة ٦ الانعام آية ٩٢ ، ١٥٥

فانتظر ، يستعمل ذلك في الوعيد . وقوله « انتم وشركاؤكم » يعني انتظروا انتم مع شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله . وقوله « فزيلنا بينهم » مأخوذ من قولهم زلت الشيء عن مكانه ازيله - وزيلنا للكثرة من هذا - اذا نحيته عن مكانه وزايلت فلاناً إذا فارقته . وقال القتيبي : وهو مأخوذ من زال يزول ، وهو غلط وخلاف لقول جميع المفسرين وأهل اللغة . والتزييل التفريق . والمعنى فرقنا بين المشركين بالله وما أشركوا به .

وقوله « وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون » قيل في معناه قولان : احدهما - قال مجاهد : انه ينطق الأوثان يوم القيامة فيقولوا : ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون . والثاني - ان ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين .

وفي كيفية جحدهم لذلك قولان : احدهما - انهم يقولون ذلك على وجه الاهانة بالرد عليهم . والمعنى ما اعتذرنا بذلك لكم . والآخر - انه في حال دهش ككذب الصبي . وقال الجبائي : يريد انكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا ولم يرد انهم لم يعبدوها أصلا ، لأن ذلك كذب وهو لايقع في الآخرة لكونهم ملجئين الى ترك القبيح . وهذه الاية نظيرة قوله « اذ تبرّأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا »(١) وكان مجاهد يقول : الحشر ههنا هو الموت . والأول اولى .

قوله تعالى :

فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) آية .

هذا اخبار من الله تعالى عن شركاء المشركين من الآلهة والأوثان يوم القيامة حين قال المشركون إنا إنما إياكم كنا نعبد ، وأنهم يجحدون ذلك ويقولون :

(١) سوره ٢ البقرة آية ١٦٦

حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم أيها المشركون بأنه تعالى عالم أنا ما علمنا ما تقولون، وأنا كنا عن عبادتكم إيانا غافلين، لانشعر به ولانعلمه. وإنما قال «شهيداً بيننا» ولم يقل علينا، لأنه إذا قال بيننا فمعناه لنا وعلينا، فهو أعم وأحسن. ونصب (شهيدا) على التمييز، وتقديره وكفى بالله من الشهداء. وقال الزجاج: نصب على الحال وتقديره كفى بالله في حال الشهادة. وقوله «إن كنا» فهذه (إن) المخففة عن الثقيلة بدلالة دخول اللام في الخبر للفرق بين (إن) الجحد و(إن) المؤكدة. وقال الزجاج: هي بمعنى (ما) ومعناه ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين.

قوله تعالى:

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَاأَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَاكَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) آية.

قرأ اهل الكوفة الاعاصما (تتلوا) بالتاء من التلاوة. الباقون بالباء. من قرأ بالباء فمعناه تختبر من قوله «وبلوناهم بالحسنات والسيئات» (١) اي اختبرناهم، ومنه قولهم البلاء ثم الثناء أي الاختبار للثناء عليه ينبغي أن يكون قبل الثناء ليكون عن علم بما يوجبه. ومعنى اختبار النفس ما اسلفت إن قدم خيراً أو شراً جزي عليه، كما قال «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» (٢) وغير ذلك. ومن قرأ بالتاء فمن التلاوة. ويقوي ذلك قوله «فأولئك يقرؤن كتابهم» (٣) وقوله «اقرأ كتابك» (٤) وقوله «ورسلنا لديهم يكتبون» (٥) ويكون (تتلو) بمعنى تتبع ويكون المعنى هنالك تتبع كل نفس ماأسلفت من

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٦٧
(٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧ ـ ٨
(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٧١
(٤) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤
(٥) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٠

حسنة وسيئة ، فمن أحسن جوزي بالحسنات ومن أساء جوزي به ، فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء . وقال ابن زيد : معنى « تتلو » تعاين . وقال الفراء : معناه تقرأ. وقال غيره تتبع. وقال ابن عباس معنى (تتلو) تخبر قال الشاعر:

قد جعلت دلوي تستتليني ولا أحب تبع القرين

اي تتبعني من ثقلها ، ومعنى « هنالك» في ذلك المكان ، وهو ظرف فـ(هنا) للقريب و (هنالك) للبعيد و (هناك) لما بينهما قال زهير :

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا(١)

والاسلاف تقديم امر لما بعده ، فمن أسلف الطاعة لله جزي بالثواب . ومن أسلف المعصية جزي بالعقاب . وقوله « وردّوا الى الله » فالرد هو الذهاب الى الشيء بعد الذهاب عنه ، فهؤلاء ذهبوا عن أمر الله فأعيدوا اليه . والرد والرجع نظائر، ويجوز أن يكون الرد بمعنى النشأة الثانية ، وهو الاليق ههنا . وقوله « مولاهم الحق » فالمولى المالك للعبيد . ومعناه مالكهم لأنه يملك أمرهم ، وهو أملك بهم من أنفسهم . وقوله « وضل عنهم ما كانوا يفترون » يعني ما كانوا يدعونهم ـ بافترائهم من الشركاء ـ مع الله يضلون عنهم يوم القيامة ويبطلون .

قوله تعالى :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٣١) آية

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار وغيرهم من خلقه « من يرزقكم من السماء » بانزال المطر والغيث ، ومن الارض باخراج النبات وانواع الثمار .

(١) ديوانه ١١٢ واللسان (خبل) وفيه اختلاف في الرواية .

والرزق العطاء الجاري يقال : رزق السلطان الجند ، الا ان كل رزق ، فالله رازق به ، لانه لولم يطلقه على يد الانسان لم يجيء منه شيء والواحد منا يرزق غيره إلا أنه لايطلق اسم رازق إلا على الله ، كما لايقال : (ربّ) بالاطلاق إلا في الله وفي غيره يقيد ، فيقال رب الدار ورب الفرس . ويطلق فيه ، لأنه يملك الجميع غير مملك . وكذلك هو تعالى رازق الجميع غير مرزوق . ولايجوز أن يخلق الله حيواناً يريد تبقيته إلاويرزقه . لانه إذا أراد بقاءه فلا بدّ له من الغذاء . فان لم يرد تبقيته كالذي يولد ميتاً فانه لا رزق له في الدنيا . وقوله « أم من يملك السمع والأبصار » يعني من الذي له التصرف فيها بلا مانع يمنعه منها وان شاء اصحها وان شاء امرضها . و « من يخرج الحي من الميت » معناه من الذي يخلق الحيوان ويخرجه من امه حياً سويّاً اذا ماتت أمه «ويخرج الميت من الحي » يعني من يخرجه غير تام ولابالغ حدّالكمال . وقيل:معناه انه يخرج الحي من النطفة ، وهي ميتة ويخرج النطفة من الحي . وقيل: يخرج المؤمن من الكافروالكافر من المؤمن. و« من يدبر الأمر » اي ومن الذي يدبر جميع الامور في السما والأرض ؟ وليس جواب ذلك لمن انصف ولم يكابر الا ان يقول : الله الفاعل لجميع ذلك . واذا قالوا ذلك واعترفوا به قيل لهم « أفلا تتقون » ومعناه فهلا تتقون خلافه وتحذرون معاصيه ؟ وفي الاية دلالة على التوحيد ؛ لأن ماذكره في الاية يوجب أن المدبر واحد ولا يجوز أن يقع ذلك إتفاقاً ؛ لاحالة العقل ذلك ، ولايجوزأن يقع بالطبيعة ؛ لأنها في حكم الموات لوكانت معقولة ،فلم يبق بعد ذلك إلا ان الفاعل لذلك قادر عالم يدبره على مايشاء ، وهو الله تعالى ، مع ان الطبيعة مدّبرة مفعولة فكيف تكون هي المدّبرة .وإنما دخلت (أم) على (من) لأن (من) ليست أصل الاستفهام بل أصله الألف ، فلذلك جاز الجمع بينهما

قوله تعالى:

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) آية.

« ذلك » إشارة الى اسم الله الذي ذكره في الآية الاولى، ووصفه بأنه الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي ويرزق الخلق من السماء والارض و(الكاف والميم) للمخاطبين. وإنما جمع لأنه أراد جميع الخلق، فأخبر الله تعالى ان الذي وصفه في الاية الأولى هو « الله ربكم » الذي خلقكم ويملك تصرفكم. وإنما وصفه بأنه « الحق » لأن له معنى الالهية دون غيره من الأوثان والأصنام، وهو الرب تعالى وحده.

وقوله « فماذا بعد الحق إلا الضلال » صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير على موضع الحجة، لأنه لايجد المجيب محيداً عن الاقرار به إلا بذكر مالايلتفت اليه، وكلما تدعو اليه الحكمة على اختلافه فهو حق، والمراد انه ليس بعد الاقرار بالحق والانقياد له إلا الضلال والعدول عنه. وقوله « فأنى تصرفون » أي كيف تصرفون وتعدلون عن عبادته مع وضوح الدلالة على أنه لامعبود سواه والصرف هو الذهاب عن الشيء، فالصرف عن الحق ذهاب الى الباطل، وقد أنكر الله ذلك. وفيه دلالة على أنه من فعل غيره من الغواة لأنه لو كان من فعله لما انكره كما لم ينكر شيئاً من أفعال نفسه.

قوله تعالى

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) آية

قرأ أهل المدينة وابن عامر (كلمات) ههنا وفي آخرها ، وفي المؤمن على الجمع . الباقون على التوحيد . قال ابو علي : من قرأ على التوحيد احتمل في ذلك وجهين :

أحدهما ـ ان يكون جعل ماأوعد به الفاسقين كلمة وإن كانت في الحقيقة كلمات ، لانهم قد يسمون القصيدة والخطبة كلمة ، فكذلك ماذكرناه .

والثاني ـ ان يريد بذلك الجنس وقد اوقع على بعض الجنس كما أوقع اسم الجنس على بعضه في قوله « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل» (١) ومن جمع فانه جعل الكلمات التي يوعدون بها كل واحدة منها كلمة ثم جمع ، فقال : كلمات. وأما قوله « كلمة الله هي العليا » (٢) فيجوز ان يكون عنى بها قوله « كتب الله لأغلبن انا ورسلي » (٣) كما فسر قوله « وألزمهم كلمة التقوى » (٤) انه لا إله الا الله ، ذكره مجاهد . والكاف في قوله كذلك في موضع نصب والتقدير مثل أفعالهم جازاهم ربك. وقيل في المشبه به « كذلك حقت كلمة ربك » قولان :

احدهما ـ المعنى في انه ليس بعد الحق الا الضلال فشبه به كلمة الحق بأنهم لايؤمنون في الصحة .

الثاني ـ ماتقدم من العصيان شبه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على المقدار . وانما اطلق في الذين فسقوا أنهم لايؤمنون، لانه أريد به الذين تمردوا في كفرهم. و(انهم) في موضع نصب على قول الفراء والتقدير بأنهم أولأنهم لايؤمنون فقوله « انهم لايؤمنون » بدل من كلمة ربك . فأعلم الله أنهم باعمالهم قد منعوا من الايمان ، وجائزان تكون الكلمة ماوعدوا به من العقاب . والفسق في الشرع هو الخروج في المعصية الى الكبيرة فان كانت كفراً فالخروج الى أكبره وكذلك ان كانت منع حق . وفائدة الآية الابانة عن الحال التي لايفلح صاحبها ليحذر من

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٣٧

(٢) سورة ٩ التوبة آية ٤١

(٣) سورة ٥٨ المجادلة آية ٢١

(٤) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٦

مثلها ، لأنه قد يكون في المعلوم أنه من بلغ ذلك الحد لم يفلح ، قال: وأصل المعنى حقت كلمة ربك ان الفساق والكفار ماداموا كفاراً فساقاً فلا يكونون مؤمنين . وقال الجبائي : معناه وجدانكم إياهم على الكفر والاصرار عليه دليل على ان ما أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لايؤمنون حق وصدق .

قوله تعالى :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهة يعبدونها « هل من شركائكم من يبدؤ الخلق » بأن ينشئهم ويخترعهم. ثم اذا أماتهم يعيدهم ويحييهم ، لينبئهم بذلك على انه لايقدر على ذلك الا الله القادر لنفسه الذي لايعجزه شيء . وقيل في معنى (شركائكم) قولان : احدهما ـ انهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة . الثاني ـ الذين جعلوهم شركاء في اموالهم من اوثانهم ، كما قال « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »(١) والاعادة ايجاد الشيء ثانياً ، وقال لنبيه قل لهم : الله تعالى القادر لنفسه هو الذي يبدؤ الخلق فينشئهم ثم يميتهم ثم يعيدهم لايعجزه شيء عن ذلك . وقوله « فانى تؤفكون » معناه انى تصرفون عن الحق وتقلبون عنه ، ومنه الافك ، والكذب ، لانه قلب المعنى عن جهته .

قوله تعالى :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٦ .

أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) آية

قرأ أهل الكوفة الا عاصماً « يهدي » بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال. وقرأه أهل المدينة إلاورشاً بفتح الياء ، وسكون الهاء ، وتشديد الدال وقرأه ابن كثير وابن عامر وابو عمرو وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الـدال ، الا أن السوسي من طريق ابن جيش لايشبع فتحة الهاء . وكذلك روى الحماني عن شجاع وقرأه يعقوب وحفص والاعشى والبرجمي بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الـدال ورواه ابو بكر الا الأعشى والبرجمي بكسر الياء والهاء وتشديد الدال . قال ابو علي : من قرأ « يهدي » بفتح الياء والهاء وتشديد الدال فقد نسبهم الى غاية الذهاب عن الحـق في معادلتهم الآلهة بالله تعالى، ألا ترى ان المعنى أفمن يهدي غيره الى طريق التوحيد والحق أحق ان يتبع أم من لايهتدي هو إلا أن يهـدى ، والتقدير أفمن يهدي غيره فحذف المفعول الثاني . فان قيل : هــذه التي اتخذوها آلهة لاتهتدي وإن هديت لأنها موات من حجارة وأوثان ونحو ذلك ! ؟ قيل : تقدير الكلام على أنها إن هديت اهتدت وإن لم تكن في الحقيقة كذلك لأنهم لما اتخذوها آلهة عبر عنها كما يعبر عن الذي يجب له العبادة . كما قال « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والارض شيئاً ولا يستطيعون» (١) وقال « ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم» (٢) فاجرى عليه اللفظ كما يجري على من يعلم ، كأنه قال أمن لايهدي الا ان يهدى أي أممن لايعلم حتى يُعلم ، ومن لايستدل على شيء حتى يدل ، وإن كان لو دل أو أعلم لم يعلم ولم يستدل . واراد الله بذلك تعجيبهم من أنفسهم وتبيين جهلهم وقلة تمييزهم في تسويتهم من لايعـلم ولايقـدر بالله القادر العالم. وقرأ حمزة والكسائي « أم من لا يهدي » معناه أم من لايهدي غيره ، ولكن يهدى أي لايعلم شيئاً ولايعرّفه ، ولكن

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٣   (٢) سورة ٣٥ فاطر آية ١٤

يهدى أي لاهداية له ، ولو هدي أيضاً لم يهتد ، غير أن اللفظ جرى عليه كما قلناه فيما تقدم . ومن شدد ، فلأن أصله يهتدي فأدغم التاء في الدال . ومن حرك الهاء القى حركة الحرف المدغم على الهاء لأنها من كلمة واحدة . ومن كسر الهاء لم يلق الحركة تشبيهاً بالمنفصل ، وكسر الهاء لالتقاء الساكنين . ومن سكن الهـــاء جمع بين الساكنين . ومن أشم فلأن الاشمام في حكم التحريك . ومن كسرالياء اتبع الياء ما بعدها من الكسر لأن أصله يفتعل . وقال قوم : معنى « أم من لايهدي إلا أن يهدى » لايتحرك حتى يحرك .

أمر الله تعالى نبيه أن يقول أيضاً لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله شركاء في العبادة « هل من شركائكم » الذين تعبدونهم من دون اللهأو تشركون بينهمافي العبادة من يهدي غيره الى الحق والى طريق الرشاد ، ثم قال : قل يامحمد « الله يهدي للحق » وأفعال الخير ، ثم قال « أفمن يهدي غيره الى الحق » والى الصراطالمستقيم أولى « أن يتبع » ويقبل قوله ،« أم من لايهدي إلا أن يهدى» أي إلا بعد أنيهدى وحكيعن البلخي أنه قال : هدى واهتدى بمعنى واحد .

وقوله « فمالكم كيف تحكمون » أي بما تدعونه من عبادة ــ من دونالله ــ فالهداية المعرفة بطريق الرشاد من الغي ، فكل هداية قائدة الى سلوك طريقالنجاة بدلا من طريق الهلاك . وقال الزجاج « مالكم » كلام تام ، كأنه قال أي شيء لكم في عبادة الأوثان ثم قال لهم « كيف تحكمون ؟ ! » على أي حال ، فموضع (كيف) نصب بـ (تحكمون) ويقال هديته للحق والىالحق بمعنى واحد .

قوله تعالى :

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) آية .

أخبر الله تعالى أنه ليس يتبع أكثر هؤلاء الكفار إلا الظن الذي لايجزي شيئاً، من تقليد آبائهم ورؤسائهم . ثم قال تعالى « إن الظن لايغني من الحق شيئاً » لأن الحق إنما ينتفع به من عرفه وعلمه حقاً ؛ لأن الظن حقيقة ماقوي كون المظنون عند الظان على ماظنه مع تجويز أن يكون على غيره ، فاذا كان معه تجويز كون المظنون على خلاف ماظنه. فلايكون مثل العلم . وقديكون للظن حكم إذا قام على ذلك دليل إما عقلي أو شرعي ، ويكون صادراً عن إمارات معروفة بالعادة والخبر أو رده الى نظيره عند من قال بالقياس ، وكل ذلك إذا اقترن به دليل يوجب العمل به . وكل موضع يمكن أن يقوم عليه دليل ويعلم صحته من فساده فلا يجوز أن يعمل فيه على الظن ، لأنه بمنزلة من ترك العلم وعمل على ظن غيره . وقوله « ان الظن لايغني من الحق شيئاً » معناه انه لايقوم مقام العلم مع وجوده أو امكان وجوده ، وانما يعبد الله في الشرع في مواضع بالرجوع الى الظن مع أنه كان يمكنه أن ينصب عليه دليلا يوجب العلم لما في ذلك من المصلحة . وقوله « إن الله عليم بما يفعلون » فيه ضرب من التهديد ، لأنه أخبر أنه تعالى يعلم مايفعلونه ولايخفى عليه منه شيء فيجازيهم على جميعه: على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) آية .

نفى الله تعالى في هذه الآية أن يكون هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ مفترى من دون الله والافتراء الاخبار على القطع بالكذب ، وهو مأخوذ من فري الاديم ، وهو قطعه بعد تقديره . والقرآن عبارة عن هذا الكلام

الذي هو في أعلى طبقات البلاغة مع حسن النظم والجزالة ، وكل شيء منه فيه فائدة وكل فصل منه فيه فائدة أخرى . وقوله « ولكن تصديق الذي بين يديه » شهادة من الله له بأنه صدق وبأنه شاهد لما تقدم من التوراة والانجيل والزبور بأنها حق ، وشاهد ايضا من حيث انه مصدق لها اذ جاء على ماتقدمت البشارة به فيها . وقيل مصدق لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب . وقوله « وتفصيل الكتاب » أي تبيين الفصل من المعاني الملتبسة حتى يظهر كل معنى على حقيقته . والتفصيل والتمييز والتقسيم نظائر ، وضده التلبيس والتخليط . وقوله « لاريب فيه » أي لاشك فيه « من رب العالمين » اي نازل من عند مالك العالمين. وقيل : إن معنى « تفصيل الكتاب » أي تفصيل الفروض الشرعية . والكتاب — ههنا — المفروض . وقال الفراء : معنى « وما كان هذا القرآن ان يفترى » اي لاينبغي ان يكون افتراء ، كما قال تعالى « وماكان لنبي أن يغل » (١) أي لا ينبغي له. وقال غيره: تقديره وما كان هذا القرآن مفترى .

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) آية

معنى « أم » ههنا تقرير على موضع الحجة بعد مضي حجة أخرى ، وتقديره بل أتقولون افتراه ، فالزموا على هذا الاصل الفاسد امكان أن يأتوا بمثله .

وقوله « فاتوا بسورة مثله » صورته صورة الأمر ، والمراد به التحدي باتيان سورة ، وهو الزام لهم على أصلهم اذ أصلهم فاسد يوجب عليهم أن يأتوا بسورة مثله ، فالتحدي يطلب مايوجبه أصلهم عليهم . وقوله « فأتوا بسورة مثله » معناه

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٦١

سورة منه . وقيل في معناه قولان : أحدهما - أن فيه حذفاً وتقديره فاتوا بسورة مثل سورته ذكره بعض البصريين . والاخر - ائتوا بسورة مثله في البلاغة ، وهو أحسن الوجهين . والسورة منزلة محيطة بآيات الله كاحاطة سور البناء من أجل الفاتحة والخاتمة ، وكل منزلة من سورة البناء محيطة بما فيها . وقوله «وادعوا من استطعتم من دون الله» معناه ادعوهم الى الموازنة على المعارضة بسورة مثله أي استعينوا بكل من قدرتم عليه . والاستطاعة حالة للحي تنطاع بها الجوارح للفعل وهي مأخوذة من الطوع . والقدرة مأخوذة من القدر ، فهي معنى يمكن أن يوجد به الفعل وان لايوجد لتقصير قدره عن ذلك المعنى . وقوله «ان كنتم صادقين» معناه ان كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله فأنتم تقدرون على معارضته ، فحيث لاتقدرون على ذلك علم أن الامر بخلاف ماتذكرونه من أنه من عند غير الله ، وصح أنه من عند الله ، لانه لو قدر محمد ﷺ على افترائه لقدرتم على معارضته لمشاركتكم إياه في النشوء والفصاحة .

قوله تعالى:

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا إن محمداً ﷺ افترى هذا القرآن ولم ينزله الله عليه بأنهم «كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه» ومعناه بما لم يعلموه من كل وجوهه ؛لان في القرآن مايعلم المراد منه بدليل ، ويحتاج الى الفكر فيه والرجوع الى الرسول في معرفة مراده وذلك مثل المتشابه ، فالكفار لما لم يعرفوا المراد بظاهره كذبوا به ، وقالوا انه افترى على الله كذباً ، ومعنى

كذبوا انهم شهدوا بان الدعاة الى الله والدعاة الى الحق من المؤمنين كاذبون جهلا منهم وتوهماً لاحقيقة لهم ولاحجة معهم به .وقوله « ولما يأتهم تأويله » معناه مايؤول أمره اليه وهو عاقبته . ومعناه متأوله من الثواب والعقاب . ثم حكى الله أنه مثل ذلك كذب الذين من قبلهم أنبياء الله ورسله فأهلكهم الله ودمرهم ثم قال لنبيه « فانظر كيف كان عاقبةالظالمين » يعني ماأدى الى إهلاكهم بعذاب الاستئصال على ماتقدم من ظلمهم لانفسهم وغيرهم في كذبهم . وقيل في موضع « كيف كان » نصب بأنه خبر كان . ولايكون معمول (انظر) لأن ماقبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام.

قوله تعالى

وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) آية.

أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن ونسبوه الى الافتراء من سيؤمن بـه أي بالقرآن في المستقبل ، ومنهم من لايؤمن بـل يموت على كفره . وقوله « وربك أعلم بالمفسدين » معناه من يـدوم على الفساد ممن يتوب ، وإنما بقاهم الله لما في معلومه انـه يتوب منهم . وإنما جاز ان يقول « أعلم » وان لم يكن هناك كثرة علوم لاحد أمرين : احدهما ـ ان الذات تغني عن كل علم . والثاني ـ انه يراد كثرة المعلوم .

قوله تعالى :

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعمَلُ وأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعمَلُونَ (٤١) آية .

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال « وان كذبوك » هؤلاء الكفار ولم يصدقوك

وردّوا عليك بذلك ونسبوك الى الكذب « فقل لي عملي »أي إن كنت كاذباً فوباله علي « ولكم عملكم » أي ان كنتم غير محقين فيما تردونه علي وتكذبوني ، فلكم جزاء عملكم ، فانتم تبرؤن مما أعمل وأنا ابرأ من أعمالكم . وفائدة ذلك الاخبار بأنه لايجازى احد الا على عمله ، ولايؤخذ أحد بجرم غيره كما قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (١) والبراءة قطع العلقة التي توجب رفع المطالبة وذلك كالبراءة من الدين ، والبراءة من العيب في البيع ، ولم يقل النبي ﷺ هذا القول شكاً منه فيما يجازي الله الكفار والمؤمنين به من الثواب والعقاب . وانما قال على وجه التلطف لخصمه وحسن العشرة ، وأن لا يستقبلهم بما يكرهونه من الخطاب فربما كان داعياً لهم ذلك الى الانقياد والنظر في قوله . وقال ابن زيد : هذه الاية منسوخة بآية الجهاد ، وعلى ماقلناه لايحتاج الى ذلك .

قوله تعالى :

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) آية .

اخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار « من يستمع اليك » يامحمد . والاستماع طلب السمع ، فهم كانوا يطلبون السمع للرد لاللفهم ، فلذلك لزمهم الذم ، فهم اذا سمعوه على هذا الوجه كأنهم صم لم يسمعوه حيث لم ينتفعوا به . وقوله « أفأنت تسمع الصم » خطاب للنبي ﷺ بأنه لايقدر على اسماع الصم الذين لايسمعون ، وبهم صمم ، وهم الذين ولدوا صماً . والاصم المفسد السمع بما يمنع من ادراك الصوت ،وقد صم يصم صمماً .والسمع إدراك الشيء بما به يكون مسموعاً .

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

وتسمى الأذن السليمة سمعاً ، لأنه يسمع بها . وقوله « ولو كانوا لايعقلون » تشبيه من الله تعالى لهؤلاء الكفار في ترك إصغائهم الى النبي ﷺ واستماع كلامه طلباً للفائدة بالذين لايسمعون أصلا ، وان النبي ﷺ ولايقدر على اسماعهم على وجه ينتفعون به اذا لم يستمعوا بنفوسهم ، للفكر فيه ، كما لا يقدر على اسماع الصم. وقوله « من » يقع على الجمع كما يقع على الواحـــد ، فلذلك أخبر عنه بلفظ الجمع بقوله « يستمعون اليك » و (لو) في اكثر الأمر يكون مابعدها أقل مما قبلها تقول : أعطني دابة ولو حماراً ، وقد يجيء مابعدها اكثر مما قبلها ، كما يقول الرجل: انا أقاتل الاسد فيستعظم ذلك منه ، فيقال : أنت تقاتل الأسد ولـو كان ضارياً ، وعلى هذا مخرج الاية . قال الزجاج : والمعنى ولو كانوا جهالا كما قال الشاعر :

اصم عما ساءه سميع (١)

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) آية.

اخبر الله تعالى بأن من جملة الكفار « من ينظر اليك » يا محمد ﷺ ، فلم يخبر بلفظ الجمع لأنه حمله على اللفظ ، واللفظ لفظ الواحد . والنظر المذكور في الاية معناه تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته . وقيل : معناه من ينظر الى أدلتك . والنظر يكون بمعنى الاعتبار والفكر ، وهو الموازنة بين الامور حتى يظهر الرجحان او المساواة ، وذلك الجمع بين الشيئين في التقـدير بما يظهر به شهادة أحدهما بالآخر ، ثم قال « أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون »

(١) مرّ في ٢/٨٠ و ٤/١٢٥

اي نظرهم اليك لاعلى وجــه الاستفادة بمنزلة نظر الأعمى الذي لايبصر ، فكما لايقدر ان يهدي الاعمى. فكذلك هؤلاء لاينتفعون بنظرهم اليك، فكأنهم لايبصرون. والعمى آفة تمنع من الرؤية ، وهوعلى وجهين : عمى العين ، وعمى القلب .وكلاهما يصلح له هذا الحد . والابصار إدراك المبصر بما يكون به مبصراً ، كما أن السمع إدراك المسموع بما به يكون مسموعاً .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية على وجه التمدح به بأنه لايظلم أحـداً شيئاً وانما الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بارتكاب ما نهى الله عنه من القبائح فيستحقون بها عقاباً ، فكأنهم الذين أدخلوا عليها ضرراً فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم .والمعنى ـ ههنا ـ ان الله لا يمنع احداً الانتفاع بما كلفهم الانتفاع به من القرآن وأدلته، ولكنهم يظلمون انفسهم بترك النظر فيه والاستدلال به ، وتفويتهم انفسهم الثواب وإدخالهم عليها العقاب . ففي الآية دلالة على انه لايفعل الظلم ، لان فاعل الظلم ظالم ، كما أن فاعـل الـكسب كاسب ، وليس لهم أن يقولوا يفعل الظلم ولا يكون ظالماً به ، كما يفعل العلم ولايكون به عالماً . وذلك أن معنى قولنا : ظالم أنه فعل الظلم ، كقولنا : ضارب ، أنه يفيد انه فعل الضرب . وكذلك يكون ظالماً بما يفعله من الظلم في غيره ، وليس كذلك العالم ؛ لانه يفيد انه على صفة مخصوصة ولذلك قد يكون عالماً بما يفعل فيه من العلم ، ولايكون ظالماً بما يفعل فيه من الظلم ولايكون عالماً بما يفعل في غيره من العلم وليس كذلك الظلم ، فبان الفرق بينهما .

وليس لأحد ان يقول : ان الانتفاء من الظلم كالانتفاء من السنة والنوم ، في انه ليس بنفي الفعل ؛ وذلك أن الظلم مقدور قبل العدل ، وليس كذلك النوم واليقظة لانهما يستحيلان عليه . و (لكن) اذا كانت مشددة عملت عمل (إن) واذا خففت لم تعمل لأن المخففة تدخل على المفرد كما يدخل حرف العطف ، والثقيلة تدخل على الجملة فتزيل الابتداء .

قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٤٥) آية .

قرأ حفص « يحشرهم » بالياء . الباقون بالنون . قال أبو علي الفارسي : قوله « كأن لم يلبثوا » يحتمل ثلاثة أوجه : احدها – أن يكون صفة اليوم . والآخر – أن يكون صفة للمقدر المحذوف . والثالث – أن يكون حالا من الضمير في « يحشرهم » فاذا جعلته صفة لليوم احتمل أن يكون التقدير « كأن لم يلبثوا » قبله « إلا ساعة » كما قال « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف »(١) أي امسكوهن قبله ، وكذلك قوله « فان فاءوا فان الله »(٢) معناه فان فاءوا قبل انقضاء الاربعة أشهر . ويحتمل أن يكون المعنى « كأن لم يلبثوا » قبله ، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه ، ثم حذفت الهاء من الصفة . ومثله « وترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم »(٣) والتقدير وجزاؤه واقع بهم . وإن جعلته صفة للمصدر كان على هذا التقدير الذي وصفناه ، ومثله « كأن لم يلبثوا » قبله

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٣١ وسورة ٦٥ الطلاق آية ٢

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٦　　(٣) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٢

فحذف وأقام المضاف اليه مقام المضاف ، ثم حذف العائد من الصفة ، كما يحـذف من الصلة في نحو قوله « أهـذا الذي بعث الله رسولا » (١) وإن جعلته حالا من الضمير المنصوب لم يحتج الى حذف شيء في اللفظ ، لأن الذكر من الحال قد عاد الى ذي الحال . والمعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث الا ســاعة . ويحتمل أن يكون معمولا بما دل عليه قوله « كأن لم يلبثوا » فاذا جعلته معمولا لـ (يتعارفون) انتصب (يوم) على وجهين : احـدهما ـ أن يكون ظرفـاً والآخر ـ ان يكون مفعولا على السعة ، على ياسارق الليلة أهل الدار .

ومعنى « يتعارفون » يحتمل امرين :

احدهما ـ ان يكون المعنى يتعارفون مدة إماتتهم التي وقع حشرهم بعدها وحذف المفعول للدلالة عليه ، أو يكون أعمل الفعل الذي دل عليه (يتعارفون) ألا ترى انه قد دل على سيعلمون إذ يتعارفون ، فعلى هذا يكون قوله « ويوم يحشرهم » معمول « يتعارفون » .

والآخر ـ أن يكون « يوم يحشرهم » معمول ما دل عليه قوله « كأن لم يلبثوا » لأن المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث ، فعمل في الظرف هذا المعنى ولايمنع المعنى من أن يعمل في الظرف وان تقدم الظرف عليه كقولهم : أكل يوم لك ثوب ؟ واذا جعلت « يتعارفون » العامل في « يحشرهم » لم يجز أن يكون صفة اليوم ، على أنك كأنك وصفت اليوم بقوله كأن لم يلبثوا ويتعارفون ، فوصفت يوم يحشرهم بجملتين لم يجز أن يكون معمولا لقوله « يتعارفون » لأن الصفة لاتعمل في الموصوف ، وجاز وصف اليوم بالجمل وان أضيف ، لأن الاضافة ليست محضة ، فلم تعرفه . ومن قرأ بالنون فلقوله « وحشرناهم فلم نغادر » (٢) وقوله «فجمعناهم جمعاً » (٣) وقوله « ونحشره يوم القيامة أعمى » (٤) . ومن قرأ بالياء فلقوله

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١
(٢) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨
(٣) سورة ١٨ الكهف آية ١٠٠
(٤) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

« ليجمعنكم الى يوم القيامة » (١) والنون والياء متعارفان في مثل هذا بدلالة قوله « وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه » (٢) فعلم من هذا ان كل واحد منهما يجري مجرى الآخر .

يقول الله تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلق الى المحشر والموقف « كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار » عند أنفسهم ؛ لقلة بقائهم فيها وسرعة تصرمها عنهم مع طول وقوفهم يوم القيامة ومع علمهم بدوام بقائهم في الآخرة ، شبه قرب الوقت الى ذلك الحين بساعة من النهار لأن كل ما هو آت قريب ، كما قال« اقتربت الساعة » (٣) ودل بذلك على أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا إذ كان عاقبة ذلك الى الزوال . وقوله « يتعارفون بينهم » اخبار منه تعالى أن الخلق يعرّف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت خسرانهم ويتذاكرونه . وقوله « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله » اخبار منه تعالى بأن الذين كذبوا بالبعث والنشور ولقاء ثواب الله ولقاء عقابه يخسرون نفوسهم . والخسران ذهاب رأس المال، فالنفس أكبر من رأس المال. وقوله « وما كانوا مهتدين » معناه لا يكونون مهتدين الى طريق الجنة لكونهم مستحقين للعقاب . وقال الزجاج : معنى الآية قرب ما بين موتهم وبعثهم كما قالوا « لبثنا يوماً أو بعض يوم » (٤) و «يتعارفون بينهم » أي يعرف بعضهم بعضاً ، وفي ذلك توبيخ لهم وإثبات الحجة عليهم .

قوله تعالى :

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٨٦ وسورة ٦ الانعام آية ١٢

(٢) سورة ٢٠ طه آية ١٢٧ (٣) سورة ٥٤ القمر آية ١

(٤) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١٤ ، وسورة ١٨ الكهف آية ١٩

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) آية.

نون التأكيد في الجزاء لاتجوز الا مع (ما) كما لايجوز الجزاء بـ (اذ ، وحيث) الا مع (ما) يخرجونها عن اخواتها ، فـدخلت (ما) لتقريبها منها ، فالنون تدخل في الأمر والنهي والاستفهام والعرض، وكله طلب ، وكله غير واجب . وليس في الجزاء طلب إلا أنه يشبه غير الواجب .

وقوله « نرينك » من رؤية العين لأنها لو كانت من رؤية الاعـلام لتعدى الى مفعولين والبعض شيء يفصل من الكل، والبعض والقسم والجزء نظائر. والتوفي القبض على الاستيفاء بالأمانة ، لأن الروح تخرج من البدن على تمام وكمال من غير نقصان . ومعنى الاية إن أريناك يامحمد بعض مانعد هؤلاء الكفار من العـذاب عاجـلا بأن ننزل عليهم ذلك في حياتك ، وإن أخرنا ذلك عنهم الى بعـد وفاتك ووفاتهم ، فان ذلك لايفوتهم ، لأنه الينا مرجعهم ، والله شاهد بأعمالهم ، وعالم بها ، وحافظ لها ، فهو يوفيهم عقاب معاصيهم . وقال مقاتل : المعنى إمـا نرينك بعض الذي نعد المؤمنين من النصر والاعلاء ، وهو يوم بدر . وقوله « ثم الله » عطف في قول الفراء ، وقال غيره : (ثم) بمعنى الواو .

قوله تعالى :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن لكل جماعة على دين واحد وطريقة واحدة كأمة محمد وأمة موسى وعيسى عليهم السلام رسولا بعثه الله اليهم وحمله الرسالة التي يؤديها اليهم ليقوم بأدائها . وقولـه « فاذا جـاء رسولهم » يعني يوم القيامـة ـ في قول مجاهد ـ وقال الحسن: في الدنيا، بما أذن الله تعالى من الدعاء عليهم .وقوله « قضي

بينهم » معناه فصل بينهم الأمر على الحتم . والله تعالى يقضي بين الخصوم أي يفصل بينهم فصلا لايرد « بالقسط » يعني بالعدل . والمقسط العادل . والقاسط الجائر ، ومنه قوله « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » (١) والأصل واحد ، والمقسط العادل الى الحق والقاسط العادل عن الحق . وقولـه « وهم لايظلمون » إنما نفى عنهم الظلم بعد أن وصف أنه يقضي بينهم بالعدل ليكون العدل في جميع الأحوال من الابتداء الى الانتهاء ، لأنه كان يمكن ان يكون العدل في أوله والظلم في آخره، فنفى بذلك نفياً عاماً ليخلص العدل في كل أحوالهم .

قوله تعالى

وَيقُولُونَ متى هٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) آية

حكى الله تعالى عن الكفار والذين تقدم وصفهم أنهم « يقولون متى هذا الوعد» الذي تعدونا به من البعث والنشور والثواب والعقاب « إن كنتم صادقين » في كون ذلك . والقول كلام مضمن في ذكره بالحكاية ، وقد يكون كلام لايعبر عنه ، فلا يكون له ذكر متضمن بالحكاية ، فلا يكون قولا ، لأنه إنما يكون قولا من أجل تضمين ذكره بالحـكاية . و « متى » سـؤال عن الزمان . و (أين) سؤال عن المكان ، وهما ظرفان يتصلان بالفعل من غـير حرف إضافة تقول : متى يكون هذا ، ولايجوز أن تقول : ما يكون هذا على معنى الظرف . ولكن في ما يكون هذا . والوعد خبر مايعطى من الخير . والوعيد خبر مايعطى من الشرّ ، هذا اذا فصل فان اجمل وقع الوعد على الجميع . والصدق الاخبار عن الشيء على ما هو به.

قوله تعالى

قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللهُ لِكُلِّ

(١) سورة ٧٢ الجن آية ١٥

أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) آية

لما حكى الله تعالى عن الكفار استبطاءهم ماوعد الله وقولهم « متى هذا الوعد » امر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم على وجه الانكار عليهم إني « لااملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً » من الثواب والعقاب بل ذلك الى الله، ولا أملك إلا ما ملكني الله، فكيف أملك لكم. والملك هو القدرة على التصرف في الشيء على وجه ليس لأحد منعه منه، فالانسان لايملك إلا ماملكه الله، لأن له تعالى منعه منه. وقد يملك الطفل ومن لاعقل له من المجانين بالحكم. والنفع هو اللذة أو السرور أو ماأدى إليهما او الى واحد منهما. والضرر الألم نفسه أو الغم او ما أدى اليهما او الى واحد منهما. وقوله « إلا ما شاء الله » أن يملكني إياه من نفع او ضر، فيمكنه مما جعل له أخذه او اوجب عليه تركه. والاجل هو الوقت المضروب لوقوع امر، كأجل الدين وأجل البيع واجل الانسان واجل المسافر فاخبر تعالى انه إذا اتى اجل الموت الذي وقته الله لكل حي بحياة، لايتأخر ذلك ساعة ولايتقدم على ماقدره الله تعالى.

قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) آية

امر الله تعالى نبيه بهذه الاية ان يقول لهؤلاء الكفار الذين استبطأوا وعد الله « ارأيتم » اي اعلمتم؟ لانها من رؤية القلب، لانها دخلت على الجملة من الاستفهام « ان اتاكم عذابه » يعني عذاب الله. والعذاب الالم المستمر واصله

الاستمرار ، ومنه العذوبة لاستمرارها في الحلق « بياتاً » وهو إتيان الشيء ليلا يقال بيته تبييتاً وبياتاً وبات بيتوتة ، وفلان لايستبيت إذا لم يكن له مايبيت به. وجواب« إن » محذوف ،وتقدير الكلام ارايتم ماذا يستعجل المجرمون من العذاب إن أتاكم عذابه بياتاً او نهاراً ، ووقع « إن أتاكم » في وسط الكلام موقع الاعتراض .ومعنى (ما) فيقوله « ماذا »للانكارلأن يكون في العذاب شيءيستعجل به ،وجاء علىصيغة الاستفهام ، لأنهلاجواب لصاحبه يصح له . وقال ابو جعفرعليه السلام هو عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة . نعوذ بالله منه . وقال الزجاج : موضع (ماذا) رفع من وجهين : احدهما ـ ان يكون (ذا) بمعنى (الذي) والتقدير ماالذي يستعجل منه المجرمون . ويجوز أن يكون (ماذا)إسماً واحداً ، والمعنى اي شيء يستعجل منه . والهاء في قوله « منه » عائدة على العذاب ويجوز ان تكون عائدة على الاستعجال .

قوله تعالى :

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) آية

« أثم » دخلت الف الاستفهام على (ثم) ليدل على ان الجملة الثانية بعد الاولى مع أن للألف صدر الكلام . وقال الطبري معنى (ثم) ـ ههنا ـ (هنالك) وهذا غلط ، لان (ثم) بالفتح تكون بمعنى هنالك ، وهذه مضمومة فلا تكون الاللعطف . والعامل في (إذا) يحتمل أمرين : احدهما ـ ان يكون « آمنتم به» على أن تكون (ما) صلة . الثاني ـ ان يكون العامل (وقع) وتكون (ما) مسلطة على الجزاء . وإنما جاز ان يعمل الفعل الأول في الجزاء دون الثاني ، ولم يجز في (إذا) لئلا يختلط الشرط بجزائه وليس كذلك (إذا) لانها مضافة الى

الفعل الذي بعدها . والوقوع الحدوث . وقوله « آلآن » مبني على الفتح ، لأن تعريفه كتعريف الحرف في الانتقال من معنى الى معنى . ومعناه عند سيبويه أنحن من هذا الوقت نفعل كذا ، وفتحت لالتقاء الساكنين . وقال الفراء : أصلها (آن) دخلت عليها الالف واللام وبنيت كالذين ، ودخول الالف واللام على اللزوم لا يمكنه ، كما لايمكن الذي . ومعنى الآية أتأمنون حلول هذا العذاب بكم ؟ ثم يقال لكم إذا وقع بكم العذاب وشاهدتموه : آلآن آمنتم به ، وكنتم به تستعجلون . وفائدتها الابانة عما يوجبه استعجال العذاب من التوبيخ عند وقوعه حين لايمكن استدراك الامر فيه بعد أن كان ممكناً لصاحبه .

قوله تعالى :

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) آية .

قوله (ثم) عطف على الايمان الذي وقع في حال الالجاء اليه . و « قيل » لهم بعد ذلك هذا القول على وجه التوبيخ والتقريع ، لأنها ليست حال استدراك لما فات . والمعنى انه يقال لهؤلاء الذين آمنوا حين نزول العذاب بهم ـ وقيل لهم آلآن وقد استعجلتم « ذوقوا عذاب الخلد » يعني الدائم . ويقال لهم « هل تجزون » بهذا العقاب الا بما كنتم تكسبون من المعاصي . والذوق طلب الطعم بالفم في الابتداء ، شبهوا بالذائق لانه أشد إحساساً . وقيل لأنهم يتجرعون العذاب بدخوله أجوافهم .

قوله تعالى :

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ (٥٣) آية

معنى « ويستنبؤنك » يستخبرونك أي يطلبون النبأ الذي هو الخبر « أحق هو » يعني هذا الوعيد الذي ذكره الله في هذه الآية الأولى ، فقال الله لنبيه «قل إي وربي » أي نعم وحق الله انه لحق . والحق في الدين ما شهدت به الادلة الموجبة للعلم او اقتضاه غالب الظن فيما طريقه الظن . وقوله « وماانتم بمعجزين » أي لستم تقدرون على اعجاز الله عما يريده من انزال العذاب بكم .

قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) آية.

أخبر الله تعالى على وجه التعظيم لهذا العذاب وشدته بأنه لو كان لمن ظلم بارتكاب المعاصي « مافي الارض » من الأموال « لافتدت به» من هول مايلحقه من العذاب. وفتحت (أن) بعد (لو) لأنها مبنية على ماهو بمنزلة العامل لاختصاصها بالفعل، والتقدير لو كان أن لكل نفس ، إلا أنــه لايظهر المعنى عن اظهاره بطلب (أن) له . وجاز أن تقع (أن) بعد (لو) ولم يجز المصدر ، لأن فتحها يدل على إظمار العامل اللفظي وليس كذلك المصدر ، لأنه مما يعمل فيه الابتداء .

والافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه يقال : فداه يفديه فديــة وفداء، وافتداه افتداء ، وفاداه مفاداة وتفادى تفادياً ، وفدّاه تفدية .

وقوله «واسروا الندامة لما رأوا العذاب » أي أخفوا الندامة . وقيل «وأسروا الندامة » رؤساء الضلالة من الاتباع والسفلة . وقيل « أسروا الندامة » أي اخلصوها .

والندامة الحسرة على ما كان يتمنى انه لم يكن ، وهي حالة معقولة يتأسف صاحبها على ماوقع منه ويود أنه لم يكن أوقعه . وقال ابو عبيدة « أسروا » معناه أظهروا. قال الازهري : هذا غلط إنما يكون بمعنى الاظهار ما كان بالشين المنقطة من فوق وقوله « وقضي بينهم بالقسط » اي فصل بينهم بالعدل « وهم لايظلمون » في القضاء والحكم بينهم ومايفعل بهم من العقاب ، لأنهم جرّوه على أنفسهم بارتكاب المعاصي. وروي أنــه قيل لرسول الله ﷺ مايغنيهم اسرار الندامـة وهم في النار ؟ قال : (يكرهون شماتة الاعداء) وروي مثله عن أبي عبد الله عليه السلام .

قوله تعالى :

أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٥) آية

« ألا » كلمة تستعمل في التنبيه ، وأصلها (لا) دخلت عليها حرف الاستفهام تقريراً وتأكيداً ، فصارت تنبيهاً وكسرت (إن) بعد (ألا) لأن (ألا) يستأنف مابعدها لينبه بها على معنى الابتداء : ولذلك وقع بعـدها الامر والدعاء كقول امريء القيس :

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي(١)

ووجه اتصال هذه الاية بماقبلها أحد أمرين : احدهما ـ للاثبات بعد النفي لأن ماقبلها تقديره ليس للظالم مايفتدي به بل جميع الملك لله تعالى . والثاني ـ ان يكون معناه من يملك السموات والارض يقدر على ايقاع ماتوعد به . والسموات جمع سماء وهومأخوذ من السمو الذي هوالعلو ،وهي المزينة بالكواكب وهي سقف الأرض ، وهي طبقات ، كما قال سبع سموات طباقاً . وجمعت السموات ، ووحدت

---

(١) ديوانه ١٥٨ وهو مطلع قصيدة له مشهورة .

الارض في جميع القرآن ، لان طبقاتها السبع خفية عن الحس وليس كذلك السموات . وقوله « ألا ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون » صحة ذلك لجهلهم به تعالى وبما يجوز عليه ومالا يجوز ، وجهلهم بصحة ما أتى به النبي ﷺ

قوله تعالى

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) آية .

في هذه الاية اخبار منه تعالى أن الذي يملك التصرف في السموات والارض هو الذي يحيي الخلق بعد كونهم أمواتاً وهو الذي يميتهم إذا كانوا أحياء ثم يرجعون اليه يوم القيامة فيجازيهم بمثل أعمالهم إن كانوا مطيعين بالثواب الدائم ، وان كانوا كفاراً بالعقاب الدائم . قال أبو علي : في هذه الآية دلالة على أنه لايقدر على الحياة إلا الله لأنه تعالى تمدّح بكونه قادراً على الاحياء والاماتة ، فلو كان غيره قادراً على الحياة لما كان في ذلك مدح . وفيها دلالة على كونه قادراً على الاعادة لان من قدر على النشأة الأولى يقدر على النشأة الثانية .

قوله تعالى :

يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) آية

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من الناس يخبرهم الله تعالى بأنه أتاهم موعظة من الله . والموعظة ما يدعو الى الصلاح ويزجر عن القبيح بما يتضمنه من الرغبة والرهبة ويدعو الى الخشوع والنسك ، ويصرف عن الفسوق والاثم ، ويريد بذلك القرآن وما أتى به النبي ﷺ من الشريعة . وقوله « وشفاء لما في الصدور » فالشفاء معنى كالدواء لازالة الداء. فداء الجهل أضر من داء البدن وعلاجه أعسر

وأطباؤه اقل والشفاء منه أجل . والصدور جمع صدر وهو موضع القلب ، وهو اجل موضع في الحي لشرف القلب . وقوله « وهدى ورحمة للمؤمنين » وصف القرآن بأنه يقال عما يؤدي الى الحق ودلالة تؤدي الى المعرفة ونعمة على المحتاج لأنه لايقال للملك إذا اهدى الى ملك آخر جوهرة أنه قد رحمه بذلك . وإن كانت نعمة يجب بها شكره ومكافأته . وإنما أضافه الى المؤمنين ، لأنهم الذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم ينتفعوا به ، كما قال « هدى للمتقين » وإن كان هدى لغيرهم .

قوله تعالى :

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَالِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(٥٨) آية .

قرأ الحسن « فلتفرحوا » بالتاء . وبه قرأ ابو جعفر المدني ورويس وروي ذلك عن أبي بن كعب . الباقون بالياء . وكان الكسائي يعيب القراءة بالتاء وأجازها الفراء واحتج بقولهم : لتأخذوا مصافكم . واللام في قوله « فليفرحوا » لام الامر وإنما احتيج اليها ليؤمر الغائب بها . وقد يجوز أن يقع في الخطاب للمتصرف في الكلام . وقرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس « تجمعون » بالتاء . الباقون بالياء . قال ابو علي: الجار في قوله « فبذلك » يتعلق بقوله « فليفرحوا » لان هذا الفعل يصل به قال الشاعر :

فرحت بما قد كان من سيديكما (١)

والفاء في قوله « فبذلك فليفرحوا » زائدة لأن المعنى فافرحوا بذلك ومثله قول الشاعر :

---

(١) قائله زهير ابن ابي سلمى ديوانه : ١٠٩

فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (١)

فالفاء في قوله فاجزعي زيادة مثل التي في « فليفرحوا » وقال الفراء «فبذلك» بدل من قوله « بفضل الله وبرحمته » . ومن قرأ بالياء جعله أمراً للغائب ،واللام انما تدخل على فعل الغائب لان المواجهة استغني فيها عن اللام بقولهم (افعل) فصار مشبهاً للماضي في قولك (يدع) الذي استغني عنه بـ (ترك) ، ولو قلت بالتاء لكنت مستعملا لما هو كالمرفوض ، وان كان الاصل . ولايرجح القراءة بالتاء لكونها هي الاصل لانه اصل مرفوض . ومن قرأ بالتاء اعتبر الخطاب الـذي قبله من قوله « قد جاءتكم موعظة ... فلتفرحوا » وزعموا أنها في قراءة ابي فافرحوا قال ابوا الحسن : وزعموا انها لغة وهي قليلة بمعنى لتضرب ، وانت تخاطب . فان قيل : كيف جاء الامر للمؤمنين بالفرح ، وقـــد ذم الله ذلك في مواضع من القرآن كقوله « إن الله لايحب الفرحين » (٢) وقال « إنه لفرح فخور » (٣) وغير ذلك ؟ . قيل : اكثر ماجاء مقترناً بالذم من ذلك ما كان مطلقاً ، فاذا قيد لم يكن ذماً كقوله « يرزقون فرحين » (٤) وفي الاية مقيد بذلك. فأما قوله « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » (٥) فانه مقيد ومع ذلك فهو مذموم ، لكنه مقيد بما يقتضي الذم ، كما جاء مقيداً بما لايقتضي الذم ، فمطلقه يقتضي الـذم ، ومقيده بحسب ما يقيد به ، فان قيد بمايقتضي الذم أفاد الذم وإن قيد بما يقتضي المدح أفاد المدح . فأما قوله « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العـــلم » (٦) وقوله « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » (٧) والفرح بنصر الله للمؤمنين محمود ، كما ان القعود عن رسول الله بالتقييد في الموضعين مذموم .

(١) قد مرّ في ١٧٤/٥
(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٦
(٣) سورة ١١ هود آية ١٠
(٤) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠
(٥) سورة ٩ التوبة آية ٨٢
(٦) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٣
(٧) سورة ٣٠ الروم آية ٤ ـ ٥

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يقول للمكلفين افرحوا بفضل الله ، وهوزيادة نعمه وانما جاز أن يقول : فضل الله ، وانما هـو من افضال الله ، لانـه في موضع افضال ، كما ان النبات في موضع إنبات في قوله « أنبتكم من الارض نباتاً»(١) وايضاً فان اضافة الفضل الى الله بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى انه مالك له . والفرح لذة في القلب بادراك مايحب ،وان شئت قلت :هو لذة في القلب بنيل المشتهى ، وقد حسنه الله في هذه الاية ، فدل على انه لايحب الفرحين بمعنى البطرين. وقوله « هو خير مما يجمعون » قيل فضل الله هو القرآن ، ورحمته هو الاسـلام « خير مما يجمعون » من الذهب والفضة . ذكره ابن عباس وابو سعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد . ومن قرأ بالياء عنى بـه المخاطبين والغيب ، غير أنـه غلب الغيّب على المخاطبين ، كما غلب التذكير على التأنيث ، فكأنه أراد به المؤمنين وغيرهم . ومن قـرأ بالتاء كان المعنى فافرحوا بـذلك ايها المؤمنون اي افرحوا بفضل الله ، فان ما آتاكموه من الموعظة شفاء ما في الصدور خير مما يجمع غيركم من اعراض الدنيا . وقال ابو جعفر عليه السلام « بفضل الله » يعني الاقرار برسول الله و « برحمته» الائتمام بعلي عليه السلام « خير مما » يجمع هؤلاء من الذهب والفضة .وإذا حملت الاية على عمومها كان هذا ايضاً داخلا فيها .

قوله تعالى

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) آية .

قال الحسن : المعني بهذه الاية مشركوا العرب قال الله لهم « أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق » أي أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله « فجعلتم منه حراماً

---

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

وحلالا » يعني ماحرموا من السائبة والوصيلة والحـام ، وماحرموا من زروعهم .
قل يامحمد لهم « آلله أذن لكم أم على الله تفترون؟ » معناه انه لم يأذن لكم في شيء من ذلك بل انتم تكذبون في ذلك على الله . واستدل قوم بذلك على أن القياس في الاحكام لايجوز . قال الزجاج (ما) في قوله « ماأنزل الله » في موضع نصب بـ (انزل) والمعنى انكم جعلتم البحائر والسوائب حراماً ، والله تعالى لـم يحرم ذلك وتكون (ما) بمعنى الاستفهام . ويحتمل أن تكون (ما) بمعنى الـذي وتكون نصباً بـ (أرأيتم) . والرزق منسوب كله الى الله لأنه لا سبيل للعبد اليه الا باطلاقه بفعله له او اذنه فيه اما عقلا او سمعاً . ولايكون الشيء رزقاً بمجرد التمكين لانه لو كان كذلك لكان الحرام رزقاً ، لان الله مكّن منه . قال الرماني: التحريم عقد بمعنى النهي عن الفعل والتحليل حل معنى النهي بالاذن .

قوله تعالى :

وَمَاظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ إِنَّ ٱللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) آية

المعنى أي شيء يظن الذين يكذبون على الله انه يصيبهم يوم القيامة على افترائهم على الله . اي لاينبغي ان يظنوا ان يصيبهم على ذلك الا العذاب والعقاب . وجعـل ذلك زجراً عن الكذب على الله . ثم اخبر تعالى « ان الله لـذو فضل على الناس » بما فعل بهم من ضروب النعم « ولكن اكثرهم لايشكرون » نعمه ولايعترفون به ويجحدونه . وهذا خرج مخرج التقريع على افتراء الكذب . وإن كان بصورة الاستفهام وتقديره ايؤديهم الى خير ام شر ؟ وافتراء الكذب أفحش من فعل الكذب بتزويره وتنميقه فالزاجر عنه اشـد . وقيل : معنى قوله « لذو فضل على الناس » أي لم يضيق عليهم بالتحريم لما لا مصلحة لهم في تحريمه كما ادعيتم عليه . وقيل:

معناه انه لذو فضل على خلقه بترك معاجلة الكذاب بالعقوبة في الدنيا ، وامهاله إياه الى يوم القيامة .

قوله تعالى :

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) آية .

قرأ الكسائي « يعزب » بكسر الزاي هنا وفي سبأ . الباقون بضمها ، وهما لغتان . وان كان الضم أفصح واكثر . وقرأ حمزة وخلف ويعقوب « ولااصغر ... ولا اكبر » بالرفع فيهما . الباقون بفتحهما . فمن فتح الراء فلأن (افعل) في الموضعين في موضع جر ، لأنه صفة المجرور الذي هو قوله « مثقال ذرة » وانما فتح ، لأن (افعل) اذا اتصل به منكر كان صفة لاتنصرف في النكرة . ومن رفعه حمله على موضع الموصوف ، لأن الموصوف الذي هو « من مثقال ذرة » الجار والمجرور في موضع رفع ، كما كانا في موضعه في قوله « كفى بالله » (١) ومثل قوله « من إله غيره » (٢) فمن رفع يجوز ان يكون صفة بمنزلة (مثل) ويجوز أن يكون استثناء كما تقول : مالكم من إله الا الله . ومثله « فاصدّق واكن

---

(١) سورة ٤ النساء آية ٥ ، ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ويونس آية ٢٩ والرعد ٤٥ والاسرى ٩٦ ، والعنكبوت ٥٢ ، والاحزاب ٣ ، ٤٨ والفتح ٢٨ .

(٢) سورة ١١ هود آية ٥٠ ، ٦١ ، ٨٣ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٣ ، ٣٢

من »(١) وغير ذلك . ويجوز أن يعطف قوله « ولا اصغر » على « ذرة » فيكون التقدير ومايعزب عن ربك مثقال ذرة ولا مثقال اصغر ، فعلى هذا لايجوز الاالجر لانه لاموضع للذرة غير لفظها ، كما كان لقولك من مثقال ذرة موضع غير لفظه. ولايجوز على قراءة حمزة ان يكون معطوفاً على (ذرة) كما جاز في قول الباقين لأنه اذا عطف على (ذرة) وجب ان يكون اصغر مجروراً ، وانما فتح ، لأنه لاينصرف وكذلك يكون على قول من عطفه على الجار الذي هو (من) .

معنى قوله « وماتكون في شأن » ليس تكون في حال من الاحوال ، لأن الشأن والبال والحال نظائر وجمعه شؤن . والشأن معنى مفخم على طريق الجملة يقال : ما شأنك وماحالك وما بالك . وقوله « وما تتلو منه من قرآن »اي وليس تتلو من القرآن ،فتكون الهاء كناية عن القرآن قبل الذكر لتفخيم ذكر القرآن، كما قال « إنه أنا الله العزيز الحكيم » (٢) ويحتمل أن تكون الهاء عائدة على الشأن وتقديره وما يكون من الشأن . وقوله « وماتعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً » اي ليس يخفى على الله شيء من اعمالكم بل يعلمها كلها ويشهدها. والمشاهدة الادراك بالحاسة .والمشاهد المدرك بحاسة اي ذات يعني عن حاسة يقال : شاهد وشهود وشهداء . وقوله « اذ تفيضون فيه » فالاضافة الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه ، وهو الانبساط اليه في العمل مأخوذ من فيض الاناء اذا انصب من جوانبه . ومنه قوله « أفضتم من عرفات » (٣) اي تفرقتم كتفرق الماء الذي ينصب من الاناء . ومثله أفاض الماء عليه وافاض في الحديث وقوله « ومايعزب عن ربك » فالعزوب الذهاب عن المعلوم وضده حضور المعنى للنفس . وتعزّب اذا انفرد عن اهله . وقال ابن عباس معنى لايعزب لايغيب . وقوله « من مثقال ذرة » فالذر صغار النمل واحده ذرّة ، وهو خفيف الوزن جداً . ومعنى مثقال ذرة وزن

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ١٠　　(٢) سورة ٢٧ النمل آية ٩
(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٨

ذرة يقال : خذ هذا فانه أخف مثقالا اي اخف وزناً . وقوله « ولا اصغر من ذلك ولاا كبر الا في كتاب مبين » معناه لايخفى عليه ماوزنه مثقال ذرة ولاماهو اصغر منها ولا ماهو اكبر الا وقد بينه في الكتاب المحفوظ وكتبته ملائكته وحفظوه .

قوله تعالى:

أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)آية .

بين الله تعالى في هذه الاية أن أولياءه لاخوف عليهم يوم القيامة من العقاب « ولاهم يحزنون » اي ولايخافون . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هم قوم ذكرهم الله بماهم عليه من سيماء الخير والاخبات . وقال ابن زيد : هم الذين آمنوا وكانوا يتقون . وقد بينهم في الاية بعدها . وقال قوم : هم المتحابون في الله ذكر ذلك في خبر مرفوع . والاولياء جمع ولي وهو الذي يستحق من الله ان يوليه ثوابه وكرامته، وهو المطيع لله الذي يتولى اجلاله واعظامه . وقيل :الولي النصيرولا يسمى المتولي الانعام على غيره انه وليه ، لانه قد يتولى الانعام عليه للمظاهرة بالجميل في امره واستصلاحه الذي يصرف عن القبيح ، وان كان عدوه . ولايجتمع الولاية والعداوة. والخوف انزعاج القلب لما يتوقع من المكروه . والخوفوالفزع والجزع نظائر ، وضده الأمن . والحزن غلظ الهمّ مأخوذ من الحزن ، وهيالارض الغليظة ،وضده السرور . قال الجبائي: هذه الآية تدل على ان المؤمنين المستحقين للثواب لايخافون يوم القيامة اصلا بخلاف مايقول قوم انهم يخافون الى ان يجوزوا الصراط . وقال البلخي :ليس يمتنع ان يخافوا من اهوال يوم القيامة وان علموا ان مصيرهم الى الجنة والثواب . وعلى ما نذهب اليه من انه يجوز ان يعاقب الله بعض الفساق ثم يردهم الى الثواب ينبغي ان تكون الآية مخصوصة بمن لايستحق العقاب اصلا او نقول المراد بذلك لاخوف عليهم ولاهم يحزنون لذلك . وروي عن الحسين عليه‌السلام انهم الذين ادّوا فرائض الله واخذوا بسنن رسول الله وتورعوا

عن محارم الله وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورغبوا فيما عند الله وا كتسبوا الطيب من رزق الله لمعايشهم لايريدون به التفاخر والتكاثر. ثم انفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة ،فاولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ماقدموا منه لآخرتهم.

قوله تعالى:

أَلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) آية.

يحتمل موضع (الذين) ثلاثة أوجه من الاعراب : احدها ـ ان يكون نصباً بأن يكون صفة للاولياء. والثاني ـ ان يكون رفعاً على المدح. والثالث ـ ان يكون رفعاً بالابتداء، وخبره « لهم البشرى ».

اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا هم الذين يصدقون بالله ويعترفون بوحدانيته وهم مع ذلك يتقون معاصيه .والفرق بين الايمان والتقوى ان التقوى مضمن باتقاء المعاصي مع منازعة النفس اليها. والايمان من الأمن بالعمل من عائد الضرر. والفرق بين الايمان بالله والطاعة له ان الطاعة من الانطياع بجاذب الأمروالارادة المرغبة في الفعل. والايمان هو الامن المنافي لانزعاج القلب. وقوله « يتقون » فالاتقاء اصله من (وقيت) فقلبت الواو، وادغمت في تاء الافتعال كما قلبت في اتجاه وتراث .

قوله تعالى:

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤) آية

ذكر الله تعالى ان الذين وصفهم في الاية الاولى من انهم مؤمنون بالله ويتقون معاصيه « لهم البشرى » وهي الخبر بما يظهر سروره في بشرة الوجه. والبشرى

والبشارة واحد . وقوله « في الحياة الدنيا » قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال قتادة والزهري والضحاك والجبائي: هو بشارة الملائكة عليهم السلام انها الرؤيا الصادقة الصالحة يراها الرجل اويرى له . وقال ابوجعفر عليه السلام البشرى في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن اويرى له وفي الآخرة الجنة . والثالث ـ بشرى القرآن بشرف الايمان ـ ذكره الفراء والزجاج وغيرهما . وقوله « لاتبديل لكلمات الله » معناه لاخلف لما وعد الله تعالى به من الثواب بوضع كلمة اخرى مكانها بدلا منها ، لانها حق والحق لاخلف له بوجه . وقوله « ذلك هو الفوز العظيم » اشارة الى هذه البشرى المتقدمة بأنه الفوز الذي يصغر كل شيء في جنبه .

قوله تعالى :

وَلاَ يَحزُنكَ قَولُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) آية.

ظاهر قوله « ولايحزنك قولهم» ظاهره النهي والمراد به التسلية للنبي صلى الله عليه وآله عن قولهم الـذي يؤذونه به . والنهي في اللفظ القول . وانما هو عن السبيل المؤدي الى التأذي بالقول . ومثله لااراك ههنا والمعنى لاتكن ههنا فمن كان ههنا رأيته ، فكذلك المراد بالآيـة لاتعبأ بالأذى فيمن عني به اذاه . وقوله « ان العزة لله جميعاً » كسرت (إن) بالاستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن لاانها مفعول القول لانها ليست حكاية عنهم ، لانهم لم يقولوا ان العزة لله . ولايجوز نصبها على ان تكون معمول القول لانهم لو قالوه لما احزن ذلك النبي صلى الله عليه وآله ولو فتحت (ان) على معنى (لان) جاز . والعزة القدرة على كل جبار بالقهر بأن لايرام ولايضام عز يعز عزاً فهو عزيز .والمعنى انه الذي يعزك وينصرك حتى تصير اعز ممن ناواك وقوله « هو السميع العليم » معناه انه يسمع قولهم ويعلم ضميرهم فيجازيهم بما تقتضية حالهم ويدفع عنك شرهم .

قوله تعالى

ألاَ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَن فِي ٱلأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) آية

قد بينا فيما مضى أن أصل (ألا) (لا) وانما دخلت عليها حرف الاستفهام تنبيهاً . والفرق بين (ألا) و (أما) أن (ألا) للاستقبال ولاتقع بعـــدها (إن) الا مكسورة . و (اما) تكون بمعنى حقاً كقولهم اما انه منطلق ، لأنهـا للحال ويجوز بعد (اما) كسر (ان) وفتحها .

لما سلى الله النبي صلى الله عليه وآله فقال « لايحزنك » قول هؤلاء الكفار فـ « ان العزة لله » يعني القدرة والقهر فانهم لايفوتونه ، بين بعد ذلك مايدل عليه وينبه على صحته وهو أن له تعالى « من في السموات ومن في الارض » يعني العقلاء . واذا كان لـه ملك العقلاء فمـا عداهم تابع لهم ، ووجب ان يكون ملكاً له وانما خص العقلاء تعظيماً للامر . وقوله « ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء » تحتمل (ما) في قوله « وما يتبع » وجهين : احدهما ـ ان تكون بمعنى (اي) كأنه قال واي شيء يتبع الـــذين يدعون من دون الله شركاء ، تقبيحاً لفعلهم . الثاني ـ ان تكون نافية ، وتقديره ومايتبعون شركاء في الحقيقة والمعرفة .

وقوله « ان يتبعون الا الظن » معناه ليس يتبعون في اتخاذهم مع الله شركاء الا الظن لتقليدهم اسلافهم في ذلك او لشبهة دخلت عليهم بأنهم يتقربون بذلك الى الله تعالى وبين بعد ذلك انهم ليسوا الا كاذبين بهذا القول والاعتقاد ـ في قوله « ان هم الا يخرصون » . وفائدة الاية الابانة عن انه يجب اخلاص العبادة لمن يملك السموات والارض وان لايشرك معه في العبادة غيره .

قوله تعالى

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) آية

بين الله تعالى في هذه الآية ان الذي يملك من في السموات ومن في الارض « هو الذي جعل الليل » اي خلقه « لتسكنوا فيه » اي خلقه وعرّضه لتسكنوا فيه وانه لاجل ذلك خلقه ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل « النهار مبصراً » وانما يبصر فيه تشبيهاً ومجازاً واستعارة في صفة الشيء بسببه على وجه المبالغة ومثله قول جرير :

لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى ونمت وماليل المطي بنائم (١)

وقال رؤبة :

ونام ليلي وتجلى همي (٢)

والفرق بين الجعل والفعل ان جعل الشيء قد يكون باحداث غيره كجعل الطين خزفاً ولا يكون فعله إلا باحداثه . والفرق بين الجعل والتغيير أن تغيير الشيء لايكون الا بتصييره على خلاف ماكان ، وجعله يكون بتصييره على مثل ماكان كجعل الانسان نفسه ساكتاً على استدامة الحال .

وقوله « ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون » اخبار منه تعالى وتنبيه على ان هذا الجعل لايقدر عليه الا الله تعالى ، وانه لايصح الا من عالم قاصد ، وانه نعمة على الخلق بما لهم في ذلك من النفع والصلاح ، وانه من الامور اللازمة الدائرة، وانه منصوب للفكر لايغيب عنه طرفة عين .

(١) ديوانه ٥٤٤ وتفسير الطبري ٨٩/١١ ومجاز القرآن ١/ ٢٧٩
(٢) ديوانه ١٤٣ ومجاز القرآن ٢٧٩/١

قوله تعالى :

قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ (٦٨) آية

الذين أضافوا اتخاذ الولد اليه طائفتان: احداهما ـ كفار قريش والعرب، فانهم قالوا : الملائكة بنات الله . والاخرى ـ النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله، فكذب الله الفريقين . ولا يجوز اتخاذ الولد على الله على وجه التبني، كما لايجوز عليه اتخاذ إله على التعظيم، لانه لما استحال حقيقته عليه استحال مجازه المبني عليها . وحقيقة الولد من ولد على فراشه اوخلق من مائه، ولذلك لايقال : تبنى الشاب شيخاً، ولاتبنى الانسان بهيمة لمـا كان ذلك مستحيلا، وهذه الحقيقة مستحيلة فيه تعالى، فاستحال مجازها أيضاً . واتخاذ الخليل جائز، لان الخلة اصفاء المودة التي توجب الاطلاع على سره ثقة به . وان كان مشتقاً من الخلة ـ بفتح الخاء ـ فهو لافتقاره اليه، لان الخلة هي الحاجة . ويجوزان يقال المسيح روح الله، لان الارواح كلها ملك لله . وانما خص المسيح بالذكر تشريفاً لـه بهذا الذكر كما خص الكعبة بأنها بيت الله، وان كانت الارض كلها لله تعالى. وقوله « سبحانه هو الغني » تنزيه من الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد لكونـه غير محتاج الى ذلك، لانـه مالك مافي السموات والارض . وقوله « ان عندكم من سلطان بهذا » إخبار منه أنه ليس مع هؤلاء الذين يتخذون مع الله ولداً برهان ولاحجة، لأنّ السلطان هو البرهان الظاهر، ووبخهم على قـولهم ذلك فقال « أتقولون على الله مالا تعلمون » لأن من أقـدم على الاخبار عما لايعلم صحته ولايأمن كونه كذباً مقبح عند العقلاء .

قوله تعالى

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ آيتان عند الجميع.

قوله « لايفلحون » وقف تام . أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للمكلفين « إن الذين » يكذبون على الله باتخاذ الولد وغير ذلك « لايفلحون » اي لايفوزون بشيء من الثواب . وكسرت (إنّ) بعد القول ، لانه حكاية لما يستأنف الاخبار به ولذلك دخلت لام الابتداء في الخبر ، لأنها تؤذن بأنه موضع ابتداء . والكذب يتعاظم الاثم عليه بحسب تعاظم الضرر به وكثرة الزواجر عنه ، فالكذب على الله أعظم لكثرة الزواجر عنه لما فيه من تضييع حق المنعم بأجل النعم . وقوله « متاع في الدنيا » رفع بأنه خبر الابتداء . وتقديره ذاك متاع أو هو متاع . ويجوز أن يكون على تقدير لهم متاع . وإنما خص بالدنيا لئلا يغتر به . والمتاع مايقع به الانتفاع من أثاث أو غيره . والانتفاع حصول الالتذاذ . وانما جاز أن يمتعوا في الدنيا دون الاخرة ، لأن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء ، ولذلك كان التكليف في الدنيا دون الآخرة . وقوله « ثم الينا مرجعهم » فالمرجع المصير الى الشيء بعد الذهاب عنه ، فهؤلاء ابتدأهم الله ثم يصيرون الى الهلاك بالموت . ثم يرجعون بالانشاء ثانية .وقوله « ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» معناه انالانقتصر على بعثهم بعد موتهم بل نوصل اليهم العذاب الشديد وننزله بهم جزاء بما كانوا يكفرون في دار الدنيا .

قوله تعالى :

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) آية.

قرأ نافع في رواية الأصمعي عنه « فاجمعوا » من جمع. الباقون بقطع الهمزة وقرأ يعقوب« وشركاؤكم » بالرفع. الباقون بالنصب. قال أبو علي : ما رواه الأصمعي عن نافع من وصل الهمزة من جمعت ، والاكثر في الامر يقال أجمعت . كقوله « وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم » (١) وكما قال الشاعر :

[ياليت شعري والمنى لاتنفع]　　　هل أغدون يوماً وأمري مجمع(٢)

اي معد، ويمكن أن يكون المراد، واجمعوا ذوي الأمر منكم أي رؤساءكم ووجوهكم ، كما قال « وأولي الأمر منهم » (٣) فحذف المضاف وأجرى على المضاف اليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت . ويجوز ان يكون جعل الامر ما كانوا يجمعونه من كيدهم ثم الذين يكيدونه به ، فيكون بمنزلة قوله « فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً » على أن أبا الحسن يزعم أن وصل الألف في « واجمعوا أمركم وشركاءكم » أكثر في كلام العرب . قال: وانما يقطعون الهمزة إذا قالوا أجمعوا على كذا وكذا ، قال: والقراءة بالقطع غريبة . ومن وصل الهمزة حمل الشركاء على هذا الفعل الظاهر لانك جمعت الشركاء وجمعت القوم ، وعلى هذا

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٢　(٢)تفسير الطبري ١١/٩٠ والقرطبي ٨/٣٦٢

(٣) سورة ٤ النساء آية ٨٢

قال « ذلك يوم مجموع له الناس » (١) ومن قطع الهمزة أضمر للشركاء فعلا آخر كأنه قال فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم أو ادعوا شركاءكم، قال الشاعر :

علفتها تبناً وماء بارداً (٢)

وقال آخر :

شراب البان وتمر واقط

وفي قراءة أبي «وادعوا شركاءكم » ويجوز أن يكون انتصاب الشركاء على انه مفعول معه ، وهو قول الزجاج ، كما قالوا : استوى الماء والخشبة، وجاء البرد والطيالسة ، وقالوا: لوترك الفصيل وامه لرضع من لبنها .ومن رفع « وشركاؤكم» كيعقوب والحسن حمله على الضمير ، وتقديره فاجمعوا أنتم وشركاؤكم . قال الزجاج : وحسن ذلك لدخول المنصوب بينهما .ولو لم يدخل لما حسن . ولايجوز أن تقول اجمعوا وشركاؤكم . وانما يجوز العطف على الضمير اذا اكد . وزعم ابو الحسن أن قوماً يقيسون هذا الباب وقوماً يقصرونه على ماسمع . قال ابو علي الفارسي : والاول عندي أقيس .

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقرأ على هؤلاء الكفار أخبار نوح عليه السلام حين « قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي » بين أظهركم « وتذكيري » اياكم « بآيات الله» وحججه وهممتم بقتلي واذاي فافعلوا مابدا لكم فاني على الله توكلت وإنما جعل جواب الشرط « فعلى الله توكلت » مع انه متوكل عليه في جميع احواله ليبين لهم أنه متوكل في هذا على التفصيل لما في إعلامه ذلك من زجرهم عنه لان الله تعالى يكفيه أمرهم . والتوكل والتفويض جعل الامر الى من يدبره للثقة بـه في تدبيره فمن فوض أمره الى الله فقد توكل عليه وقولـه « ثم لايكن أمركم عليكم غمة » معناه ليكن امركم ظاهراً مكشوفاً ولا يكونن مغطى مستوراً من

---

(١) سورة ١١ هود آية ١٠٤

(٢) تاويل مشكل القرآن ١٦٥ وأمالي المرتضى ٢/١٧٠ واللسان (علف)

غممت الشيء اذا سترته ، فالغمة ضيق الامر الذي يوجب الحزن ، والغمة والضغطة والكربة والشدة نظائر ، ونقيضه الفرجة . وقيل (غمة) معناه مغطى تغطية حيرة مأخوذة من غم الهلاك . وقوله « فاجمعوا امركم وشركاءكم » فيه تهديد . وقوله « ثم اقضوا الي ولا تنظرون » معناه افعلوا ماتريدون، على وجه التهديد لهم ،وانه اذا كان الله ناصره وعليه توكله فلا يبالي بمن عاداه واراد به السوء فان الله يكفيه امره . وقرىء بالفاء ومعناهما متقاربان ، ولان معنى اقضوا توجهوا الي . وقال ابن الانباري معنى « اقضوا » امضوا، يقال قضى فلان إذا مات ومضى . ومعنى « ولاتنظرون » ولاتؤخرون .

قوله تعالى :

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) آية

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله تمام ماحكاه عن نوح انه قال لقومه إن « توليتم» اي هربتم عن الحق واتباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه ، والتولي والاعراض والانصراف نظائر . وقوله « فما سألتكم من اجر » اي لااطلب منكم اجراً على ماأؤديه اليكم من الله، فيثقل ذلك عليكم. والاجر النفع المستحق بالعمل. والاجرة مضمنة بشريطة او مجرى عادة . وقوله « ان اجري الا على الله » اي ليس اجري في القيام باداء الرسالة الا على الله .

وقوله « وامرت ان اكون من المسلمين » معناه قل لهم: امرني الله بأن اكون من المسلمين لأمر الله بطاعته ثقة بأنها خير مايكسبه العباد .

قوله تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ

وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ (٧٣) آية.

لما حكى الله تعالى ماقال نوح لقومه في الآيتين الاولتين. ذكر ما كان من قومه في مقابلة ذلك، وهو انهم كذبوه اي نسبوه الى الكذب فيما ذكره من انه نبي الله وان الله بعثه اليهم ليدعوهم الى طاعته، وانه تعالى عند ذلك نجا نوحاً اي خلصه، وخلص الذين معه في السفينة وجعلهم خلائف معه، انه جعل الذين نجوا مع نوح لمن هلك بالغرق عبرة. وقيل انهم كانوا ثمانين نفساً. وقال البلخي: يجوز أن يكون اراد به جعل منهم رؤساء في الارض واهلك باقي أهل الأرض أجمع لتكذيبهم لنوح والغرق الاهلاك بالماء الغامر، وقد يغرق الحصاة بالماء على هذا المعنى. واما التغريق في رحمة الله. فانما هو تشبيه بما اكتنفه الماء الغامر. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله «انظر كيف كان عاقبة الذين» خوفوا بالله وعذابه فلم يخافوه، كيف اهلكهم الله ليعلمهم بذلك ان حكم هؤلاء الذين كذبوه وجحدوا نبوته حكم اولئك في أن الله يهلكهم ويدمر عليهم. يسليه بذلك عن ترك انقيادهم له.

قوله تعالى:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) آية

أخبر الله تعالى انه بعث رسلا ـ بعد نوح وإهلاك قومه ـ الى قومهم الذين كانوا فيهم بعد ان تناسلوا و كثروا فأتوهم بالحجج والمعجزات الدالة على صدقهم وانهم مع

ذلك « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ويحتمل ذلك امرين : احدهما - انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما كذبوا به قوم نوح من قبل : من توحيد الله وتصديق انبيائه والثاني - قال البلخي ما كانوا ليؤمنوا بالحجج والبينات بعد اتيان الأنبياء بها بما كذبوا به من قبل يخبر عن عنادهم وعتوهم .

وقال « كذلك نطبع على قلوب المعتدين» معناه إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار سمة وعلامة على كفرهم يلزمهم الذم بها ، وتعرفهم بها الملائكة وإنا مثل ذلك نفعل بقلوب المعتدين . وليس المراد بالطبع في الآية المنع من الايمان ، لان مع المنع من الايمان لايحسن تكليف الايمان . والطبع جعل الشيء على صفة غيره بمعنى فيه . والمعتدون هم الظالمون لنفوسهم الذين تعدوا حدود الله .

قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِئه بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) آية .

هذا اخبار من الله تعالى انه - بعد ارسال من أرسل من الانبياء بعد نوح واهلاك قومه وماذكره من انهم لم يؤمنوا به وانه طبع على قلوبهم عقوبة لهم على ذلك - بعث ايضاً بعدهم موسى وهارون عليهما السلام نبيين مرسلين « الى فرعون وملائه» يعني رؤساء قومه « بآياتنا » اي بأدلتنا وحججنا وانهم استكبروا عن الانقياد لها والايمان بها « وكانوا قوماً مجرمين » في ذلك مستحقين للعقاب الدائم . والملاء الجماعة الذين هم وجوه القبيلة مأخوذ من انهم تملأ الصدور هيبتهم عند منظرهم . ومنه قوله صلى الله عليه وآله في قتلى بدر (اولئك الملاء من قريش) . والاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق فأما المتكبر في اوصاف الله فهو الظاهر ، فان له اعلى مراتب الكبر ، وهو صفة ذم في العباد ومدح في صفة الله تعالى . والاجرام اكتساب السيئة

وهي صفة ذم. واصل الاجرام القطع يقال: جرم التمر يجرمه جرماً فهو جارم والجمع جرام إذا صرمه، وزمن الجرام زمن الصرام. وتجرمت السنة اذا انصرمت . وفلان جريمة اهله اي كاسبهم . وقوله « لاجرم ان لهم النار » (١) اي لابد لهم النار قطعاً قال الشاعر :

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة   جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (٢)

اي حملتهم على الغضب بقطعها اياهم . وانجرم الجسيم، والجرم الصوت ، والجرم الذنب . ووزن (موسى) مفعل وهو محمول على قياس العربية فزيادة الميم اولا اكثر من زيادة الالف اخيراً وكذلك زيادة همزة الفعل في افعل لهذه العلة .

قوله تعالى :

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) آية

أخبر الله تعالى عن قوم فرعون الذين ذكرهم وأخبر عنهم بالاستكبار انهم قالوا مع ذلك حين جاءهم الحق من عند الله : ان هذا الذي اتى به موسى من المعجزات والبراهين سحر ظاهر . و (لما) تدل على مامضى ولابد لها من الجواب و (اذ) لما مضى وتستغني عن الجواب كقولك : مضى اليه اذ قدم اي يوم قدم. (واذا) تكون للمستقبل كحرف الجزاء . والحق معنى معتقده على ماهو به ، وهو ما اتت به الرسل من البيان والبرهان عن الله تعالى . والسحر ايهام المعجزة على طريق الحيلة، ويشبه به البيان في خفاء السبب قال الشاعر :

وحديثها السحر الحلال لو انه   لم يجن قتل المسلم المتحرز

والساحر الذي يعتقد صحة سحره كافر ؛ لأنه لايمكنه مع ذلك معرفة النبوة فان كان يمخرق بالسحر ويعلم انه باطل لم يكفر ولم يطلق عليه صفة ساحر .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٢   (٢) مرّ تخريجه في ٤٢٣/٣

قوله تعالى :

قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) آية.

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه الذين نسبوه الى السحر « أتقولون للحق لما جاء كم أسحر هذا » ويريد بذلك تبكيتهم وتهجينهم . ثم قال موسى «ولا يفلح الساحرون » اي لايفوزون بشيء من الخير . ويجوز أن يكون ذلك اخباراً من الله تعالى لاحكاية عن موسى وذلك يدل على بطلان السحر أجمع . وقيل في تكرير الف الاستفهام في قوله « اسحر هذا » بعد ان قال « اتقولون » ثلاثة اقوال : احدها ـ انه يكون لتأكيد التقريع على الحذف كأنه قال اتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين اسحرهذا . والثاني ـ على وجه التكرار كقولك اتقول اعندك مال . والثالث ـ أن يكون حكاية قولهم وان اعتقدوا انه السحر كما يقول الرجل للجارية اذا أتته أحق هذا . فيقولونه على التعجب . ولو قالوا الحق لايكون سحراً ولكن ليس بحق لقال لهم فلو كان حقاً كيف كان الا هكذا من قلب الجماد حيواناً يرونه عياناً وغير ذلك من الايات .

قوله تعالى :

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) آية

روى العليمي « ويكون » بالياء . الباقون بالتاء . وجه الياء انه تأنيث غير حقيقي ، وقد فصل بينهما . ومن قرأ بالتاء فلان الكبرياء لفظها لفظ التأنيث.

أخبر الله تعالى عن قوم موسى انهم قالوا لما اظهر لهم المعجزات ودعاهم الى

التصديق بنبوته « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » اي لتصرفنا عن ذلك واللفت الصرف عن امر تقول: لفته يلفته لفتاً. ولفت عنقه اذا لواها، قال رؤبة:

✿ ولفت لفات لها حصار ✿

وقال ايضاً

لفتاً وتهزيعاً سواء اللفت

التهزيع الدق واللفت اللي. وقوله « وتكون لكما الكبرياء في الارض » قال مجاهد: الكبرياء الملك. وقال قوم هي العظمة. وقال آخرون هي السلطان. والكبرياء استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب. والالف في قوله « أجئتنا » الف استفهام، والمراد به الانكار على طريق اللجاج والحجاج منهم. فتعلقوا بالشبهة في انهم على رأي آبائهم، وان من دعاهم الى خلافه فظاهر امره انه يريد التأمر عليهم. وقوله « وما نحن لكما بمؤمنين » حكاية انهم قالوا لموسى وهارون لسنا بمصدقين لكما فيما تدعيانه من النبوة.

قوله تعالى

وَقَالَ فِرْعَونُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) آية.

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « بكل سحار » بتشديد الحاء والف بعدها الباقون (ساحر) على وزن فاعل. وقد بينا الوجه في ذلك في الاعراف.

حكى الله تعالى عن فرعون انه حين أعجزه المعجزات التي ظهرت لموسى، ولم يكن له في دفعها حيلة قال لقومه ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر بليغ في علمه. و (فرعون) لاينصرف لأنه أعجمي معرفة. وهو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيره انصرف كياقوت. ووزن فرعون فعلون، الواو زائدة، لانها لحقت عند سلامة الثلاثة. ومثله فردوس. وإنما طلب فرعون كل ساحر ليتعاونوا على دفع ماأتى به موسى وحتى لايفوته شيء من السحر بتأخر بعضهم. وإنما

توهم مقاومة السحرة لموسى مع قول موسى لـه «قـد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض » لأنه إنما عرف ذلك فيما بعد لما بهره الامر فكان قبل ذلك على الجهل لتوهمه ان السحر يقاوم الحق .

قوله تعالى :

فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) آية

حكى الله تعالى ان السحرة الذين طلبهم فرعون وامر باحضارهم لما جاؤا فرعون وموسى حاضر « قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون » وهذا ظاهره الامر ويحتمل امرين : احدهما ـ أن يكون قال ذلك على سبيل التحدي والالزام بمعنى : من كان عنده انه يقاوم المعجزات لزمه ان يأتي بها معه حتى تظهر منزلته وانما جاز إلزام الباطل على الخصم ليتبين ان اصله الفاسد يوجب عليه اعتقاد ذلك الباطل ، كما ان الشيطان يوجب الفساد ويدعوه الى الضلال . الثاني ـ أن يكون ذلك امراً على الحقيقة بدليل ان كان معه قوله « القوا ما انتم ملقون » انما لم يقتصر على قوله « القوا » لأن المراد به القوا جمع ما انتم ملقون في المستأنف فلا يكفي منه القوا . والالقاء اخراج الشيء عن اليد الى جهة الارض ويشبه بذلك قولهم القى عليه مسألة والقى عليه كلمة ، والالقاء والطرح نظائر . وفي الكلام حذف ، لان تقديره قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فأتوه بهم فقال لهم موسى .

قوله تعالى :

فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) آية

قرأ ابو عمرو وحده «آلسحر» على الاستفهام . الباقون على الخبر .

قال ابو علي الفارسي: في قراءة ابي عمرو (ما) يرفع بالابتداء، وجئتم به في موضع الخبر والكلام استفهام، لأن الكلام يستقبل بقوله جئتم به . ولو كانت موصولة احتاج الى خبر آخر . وهذا الاستفهام المراد به التقرير كما، قال « أأنت قلت للناس » (١) لان موسى كان عالماً بأن ذلك السحر . وانما ألحق الف الاستفهام بقوله « السحر » لان السحر بدلا من « ما » المبتدأ ولزم ان يلحق السحر الاستفهام ليساوي المبدل منه في انه استفهام ، الا ترى انه ليس في قولك السحر استفهام وعلى هذا قالوا كم مالك أعشرون أم ثلاثون ، فجعلت العشرون بدلا من كم فألحقت ام لانك في قولك كم درهماً مالك، مدع ان له مالا . ومن قرأ على الخبر جعل (ما) موصولة (وجئتم به السحر) صلة، والهاء مجرورة عائدة على الموصول والسحر خبر المبتدأ الذي هو الموصول . وحكى الفراء : انه دخل الالف واللام في في قوله « السحر » للعهد ، لانهم قالوا لما اتى به موسى إنه سحر ، قال موسى ماجئتم به فهو من السحر . وفي قراءة ابي ماجئتم به سحر بلا الف ولام . ومن قرأ بالاستفهام جعل (ما) في قوله « ماجئتم به » للاستفهام ومن قرأ على الخبر جعل (ما) بمعنى الذي وفسرت (ما) بالواحد في السحر . لأن المعنى عليه ، وانما ذكر للتوبيخ كقولك ماصنعت الفساد .

حكى الله تعالى انه لما ألقى السحرة سحرهم قال لهم موسى: الذي جئتم به السحر فمن قرأ على الخبر ، واي شيء جئتم به السحر مقرراً لهم ثم اخبر ان الله سيبطل هذا السحر الذي فعلتموه « ان الله لايصلح عمل المفسدين » فالاصلاح تقديم العمل على ماينفع بدلا مما يضر . والصلاح استقامة العمل على هذا الوجه . والافساد تعويج العمل الى مايضر بدلا مما ينفع . والفساد اضطراب العمل على هذا الوجه . والصلاح مضمن بالنفع لانه اذا اضيف ظهر معنى النفع فيه كقولك صلاح لزيد ، وهو اصلح له اي انفع له وان كان فيه فساد على غيره .

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩

قوله تعالى :

وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) آية

هذا عطف على قوله « قال موسى ماجئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لايصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته» وقيل في معناه ثلاثة اقوال : اولها ـ قال الحسن : بوعده لموسى . الثاني ـ قال ابو علي : بكلامه الذي يبين به معاني الآيات التي اتاها نبيه ﷺ . الثالث ـ بما سبق من حكمه في اللوح لمحفوظ بأن ذلك يكون . واحقاق الحق معناه اظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة والآيات البينة حتى يرجع الطاعن عليه حسيراً والمناصب له مفلولا . وقوله « ولو كره المجرمون » معناه انه يحق الحق وان كرهه من هو مجرم .

وفي الآية دلالة على انه تعالى ينصر المحقين كلهم لنصره اياهم بالحجة فأما بالغلبة في كل حال فموقوف ، لان المصلحة قد تكون بالتخلية تارة وبالحيلولة اخرى . والحق على ضربين : احدهما ـ ما كان يمكن ان يكون حقاً وغير حق ، فهذا لايصير حقاً إلا بأن يقصد فاعله على ايقاعه حقاً . فجاز ان يقال انه حق بالفاعل. والآخر لايؤثر فيه قصد فاعله فلا يقال في ذلك انه حق بالفاعل .

قوله تعالى

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) آية

أخبر الله تعالى انه لم يصدق لموسى بالنبوة الا ذرية من قومه مع خوفهم من فرعون ورؤساء قومه ان يفتنوهم . (والذرية) الجماعة من نسل القبيلة . وحكى

ابن عباس انه اراد الاقليل من قومه . وقيل كانت امهاتهم من بني اسرائيل وآباؤهم من القبط . وقيل سموا ذرية لانهم اولاد الذين ارسل عليهم موسى فلم يستجب الاباء وقيل: الأبناء . وقيل: هم قوم من بني إسرائيل أخذهم فرعون بتعلم السحر وجعلهم من اصحابه . ويحتمل أن يكون ذرية على وزن (فعلية) مأخوذاً من الذر كقمرية . والثاني ـ أن يكون على وزن (فعلية) من الذرو في تذروه الرياح كقولك مزقته، ويجوز أن يكون من ذرأ الله الخلق فترك همزه . والفتنة في الدين الامتحان الذي يصرف عنه، وقد يكون ذلك بالاكراه تارة وبالهدى أخرى، وبالشبهة الداعية الى الضلال. وقوله « إن فرعون لعال في الارض » فالعلو في الامر عظم الشأن فيه، وكل معنى لايخلو من أن يكون في صفة عالية أو دانية أو فيما بينهما من الجلالة والضعة .

والضمير في قوله « وملائهم » قيل فيمن يعود اليه ثلاثة اقوال : احدها ـ الى الذرية فقط . الثاني ـ الى فرعون واتباعه . الثالث ـ الى فرعون ، لانه معلوم . وقوله « وإنه لمن المسرفين » اخبار منه تعالى ان فرعون لمن جملة من أبعد في مجاوزة الحق . والاسراف قد يكون في القتل وفي الاكثار من المعاصي .

قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) آية .

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه : إن كنتم صدقتم بتوحيد الله فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين وانما اعاد قوله «إن كنتم مسلمين » بعد قوله « إن كنتم آمنتم بالله » ليتبين المعنى بالصفتين من الايمان والاسلام وبالتقييد والاطلاق على أن الثقة بالله توجب الاستسلام لامره . والتوكل التوثق باسناد الامر الى الله . والوكالة عقد الامر لمن يقوم به مقام مالكه . والله عز وجل أملك بالعبد من نفسه فهو أحق بهذه

الصفة . ويوجب التوكل على الله النجاة من كل محذور ، والفوز بكل سرور وحبور اذا اخلص العمل فيه وسلمت النية فيه. وحذفت ياء الاضافة من قوله « ياقوم » اجتزاء بالكسرة منها وهو في النداء أحسن من اثباتها لقوة النداء على التغيير . وفائـــدة الآية البيان عما يعمل عليه عند نزول الشدة من ان من كان يؤمن بالله فليتوكل على الله ويسلم امره اليه ثقة بحسن تدبيره له .

قوله تعالى :

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ آيتان

الفاء في قوله « فقالوا » فاء العطف وجواب الامر كما يقال قال السائل كذا فقال المجيب كذا . وانما جازت الفاء في الجواب ولم تجز الواو ، لأن الفاء ترتيب من غير مهلة ، فهي موافقة لمعنى وجوب الثاني بالأول وليس كذلك الواو .

لما حكى الله تعالى قول موسى لقومه « إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا» حكى ما أجاب به قومه من قولهم : توكلنا على الله ، وانهم سألوا الله وقالوا « ربنا لاتجعلنا فتنة » أي محنة واعتباراً « للقوم الظالمين » وخلصنا « برحمتك من القوم» الذين كفروا بآياتك ، وكل كافر ظالم لنفسه بتعرضه للعقاب وليس كل ظالم كافراً . والفتنة أصلها البلية وهي معاملة تظهر الامور الباطنة . يقال : فتنت الذهب اذا أحرقته بالنار ليظهر الخلاص وقوله « يوم هم على النار يفتنون »(١) اي يحرقون بما فيه من اظهار حالهم في الضلال وقوله « والفتنة أشـد من القتل » (٢) معناه التعذيب للرد عن الدين ، لمـا فيه من اظهار النصرة أشد ، ومعنى « لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين » لاتمكنهم من ظلمنا بمـا يحملنا على اظهار الانصراف عن ديننا

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٩١

- في قول مجاهد - وقال ابو الضحى والجبائي معناه :لايظهروا علينافيروا أنهم خير منا. وقولـه « ونجنا » معناه خلصنا مما فيه المخافة والشماتة . وانمـا جاز وصف الله تعالى بالرحمة مع كثرة استعمالها في الرقة لدلالة التعظيم على انتفاء معنى الرقة ان نعمه في الاسباغ والكثرة تقع موقع ماتبعث عليه الرقة . وانما سألوا النجاة من استعباد فرعون وملائه إياهم وأخذهم بالاعمال الشاقة والمهن الخسيسة .

قوله تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) آية.

أخبر الله تعالى انـه أوحى الى موسى وأخيه بمعنى ألقى اليهما في خفاء والايحاء والايماء والاشارة نظائر ، وكله بيان ودلالة . وحكى الرماني أن قـوماً أجازوا أن يوحي الله الى من ليس بنبي برؤيا أو إلهام . قال:وليس يجوز عندنا على المعنى الذي يقع الوحي الى الانبياء، لانه إنما يقع على خلاف مجرى العادة بمعجزة تشهد بأنـه تعالى ألقى المعنى اليه . ولايجوز ان تطلق الصفة بالوحي الا لنبي فان قيد ذلك على خلاف هذا المعنى كان جائزاً ، كقوله « وأوحى ربك الى النحل »(١) ومعنى قوله « تبوءا » اتخذا يقال : بوّأته منزلا أي اتخذته لـه وأصـله الرجوع من « باؤوا بغضب من الله » (٢) أي رجعوا ، والمبوّء المنزل لانه يرجع اليه للمقام فيه ومنه قولهم (بؤ بشسع كليب) أي ارجع به . وقوله « واجعلوا بيوتكم قبلة » معناه مصلى . وقيل قبلة : مسجداً ، لانهم كانوا خائفين فأمروا بأن يصلوا في بيوتهم - في قول ابن عباس ومجاهد وابراهيم والسدي والضحاك والربيع -

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢

وقال الحسن يعني قبلة نحو الكعبة. ولم يصرف (مصر) لانه مؤنث معرفة كقولك هند، ولو صرفته لخفته كما صرفت هند كان جائزاً، وترك الصرف أقيس. وقوله «وأقيموا الصلاة» أمر من الله اياهم باقامة الصلاة والدوام على فعلها «وبشر المؤمنين» أمر منه لموسى ان يبشر المؤمنين بالجنة وما وعد الله تعالى من الثواب وانواع النعيم.

قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) آية

حكى الله تعالى في هذه الاية عن موسى عليه السلام أنه قال يا «ربنا انك اعطيت فرعون وملائه» يعني قومه ورؤساءهم «زينة واموالا في الحياة الدنيا» وإنما اعطاهم الله تعالى ذلك للانعام عليهم مع تعريه من وجوه الاستفساد. و (الزينة) مايتزين به من الحلي والثياب والمتاع. ويجوز أن يراد به حسن الصورة «ليضلوا عن سبيلك» فهذه لام العاقبة، وهي مايؤل اليه الأمر كقوله «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً» (١) ويحتمل ان يكون المعنى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذفت (لا) كقوله «ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما» (٢) اي لئلا تضل احداهما، وكقوله «ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين» (٣)

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨   (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧١

اي لئلا يقولوا. ولا يجوز أن يكون لام الغرض، لأن الله تعالى لا يفعل بهم الزينة ويعطيهم ويريد منهم ان يضلوا بل إنما يفعل لينتفعوا ويطيعوه ويشكروه . وقال قوم : لو كان أراد منهم الضلال لكانوا إذا ضلوا مطيعين ، لان الطاعة هي موافقة الارادة وذلك باطل بالاتفاق وقوله « ربنا اطمس على اموالهم » إخبار عن موسى انـه دعا على قومه فسأل الله ان يطمس على اموالهم . والطمس محـو الاثر تقول : طمست عينه اطمسها طمساً وطموساً وطمست الريح آثار الديار . فدعا موسى عليه السلام عليهم بأن يقلب حالهم عن الانتفاع بها كقوله « من قبل ان نطمس وجوهاً » (١) والطمس تغير الى الدبور والدروس قال كعب بن زهير :

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الاعلام مجهول (٢)

وقال قتادة والضحاك وابن زيد وابو صالح : صارت اموالهم حجارة .

وقوله « واشدد على قلوبهم » معناه ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك اموالهم فيكون ذلك اشد عليهم . وقوله «فلا يؤمنوا » يحتمل موضعه وجهين من الاعراب: احـدهما ـ النصب على جواب صيغة الامر بالفـاء او بالعطف على « ليضلوا » وتقديره لئلا يضلوا فلا يؤمنوا . والثاني ـ الجزم بالدعاء عليهم ، كما قال الاعشى:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ولا تلقني إلا وانفك راغـم (٣)

وقال الفراء : ذلك دعاء عليهم بأن لا يؤمنوا . وحكى الجبائي عن قوم ان المراد بذلك الاستفهام والانكار كأنه قال : إنك لا تفعل ذلك ليضلوا عن سبيلك. وقال احمد بن يحيى ثعلب : هـــذه لام الاضافة ، والمعنى لضلالتهم عن سبيلك « اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم » . وحكى البلخي : انه يجوز أن يكون ذلك على التقديم والتأخير وتقديره ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا ربنا اطمس على اموالهم. وقيل إن قوله « فـلا يؤمنوا » خرج مخرج الجواب لـلامر ومعناه

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٦ (٢) انظر ١/٢٢٦ تعليقة ١ و ٢١٦/٣

(٣) ديوان الاعشى والاعشيين ٥٨ وتفسير القرطبي ٨ / ٢٧٥

الاخبار ، كما يقولون انظر الى الشمس تغرب . وقيل : ان المعنى لايؤمنون ايمان الجاء حتى يروا العذاب الأليم وهم مع ذلك لايؤمنون ايمان اختيار اصلا . وقال بعضهم : اللام لام (كي) وانه اعطاهم الاموال والزينة لكي يضلوا عقوبة وهذا خطأ ، لانه يوجب ان يكون ضلالهم عن الدين طاعة لله .

قوله تعالى :

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) آية

حكى الله تعالى أنه اجاب موسى وهارون ، فقال لهما «قد اجيبت دعوتكما» والجواب موافقة للدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصفة . فالله تعالى يجيب الدعاء إذا وقع بشروط الحكمة. واختلفوا في هل يجوز أن يجيب الله تعالى دعوة الكافر أم لا ؟ فقال ابوعلي الجبائي: لايجوز لان اجابته إكرام له كما يقولون : فلان مجاب الدعوة اي هو رجل صالح . والكافر ليس بهذه المنزلة . وقال ابو بكر بن الاخشاد : يجوز ذلك إذا كان فيه ضرب من المصلحة . والاجابة قد تكون من الاعلى للادون من غير ترغيب المدعو . والطاعة لا تكون إلا من الادنى للاعلى . ولايجوز عند اكثر المحصلين ان يدعو نبي على قومه من غير إذن سمعي ، لانه لايأمن أن يكون منهم من يتوب مع اللطف في التبقية ، فلايجاب .ويكون ذلك فتنة . والدعوة طلب الفعل بصيغة الامر وقد يدعى بصيغة الماضي كقولك : غفر الله لك واحسن اليك ، وجزاك الله خيراً . وإنما قال « اجيبت دعوتكما » والداعي موسى لان دعاء موسى كان مع تأمين هارون ـ على ماقاله الربيع وابن زيد وعكرمة ومحمد بن كعب وأبو العالية ـ والمؤمن داع ، لان المعنى في التأمين اللهم اجب هذا الدعاء . وقوله « فاستقيما » امر منه تعالى لهما بالاستقامة في دعائهما لفرعون

وقومه على ماأمرتكما به ولاتتبعا سبيل الجاهلين لوعدي ووعيدي فانه لاخلف له وقال ابن جريج : مكث فرعون بعد هذه الامور اربعين سنة .

وقوله « ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون » نهي منه تعالى لموسى وهارون أن يتبعا طريقة من لايؤمن بالله ولايعرفه . وقرأ ابن عامر وحده « ولاتتبعان » مخففة النون الا الداحواني عن هشام ، فانه خير بين تخفيفها وتشديدها . وقرأ ابن عامر وحده « ولاتتبعان » ساكنة التاء مخففة مشددة النون. وفي قراءةالاخفش الدمشقي عن ابن عامر بتخفيف التاء والنون . الباقون بتشديد التاء والنون . قال ابو علي النحوي : من شدد النون فلأن هذه النون الثقيلة إذا دخلت على (تفعل) فتح لام الفعل ، لدخولها وبني الفعل معها على الفتح نحو (لتفعلن) وحذفت النون التي تثبت في (تفعلان) في حال الرفع مع النون الشديدة ، وحذف الضم في (لتفعلن) ، وإنما كسرت الشديدة بعد ألف التثنية. لوقوعها بعد الف التثنية ،فاشبهت التى تلحق الألف في رجلان ، لما كانت في هذه مثلها ، ودخلت لمعنى كدخولها ، ولم يعتد بالنون قبلها ، لانها ساكنة ، ولانها خفيفة فصارت المكسورة كأنهاوليت الألف . ومن خفف النون يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة كما خففوا (رب) و (ان) ونحوهما ،وحذفوا الاولى من المثلين كما أبدلوا الاولى من المثلين في نحو (قيراط ودينار) ولان اصلهما (قرّاطو دنّار) فأبدلوا من إحدى النونين ياء . ويحتمل ان يكون حالامن قوله « فاستقيما » وتقديره فاستقيما غيرمتبعين .ويحتمل ان يكون على لفظ الخبر والمراد به الامر .

قوله تعالى

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ

ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠) آية.

قرأ أهل الكوفة الا عاصماً « آمنت انه » بكسر الألف . الباقون بفتحها .

قال ابو علي : من فتح الهمزة فلأن هذا الفعل فصل بحرف الجر في نحو « يؤمنون بالغيب » (١) و « يؤمنون بالجبت » (٢) فلما حذف الحرف وصل الفعل الى (ان) فصار في موضع نصب اوخفض على الخلاف في ذلك . ومن كسر الالف حمله على القول المضمر كأنه قال « آمنت » فقلت إنه، واضمار القول في نحو هذا كثير . وهـذا احسن لان قوله (انه لا إله إلا الله) في المعنى ايمان ، واذا قال آمنت فكأنه ذكر ذلك . وقال الرماني: من كسر (إن) جعله بدلا من (آمنت). ومن فتح جعله معمول (آمنت) وفي الكلام حذف ، لأن تقديره فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً فيه فغرقناه حتى اذا ادركه الغرق .

حكى الله تعالى أنه جاوز ببني إسرائيل البحر بمعنى اخرجهم منه بأن جفف لهم البحر وجعله طرقاً حتى جاوزوه . والمجاوزة الخروج عن الحد من احدى الجهات الأربعة ، لأنه لو خرج عن البحر بقليل وهو متعلق عليه لم يكن قـد جاوزه . والبحر مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفه من كان في وسطه. ويقال : مافلان إلا بحر لسعة عطائه . وقوله « فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً » فالاتباع طلب اللحاق بالأول : اتبعه إتباعاً وتبعه بمعنى . وحكى ابو عبيدة عن الكسائي انه قال إذا اريد انه اتبعه خيراً اوشرّاً قالوا بقطع الهمزة . واذا اريد انه اقتدى بهم واتبع أثرهم قالوا بتشديد التاء ووصل الهمزة . والبغي طلب الاستعلاء بغير حق . والباغي مذموم لقوله تعالى « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (٣) . و (عدواً) معناه عدواناً وظلما .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣   (٢) سورة ٤ النساء آية ٥٠

(٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩

وقوله « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت انه لاإله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل » اخبار منه تعالى أن فرعون حين لحقه الغرق والهلاك قال ما حكاه الله وكان ذلك ايمان إلجاء لايستحق به الثواب كما لايستحق بالايمان الضروري .

وقوله « بغياً وعدواً » نصب على المصدر والمراد بغياً على موسى وقومه واعتداء عليهم .

قوله تعالى :

آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) آية

قرأ أبو جعفر من طريق النهرواني ونافع إلا اباطاهر عن اسماعيل واحمد ابن صالح عن قالون والحلواني عن قالون من طريق الحمامي « الان » في الموضعين في هذه السورة بالقاء حركة الهمزة على اللام وحذف الهمزة منهما . قال ابو علي النحوي: اعلم ان لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخففت الهمزة فان في تخفيفها وجهين : احدهما ـ ان تحذف وتلقى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيقال الحمر بالالف . والثاني ـ ان يقولوا : كالحمر بلا الف فيحذفون همزة الوصل ، فالذين أثبتوا الهمزة فلأن التقدير باللام السكون وان كانت في اللفظ متحركة . واللغة الآخرى كما انشد الكسائي :

فقد كنت تخفي حب سمراء حقبة   فبح لان منها بالذي انت بائح (١)

فاسكن الحاء لما كانت اللام متحركة ، ولو لم يعتد بالحركة كما لم يعتد في الوجه الاول تحرك الحاء بالكسر كما يحركه في بح اليوم . ومعنى (الان) فصل بين الزمان الماضي والمستقبل مع انه الى الحاضر ولهذا بني كما بني (اذا) وعرف (الان) بالالف واللام (وامس) بتضمين حرف التعريف لأن ما مضى بمنزلة المضمن في المعنى في أنه ليس له صورة ،والحاضر في معنى المصرح في صحة الصورة.

(١) مرّ هذا البيت في ١/٣٠٠ وهو في اللسان (أين)

واختلفوا فيمن القائل هذا القول، فقال الجبائي: ان القائل له ملك قال ذلك بأمر الله. وقال (غيره) ان ذلك كلام من الله قاله له على وجه الاهانة والتوبيخ وكان ذلك معجزة لموسى عليه السلام ومعنى الآية حكاية ماقيل لفرعون حين قال «آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل» بانك تقول هذا في هذه الساعة «وقد عصيت قبل» هـذا «وكنت من المفسدين» في الارض بقتل المؤمنين وادعاء الآلهة، وغير ذلك من انواع الكفر!.

قوله تعالى:

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) آية.

قرأ يعقوب وقتيبة «ننجيك» بالتخفيف. الباقون بالتشديد.

معنى قوله «ننجيك ببدنك» نلقيك على نجوة من الارض ببدنك عرياناً دون روحك قال أوس بن حجر:

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)

القرواح حيث لاماء ولا مطر، والبدن مستكن روح الحيوان على صورته وكل حيوان له روح وبدن، والحي في الحقيقة الروح دون البدن عند قوم، وفيه خلاف.

ومعنى قوله «لتكون لمن خلفك آية» قيل فيه قولان.

احدهما ـ لمن يأتي بعدك ممن يراك على تلك الصفة وقد كنت تدعي الربوبية.

الثاني ـ ان بني اسرائيل قالوا: مامات فرعون، فالقاه الله تعالى على نجوة من الارض ليروه، ذهب اليه ابن عباس وقتادة. وقولـه «وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون» اخبار منه تعالى أن كثيراً من الخلق غافلون عن الفكر في

---

(١) مرّ هذا البيت في ١ / ٢١٨ و ٣ / ٣٢٦ منسوب الى عبيد بن الابرص

حجج الله وبيناته أي ذاهبون عنها والغفلة ذهاب المعنى عن النفس ونقيضها اليقظة ، والمراد بذمهم بالغفلة عن آيات الله التعريض بأنهم تركوا النظر في آيات الله .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) آية

قوله « ولقد بوّأنا » اخبار منه تعالى أنه وطّأ منزل بني اسرائيل والتبوّء توطئة المنزل لصاحبه الذي يأوي اليه، تقول: بوأته منزلا تبويئاً وتبوأ، وباء بالامر بواء أي رجع . وقوله « مبوأ صدق » أي منزل صدق أي فيه فضل كفضل الصدق ، كما يقال: أخو صدق وقيل: انه يصدق فيما يدل عليه من جلالة النعمة . وقوله « ورزقناهم من الطيبات » أي ملكناهم الاشياء اللذيذة. والرزق العقد على العطاء الجاري ،ودلت الآية على سعة ارزاق بني اسرائيل . وقوله « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم »قيل في معناه وجهان : احدهما ـ أنهم كانوا على الكفر فما اختلفوا حتى جاءهم الدليل المؤدي الى العلم من جهة الرسول والكتاب ،فآمن فريق وكفر آخرون ـ وهو قول الحسن وابن جريج وابن زيد ـ وقال قوم : كانوا على الاقرار بالنبي قبل مبعثه بصفته ونعته ، فما اختلفوا حتى جاءهم معلوم العلم به . والمنزل الصدق الذي أنزلوه قيل فيه ثلاثة اقوال : قال الحسن : هو مصر وهو منزل صالح خصب آمن. وقال قتادة : هو الشام وبيت المقدس . وقال الضحاك : هو الشام ومصر .

وقوله « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » اخبار منه تعالى انه الذي يتولى الفصل بين بني اسرائيل في الامور التي يختلفون فيها .

قوله تعالى:

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) آية

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله يقول له « إن كنت في شك مما » أي من الذي « أنزلنا اليك » والشك هو توقف النفس فيما يخطر بالبال عن اعتقاده على ماهو به، وعلى ماليس به. وقيل: إن هذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله فان المراد به الذين كانوا شاكين في نبوته. وقال قوم: إن معناه فان كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على نبينا اليك، ومثله قول القائل لعبده: إن كنت مملوكي فانتبه الى امري. وقول الرجل لابنه: ان كنت ابني فبرني. وقوله: إن كنت والدي فتعطف علي. وحكى الزجاج وجهاً ثالثاً وهو أن يكون معنى (إن) معنى (ما) والتقدير: ما كنت في شك مما أنزلنا اليك « فاسأل الذين » أي لسنا نريد بأمرك لانك شاك لكن لتزداد بصيرة، كما قال لابراهيم « أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» (١) وقوله « فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك» قيل: انما أمره بأن يسأل اهل الكتاب مع جحد اكثرهم لنبوته لامرين:

احدهما ـ ان يكون امره بأن يسأل من آمن من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الاحبار وابن صوريا، ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك.

والثاني ـ سلهم عن صفة النبي صلى الله عليه وآله المبشر به في كتبهم ثم انظر فمن وافق فيه تلك الصفة. وقال البلخي ذلك راجع الى قوله « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » فأمره بأن يسألهم هل الأمر على ذلك؟ فانهم لايمتنعون عن الاخبار به ولم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

يأمره بان يسألهم هل هو محق فيه أم لا ؟ ولا ان ماانزله عليه صدق ام لا ؟ ووجه آخر وهوانه انما امره أن يسألهم ان كان شاكاً ولم يكن شاكاً فـلا يجب عليه مسألتهم وهذامعنى ما روي عنه ﷺ انه قال (ماشككت ولا انا شاك) .

وقوله « لقد جاءك الحق من ربك » قسم منه تعالى بأنه قد جاءك يامحمد الحق من عندربك لان لام(لقد) لام القسم . وقوله «فلا تكونن من الممترين »اي لاتكونن من الشاكين . والامتراء طلب الشك مع ظهور الدليل، وهو من مري الضرع اي مسحه ليدر ، فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحلب . وقال سعيد بن جبير والحسن وقتادة وابو عبد الله عليه السلام :لم يسأل النبي ﷺ ويقوي ان الخطاب متوجه الى النبي والمراد به غيره قوله بعد هذا « قل ياايها الناس ان كنتم في شك » .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) آية

هذا الكلام عطف على قوله « فـلا تكونن من الممترين . ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله » أي من جملة من يجحد بآيات الله ولايصدق بها فانك ان فعلت ذلك كنت من الخاسرين . والمراد بالخطاب غير النبي ﷺ من جملة أمته من كان شاكاً في نبوته . والنون في قوله (لاتكونن) نون التأكيد ، وهي تدخل في غير الواجب لانك لاتقول انت تكونن ، ودخلت في القسم على هذا الوجه لانـه يطلب بالقسم التصديق ، وبني الفعل مع نون التأكيد لأنها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين كل واحـدة مركبة مع الاخرى مع ان الاولى ساكنة ، واقتضت حركة بناء لالتقاء الساكنين . وانما شبه الكافر بالخاسر مع ان حاله اعظم من حال الخاسر لان حال الخاسر قد جرت بها عادة .وذاق طعم الحسرة فيها فرد اليها لبيان أمرها ، وخسران النفس الذي هو أعظم منها .

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧) آيتان عند الجميع

قد ذكرنا اختلافهم في (كلمة وكلمات) وإن من وحد فلأنه اسم جنس. ومن جمع اراد اختلاف الالفاظ . اخبر الله تعالى « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك » يامحمد اي وجب على التحقيق بأنهم لايؤمنون من غير شرط ولاتقييد، تقول: حق الامر يحق حقاً . وانما جاز وصف جملة من الكلام بالكلمة لانه لما كان في معنى واحد صار بمنزلة الكلمة الواحدة ، ولذلك قالوا في قصيدة من الشعر انها كلمة . وقوله « حتى يروا العذاب الاليم » معناه انهم انما يؤمنون اذا شاهدوا العذاب فآمنوا ملجئين ايماناً لاينفعهم . والرؤية في الآية رؤية العين ، لانها تعدت الى مفعول واحد. والعذاب وان كان ألماً وهو لايصح ان يرى فلأنه ترى اسبابه ومقدماته فصار بمنزلة ما يرى ، فلذلك اخبر عنه بالرؤية له .

وقوله « ولو جاءتهم كل آية » اعلام بأن هؤلاء الكفار لالطف لهم يؤمنون عنده ايمان اختيار وانما جاز تكليفه الايمان باخبار الله تعالى انه لايؤمن للانعام بالمنافع في احوال التكليف التي لاتحصى كثرة مع ما في ذلك من اللطف لغيره ، ولاظلم فيه لاحد . وانما يظلم الكافر نفسه بسوء اختياره. وانما انث قوله «جاءتهم كل آية » لانه مضاف الى الآية وهي مؤنثة كما قالوا: ذهبت بعض اصابعه . ومعنى الآية الاخبار عن ان هؤلاء لايؤمنون ايماناً يستحقون به الثواب ، ولاينافي ذلك قدرتهم على الايمان كما انه اذا اخبر انه لايقيم القيامة الساعة لم يمنع ذلك من قدرته على اقامتها في الحال . وقيل ان التقدير في الاية ان الذين لايؤمنون حقت عليهم كلمة ربك .

قوله تعالى :

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨) آية

معنى (فلولا) هلا ، وهي تستعمل على وجهين : احدهما - على وجه التحضيض والثاني - على وجه التأنيب كقولك : هلا يأتي زيد بحاجتك ، وهلا امتنعت من الفساد الذي رغبت اليه . قال الشاعر :

تعدون عقر النيب افضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا(١)

أي هلا تعدون الشجعان .

وقوله « الا قوم يونس » نصب لأنه منقطع كما قال الشاعر :

أعيت جواباً وما بالربع من أحد إلا الأواري لأيا ما ابينها

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد(٢)

وحكى الفراء : لاإن ما أبينهما وقال : جمع الشاعر بين ثلاثة أحرف في النفي (لا وان وما) وانما جاز فلو لا كانت قرية آمنت لان المراد أهل قرية فحذف اختصاراً من غير اخلال بالمعنى . وقوله « فنفعها ايمانها » معناه هلا كانت اهل قرية آمنت في وقت ينفعها الايمان ، وجرى هذا مجرى قول فرعون « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي » (٣) فاعلم الله أن الايمان لا ينفع عند نزول العذاب ولا عند حضور الموت ، وقوم يونس لم يقع بهم العذاب كأنهم لما رأوا الآية الدالة على العذاب آمنوا فلما آمنوا كشف عنهم العذاب . والنفع هو

(١) انظر ١ / ٣١٩ ، ٤٣٥

(٢) مرّ هذا الشعر في ١ / ٤٤ ، ١٥١ و ٣ / ٣٢٧ و ٤ / ١٩١

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٩٠

اللذة ، ومعناه ههنا انه وجبت لهم اللذة بفعل مايؤدي اليها كما أن الصلة بالمال نفع ،لانه يؤدي الى اللذة ،وكذلك أكل الطعام الشهي وتناول الكريه عند الحاجة نفع لانه يؤدي الى اللذة . والخزي هو الهوان الذي يفضح صاحبه ويضع من قدره. وقال الجبائي : المراد بأهل القرية – على قول كثير من أهل التأويل – ثمود الذين أهلكهم الله بكفرهم ، والتقدير هلا أهل قرية سوى قوم يونس آمنوا فنفعهم ايمانهم وزال عنهم العذاب كما آمن قوم يونس لما أحسوا بنزول العذاب ، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم ببقاهم أحياء سالمين في الدنيا بعد توبتهم الى مدة من الزمان . وهذا الذي ذكره إنما كان يجوز لو كان (إلا قوم يونس) رفعاً وكان يكون « الا قوم يونس » صفة أو بدلا من الاول لان المعنى إلا قوم يونس محمول على معنى هلا كان قوم قرية أوقوم نبي آمنوا الا قوم يونس ، قال الزجاج : لم يقرأ أحد بالرفع ، ويجوز في الرفع أن يكون بدلا من الأول ، وإن لم يكن من جنس الأول كما قال الشاعر :

وبلدة ليس لها أنيس　　الا اليعافير والا العيس (١)

وقال ابو عبيدة (الا) ههنا بمعنى الواو ، والمعنى وقوم يونس. وقال الحسن معنى الاية انه لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعها حتى لايشذ منهم أحد الا قوم يونس ، فهلا كانت القرى كلها هكذا . وقرأ طلحة بن مصرف يونس ويوسف بكسر النون والسين أراد أن يجعل الاسمين عربيين مشتقين من أسف وأنس ، وهو شاذ .

فان قيل: قوله « كشفنا عنهم العذاب » يدل على نزول العذاب بهم فكيف ينفع مع ذلك الايمان ، وهل ذلك الا ضد قوله « فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا » (٢) ؟ قلنا : ليس يجب ان يكون العذاب نزل بهم بل لايمتنع أن يكون ظهرت لهم دلائله وان لم يروا العذاب كما أن العليل المدنف قد يستدرك التوبة

(١) مرّ تخريجه في ١ ١٥١ و ٣ ٣٢٧　　(٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٥

فيقبل الله توبته قبل ان يتحقق الموت . فاذا تحققه لم يقبل بعد ذلك توبته . وقد قال الله تعالى « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (١) ولا يدل ذلك على انهم كانوا دخلوا النار فأنقذوا منها فكذلك لايمتنع ان يكون كشف عنهم العذاب وان لم يكن حل بهم ولا عاينوه اذا كان قد قرب منهم واستحقوه في الحكم.

قوله تعالى :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) آية

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه لوشاء وأراد « لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » فكلهم رفع لأنه تأكيد لـ(من) وهي مرتفعة بالايمان (وجميعاً) منصوب على الحـــال . والمشيئة والارادة والايثار والاختيار نظائر ، وانما يختلف عليهم الاسم بحسب مواقعها على ما بيناه في الأصول. وقيل : إن الشيء مشتق من المشيئة لانه مما يصح ان يذكر ويشاء ، كما اشتقوا المعنى من عنيت .

ومعنى الآية الاخبار عن قدرة الله وانه يقدر على ان يكوّن الخلق على الايمان ، كما قال « إن نشاء ننزل عليهم من السماء آيـة فظلت أعناقهم لهـــا خاضعين »(٢) وانما أراد بذلك الاخبار عن قدرته بلا خلاف ، ولذلك قال بعد ذلك « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ومعناه انه لاينبغي ان يريد إكراههم لان الله عز وجـــل يقدر عليه ولايريده ، لانه ينافي التكليف، وأراد بذلك تسلية النبي ﷺ والتخفيف عنه مما يلحقه من التحسر والحرص على ايمانهم .

وفي الاية دلالة على بطلان قول المجبرة ، فانه تعالى لم يزل شائياً وانــه لا يوصف بالقدرة ايضاً ، لأنه تعالى اخبر انه لويشاء لقدر عليه لكنه لم يشأ فلذلك لم

(١) سورة ٣ آل عمران آيه ١٠٣ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤

يوجد ولو كان شائئاً لم يزل لما جاز ان يقول ولو شاء ربك كما لايجوز أن يقول لو شاء لقدر لما كان كونه قادراً حاصلا لم يزل .

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠) آية

قرأ ابو بكر إلا الأعشى والبرجمي (ونجعل) بالنون . الباقون بالياء . من قرأ بالياء فلانه تقدم ذكر الله فكني عنه . ومن قرأ بالنون ابتدأ بالاخبار عن الله .

ومعنى قوله « وما كان لنفس ان تؤمن إلا باذن الله » انه لايمكن احد ان يؤمن إلا باطلاق الله له في الايمان وتمكينه منه ودعاءه اليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك . وقال الحسن وابو علي الجبائي : اذنه ههنا أمره كما قال « ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » (١) وحقيقة الاطلاقه في الفعل بالأمر، وقد يكون الاذن بالاطلاق في الفعل برفع التبعة . وقيل: معناه وما كان لنفس أن تؤمن إلا بعلم الله . وأصل الاذن الاطلاق في الفعل فأما الاقدار على الفعل فلا يسمى أذناً فيه ، لان النهي ينافي الاطلاق . قال الرماني : والنفس خاصة الشيء التي لو بطل ماسواها لم يبطل ذلك الشيء ، ونفسه وذاته واحد إلا انه قد يؤكد بالنفس ولا يؤكد بالذات . والنفس مأخوذة من النفاسة .

وقوله « ويجعل الرجس على الذين لايعقلون » قيل في معناه قولان : احدهما ـ قال الفراء : الرجس العذاب يجعله على الذين لايعقلون امر الله ولانهيه ولا مايدعوهم اليه . والثاني ـ قال الحسن : الرجس الكفر أي يجعله بمعنى انه

(١) سورة ٤ النساء آية ١٦٩

يحكم انهم اهله ذ ّماً لهم واسماً « على الذين لايعقلون » اي كانهم لايعقلون شيئاً ذ ّماً لهم وعيباً وقال ابن عباس : الرجس الغضب والسخط . وقال ابو عبيدة الرجز العذاب ومثله الرجس ، ومنه قوله « لان كشفت عنا الرجز » (١) وقوله « فلما كشفنا عنهم الرجز» (٢) وقوله « والرجز فاهجر » (٣) معناه وذا الرجز أي الذي تؤدي عبادته الى العـذاب . وقال الحسن : الرجز بضم الراء العذاب ، وبكسرها الرجس . وقال الفراء : يجوز أن يكون الرجز بمعنى الرجس وقلبت الزاي سيناً كما قالوا اسد وأزد .

قوله تعالى :

﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) آية

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر الخلق بالنظر لأنه الطريق المؤدي الى معرفة الله تعالى . والنظر المراد في الاية الفكر والاعتبار . وقال الرماني : هو طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب ادراكه بالعين . ومعنى قوله تعالى « ماذا في السموات والأرض » أي مافيهما من العبر من مجيء الليل والنهار ومجرى البحور والافـلاك ونتاج الحيوان وخروج الزرع والثمار ، ووقوف السماوات والارض بغير عماد ؛ لان كل ذلك تدبـير يقتضي مدبراً لايشبه الاشياء ولاتشبهه . وقولـه « وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ أن تكون (ما) نفياً بمعنى مايغني عنهم شيئاً بدفع الضرر ، اذا لم يفكروا فيها ولم يعتبروا بها كقولك :وما يغني عنك المـال شيئاً اذا لـم تنفقه في وجوهه .

(١ ، ٢) سورة ٧ الأعراف آية ١٣٣ ، ١٣٤ (٣) سورة ٧٤ المدثر آية ٥

والاخر ـ أن تكون (ما) للاستفهام كقولك أي شيء يغني عنهم من اجتلاب نفع أو دفع ضرر إذا لم يستدلوا بها . والنذر جمع نذير وهو صاحب النذارة وهي اعلام بموضع المخافة ليقع به السلامة .

قوله تعالى :

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) آية

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بلفظ الاستفهام والمراد به النفي لان تقديره ليس ينتظر هؤلاء الكفار الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم . وانما قابل بين الايام المنتظرة والايام الماضية في وقوع العذاب والحسرة حين لاتنفع الندامة . والانتظار هو الثبات لموقع مايكون من الحال ، تقول : انتظرني حتى ألحقك ولو قلت توقعني لم تكن أمرته بالثبات . والمثل في الجنس ماسد أحدهما مسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته والمثل في غير الجنس ماكان على المعنى يقرب به من غيره كقربه من جنسه كتشبيه اعمال الكفار بالسراب وقوله « قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين » أمر من الله لنبيه أن يقول لهم : انتظروا ماوعد الله به من العقاب فاني منتظر نزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد الله به .

قوله تعالى :

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) آية

قرأ يعقوب « ثم ننجي » بالتخفيف . وقرأ الكسائي ويعقوب وحفص والكسائي عن ابي بكر « ننجي المؤمنين » بالتخفيف . الباقون بالتشديد فيهما . قال ابو علي

النحوي : يقال نجا زيد نفسه ، فاذا عديته ، فان شئت قلت أنجيته وان شئت قلت نجيته . ومن شدد فلقوله « ونجينا الذين آمنوا » (١) ومن خفف فلقوله « فأنجاه الله من النار » (٢) وكلاهما حسن .

أخبر الله تعالى أنه إذا اراد إهلاك قوم استحقوا الهلاك نجى رسله من بينهم وخلصهم من العقاب،ويخلص مع الرسل المؤمنين الذين أقروا له بالوحدانية وللرسل بالتصديق . وقوله « كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين » وجه التشبيه في ذلك أن نجاة من يقر من المؤمنين كنجاة من مضى في أنه حق على الله ثابت لهم ويحتمل أن يكون العامل في « كذلك » ننجي الاول وتقديره ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك الانجاء ويحتمل أن يعمل فيه الثاني ،وكذلك حقاً علينا .

ومعنى قوله « حقاً علينا » يحتمل أمرين : احدهما - أن يكون معناه واجباً علينا ننجي المؤمنين من عقاب الكفار ، ذكره الجبائي . والثاني - أن يكون على وجه التأكيد كقولك مررت بزيد حقاً إلا أن علينا يقتضي الوجه الاول . والنجاة مأخوذة من النجوة وهي الارتفاع عن الهلاك.والسلامة مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقيصة،اسلمته اليه اذا اعطيته سالماً من غير آفة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ ان يقول للخلق « يا أيها الناس ان كنتم

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٨ (٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٤

في شك من ديني » فان ديني أن «لا أعبد الذين تعبدون من دون الله » أي إن كنتم في شك مما أذهب اليه من مخالفتكم فاني أظهره لكم وأبرء مما أنتم عليه وأعرفكم ما أمرت به وهو أن أكون مؤمناً بالله وحده وأن أقيم وجهي للدين حنيفاً .

إن قيل: لم قال « إن كنتم في شك من ديني » مع اعتقادهم بطلان دينه ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : احدها ـ أن يكون على وجه التقدير أي من كان شاكاً في أمري وهو مصمم على أمره فهذا حكمه . والثاني ـ انهم في حكم الشاك للاضطراب الذي يجدون نفوسهم عليه عند ورود الآيات . والثالث ـ ان فيهم الشاك فغلب ذكرهم ، وإنما جعل جواب (ان كنتم في شك) (لا أعبد) وهو لا يعبد غير الله شكوا أولم يشكوا ، لان المعنى لا تطمعوا أن تشككوني بشككم حتى أعبد غير الله كعبادتكم ، كأنه قيل : إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله بشككم ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم أي الذي أحياكم ثم يقبضكم وهو الذي يحق له العبادة دون أوثانكم ودون كل شيء سواه .

قوله تعالى :

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) آية

هذه الاية عطف على ما قبلها والتقدير وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقيل لي : أقم وجهك وقيل في معناه قولان : احدهما ـ استقم باقبالك على ما أمرت به من القيام باعباء النبوة وتحمل أمر الشريعة ودعاء الخلق الى الله بوجهك ، اذ من أقبل على الشيء بوجهه يجمع همته له فلم يضجع فيه . والثاني ـ أن يكون معناه أقم وجهك في الصلاة بالتوجه نحو الكعبة . والاقامة نصب الشيء المنافي لاضجاعه تقول : أقام العود إذا جعله على تلك الصفة فأما أقام بالمكان فمعناه استمر به . والوجه عبارة عن عضو مخصوص ويستعمل بمعنى الجهة كقولهم : هذا معلوم في وجه كذا ، ويستعمل بمعنى الصواب كقولك: هذا وجه الرأي .

وقيل في معنى الحنيف قولان : احـــدهما - الاستقامة . وقيل للمايل القدم أحنف تفاؤلا . والثاني - الميل ، وقيل الحنف في الدين لأنه ميل الى الحق .

وقولـه « ولاتكونن من المشركين » معناه نهي عن الاشراك مع الله تعالى غيره في العبادة تصريحاً بالتحذير عن ذلك والذم لفاعله .

قوله تعالى

وَلاَ تَدعُ مِن دُونِ ٱللهِ مالاَ يَنفَعُكَ ولاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ ٱلظَّالِمينَ (١٠٦) آية

قيل في معنى قوله « ولا تدع من دون الله » قولان : احدهما - لاتدعـه إلهاً كما يدعو المشركون الوثن إلهاً . الثاني - لاتدعه دعاء الآلهة في العبـادة بدعائه والدعاء يكون على وجهين : احدهما - بلفظ النداء كقولك : يازيـد اذا دعوته باسمه . والثاني - أن تدعوه الى الفعل وتطلب منه فعله كقول القائل لمن فوقه: إفعل . وقوله « ولاتدع من دون الله » معناه لاتدع غير الله إلهاً . وانما قال « مالا ينفعك ولايضرك » مع أنه لو نفع وضر لم تحسن عبادته لامرين :

احدهما - أن يكون معناه مالا ينفعك ولا يضرك نفع الاله وضره

والثاني - انه إذا كان عبادة غير الله ممن يضر وينفع قبيحة فعبادة من لايضر ولاينفع أقبح وأبعد من الشبهة . وقوله « فان فعلت فانك اذا من الظالمين » معناه انك إن خالفت ماأمرت به من عبادة الله كنت ظالماً لنفسك بادخال الضرر الذي هو العقاب عليها . وهذاالخطاب وإن كان متوجهاً الى النبي فالمراد به أمته ، ويجوز أن يكون الانسان يضر نفسه بما يفعل بأن يؤديها الى الضرر . ولايجوز أن ينعم على نفسه لان النعمة تقتضي شـــكر المنعم عليه وذلك لايمكن من الانسان ونفسه كما لا يمكن أن يثبت له في نفسه مال أو دين .

قوله تعالى

وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) آية

قوله « وان يمسسك الله بضر » اي ان احل بك الضر ، لان المس الحقيقي لايجوز عليه . لان حقيقتها تكون بين الجسمين، لكن لما ادخل الباء للتعدية جرى مجرى ان تقول يمسك من امسه . وأما اذا لم يتعد فيكون كقوله «مسني الضر»(١) والمماسة والمطابقة والمجامعة نظائر،وضدها المباينة . والكشف رفع الساتر المانع من الادراك . فكأن الضر ههنا كأنه ساتر يمنع من ادراك الانسان .

وقوله « وان يردك بخير » تقديره وان يرد بك الخير، وجاز على التقديم والتأخير كما يقول القائل : فلان يريدك بالخير ويريد بك الخير . والمعنى انه لاراد لما يريد الله بخلقه فان اراد بهم سوءاً لايقدر على دفعه احد . وان ارادهم بخير فلا يقدر احد على صرفه عنهم « يصيب به من يشاء من عباده » يعني بالخير .

وقوله « وهو الغفور الرحيم » معناه انه الغفار لكل من تاب من شركه وذنبه فلا ييأس من ذلك احد في حال تكليفه . وعندنا يجوز أن يغفر الله ذنب المؤمن من غير توبة . و (الرحيم) معناه انعامه على جميع خلقه .

قوله تعالى :

قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ

---

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٨٣

فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) آية

امر الله تعالى نبيه في هـذه الاية أن يقول للخلق قد جاءكم الحق من الله وهو الذي من عمل به من العباد نجا ، وضده الباطل وهو الذي من عمل به هلك ، فمن عمل بالحق كان حكيما . ومن عمل بالباطل كان سفيهاً . والمراد بالحق ههنا ماأتى بـه النبي ﷺ من القرآن والشرائع والاحـكام وغير ذلك من الآيات والـدلالات ، فمن اهتدى » بها بأن نظر فيها وعرفها حقاً وصواباً « فانما يهتدي لنفسه » ومعناه فان منافع ذلك تعود عليه من الثواب دون غيره « ومن ضل » عنها وعدل عن تأملها والاستدلال بها والعمل بموجبها « فانما يضل » عن منافع نفسه وهو الجاني عليها . وقوله «وماأنا عليكم بوكيل » معناه وماأناعليكم بوكيل في منعكم من اعتقاد الباطل بل انظروا لانفسكم نظر من يطالب بعمله ولايطالب غيره بحفظه كأنه قال ماأنا حافظكم من الهلاك اذا لم تنظروا انتم لانفسكم ولم تعملوا بما يخلصها كما يحفظ الوكيل مال غيره .

قوله تعالى :

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) آية

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يتبع ما يوحى اليه . والايحاء إلقاء المعنى في النفس على وجه خفي وهو مايجيء به الملك الى النبي ﷺ عن الله تعالى فيلقيه اليه ويخصه به من غير أن يرى ذلك غيره من الخلق .

وقوله « واصبر » امر من الله تعالى له بالصبر وهو تجرع مرارة الامتناع

من المشتهى إلى الوقت الذي يجوز فيه تناوله ، كصبر الصائم على الجوع والعطش، وكصبر النفس عن تناول المحرّمات . وانما يعين على الصبر العلم بعاقبته وكثرة الفكر فيه وفي الخير الذي ينال به وبذكر ماوعد الله على فعله من الثواب وعلى تركه من العقاب . وقوله « حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » امر منه تعالى للنبي ﷺ بالصبر على اذى المشركين وعلى قولهم انك ساحر كذاب ومجنون، حتى يحكم فيأمرك بالهجرة والجهاد قال الحسن: وقدكان الله اعلمه انه سيفرض عليه جهاد الكفار . وقيل نسخ ذلك فيما بعد بالامر بالجهاد ، والتقدير إلى أن يحكم الله بهلاكهم وعذابهم في يوم بدر وغيره « وهو خير الحاكمين » معناه خير الحكام لانه قد يكون حاكم افضل من حاكم مع كونهما محقين كمن يحكم على الباطن فانه افضل ممن يحكم على الظاهر ، لان الاول لايقع إلا حقاً ، والاخر يجوز أن يكون حقاً في الظاهر وان كان فاسداً في الباطن .

١١ - سورة هود

مكية في قراءة قتادة ومجاهد وغيرهما. وهى مئة وثلاث وعشرون آية في الكوفي ،واثنتان في المدني ،وواحدة في البصري وعند اسماعيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) آية

روى الكسائي عن أبي بكر « من لدن حكيم » ههنا وفي النمل ، بسكون الدال واشمامها الضم وكسر النون . الباقون بضم الدال واسكان النون . ولم يعدّ أحد من القراء (الر) آية كما عد قوم (طه) و(الم) و (حم) آية ؛لان ثانيه لايشبه رؤس الاي بنفس الحرف ولابالردف. وقد بينا في أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في هذه الحروف وأمثالها وأن الأقوى أن يقال إنها أسماء للسور .

وروي عن الحسن أنه قال : ماأدري تأويل (الر) غير ان المسلمين كانوا يقولون :هي اسماء للسور ومفاتحها . وخرجت هذه الحروف على وجه التهجي لايعرب شيء منها ، لأنها حروف ولو كانت اسماء لدخلها الاعراب . وقال الفراء « الر كتاب » رفع بحروف الهجاء . وقال غيره « كتاب » رفع بأنه خبر المبتدأ وتقديره هو كتاب او هذا كتاب والمراد بـ (كتاب) القرآن .

وقوله « احكمت آياته ثم فصلت » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها ـ قال الحسن : احكمت بالامر والنهي ، وفصلت بالثواب والعقاب .

الثاني ـ قال قتادة احكمت آياته من الباطل . ثم فصلت بالحرام والحلال.

الثالث ـ قال مجاهد « احكمت آياته » على وجه الجملة « ثم فصلت » اي بينت بذكرها آية آية . والاحكام منع الفعل من الفساد، قال الشاعر :

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم　　إني اخاف عليكم أن أغضبا (١)

وقوله « من لدن حكيم خبير » معناه من عند حكيم عليم . وقوم يجعلون في (لدن) ضميراً فينصبون ما بعده فيقولون لدن غدوة . وقوم يجعلونه غاية ولا يضمرون فيه شيئاً بعينه فيرفعون ما بعده لان ما بعد الغاية مرفوع . فيقولون لدن غدوة .

وروي عن عكرمة انه قرأ « فصلت » بفتح الفاء والصاد وتخفيفها ــ وهي شاذة لم يقرأ بها احد .

والحكيم يحتمل معنيين :احدهما ـ عليم ،فعلى هذا يجوز وصفه بأنه حكيم فيما لم يزل . والثاني ـ بمعنى أنه محكم لافعاله . وعلى هذا لا يوصف به فيما لم يزل. والحكمة المعرفة بما يمنع الفعل من الفساد والنقص وبها يميز القبيح من الحسن والفاسد من الصحيح. وقال الجبائي في الاية دلالة على أن كلام الله محدث بأنه وصفه بأنه أحكمت آياته ، والاحكام من صفات الافعال . ولا يجوز أن تكون احكامه غيره لانه لو كان احكامه غيره لكان قبل ان يحكمه غير محكم ولو كان كذلك لكان باطلا ، لان الكلام متى لم يكن محكماً وجب أن يكون باطلا فاسداً . وهذا باطل.

قوله تعالى :

أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) آية

---

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٨٨

يحتمل (أن) في قوله « أن لاتعبدوا » أمرين :

احدهما ـ أن يكون بمعنى المصدر كقولك كتبت اليه أن لاتخرج بالجزم وكان يجوز في العربية أن لاتعبدون على الوجه الأول ، وهوالاخبار بأنهم لايعبدون كما تقول : كتبت اليه أن لاتخرج أي بأنك لاتخرج . و « أن لاتعبدوا » في موضع نصب وتقديره فصلت آياته بأن لاتعبدوا او لئلا تعبدوا .

والثاني ـ يحتمل أن يكون المعنى أمرتم بأن لاتعبدوا ، فلما حذف الباء نصب بعدها ، ومعنى (إلا) في الآية ايجاب للمذكور بعدها وهو ما نفي عن كل ما سواه من العبادة وهي التي تفرغ عامل الاعراب لما بعدها من الكلام . وقوله « اني لكم منه نذير وبشير » اخبار أن النبي صلى الله عليه وآله مخوف من مخالفة الله وعصيانه بأليم عقابه مبشر بثواب الله على طاعاته واجتناب معاصيه ، والنذارة اعلام موضع المخافة ليتقى ، ونذير بمعنى منذر كأليم بمعنى مؤلم . والبشارة اعلام بما يظهر في بشرة الوجه بـه المسرة وبشير بمعنى مبشر . وقوله « وابشروا بالجنة » معناه واستبشروا .

قوله تعالى

وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) آية .

هذه الاية عطف على ماقبلها وتقديره ثم فصلت من لـدن حكيم خبير بان لاتعبدوا إلا الله وبأن استغفروا ربكم بمعنى سلوا الله المغفرة ثم توبوا اليه ، وانما ذكرت التوبة بعد الاستغفار ، لان المعنى اطلبوا المغفرة بأن تجعلوها غرضكم ثم توصلوا الى مطلوبكم بالتوبة ، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب . وقيل ان

المعنى استغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا اليه في المستأنف متى وقعت منكم المعصية ، ذكره الجبائي

وقوله « يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى » يعني انكم متى استغفرتموه وتبتم اليه متعكم متاعاً حسناً في الدنيا بالنعم السابغة والملاذّ المختلفة الى الوقت الذي قدر لكم أجل الموت فيه .

وقوله « ويؤت كل ذي فضل فضله » يحتمل امرين : احدهما – أن يعطي كل ذي عمل على قدر عمله في الاخرة دون الدنيا ، لانها ليست دار الجزاء والثاني – الترغيب في عمل الخير لانه على مقداره يجازي صاحبه .

وقوله « فان تولوا فاني اخاف عليكم » يحتمل امرين : احدهما – فان تتولوا ، إلا انه حذف للتضعيف ولذلك شدده ابن كثير في رواية البزي عنه . والاخر – ان يكون بمعنى فقل « إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » يعني عذاب يوم القيامة ووصف ذلك اليوم بالكبير لعظم ما يكون فيه من الاهوال والمجازاة لكل انسان على قدر عمله .

قوله تعالى

إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) آية

قيل في معنى قوله « الى الله مرجعكم » قولان : احدهما – اليه مصيركم باعادته اياكم للجزاء . والثاني – الى الله مرجعكم باعادته الى مثل الابتداء من انه لايملك لكم ضرّاً ولانفعاً سواه تعالى ، والمرجع المصير الى مثل الحال الاولى .

وقوله « وهو على كل شيء قدير » اخبار منه تعالى انه يقدر على كل شيء إلا مااخرجه الدليل مما يستحيل أن يكون قادراً عليه من مقدورات غيره وما يقضي وقته من الاجناس التي لايصلح عليها البقاء .

قوله تعالى

ألاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ألاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥) آية

روي عن ابن عباس انه قرأ « إلا انهم يثنّون صدورهم » على وزن (يحلون) وأراد المبالغة ومعنى (ألا) التنبيه . وما بعده مبتدأ .

أخبر الله تعالى ان الكفار يثنون صدورهم . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها ـ قال الفراء والزجاج : يثنونها على عداوة النبي صلى الله عليه وآله . وقال الحسن : يثنونها على ماهم عليه من الكفر وقال ابو علي الجبائي : يثني الكافر صدره على سبيل الانحناء ، في خطابه لكافر مثله ممن يختصه لئلا يعرف الله ما أضمره . وقال ابو عبد الله بن شداد : ولى ظهره إذا رأى النبي صلى الله عليه وآله وغطى وجهه بالثوب واصل الثني العطف تقول : ثنيته عن كذا اي عطيته ومنه الاثنان لعطف احدهما على الاخر في المعنى ، ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح ، ومنه الاستثناء لانـه عطف عليه بالاخراج منه

وقوله « ليستخفوا منه » فالاستخفاء طلب خفاء النفس تقول : استخفى استخفاء وتخفى تخفياً ، ونظيره استغشى وتغشى قالت الخنساء :

أرعى النجوم وما كلفت رعيتها وتارة اتغشى فضل اطماري (١)

والهاء في منه يحتمل أن تكون عائدة الى اسم الله ـ في قول الحسن ومجاهد والجبائي ـ جهلا منهم بأن الله لايخفى عليه خافية . وقال ابو عبد الله بن شداد : هي عائدة على النبي صلى الله عليه وآله .

وقوله « ألا حين يستغشون ثيابهم » معناه انهم كانوا يتغطون بثيابهم ثم يتفاوضون

(١) ديوانها ١٠٩ واللسان (رعي) واساس البلاغة ٣٥١

ما كانوا يدبرونه على النبي وعلى المؤمنين ويكتمونه عن الناس ، فبين الله تعالى انهم وقت مايتغطون بثيابهم ويجعلونها غشاء فوقهم عالم بما يسرون ومايعلنون ، لا انه يتجدد له العلم في حال استغشائهم بالثوب بل هوعالم بذلك في الأزل . ومعنى « مايسرون وما يعلنون » اي مايخفونه في أنفسهم وما يعلنونه أي يظهرونه « انه عليم بذات الصدور » ومعناه عالم بأسرار ذات الصدور

قوله تعالى :

وَمَامِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) آية .

أخبر الله تعالى أنه ليس في الارض دابة إلا والله تعالى متكفل برزقها . والدابة الحي الذي من شأنه أن يدب يقال : دب يدب دبيباً وأدبه ادباباً ، غير انه صار بالعرف عبارة عن الخيل والبراذين دون غيرها من الحيوان .

وقوله « ويعلم مستقرها ومستودعها » فالمستقر الموضع الذي يقر فيه الشيء وهو قراره ومكانه الذي يأوي اليه .والمستودع المعنى المجعول في القرار كالولد في البطن والنطفة التي في الظهر وقيل : مستودعها مدفنها بعد موتها .وقيل: مستقرها في اصلاب الآباء ومستودعها في ارحام الامهات . وقيل: مستقرها ما تستقر عليه ، ومستودعها ما تصير اليه .

وقوله « كل في كتاب مبين » خبر من الله تعالى أن جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر يعني اللوح المحفوظ .وانما اثبت تعالى ذلك مع انه عالم انه لايعزب عنه شيء لما فيه من اللطف للملائكة او يكون فيه لطف لمن يخبر بذلك .

قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ

عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) آية

اخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والارض وأنشأهما في ستة ايام ، وانما خلقهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته ان يخلقهما في أقل من لمح البصر ليبين بذلك ان الامور جارية في التدبير على منهاج ، ولما علم في ذلك من مصالح الخلق من جهة اقتضاء ان ينشأها على ترتيب يدل على انها كانت عن تدبير عالم بها قبل فعلها مثل سائر الافعال المحكمة .

وقوله « وكان عرشه على الماء ليبلوكم » معناه انه خلق الخلق ودبر الامر ليظهر احسان المحسن ، لأنه الغرض الذي يجري بالفعل اليه . وفي وقوف العرش على الماء ، والماء على غير قرار اعظم للاعتبار لمن امعن النظر واستعمل الفكر . والمراد بقوله « في ستة ايام » ما مقدارة مقدار ستة أيام ، لانه لم يكن هناك ايام تعد ، لان اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها .

وقوله « ليبلوكم » معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل لئلا يتوهم أنه يجازي العباد بحسب ما في المعلوم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه .

وقوله « أيكم أحسن عملا » فيه دلالة على أنه يكون فعل حسن أحسن من فعل حسن آخر لان لفظة أفعل حقيقتها ذلك . ولا يجوز ترك ذلك الا لدليل ، وليس ههنا مايوجب الانصراف عنه .

وقوله « ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الاسحر مبين » إعلام من الله تعالى لنبيه انه لوقال لهؤلاء الكفار ان الله يبعثكم بعد موتكم ويجازيكم على أعمالكم لقالوا: ليس هذا القول الا سحر ظاهر . ومن

قرأ (ساحر) اراد ليس هذا يعنون النبي صلى الله عليه وآله الا ساحر مبين . وقال الجبائي في الاية دلالة على انه كان قبل خلق السماوات والارض الملائكة قال : لان خلق العرش على الماء لاوجه لحسنه الا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد اذاً من حي مكلف . والاقوى ان يقال: انه لايمتنع ان يتقدم خلق الله لذلك اذا كان في الاخبار بتقدمه مصلحة للمكلفين، وهو الذي اختاره الرماني وكان علي بن الحسين الموسوي المعروف بالمرتضى (ره) ينصره .

وظاهر الاية يقتضي ان العرش الذي تعبد الله الملائكة بحمله كان مخلوقاً قبل السموات والارض ، وهو قول جميع المفسرين : كابن عباس ومجاهد وقتادة والبلخي والجبائي والرماني والفراء والزجاج وغيرهم . وقال ابن عباس : كان العرش على الماء ، والماء على الهواء. وقال الجبائي: ثم نقل الله العرش الى فوق السماوات

قوله تعالى

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨) آية.

اللام في قوله « ولئن أخرنا » لام القسم . ولايجوز ان تكون لام الابتداء ، لانها دخلت على (ان) التي للجزاء ، ولام الابتداء إنما هي للاسم او ماضارع الاسم في باب (ان) وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم ، لانه اذا جاء في صدر الكلام غلب عليه كما انه اذا تأخر اوتوسط الغي . ومعنى قوله « أخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة » اخر الى حين أمة معدودة كما قال « وادكر بعد امة» (١) اي بعد حين . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والزجاج والفراء وغيرهم .

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٤٥

وقال الجبائي : معناه الى أمم بعد هؤلاء يكلفهم فيعصونه فتقتضي الحكمة إهلاكهم وإقامة القيامة . وقال الرماني : معناه الى جماعة معدودة بانه ليس فيها من يؤمن فاذا صاروا الى هذه الصفة أهلكوا بالعذاب ، كما اهلك قوم نوح في الدنيا . وأهلكوا بعذاب الآخرة لكونهم على هذه الصفة .

وقوله « ليقولن مايحبسه » فالحبس المنع بالحصر في خباء . ويقال: حبس الماء إذا منع من النفوذ . وحبس السلطان الرزق اذا معنه . وحبس عنهم العذاب إذامنع من اتيانهم الى الاجل المعلوم . والتقدير ما الذي يمنع من تعجيل هذا العذاب الذي نتوعد به ؟ فقال الله تعالى « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » ومعناه ان هذا العذاب الذي يستبطئونه اذا نزل بهم في الوقت المعلوم لايقدر على صرفه أحد عنهم ولايتمكنون من اذهابه عنهم اذا اراد الله ان تأتيهم به . وقوله « وحاق بهم ما كانوا بـه يستهزئون» معناه انه نزل بهم الذي كانوا يسخرون منه من نزول العذاب ويتحققونه

قوله تعالى :

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) آية

أقسم الله تعالى في هذه الاية انهلو احل تعالى بالانسان رحمة منعنده يعني مايفعله الله تعالى بهم في الدنيا من الارزاق ، فانه يعم بها خلقه كافرهم ومؤمنهم . ثم نزعها منه وسلبها ، وسمى احلال اللذات بهم اذاقة تشبيهاً ومجازاً ، لان الذوق في الحقيقة تناول الشيء بالفم لادراك الطعم، والانسان حيوان على الصورة الانسانية لأن الصورة الانسانية بانفرادها قد تكون للتمثال ولايكون انساناً فاذا اجتمعت الحيوانية والصورة لشيء فهو انسان . قال الرماني: وكلما لاحياة فيه فليس بانسان

كالشعر والظفر وغيرهما. والنزع رفع الشيء عن غيره مما كان مشابكا له، والنزع والقلع والكشط نظائر. واليأس القطع بأن الشيء لا يكون وهو ضد الرجاء ويؤوس كثير اليأس من رحمة الله وهذه صفة ذم، لانه لا يكون كذلك الا للجهل بسعة رحمة الله التي تقتضي قوة الأمل. وفائدة الآيــة الاخبار عن سوء خلق الانسان وقنوطه من الرحمة عند نزول الشدة وأنه إذا أنعم عليه بنعمة لم يشكره عليها وإذا سلبها منه يئس من رحمة الله وكفر نعمه، وهومصروف الى الكفارالذين هذه صفتهم.

قوله تعالى:

وَلَـئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَـيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـآتُ عَنِّيٓ إِنَّهُ لَـفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) آية

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه لو أحل بالانسان «نعماء بعد ضراء مسته» لأن الهاء كناية عن الانسان الذي مضى ذكره، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرة تظهر الحال بها؛ لأنها أخرجت مخرج الأحوال الظاهرة كحمراء وعوراء مع ما فيها من المبالغة. ومعنى «مسته» نالته. وقوله «ليقولن ذهب السيئات عني» أي يقول عند نزول النعماء به بعد أن كان في ضدها من الضراء: ذهبت الخصال التي تسوء صاحبها من جهة نفور طبعه أو عقـله، وهو — ههنا — بمعنى المرض والفقر، ونحو ذلك. وقوله «إنه لفرح فخور» إخبار منه تعالى أن الانسان فرح فخور. والفرح انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم، ومثـــله السرور والمرح. والفرح لذة في القلب أعظم من ملاذ الحواس. والفخور المتطاول بتعديد المناقب، وفخور كثير الفخر، وهي صفة ذم إذا اطلقت لما فيه من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه. وقيل: للعالم أن يفخر على الجاهل بالعلم لتعظيم

العلم وتحقير الجهل ، ولذلك تفخر النبي على الكفار .

قوله تعالى :

إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) آية

لما أخبر الله تعالى عن أحوال الخلق وأن أكثرهم إذا حل بهم نعمه تعالى بعد أن كانوا في مضرة شديدة وانهم إذاً يقولون ذهب السيئات عنهم وان كثيراً منهم فرح فخور ، استثنى من جملتهم المؤمنين بتوحيد الله الصابرين على طاعاته والكف عن معاصيه وأضافوا الى ذلك الأعمال الصالحات . والصبر حبس النفس عن المشتهى من المحارم . والصبر على مرارة الحق يؤدي الى الفوز بالجنة في الآخرة مع ما فيه من الجمال في الدنيا . واستثنى الذين صبروا من الانسان، لانه في معنى الجمع كما قال « والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »(١) وقال الزجاج والأخفش : (إلا) بمنى (لكن) لأنه ليس من جنس الأول. والأول قول الفراء . وقوله « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المؤمنين بأن لهم عند الله المغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى :

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) آية

(١) سورة ١٠٣ العصر ١ ـ ٢

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يحثه على أداء جميع ما بعثه به وأوحى اليه ، وينهاه عن كتمانه ، ويشجعه على الاداء ، ويقول له لايكون لعظم مايرد على قلبك ويضيق به صدرك من غيظهم يوهمون عليك انهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من امر ربك ، وأنك تترك بعض الوحي ويضيق به صدرك مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا « لولا انزل عليه كنز » أي هلا انزل عليه كنز فينفق منه « أوجاء معه ملك » يعينه على أمره بل « إنما أنت نذير » أي منذر مخوف من معاصي الله وعقابه « والله على كل شيء وكيل » أي حافظ يكتب عليهم أفعالهم وأقوالهم ، ومجازيهم عليها ، فلا تغمك اقوالهم ولا أفعالهم ولايضيق بذلك صدرك فان وبال ذلك عائد عليهم . وضائق وضيق واحد الاان (ضائق) ههنا احسن لمشاكلته لقوله: تارك ، والضيق قصور الشيء عن مقدار غيره ان يكون فيه ، فاذا ضاق صدر الانسان قصر عن معان يتحملها الواسع الصدر. والصدر مسكن القلب ويشبه به رفيع المجالس ورئيس القوم لشرفه على غير ، والكنز المال المدفون لعاقبته ، وصار في الشرع اسم ذم في كل مال لايخرج منه حق الله من الزكاة وغيره ، وإن لم يكن مدفونا.

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) آية

هذه الآية صريحة بالتحدي وفيها قطع لاعتلال المشركين وبغيهم ، لأنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن قالوا : إن ما فيه من الاخبار كذب اختلقه واخترعه أو قرأ الكتب السالفة ، فقال الله تعالى لهم : افتروا أنتم مثله ، وادحضوا حجته فذلك أيسر وأهون مما تكلفتموه ، فعجزوا عن ذلك وصاروا الى الحرب وبذل النفس والمال وقتل الآباء والابناء . ولو قدروا على إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه

مع هذا التقريع العظيم . وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن وأنها الفصاحة في هذا النظم المخصوص ، لانــه لو كان غيره لمــا قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق . وقوله « فأتوا » وإن كان لفظه لفظ الأمر فالمراد به التهديد والتحدي والمثل المذكور في الاية ما كان مثله في البلاغة والنظم أوما يقاربه ؛ لأن البلاغة ثلاث طبقات فأعلاها معجز ، وأدناها وأوسطها ممكن ، فالتحدي وقع بما هو في أعلى طبقة في البلاغة ، ولايجوز أن يكون المراد بالمثل إلا المثل في الجنسية؛ لأن مثله في العين يكون حكايته وذلك لايقع بــه تحدي . وانما يرجع الى ماهو متعارف بينهم في تحدي بعضهم بعضاً كمناقضات امرىء القيس وعلقمة، وعمر بن كلثوم والحارث بن حلزة ، وجرير والفرزدق وغيرهم . ومعنى (أم) تقرير بصورة الاستفهام ، وتقديره بل « يقولون افتراه » . وقال بعضهم : إن الاستفهام محذوف ، كأنــه قال أيكذبونك أم يقولون افتراه . وهذا ليس بصحيح لأن (أم) ههنا منقطعة ليست معادلة ، وانما يجوز حـــذف الاستفهام في الضرورة . وقوله « ادعــوا من استطعتم من دون الله » أي ادعوهم الى معاونتكم على المعارضة . وهذا غاية مايمكن من التحدى والمحاجّة . وقوله « بعشر سور مثله » اي مثل سورة منه كل سورة منها . ومعنى « مفتريات » أي مختلقات يقال : افترى واختلق واخترق ، وخلق وخرق وخرص واخترص إذا كذب .

قوله تعالى :

فَإِلَّمْ يَستَجِيبُوا لَكُمْ فَاعلَمُوا أَنمَا أُنزِلَ بِعِلمِ ٱللهِ وأن لَا إلٰهَ إلا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسلِمُونَ (١٤) آية

قيل في المعني بقوله « فان لم يستجيبوا لكم » قولان :

أحدهما ــ ان المراد به المؤمنون ، والتقدير فان لم يقبلوا إجابتك يامحمد

والمؤمنين، ولايأتون بعشر سور معارضة لهذا القرآن، فليعلم المؤمنون إنما أنزل بعلم الله بهذا الدليل، وهو قول مجاهد والجبائي.

والآخر - أن يكون المراد به المشركين، فالتقدير فان لم يستجب لكم من تدعونهم الى المعاونة ولايهيأ لكم المعارضة، فقد قامت عليكم الحجة.

والاستجابة في الاية طلب الاجابة بالقصد الى فعلها، يقال: استجاب وأجاب بمعنى واحد. والفرق بين الاجابة والطاعة أن الطاعة موافقة للارادة الجاذبة الى الفعل برغبة أو رهبة، والاجابة موافقة الداعي الى الفعل من أجل أنه دعا به.

وقوله «انزل بعلم الله» يحتمل أمرين: احدهما- بعلم الله انه حق من عنده أي عالم به. والآخر - بعلم الله بمواقع تأليفه في علو طبقته. وقوله «وأن لا إله إلا هو» اي فاعلموا أن لاإله إلاهو. وقوله «فهل أنتم مسلمون» معناه هل أنتم بعد قيام الحجة عليكم بما ذكرناه من كلام الله وانه أنزله على نبيه تصديقاً له فيما أداه اليكم عن الله مسلمون له موقنون به؟ لأن كل من سلم له الأمر فقد استسلم له. قال مجاهد: وهذا خطاب لأصحاب النبي ﷺ من المسلمين.

قوله تعالى:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) آية

شرط الله تعالى بهذه الآية أن «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها» وحسن بهجتها، ولايريد الآخرة، فان الله تعالى يوفيه جزاء عمله فيها يعني في الدنيا، ولايبخسه شيئاً منه. والزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أوهيئة، يقال: زانه يزينه وزينه تزييناً. والتوفية تأدية الحق على تمام. والبخس نقصان الحق، يقال: بخسه بخساً إذا ظلمه بنقصان الحق. وفي المثل (يبخسها حمقاء) وهي

باخس . وقيل في العمل الذي يوفون حقهم من غير بخس قولان : أحدهما - قال الضحاك ومجاهد : هو أن يصل الكافر رحمه أو يعطي سائلا سأله أو يرحم مضطراً أو غير ذلك من أفعال الخير ، فان الله تعالى يعجل له جزاء عمله في الدنيا بتوسيع الرزق ، وإقرار العين فيما خوّل ، ودفع مكاره الدنيا . الثاني - الغزو مع النبي ﷺ للغنيمة دون ثواب الاخرة ، أمر الله نبيه أن يوفيهم قسمهم وهذا من صفة المنافقين ، ذكره الجبائي . وانما جاز أن يقول « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم » ولم يجز أن تقول : من جاءني اكرمه ، لأن الاجود في الشرط والجزاء أن يكونا مستقبلين أويكونا ماضيين بنية الاستقبال ، فان كان أحدهما ماضياً ، والآخر مستقبلا كان جائزاً على ضعف كما قال زهير :

ومن هاب أسباب المنايا تنلنه ولو رام أسباب السماء بسلم (١)

قلنا عنه جوابان : أحدهما - قال الفراء : إن المعنى من يرد الحياة الدنيا و(كان) زائدة. والثاني: إن المعنى أن يصح أنه كان، كقوله « إن كان قميصه قد من دبر فكذبت » (٢) ولايجوز مثل هذا في غير (كان) لأنها أم الأفعال .

قوله تعالى :

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) آية

قوله « أولئك » كناية عن الذين ذكرهم في الاية الأولى، وهم الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، دون ثواب الاخرة . فأخبر الله أنه ليس لهم في الآخرة مستقر إلا النار ، وأن أعمالهم كلها محبطة لايستحقون عليها ثواباً ؛ لأنهم أوقعوها

(١) اللسان (سبب) وروايته (المنية يلقها) بدل (المنايا تنلنه)

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٢٧

على غير الوجه المأمور به ، وعلى حدّ لاتكون طاعة ، وأن جميع مافعلوه في الدنيا باطل لاثواب عليه . وقد بينا فساد القول بالاحباط (١) على مايذهب اليه المعتزلة وأصحاب الوعيد ، سواء قالوا الاحباط بين الطاعة والمعصية أو بين المستحق عليهما، فـلا معنى للتطويل بذكره ههنا . وقوله « وباطل ماكانوا يعملون » بعد قوله « حبط ماصنعوا فيها » يحقق مانقوله : إن نفس الاعمال تبطل بأن توقع على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب .

قوله تعالى :

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) آية .

الالف في قوله « أفمن كان » ألف استفهام ، والمراد بها التقرير ، والتقدير هل الذي كان على بينة - يعني برهان وحجة من الله - والمراد بالبينة ههنا القرآن والمعني بقولـه « أفمن كان على بينة » النبي صلى الله عليه وآله و كل من اهتدى بـه واتبعه . وقوله « ويتلوه شاهد منه » قيل في معناه أقوال : أحدها - شاهد من الله هو محمد صلى الله عليه وآله . وروي ذلك عن الحسين بن علي عليهما السلام وذهب اليه ابن زيد واختاره الجبائي. والثاني - قال ابن عباس ومجـاهد وابراهيم والفراء والزجاج : جبرائيل يتلو القرآن على النبي صلى الله عليه وآله . والثالث - شاهد منه لسانه ، روي ذلك عن محمد بن علي أعني ابن الحنفية ، وهو قول الحسن وقتادة والرابع - روي عن أبي جعفر محمد

(١) انظر ٢ / ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٥٢٢ . ٥٢٥

ابن علي بن الحسين عليه السلام أنه علي بن ابي طالب عليه السلام ورواه الرماني ، وذكره الطبري باسناده عن جابر بن عبد الله عن علي عليه السلام . وذكر الفراء وجهاً خامساً ـ قال : ويتلوه يعني القرآن يتلوه شاهد هو الانجيل ، ومن قبله كتاب موسى يعني التوراة . والمعنى ويتلوه في الحجة والبينة . وقوله « ومن قبله كتاب موسى » الهاء في « قبله » عائدة على القرآن المداول عليه فيما تقدم من الكلام ، والمعنى أنه يشهد بـه بالبشارة التي فيه . وقوله « إماماً ورحمة » العامل فيه أحـد امرين : احدهما ـ الظرف في قوله ومن قبله . والثاني ـ وشاهد من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وخبر (من) في قوله « أفمن كان على بينة من ربه » محـذوف والتقدير أفمن كان على بينة من ربه وعلى الأوصاف التي ذكرت كمن لا بينة معه ، قال الشاعر :

وأقسم لوشيء أتانا رسوله سواك ... ولكن لم نجد عنك مدفعا

وأنشد الفراء :

فما أدري إذا يممت وجهاً ... أريد الخير أيهما يليني

آلخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي لا يأتليني(١)

قال : أيهما ، وإنما ذكر الخير وحده ، لأن المعنى مفهوم ، لأن المبتغي للخير متق للشر . وقال قوم خبره قوله « من كان يريد الحياة الدنيا » وقـد تقدمه ، واستغني به . وقوله « أولئك يؤمنون به » كناية عمن كان على بينة من ربه أنهم يصدقون بالقرآن ويعترفون بأنه حق . وقوله « ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده » معناه إن كل من يجحده ولا يعترف به من الاحزاب الذين اجتمعوا على عداوته . وقال الفراء : يقال : كل كافر حزب النار « والنار موعده » يعني مستقره وموعده « فلاتك » يا محمد صلى الله عليه وآله في شك من ذلك ، فالخطاب متوجه الى النبي صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين . وقوله « انـه الحق من ربك » اخبار منه تعالى بأن

(١) مرّ هذا الشعر في ٢ / ١١٣

هـذا الخبر الذي ذكره حق من عند الله ، ولكن اكثر الناس لايعلمون صحته وصدقه لجهلهم بالله وجحدهم نبوة نبيه ﷺ . وروي أن الحسن قرأ (في مرية) بضم الميم ، وهي لغة أسد وتميم ، وأهل الحجاز يكسرون الميم وعليه القراء .

قوله تعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٨) آية

قال الحسن معنى قوله « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً » لا أحـد أظلم منه إلا انه خرج مخرج الاستفهام مبالغة في انه أظلم لنفسه من كل ظالم ، وانما كان المفتري على الله كذباً أظلم من كل ظالم ، لأنه يجحد نعم الله ولا يشكرها . وقوله « أولئك يعرضون على ربهم » اخبار منه تعالى أن من هذه صفته يعرض على الله يوم القيامة . والعرض إظهار الشيء بحيث يرى للتوقيف على حاله يقال : عرضت الكتاب على فلان ، وعرض الجند على السلطان ، ومعنى العرض على الله أنهم يقفون في المقام الذي يرى العباد ، وقد جعله الله تعالى للمطالبة بالاعمال فهو بمنزلة العرض في الحقيقة ، لأنهم لايخفون عليه في حال من الأحوال بل هو تعالى يراهم حيث كانوا . وقوله « ويقول الأشهاد » يعني الملائكة والأنبياء والعلماء ، يشهدون بما كان منهم من الكذب عليه تعالى . وقيل : هو جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب ، وقيل : جمع شهيد كشريف وأشراف . وقوله « ألا لعنة الله على الظالمين » تنبيه من الله تعالى لخلقه بأن لعنته على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بادخال الضرر عليها وعلى غيرهم بادخال الآلام عليهم ، ولعنة الله إبعاده من رحمته .

قوله تعالى

أَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) آية

وصف الله تعالى الظالمين الذين جعل لعنة الله عليهم بأنهم يصدون عن سبيل الله بمعنى أنهم يغرّون الخلق ويصرفونهم عن المصير اليه واتباعــه ، بغير الحق ، ويجوز أن يكون صدّه عن الفساد بدعائه الى تركه ، والصد عن الحق سبب الامتناع منه إذا صادف منه مايهواه ، فيفعله من أجل ذلك الداعي ، وانما جاز تمكين الصاد من الفساد لأنه مكلف للامتناع . وليس في منعه لطف بأن ينصرف عن الفساد الى الصلاح ، فهو كشهوة القبيح الذي به يصح التكليف . قال ابو علي : ولو لم يكن إغواء الشيطان إضلالا لعمل من قبل نفسه ذلك أوشرّاً منه . وقوله « يبغونها عوجاً » معناه إنهم يطلبون لسبيل الله عدولا عنه . والعوج العدول عن طريق الصواب ، وهو في الدين عوج بالكسر ، وفي العود عوج بالفتح ، فرّقوا بين مايرى وبين مالايرى فجعلوا السهل للسهل والصعب للصعب بالفتح والكسر. والبغية طلبة أمر من الأمور تقول : بغاه يبغيه بغية مثل طلبه يطلبه طلبة . وقوله « وهم بالاخرة هم كافرون » إخبار منه تعالى أن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله كافرون بالآخرة وبالبعث والنشور والثواب والعقاب أي جاحدون غير مقرين . وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » كرر (هم) مرتين كما قال « أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون » (١) كرر (أنكم) مرتين ، ووجه ذلك أنه لمــا طال الكلام وفارق فعله كرره مرة أخرى .

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنين آية ٣٥

قوله تعالى :

أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأن عليهم لعنة الله وأنهم الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً بأنهم غير « معجزين في الأرض » أي لم يكونوا فائتين فيها هرباً من الله تعالى إذا اراد إهلاكهم كما يهرب الهارب من عدو ، وقد جد في طلبه . والاعجاز الامتناع من المراد بما لايمكن معه إيقاعه ،وانهم لم يكن لهم ولي يستطيع الدفاع عنهم من دون الله . والولي الخصيص بأن يلي بالمعاونة لدفع الاذية ، ومنه قولهم : تولاك الله بحفظه ، فلا ولي لهؤلاء يعاونهم ويدفع العقوبة عنهم ، لأن الله تعالى قد أيأسهم من ذلك . وقوله « يضاعف لهم العذاب » قيل في معناه قولان : احدهما ـ بحسب تضاعف الاجرام . والآخر ـ كلما مر ضعف جاء ضعف ، وكله على قدر الاستحقاق . وقوله « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » معناه انه كان يثقل عليهم سماع الحق ورؤيته ، كما يقال: فلان لايستطيع النظر الى فلان ، وحقيقة الاستطاعة القوة التي تنطاع بها الجارحة للفعل ، ولذلك لايقال في الله انه يستطيع . وليس المراد بنفي الاستطاعة في الاية نفي القدرة بل ماذكرناه ، لأنه لو لم يكن فيهم قدرة لما حسن تكليفهم . وقد ذكر الفراء فيه وجهاً مليحاً ، فقال : المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولايعقلون . وحذف الباء كما قال « اليم بما كانوا يكذبون»(١) اي بتكذيبهم وسقوط الباء جائز ، كما قال «احسن ما كانوا يعملون » (٢) ويقول

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٠　　(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٢

القائل : لأجزينك ماعملت ، وبما عملت . واختار ذلك البلخي . والسمع إدراك الصوت بما به يكون مسموعاً . والابصار إدراك الشيء بما به يكون مبصراً .

قوله تعالى .

أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) آية

ثم أخبر عنهم بخبر آخر،وهو أنهم « الذين خسروا أنفسهم » من حيث أنهم فعلوا مايستحقون به العذاب وهلكوا بذلك في خسران أنفسهم ، وخسران النفس اعظم الخسران ، لأنه ليس عنها عوض. وعن هلاك رأس المال عوض ، فسلامةالنفس أجل فائدة ، وما كان بعــده من نفع فهو ربح . وقوله « وضل عنهم ماكانوا يفترون » قيل في معناه قولان : أحدهما ـ ذهب عنهم الانتفاع بالافتراء كما كانوا في الـدنيا والثاني ـ ذهب عنهم الأوثان التي كانوا يأملون بها الانتفاع ـ في قول الحسن ـ و (اولئك) اشارة الى البعيد ، (وهؤلاء) إشارة الى القريب وأولاء مبني على الكسر ، لأنه اسم للجمع بمنزلة الواحد والكاف في (أولئك) حرف يدل على أن الـكلام الذي معه مخاطباً به . ووجه اتصال (ما) في الآية أن (أولئك) إشارة الى من تقــدم ذكره و (الـذين) صفة لهم وهو موصول و (خسروا) صلته و (أنفسهم) معمول الصلة و(ضل) معطوف على الصلة و(كانوا) صلة فاعل معطوف الصلة و (يفترون) خبر صلة فاعل معطوف الصلة ، وهو تمام (الاسم) .

قوله تعالى

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٢٢) آية

معنى (لاجرم) قال الزجاج : معنى (لا) نفي لما ظنوه أنه ينفعهم كأن المعنى لاينفعهم ذلك . ثم ابتدأ « جرم انهم » أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران. وقال غيره : معناه لابد انهم ، ولامحـالة أنهم . وقيل : معناه حقاً أنهم . واصل (الجرم) القطع فكأنه قال لاقطع من انهم في الاخرة هم الاخسرون و (جرم) في قوله (لاجرم) فعل ، وتقديره لاقطع قاطع عن ذا . إلا أنهم كثر في كلامهم حتى صار كالمثل وهو من قول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة	جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا(١)

اي قطعتهم الى الغضب، فرواية الفراء نصب فزارة، والمعنى كسبهم أن يغضبوا. وخسران النفس يتعاظم ، لأن خسران النفس بعذاب دائم أعظم من خسرانها بعذاب منقطع . و (هم) في قوله « هم الأخسرون » يحتمل أن يكون فصلا والأخسرون خبر (أن) و (هم) إذا كانت فصلا لم تقع في النكرة . وقولهم : ما كانوا في الدار هم القائمون . فـلا يكون إلا اسماً ، فان جعلتهما فصلا قلت : كانوا في الدار هم القائمون

قوله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) آية

لما ذكر الله تعالى الكفار ، ووصف ما أعدّ لهم من العذاب وخسران النفس أخبر ــ هنا ــ أن الذين يؤمنون بالله ويعتقدون وحدانيته ويصدقون رسله، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها ورغبهم فيها « وأخبتوا الى ربهم » أي خشعوا اليه. والاخبات الخشوع المستمر على استواء فيه ، وأصله الاستواء من الخبت ، وهـو

---

(١) مرّ في ٣/ ٤٢٣ و ٥ ٤١٣

الأرض المستوية الواسعة . وقيل : إن الاخبات الانابة ــ ذكره ابن عباس ــ وقال مجاهد : هو الاطمئنان الى ذكر الله . وقال قتادة : هو الخشوع اليه والخضوع له. وقال الحسن : هو الخشوع للمخافـة الثابتة في القلب . وقال الجبائي : الاخبات سكون الجوارح على وجه الخضوع لله تعالى . وليس كل عمـل صالح يستحق عليه حمد أو مدح ، لأنه مثل الحسن في أنه ينقسم قسمين : أحدهما ــ يستحق عـليه الحمد . والآخر ــ لايستحق عليه كالمباح ، فكذلك الصالحـات . والمراد بالصالحات ــ ههنا ــ الطاعة ، لأنه وعد عليها الجزاء في قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١) . وقوله « وأخبتوا الى ربهم » قال قوم : معناه اخبتوا لربهم ، فوضع (الى) مكان اللام ؛ لأن حروف الاضافة توضع بعضها مكان بعض ، كما قال « أوحى لهـا » (٢) بمعنى أوحى اليها . والآخر ــ أن معناه عمدوا باخباتهم الى الله . وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » إشارة الى المؤمنين الذين وصفهم بأنهم يعملون الصالحات ويخبتون الى ربهم ، فاخبر عنهم أنهم أصحاب الجنة اللازمون لها وأنهم فيها مخلدون دائمون .

قوله تعالى

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٢٤) آية

المثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول ، والأمثال لاتغير عن صورتها كقولك للرجل (اطرى انك ناعلة) وكذلك يقال للكافر : هـو أعمى أصم أي هو بمنزلة الذين قيل لهم هذا القول ، ويجري هذا في كل كافر يأتي من بعد .

---

(١) سورة ١١ هود آية ١١٥　　(٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

و (الواو) في قوله « كالاعمى والأصم » قيل في دخولها قولان :

أحدهما ـ العموم في التشبيه أي حال الكافر كحال الأعمى و كحال الأصم و كحال من جمع العمى والصمم .

الثاني ـ أن المعنى واحد ، وإنما دخلت الواو لاتصال الصفة الأولى بعلامة.

وإنما قال : هل يستويان ، لأنه أراد الفريقين : الموصوف أحدهما بالصمم والعمى ، والاخر بالبصر والسمع . وفائدة الآية تشبيه المؤمن والكافر في تباعد ما بينهما فشبههما ، بالاعمى والبصير . والأصم والسميع ، فالكافر كالاعمى والاصم في أنه لايبصر طريق الرشد ، ولايسمع الحق ، وأنه مع ذلك على صفة النقص . والصمم عبارة عن فساد آلة السمع ، ولو كان معنى يضاد السمع لتعاقبا على الحي ،والأمر بخلافه ، لأنه قد ينتفي حال الصمم ولايكون سامعاً ، وكذلك العمى عبارة عن فساد آلة الرؤية ، وليس بمعنى يضاد الابصار ، لأن الصحيح أن الادراك أيضاً ليس بمعنى ، ولو كان معنى لما وجب أن يكون العمى ضده . لأنه لو كان ضده لعاقبه على حال الحي و كان يجوز أن يحضر المرئي من الاجسام الكثيفة من غير ساتر فلا يرى مع حصول شروط الادراك لأجل وجود الضد ، وكذلك الصمم ، ولاضد له لأنه ليس هناك حال يعاقبه على حال مخصوصة كمعاقبة العجز القدرة على حال الحياة. وقوله « هل يستويان مثلا » وإن كان بصورة الاستفهام فهو لضرب من التوبيخ والتقريع. وقوله «أفلا تتفكرون» معناه أفلا تتفكرون في ذلك فتعلموا صحة ماذكرنا.

قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) آيتان

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة (إني) بكسر الهمزة . الباقون بفتحها

قال أبو علي النحوي : من فتحها حملها على (أرسلنا) أي أرسلناه بأني لكم ولم يقل إنه ، لأنه انتقل عن الغيبة الى الخطاب ، ومثله كثير ، قال الله تعالى « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » ثم قال بعده « فخذها بقوة » (١) فكذلك الآية . ومن كسر يضمر القول قبلها كأنه قال : أرسلنا نوحاً الى قومه فقال: إني لكم نذير ، ومثله كثير ، قال الله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » (٢) اي يقولون : سلام عليكم ، وقوله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى» (٣) أي قالوا : مانعبدهم ، ويكون الكلام على ظاهره لم يرجع من الغيبة الى الخطاب . وليس لأحد أن يرجح القراءة بالفتح من حيث أن ما بعده من قوله « أن لاتعبدوا إلا الله » محمول على الارسال ، فاذا فتحت كان أشكل بما بعدها لحملهما جميعاً على الارسال . وذلك أن من كسر حمل قوله « اني لكم » ومابعده على الاعتراض بين المفعول ومايتصل به مما بعده ، كما أن قوله « إن الهدى هدى الله » اعتراض بينهما في قوله « ولاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله ان يؤتى أحد مثل ماأوتيتم » (٤) فكذلك قوله « إني لكم نذير مبين » لان التقدير ولقد أرسلنا نوحاً لانذار أن لاتعبدوا الا الله إني أنذركم لتوحدوا الله وأن تتركوا عبادة غيره .

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل نوحاً وأمره أن يقول لهم: إني مؤذ عن الله ومخوفكم من عقابه وترك طاعاته ، لأن اللام في قوله « لقد» لام القسم،وهي تدخل على الفعل والحرف الذي يختص بالفعل مما يصح معناه معه ، ولام الابتداء للاسم خاصة . ومعنى (قد) وقوع الخبر على وجه التقريب من الحال تقول : قد ركب الامير ـ لقوم يتوقعون ركوبه ـ .

(١) سورة ٧ الاعراف ١٤٤
(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥ ـ ٢٦
(٣) سورة ٣٩ الزمر آية ٣
(٤) سورة ٣ آل عمران آية ٧٣

وقوله « أن لا تعبدوا الا الله » يحتمل أن يكون موضع (تعبدوا) من الاعراب نصباً ، والمعنى أن لاتعبدوا الا الله ، ويجوز أن يكون موضعه جزماً على تقدير أي لاتعبدوا . ويحتمل أن يكون متعلقاً بقوله « أرسلنا » وتقديره أرسلنا بأن لاتعبدوا الا الله ، على ما بينا من الاعتراض وحملها جميعاً على الارسال.

وقوله « اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » أي مؤلم عذابه وانما قال عذاب يوم اليم بالجر ومعناه مؤلم ، لأن الألم يقع في اليوم ، فكأنه سبب الألم . ولو نصبته على أن يكون صفة للعذاب كان جائزاً ، ولم يقرأ به أحد . وانما بدىء بالدعاء الى العبادة دون سائر الطاعات ، لأنها أهم مايدعى اليه من خالف الحق فيه ولأنه يجب أن يفعل كل واحدة من الطاعات على وجه الاخلاص والعبادة فيها لله . وانما قال « اني أخاف عليكم عذاب يوم اليم » مع أن عذاب الكافر معلوم لأنه يخاف مالم يعلم مايؤول اليه أمرهم من ايمان أو كفر، وهذا لطف في الاستدعاء وأقرب الى الاجابة في غالب أمر الناس .

قوله تعالى :

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) آية

قرأ أبو عمرو « بادىء الرأي » بالهمز في بادي . الباقون بلا همز .

قال ابو علي: حدثنا محمد بن السدّي أن اللحياني قال: يقال: أنت بادي الرأي تريد ظلمنا لايهمز (بادي) وبادىء الرأي مهموز . فمن لم يهمز أراد أنت أول الرأي ومبتدؤه وهما في القرآن . وقال أبو علي : من قال (بادي الرأي) بلاهمز جعله من بدو الشيء وهو ظهوره ، وما اتبعك إلا أراذل فيما ظهر لهم من الرأي

اي لم يفعلوه بنظر فيه ولا بتبين له . ومن همز أراد اتبعوك في أول الامر من غير فكر فيه ولا روية ، والقراءتان متقاربتان ، لأن الهمز في اللام منها ابتداء الشيء وأوله وابتداء الشيء يكون ظهوراً ، وان كان الشيء الظاهر قد يكون مبتدأ وغير مبتدأ ، فلذلك يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يقولون : انا بادي بدا وبادىء بدء ، فاني أحمد الله .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن جماعة الرؤساء من قوم نوح الذين كفروا وجحدوا نبوته أنهم قالوا له « مانراك الا بشراً مثلنا » والبشر مأخوذ من ظهور البشرة، لأن الغالب على الحيوان غير الانسان أن يلبس البشرة منه بالصوف أو الشعر أو الريش أو الصدف . والانسان مأخوذ من النسيان ، لأنهم يصغرونه إنيسيان ويجوز أن يكون من الأنسان الا أنهم زادوا الياء في التصغير . والمثل ماسد مسد غيره في الجنس بمعنى أنه لو ظهر للمشاهد لسد مسده كما يسد الاسود مسد الاسود في الجنس من غير فضل . وقوله « مانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا » حكاية أيضاً عما قاله قوم نوح من أنه ما نرى من اتبعك الا أنه رذل خسيس حقير من جماعتنا تقول : رذل وجمعه أرذل ، وجمع الجمع أراذل مثل كلب وأكلب وأكالب . والعامل في (الذين) قوله « اتبعك » كأنه قال مااتبعك الاالذين هم أراذلنا ونراك ملغى ، ذكره الفراء . قال ابو علي النحوي : هو نصب على الحال ، والعامل فيه (اتبعك) وأخر الظرف وأوقع بعد (الا) ولو كان غيره لم يجز ، لأن الظرف اتسع فيه في مواضع . ومعنى « بادىء الرأي » أول الرأي مانراهم . والرأي والرؤية من قوله « يرونهم مثليهم رأي العين » (١) وهو نصب على المصدر كقولك ضربته أول الضرب . وقال الزجاج : نصبه بـ (اتبعوك أول الرأي) من غير فكر كأنه قيل اتبعوك رأياً غير سديد ، ومن قرأ بادي الرأي بـلا همز اراد ظاهر الرأي قال الشاعر :

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٣

وقد علتني ذرأة بادي بدي وريثة تنهض في تشددي (١)

وقال آخر :

اضحى لخالي شبهي بادي بدي وصار للفحل لساني ويدي(٢)

وقوله « وما نرى لكم علينا من فضل » تمام الحكاية عن كفار قوم نوح وانهم قالوا لنوح : إنالانرى لك ولامثالك علينا زيادة خير ، لأن الفضل هو زيادة الخير ، وانما قالوا ذلك ، لأنهم جهلوا في طريقة الاستدلال . وقوله « بل نظنكم كاذبين » ايضاً تمام الحكاية عن كفار قومه أنهم قالوا له ولمن آمن معه هذا القول.

قوله تعالى :

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) آية

قرأ حمزة والكسائي وحفص « فعميت » بضم العين وتشديد الميم . الباقون بتخفيف الميم وفتح العين . وقال ابو علي : من قرأ « فعميت » بالتخفيف فلقوله « فعميت عليهم الانباء يومئذ » (٣) وهذه مثلها .ويجوز في قوله (فعميت) أمران: احدهما ـ ان يكون عموا هم ،الاترى ان الرحمة لاتعمى وانما يعمى عنها،فيكون هذا من المقلوب ، كقولهم : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وأدخلت الخاتم في أصبعي ونحو ذلك مما يقلب إذا زال الاشكال . والاخر ـ ان يكون معنى عميت خفيت كقول الشاعر :

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى في الحائرين العمه (٤)

(١ ، ٢) اللسان (بدا) (٣) سورة ٢٨ القصص آية ٦٦

(٤) قائله رؤبة ديوانه : ١٦٦ وتفسير الطبري ١/ ٣١٠ وقد مرّ في ٨١/١

أي خفي الهدى ألا ترى أن الهدى ليس بذي جارحة تلحقها هذه الآفة ، وقد قيل للسحاب : العمى لخفاء مايخفيه. كما قيل له : الغمام ومن ذلك قول زهير :

ولكنني عن علم مافي غد عمي (١)

ومن شدد اعتبر قراءة الاعمش فانه قرأها فعمّاها عليهم وروى ذلك الفراء عن أبي ، والمعنيان متقاربان. قال الفراء : يقال عمي علي الخبر وعمي بمعنى واحد

حكى الله تعالى عن نوح ماقاله لقومه جواباً عما قالوه لـه مما حكيناه فانه « قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة » أي برهان وحجة من المعجزة التي تشهد بصحة النبوة . وخصهم بهذا إذ هو طريق العلم بالحق لاماالتمسوا من اختلاف الخلق . وقوله « آتاني رحمة من عنده » يرّد عليهم ماادعوه من أنه ليس له عليهم فضل ، فبين ذلك بالهداية الى الحق من جهة البرهان المؤدي الى العـــلم . وقوله « فعميت » يحتمل امرين : احدهما ـ خفيت عليكم ، لأنكم لم تسلكوا الطريق المؤدي اليها . والاخر ـ ان يكون المعنى عميتم عنها ، واضاف العمى الى البينة لما عموا عنها لضرب من المجـاز ؛ لأن المعنى ظاهر في ذلك ، كما يقال : ادخلت الخاتم في يدي والقلنسوة في راسي، والمراد ادخلت يدي في الخاتم ورأسي في القلنسوة. ومن قرأ بتشديد الميم وضم العين أضاف التعمية الى غيرهم ممن صدهم عن النظر فيها واغواهم في ذلك من الشياطين والمضلين عن الحق .

وقوله « أنلزمكموها وانتم لها كارهون » أنضطركم الى موجب البينة مع العلم مع كراهتكم لذلك فيبطل تكليفكم الاستدلال بالبينة المؤدية الى المعرفة أي أضطركم الى حال الضرورة . ووجه آخر ـ وهو أن يكون المراد إن الـذي علي أن أدل بالبينة ، وليس علي أن أضطركم الى المعرفة .

وفي قوله « انلزمكموها » ثـلاث مضمرات ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب ، وهو أحسن ترتيب : بدأ بالمتكلم ، لانه اخص بالفعل ثم بالمخاطب

(١) اللسان (عمي)

ثم بالغائب ، ولو اتى بالمنفصل لجاز لتباعده عن العامل بما فرق بينه وبينه ،فاشبه ماضربت إلا إياك ، وماضربني إلا انت . وأجاز الفراء « أنلزمكموها » بتسكين الميم جعله بمنزلة عضد وعضد وكبد وكبد . ولايجوز ذلك عند البصريين ، لأن الاعراب لايلزم فيه النقل كما يلزم في بناء الكلمة ، وإنما يجيزون مثل ذلك في ضرورة الشعر كقول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل (١)

وقال آخر :

وناع يخبرنا بمهلك سيد تقطع من وجد عليه الانامل

وقال آخر :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

قوله تعالى :

وَيَا قَوْمِ لاَأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) آية

في هذه الآية حكاية ما قال نوح لقومه أي لاأطلب منكم مالا أجراً على الرسالة ودعائكم الى الله فتمتنعون من إجابتي بل أجري وثوابي في ذلك على الله.

وقوله « وما أنا بطارد الذين آمنوا» معناه إني لست أطرد المؤمنين من عندي ولا أبعدهم على وجه الاهانة . وقيل : انهم كانوا سألوه طردهم ليؤمنوا أنفة أن يكونوا معهم على سواء ،ذكره ابن جريج والزجاج - وقوله «إنهم ملاقوا ربهم » اخبار بأن هؤلاء المؤمنين ملاقوا جزاء ربهم بعقاب من طردهم .في قول الزجاج .

(١) ديوانه : ١٣٠ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٦

وقوله « ولكني اراكم قوماً تجهلون» معناه أراكم تجهلون انهم خيرمنكم لايمانهم بربهم وكفركم به .

وقال قوم : إنهم قالوا له إن هؤلاء اتبعوك طمعاً في المال على الظاهر دون الباطن ، فقال لهم نوح انهم ملاقوا جزاء اعمالهم فيجازيهم على مايعلم من بواطنهم وليس لي الا الظاهر احملهم على ظاهر الايمان فانتم تجهلون ذلك .

قوله تعالى :

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣٠) آية.

ثم قال لهم نوح عليه السلام « ياقوم » وأراد به الجماعة الذين يقومون بالأمر و (قوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه . « من ينصرني من الله » أي من يمنعني من الله ، يقال : نصره من كذا يعني منعه منه ، ونصره عليه بمعنى أعانه عليه حتى يغلب ، ونصره الى كذا بمعنى نصره معه . ومنه قوله « من أنصاري الى الله » (١) ويجوز أن يقدر الله الكافر على الكفر ، ولايجوز أن ينصره عليه لأن النصرة على الشيء زيادة في القوة ليقع ذلك الشيء ، وهذا لايجوز على الله . والقدرة تصلح المضدين على منزلة سواء ولا دليل فيها على ارادة احدهما.

وقوله « أفلا تذكرون » معناه أفلا تتفكرون ، فتعلمون أن الامر على ما قلته . وفرق الطبري بين التذكر والتفكر بأن قال : التذكر طلب معنى قد كان حاضراً للنفس و(التفكر) طلب معرفة الشيء بالقلب وان لم يكن حاضراً للنفس.

و (النصرة) المذكورة في الآية ليست من الشفاعة في شيء ، لأن النصرة هي المنع على وجه المغالبة والقهر . والشفاعة هي المسألة على وجه الخضوع . وليس لأحد ان يستدل بذلك على نفي الشفاعة للمذنبين .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٢

قوله تعالى :

وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ (٣١) آية

في هذه الآية تمام الحكاية عما قال نوح لقومه وحاجهم به ، وهو أن قال لهم مضافاً الى ما مضى حكايته « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك » والمعنى إني لا أرفع نفسي فوق قدرها ، فأدعي أن عندي خزائن الله من الأموال فأعطيكم منها وأستطيل عليكم بها ، أو أقول إني أعلم الغيب ، أو أقول لكم إني ملك روحاني غير مخلوق من ذكر وأنثى بخلاف ما خلقني الله ، بل أنا بشر مثلكم وانما خصني الله بالرسالة وشرفني بها . وقيل معنى خزائن الله مقدوراته لأنه يوجد منها مايشاء . وفي وصفها بذلك بلاغة . وقيل « لا أقول لكم عندي خزائن الله » فادعوكم الى أن أعطيكم منها ، ذكره ابن جريح . و (الغيب) ذهاب الشيء عن الادراك . ومنه الشاهد خلاف الغائب. واذا قيل :علم الغيب معناه علم من غير تعلم ، وهو جميع الغيب ، وعلى هذا لايعلم الغيب إلا الله تعالى . وقوله « ولا أقول للذين تزدري أعينكم » أي لست أقول الذين احتقرتهم اعينكم . و (الازدراء) الافتعال من الزراية ، يقال : زريت عليه إذا عبته ، وازريت عليه اذا قصرت به ، والازدراء الاحتقار . وقوله « لن يؤتيهم الله خيراً » معناه لا اقول لهؤلاء المؤمنين الذين احتقرتموهم انهم لايعطيهم الله في المستقبل خيراً من أعمالهم ، ولايثيبهم عليها ، من حيث لاعلم لي بباطنهم بل الله اعلم بما في انفسهم ،هل هم مؤمنون في باطنهم ام لا ، ومتى قلت لايعطيهم خيراً كنت اذاً من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم .

قوله تعالى:

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) آية

في هذه الآية حكاية عما قال قوم نوح لنوح جواباً عما قاله لهم فيما تقدم « يا نوح قد جادلتنا » اي خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت مجادلتنا ، وروي فاكثرت جدلنا ــ والمعنى واحد ، فلسنا نؤمن لك « فأتنا بما تعدنا » من العذاب « إن كنت من الصادقين » فيما تقوله على الله تعالى . وحقيقة المجادلة المقابلة بما يقبل الخصم من مذهبه بالحجة أوشبهه ، وهو من الجدل لشدة الفتل ، ويقال للصقر أجدل ،لأنه أشد الطير.و(الاكثار) الزيادة على مقدار الكفاية . و« الاقلال » النقصان عن مقدار الكفاية . والفرق بين الجدال والحجاج :ان المطلوب بالحجاج ظهور الحجة ، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب . والمراء مذموم لأنه مخاصمة في الحق بعد ظهور الحق كمري الضرع بعد دروره ، وليس كذلك الجدال . وفي الآية دلالة على حسن الجدال في الدين ، لأنه لو لم يكن حسناً لما استعمله نوح مع قومه ، لأن الأنبياء لايفعلون إلا مايحسن فعله .

قوله تعالى :

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) آية

فأجابهم نوح عليه السلام عما قالوه فقال : إنما يأتي بالعذاب الله تعالى دون غيره يأتي به متى يشاء ، ولستم تفوتونه هرباً . ومعنى (انما) اختصاص ماذكر لمعنى دون غيره ، تقول : إنما زيد كريم أي هو كريم دون غيره . وإنما دخل (إنما) بمعنى الاختصاص بالمذكور دون غيره : لأنها لتحقيق المعنى : ومن تحقيقه أن

يكون لها دون غيره إذ المشرك لم يحقق على شيء بعينه ، وإذا دخلت (إنما) هذه على (اسم) كان الاسم مرفوعاً ، لأن (ما) كافة للعامل ، ولولا ذلك لما دخلت على الفعل ، والاعجاز هو الفوت بالهرب . وفي الاية دلالة على أن المجادلة تقوم بها الحجة على مخالف الحق ، لأنه لو لم تقم بها الحجة ماجادلهم نوح ولما قال الله تعالى للنبي ﷺ « وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

قوله تعالى

وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) آية

هذه الآية عطف على قول نوح : إنما يأتيكم بالعذاب الله إن شاء ولستم تفوتونه ، « ولا ينفعكم نصحي » . ويحتمل قوله « يريد أن يغويكم » أمرين :

احدهما ـ ان كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته بأن يحرمكم ثوابه ، ويعاقبكم لكفركم به ، ولاينفعكم نصحي يقال : غوى يغوي غياً ، ومنه قوله تعالى « فسوف يلقون غياً » (٢) أي خيبة وعذاباً وقال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لايعدم على الغي لائماً (٣)

فلما كان الله قد خيب قوم نوح من رحمته وثوابه وجنته أعلم نبيه نوحاً بذلك في قوله « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » (٤) وأنهم سيصيرون الى خيبة وعذاب ، أخبرهم الله بذلك على لسان نبيه ، فقال « ولاينفعكم نصحي » مع إتيانكم مايوجب خيبتكم والعذاب الذي جرّه عليكم قبيح أفعالكم ، ويريد الله إهلاككم وعقوبتكم على ذلك . وحكي عن طي انها تقول : أصبح فلان غاوياً أي

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥ (٢) سورة ١٩ مريم آية ٥٩ .
(٣) مرّ تخريجه في ٢/٣١٢ (٤) سورة ١١ هود آية ٣٦

مريضاً . وحكي عن غيرهم سماعاً منهم :أغويت فلاناً أهلكته ، وغوي الفصيل إذا فقد اللبن فمات : بكسر الواو في الماضي ، وفتحها في المستقبل ، ومنه قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى » (١) اي خاب من الثواب الذي كان يحصل له بتركه .

والوجه الثاني ـ أن يكون جرى على عادة العرب في تسمية العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه . فيكون المعنى ان كان الله يريد عقوبتكم على اغوائكم الخلق واضلالكم اياهم ، فسمى عقوبته اياهم على اغوائهم اغواء كما قال «وجزاء سيئة سيئة » (٢) « ومكروا ومكر الله » (٣) و « الله يستهزىء بهم » (٤) ونظائر ذلك كثيرة . ومثله قوله حكاية ابليس « بما أغويتني » (٥) فانه يحتمل هذين الوجهين ، الأول يحتمل أن يكون فبما خيبتني ، والثاني ـ فبما جازيتني على اغوائي الخلق عن الهدى . ولايجوز أن يكون المراد بذلك أن يجعلهم كفاراً على مايذهب اليه المجبرة ؛ لأن الاغواء بمعنى الدعاء الى الكفر او فعل الكفر لايجوز عليه تعالى، لقبحه كقبح الامر بالكفر . والنصح اخلاص العمل من الفساد على الاجتهاد فيه . والنصح نقيض الغش . وكان نصح نوح لقومه اعلامهم موضع الغي ليتقوه ، وموضع الرشد ليتبعوه . وانما شرط النصح بالارادة ـ في قوله « ان أردت أن أنصح » مع وقوع هذا النصح ـ استظهاراً في الحجة ؛ لأنهم ذهبوا الى أنه ليس بنصح ، فقال : لو كان نصحاً ماانقمعمن لايقبله . وقوله « هو ربكم واليه ترجعون » اخبارمن نوح أن الله الذي عذبكم وخيبكم من رحمته هو الذيخلقكم ويميتكم ثم يردكم بأن يحييكم ليجازيكم على افعالكم ويعاقبكم على كفركم بنعمه حيث لاينفعكم استدراك مافات، ولاينفعكم الندم على مامضى. وقال الحسن: معنى الاية ان كان الله يريد أن يعذبكم وينزل بكم عذابه فانتم عند ذلكلاينفعكم

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢١ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠
(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥
(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥ وسورة ١٥ الحجر آية ٣٩

نصحي ، لأن الله تعالى لايقبل الايمان عند نزول العذاب .

وقال بعض العلماء : ان قوم نوح كانوا يعتقدون أن ماهم عليه بارادة الله لولا ذلك لغيّروه وأجبرهم على خلافه، فقال نوح على وجه الانكار عليهم والتعجب من قولهم : ان نصحي لاينفعكم ان كان القول كما تقولون وتعتقدونه ، حكى ذلك البلخي .

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) آية.

معنى قوله « أم يقولون » اخبار من الله تعالى بأن هؤلاء الكفار الذين ليس يقبلون ماأتاهم به من عند الله يقولون : ليس هذا القرآن من عند الله بل افتراه وتخرصه وكذبه على الله ، فمعنى (ام) في الاية (بل) ، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهم :إن افتريته ، فعلي اجرامي . وقيل في معناه قولان : احدهما – انه وعيد ، بأني ان كنت افتريته فيما اخبرتكم به من الخبر عن نوح فعلي عقاب جرمي ، وان كانت الاخرى فعليكم عقاب تكذيبي ، وستعلمون صدق قولي وأينا الاحق . والثاني – انه قال ذلك على وجه الاحتجاج بصحة امره بأن لايتقول مثل هذا مع مافيه من العذاب في الاخرة والعار في الدنيا مع انه ذو امانة وصيانة . وهو في خطاب محمد ﷺ .

وقوله « وانا بريء مما تجرمون » معناه ليس علي من اجرامكم ضرر وانما ضرر ذلك عليكم فاعملوا بحسب مايقتضيه العقل من التفكر في هـذا المعنى . والفرق بين افتراء الكذب وبين قول الكذب :ان قول الكذب قد يكون على وجه تقليد من الانسان لغيره ، واما افتراؤه فهو افتعاله من قبل نفسه . ومعنى اجرم

اذنب ومثله جرم قال النميري حار الزبرقان :

طريد عشيرة ، ورهين ذنب　　بما جرمت يدي وجنى لساني (١)

ومعنى أجرم اقترف السيئة بفعلها لأنه من القطع ، وأذنب اي تشبه بالذنب في السقوط ، وجرم وأجرم في المأثم أكثر ، قال الشاعر :

كذا الناس مجروم عليه وجارم

قوله تعالى

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه اوحى الى نوح ، وقال له انه لن يؤمن احد من قومك في المستقبل اكثر من الذين آمنوا ، فلا تبتئس أي لاتغتم ولا يلحقك حزن لاجلهم . يقال ابتأس ابتآساً فهو مبتئس ، وقد يكون البؤس الفقر والابتآس حزن في الاستكانة انشد ابو عبيدة .

مايقسم الله أقبل غير مبتئس　　منه وأقعد كريماً ناعم البال (٢)

واصله البؤس وهو الفقر والمسكنة . ولما اعلم الله نوحاً عليه السلام أن أحداً من قومه لايؤمن فيما بعد ، ولامن نسلهم قال « رب لاتذر على الارض من الكافرين دياراً انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً » (٣) ذكره قتادة وغيره . والعقل لايدل على أن قوماً لايؤمنون في المستقبل وإنما طريق ذلك السمع ، وقد يغلب في الظن ذلك مع قيام التجويز ، ألا ترى انه يغلب في ظنوننا

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٨ واللسان والتاج (جرم)

(٢) قائله حسان ديوانه ٣٢٦ واللسان (بأس)

(٣) سورة ٧١ نوح آية ٢٦ ـ ٢٧

أن الروم مع كثرتهم لايؤمنون جملة إلا انــه ليس يمتنع مع ذلك أن يؤمنوا ، لان الله كلفهم الايمان ، فلو لم يكن ذلك جائزاً لما كلفهم .

قوله تعالى :

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) آية

في هــذه الآية اخبار من الله تعالى عما أمر به ـ عزّ وجلّ ـ نوحاً عليه السلام حين أيأسه من ايمان قومه فيما بعد ، وأنه مهلكهم بالطوفان . بأن يتخذ الفلك ويصنعها ، والصنع جعل الشيء موجوداً بعــد أن كان معدوماً ، ومثــله الفعل ، وينفصلان من الحدوث من حيث أن الصنعة تقتضي صانعاً ، والفعل يقتضي فاعــلا من حيث اللفظ ، وليس كذلك الحدوث ؛ لأنه يفيد تجدد الوجود لاغير .والصناعة الحرفة التي يكتسب بها ، والفلك السفينة ، ويكون ذلك واحداً وجمعاً ، كما قيل في أُسد وأَسد قالوا : في فلك وفلك ، لأن (فعلا وفعلا) جمعهما واحــد ، ويأتيان بمعنى واحد كثيراً يقال عجم وعجم ، وعرب وعرب ، ومثله فلك وفلك. والفلك والفلكة يقال لكل شيء مستدير أو شيء فيه استدارة ، وتفلك ثدي المرأة إذا استدار ، ومنه الفلك . وقوله « باعيننا » معناه بحيث نراها وكأنها ترى بأعين على طريق المبالغة .والمعنى بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك . وقال الجبائي بأعين أوليائنا من الملائكة الذين يعلمونك كيفية عملها ، والموكلين بك . وقيل : معناه بعلمنا . وقوله « ووحينا » اي على ماأوحينا اليك من صفتها وحالها . قال ابن عباس: امره الله تعالى ان يبنيها على هيئة جؤجؤ الطائر . ويجوز أن يكون المراد بوحينا اليك أن اصنعها . وقوله « ولاتخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » نهي لنوح عليه السلام أن يراجع الله تعالى ويخاطبه ويسألــه في امرهم

بأن يمهلهم، ويؤخر إهلاكهم، لأنه حكم بأهلاكهم وأخبر بأنه سيغرقهم، فـلا يكون الأمر بخلاف ماأخبر به . ويجوز الامر بما علم أنه لايكون، ولايجوز أن يدعو بمايعلمأنه لايكون، لأن في ذلكإيهاماً بأنه لايرضى باختياره، وليس كذلك الأمر. لانـه يتناول من يجوز عليه هـذا المعنى . وكسر (إنهم) على الابتداء .

قوله تعالى :

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٣٩)آيتان

أخبر الله تعالى في هذه الاية عن نوح أنه أخذ في عمل السفينة، قال الحسن : كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع . وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وبابها في عرضها وقال ابن عباس : كانت ثـلاث طبقات طبقة للنـاس، وطبقة للطير وطبقة للدواب والوحش .

وقوله « وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » اخبار من الله عن أشراف قومه ورؤسائهم أنهم كلما اجتازوا به وهو يعمل السفينة هزئوا من فعله . وقيل : إنهم كانوا يقولون : يانوح صرت نجاراً بعد النبوة على طريق الاستهزاء . وقال الرماني : السخرية إظهار خـلاف الباطن على جهة يفهم منها استضعاف العقل ومنه التسخير : التذليل استضعافاً بالقهر . والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصاً، ولايكون إلا لحيوان، وقد يكون اللعب بجماد لأنه طلب الفرجة من غير مراعاة لما يعقب، كفعل الصبي . وانمـا كانوا يسخرونمن

عمل السفينة ، لأنه كان يعملها في البر على صفة من الهول ، ولاماء هناك يحمل مثلها فكانوا يتضاحكون ويتعجبون من عمله . وقوله « إنا نسخر منكم كما تسخرون » جواب من نوح لهم بأنا نسخر منكم يعني نذمكم على سخريتكم ، وسماه سخرية ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) وقوله « ومكروا ومكر الله » (٢) وأطلق عليه إسم السخرية على وجه الازدواج . وقال قوم : معناه إن تستجهلونا في هذا الفعل فانا نستجهلكم ، كما تستجهلون ، ذكره الزجاج . وقوله « فسوف تعلمون » (سوف) ينقل الفعل عن الحال الى الاستقبال مثل السين سواء إلا أن فيه معنى التسويف وهو تعليق النفس بما يكون من الامور . وقوله « من يأتيه عذاب » قيل في معنى (من) قولان : أحدهما ــ أن يكون بمعنى (أي) كأنه قال فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه .

الثاني ــ أن يكون بمعنى الذي ، والمعنى واحد . و (من) إذا كانت استفهاماً استغنت عن الصلة ، وإذا كانت بمعنى الذي فلا بدّلها من الصلة ، كما استغنت (كم . وكيف) لأن البيان مطلوب من المسؤل دون السائل . والخزي العيب الذي تظهر فضيحته والعار به ، ومنه الذل والهوان وقوله « ويحل عليه » معناه ينزل عليه . وقال الرماني : الحلول النزول للمقام وهو من الحــل خلاف الارتحال . وحلول العرض وجوده في الجوهر من غير شغل حيز . وقوله « عذاب مقيم » أي دائم لايزول .

قوله تعالى:

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠　　(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) آية

قرأ حفص « من كل زوجين » بتنوين في اللام هنا ، وفي المؤمنون . وقال أبو الحسن : يقال للاثنين هما زوجان ، قال الله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » (١) يقال للمرأة زوج ، وللرجل زوجها ، قال الله تعالى « وخلق منها زوجها » (٢)وقال « امسك عليك زوجك » (٣) وقال بعضهم زوجة ، قال الأخطل:

زوجة أشمط مرهوب بوادره   قد صار في رأسه التخويص والنزع (٤)

وقال ابو الحسن : يقال للاثنين هما زوج . قال أبو علي الفارسي : يدل على ان الزوج يقع للواحد،قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين» الى قوله « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين » (٥) وقال الكسائي أكثر كلام العرب بالهاء . وقال القاسم بن معن أنه سمعها من العرب من اسد شنوءة ، وليس في القرآن بالهاء ، وهو أفصح من اثباتها عند البصريين . ومن قرأ بالاضافة كان قوله « اثنين » مفعول الحمل . والمعنى احمل من الأزواج اذا كانت اثنين اثنين زوجين ، فالزوجان من قوله « من كل زوجين » يريد بهما الشياع ، ولا يراد به الناقص من الاثنين ، ومنه قول الشاعر :

فمالك بالأمر الذي لاتستطيع بدارا

ومن نون حذف المضاف من (كل) والمعنى من كل شيء أو من كل زوج زوجين اثنين ، فيكون انتصاب اثنين على انه صفة لزوجين ، وذكر تأكيداً كما قال « الهين اثنين » (٦) .

---

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٤٩   (٢) سورة ٤ النساء آية ١

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧   (٤) ديوانه ٦٩واللسان (خوص)الشمط : البياض من السواد، وإذا بدا في رأسه البياض قيل : خوصه الشيب .والنزع : الصلع

(٥) سورة ٦ الانعام آية ١٤٣ ـ ١٤٤   (٦) سورة ١٦ النحل آية ٥١

اعلم الله نوحاً في هـذه الاية ان وقت هلاك قومه الكفار فور التنور ، وفي (التنور) اقوال : منها أن الماء اذا فار من التنور الذي يخبز فيه . وقيل : التنور عين ماء معروفة ، وتنور الخابزة وافقت فيه لغة العرب لغة العجم . وقيل : ان التنور وجـه الأرض ، ذكره ابن عباس ، واختاره الزجاج . وقيل التنور تنور الصبح ، روي ذلك عن علي عليه السلام . و (حتى) متعلقة بقولـه « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... حتى » .

أخبر الله تعالى أنه لما جاء أمره باهلاك قوم نوح عليه السلام لاستحقاقهم ذلك بالكفر ، وفار التنور يعني خروج الماء من موضع لم يعهد خروجه منه عـلامة لنوح عليه السلام وهو تنور الخبز ــ في قول ابن عباس والحسن ومجاهد ــ وقيل : هو تنور آدم عليه السلام ويقال : فار إذا ارتفع مافيه ، كما يفور القدر بالغليان ، فار يفور فوراً وفؤراً . وقال ابن عباس :فار إذا نبع . وقوله « قلنااحمل فيها من كل زوجين اثنين » إخبار منه تعالى أنـه أمر نوحاً أن يحمل معه في سفينته من كل جنس زوجين : والزوج واحد له شكل إلا أنه قـد كثر على الرجل الذي له امرأة : قال الحسن : في قوله « من كل شيء خلقنا زوجين » فالسماء زوج ،والأرض زوج والشتاء زوج ، والصيف زوج ، والليل زوج ، والنهار زوج ، حتى يصير الأمر الى الله الفرد الذي لايشبههشيء قال الاعشى :

و كل زوج من الديباج يلبسه　　　أبوقدامة محبوّاً بذاك معا(١)

وقوله « وأهلك » معناه واحمل معك أهلك «الا من سبق عليه القول» بالاهلاك قال الضحاك وابن جريج : هو ابنه وامرأته . وقوله « ومن آمن » تقديره واحمل من آمن . ثم أخبر تعالى فقال « وما آمن معه الا قليل » . قال ابن جريج :القليل الذين نجو معه كانوا ثمانية . وقال الاعمش : كانوا سبعة ، وقال ابن عباس : كانوا ثمانين ، وكان فيهم ثلاثة : بنيه : يافث ، وسام ، وحام . وثلاث كنائن لـه

---

(١) ديوانه ٨٦ وتفسير القرطبي ٩ /٣٥

ويافث جد الترك والروم والصقالبة وأصناف البيضان . وحام جد السودان ، وهم الحبش والنوبة والزنج وغيرهم . وسام أبو فارس وأصناف العجم .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاٰهَا وَمُرْسَاٰهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤١) آية

قرأ حمزة والكسائي « مجراها » بفتح الميم . الباقون بضمها ، وكلهم ضم ميم مرساها . ومن ضمها قابل بينها وبين مرسها لما بينهما من المشاكلة . ومن فتح فلانه قال بعده « وهي تجري » ومن اختار الأول ، قال التقدير اجري فجرت.

قال أبو علي الفارسي : يجوز في « بسم الله مجراها ومرساها » أن يكون حالا من شيئين : احدهما ـ ان يكون من الضمير الذي في (اركبوا) او من الضمير الذي في (فيها) ، فان جعلت « بسم الله مجراها » خبر مبتدأ مقدم في قول من لا يرفع بالظرف ، أو جعلته مرتفعاً بالظرف ، ولم يكن قوله « بسم الله مجراها » الاجملة في موضع الحال من الضمير الذي في (فيها) ولا يجوز أن يكون الضمير في قوله « اركبوا فيها » ، لأنه لا ذكر فيها يرجع الى الضمير ، ألا ترى أن الظرف في قول من يرفع به ارتفع به الظاهر ، وفي قول من رفع مثل هذا بالابتداء قد حصل في الظرف ضمير المبتدأ ، فاذا كان كذلك خلت الجملة من ضمير يعود من الحال الى ذي الحال . واذا كان كذلك لم يكن الا حالا من الضمير الذي في (فيها) . والثاني ـ يجوز أن يكون قوله « بسم الله » حالا من الضمير الذي في (اركبوا) على ان لا يكون الظرف خبراً عن الاسم الذي هو (مجراها) على ما كان في الوجه الأول ، ويكون المعنى اركبوا الآن متبركين بسم الله في الوقتين اللذين لا ينفك الراكبون فيها منهما من الارساء والاجراء ، وليس يريد اركبوا في وقت الجري

والرسو ، فموضع «مجراها» نصب على هذا الوجه بأنه ظرف عمل فيه على المعنى . وفي الوجه الأول رفع بالابتداء وبالظرف . ومن فتح الميم فلأنه قال «وهي تجري» . ومن ضم ، فلأن جرت بهم وأجري بهم متقاربان في المعنى ، ويقال : جرى الشيء وجريت به وأجريته ، وإنما ضموا الميم من (مرساها) لقوله « أيان مرساها » (١) وقوله « والجبال أرساها » (٢) ومن أمال اوترك الامالة ، فكلاهما حسنان .

اخبر الله تعالى عما قال نوح حين دنا ركوبهم السفينة « اركبوا فيها »يعني في السفينة ، والركوب العلو على ظهر الشيء ، فمنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البر وركوب البحر .

والعامل في « بسم الله » يحتمل ثلاثة أشياء : احدها ـ (اركبوا). والثاني ـ ابتدؤا ببسم الله . والثالث ـ أجراها وأرساها . والمجرى يحتمل ثلاثة اوجه : أحدها ـ أن يكون موضع الاجراء . والثاني ـ وقت الاجراء . والثالث ـ نفس الاجراء . وقيل: كان اذا اراد أن تجري قال « بسم الله » فجرت ، فاذا أراد أن ترسوا قال « بسم الله » فرست ذكره الضحاك . قال لبيد :

عمرت حين ثلاثاً قبل مجرى داحس　　لو كان للنفس اللجوج خلود (٣)

والارساء إمساك السفينة بما تقف عليه أرساها إرساء ورست ترسوقال عنترة:

فصرت نفساً عند ذلك حرة　　ترسو إذا نفس الجبان تطلع(٤)

وقوله« ان ربي لغفور رحيم » إخبار منه تعالى حكاية عما قال نوح لقومه « ان ربي لغفور رحيم » أي ساتر عليهم ذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما ذكرت النجاة بالركوب في السفينة

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ وسورة ٧٩ النازعات آية ٤٢

(٢) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٢　　(٣) ديوانه : ٢٥ واللسان والتاج (جرى)

(٤) ديوانه : ٢٩ والدر المنثور ٣ / ٣٣٨

ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة ليجتلب الطاعة كما اجتلب النجاة .

قوله تعالى :

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) آية

أخبر الله تعالى عن حال السفينة بعد الغرق أنها كانت تجري على الماء في أمواج كالجبال . والجري مرّ سريع كمرّ الماء على وجه الارض . والسفينة تجري بالماء والفرس يجري في عدوه ، ويقال : هذه العلة تجري في أحكامها ، أي تمر فيها من غير مانع منها . والموج جمع موجة ، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير ، ومنه أمواج البحر وأعظم مايكون إذا اشتدت به الريح ، وشبه الله تعالى الامواج بالجبال في عظمها ، والجبل جسم عظيم الغلظ شاخص من الأرض هو لها كالوتد في عظمه ، وجمعه اجبال وجبال . وقوله « ونادى نوح ابنه وكان في معزل» فالمعزل موضع منقطع عن غيره . وكان ابن نوح في ناحية منقطعة عنه حين ناداه وقرأ عاصم « يا بني اركب » بفتح الياء . الباقون بكسرها . وفي قوله « يا بني » ثلاث ياءات ، ياء التصغير ، وياء الأصل ، وياء الاضافة . وفي قوله « يابني ان الله اصطفى لكم الدين » (١) ياآن ، ياء الجمع ، وياء الاضافة . قال أبو علي الفارسي: الوجه كسر الياء ، لأن اللام من (ابن) ياء أو واو ، وحذفت من (ابن) كما حذفت من (إسم) فاذا حقرت ألحقت ياء التحقير ، لزم أن ترد اللام الذي حذفت لأنك لو لم تردها لوجب أن تحرك ياء التصغير بحركات الاعراب ، وهي لاتحرك أبداً بحركات الاعراب ولاغيرها ، فاذا أضفته الى نفسك أجتمعت ثلاث ياءآت : ، الأولى التي للتحقير ، والثانية لام الفعل ، والثالثة هي التي للاضافة تقول : بني ،

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٣٢

فاذا ناديت جاز فيه وجهان : إثبات الياء وحذفها ، فمن قال ياعبادي فأثبت الياء فقياسه أن يقول يابنيّ ، ومن قال ياعباد يقول يابنيِّ حذفت التي للاضافة ،وابقيت الكسرة دلالة عليها . وهذا هو الجيد عندهم . ومن فتح الياء أراد الاضافة كما أرادها في قوله يابنيّ اذا كسر الياء التي هي آخر الفعل ، كأنه قال يابني ثم أبدل من الكسرة الفتحة ، ومن الياء الالف . فصار (يابنيّا) كما قال :

يابنت عما لاتلومي واهجعي

ثم حذفت الالف كما كانت تحذف الياء : في يابني إنها ، وقد حذفت الياء التي للاضافة إذا أبدلت الألف منها قال أبو الحسن :

فلست بمدرك مافات مني بلهف ولا بليت ولالو أني (١)

كذلك سمع من العرب ، فقوله : بلهف إنما هو بلهفا ، فحذفت الالف .قال أبوعثمان : ووضع الالف مكان الياء في الاضافة مطرد وأجاز يا زيد اقبل إذا أردت الاضافة .

قوله تعالى :

قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) آية

حكى الله تعالى في هذه الاية ماأجاب ابن نوح أباه عليه السلام فانه « قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء » أي سأرجع الى مأوى من جبل يعصمني من الماء أي يمنعني منه ، يقال آوى يأوي أوياً إذا رجع الى منزل يقيم فيه و (العصمة) المنع من الآفة والمعصوم في الدين الممنوع باللطف من فعل القبيح لاعلى وجه الحيلولة.

(١) اللسان (لهف)

فان قيل كيف دعا نوح ابنه الى الركوب معه في السفينة مع أن الله تعالى نهاه أن يركب فيها كافراً . قلنا : فيه جوابان : أحدهما - أنه دعاه الى الركوب بشرط أن يؤمن . الثاني - قال الحسن والجبائي : انه كان ينافق باظهار الايمان .

فان قيل : هلا كان ما صار اليه ابن نوح من تلك الحال الهائلة إلجاء ؟ .

قلنا : لا . لان الالجاء لايكون إلا بأحد شيئين : احدهما - بأن يخلق فيه العلم بأنه متى رام خلافه منع منه . الثاني - تتوفر الدواعي من ترغيب اوترهيب ، ولم يحصل له واحد من الأمرين ، لأنه جوز أن يكون من عجائب الزمان ، وأنه وقع الى نوح علم به ، فتقدم فيه . وقوله « لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » حكاية لما قال نوح لولده حين « قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء» بأنه لامانع اليوم من أمر الله .واستثنى من رحم ، وقيل فيه ثلاثة اقوال: أحدها - أنه استثناء منقطع ، كأنه قال من رحم فانه معصوم . الثاني - لاعاصم إلا من رحمنا برحمة الله سبحانه لنا كأنه قال :لاعاصم إلامن عصمه الله فنجا ، وهو نوح عليه السلام ، وهو اختيار أبي علي النحوي . وقال :لانه يحتمل أن يكون (عاصم) بمعنى معصوم مثل دافق بمعنى مدفوق ، فيكون الاستثناء متصلا . وقال ابن كيسان: لما قال (لا عاصم) كان معناه لامعصوم ، لأن في نفي العاصم نفي المعصوم ثم قال « إلا من رحم » فاستثناه على المعنى ويكون متصلا . وقوله « وحال بينهما الموج » إخبار منه تعالى انه حال بين نوح وولده الموج ، « فكان من المغرقين » .

قوله تعالى :

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ وَٱسْتَوَت عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (٤٤) آية

حكى الله تعالى في هذه الآية قصة نوح وقومه بأوجز لفظ وأبلغه ، وبلوغ الغاية التي لاتدانيها بلاغة ولاتقاربها فصاحة ، لأن قوله « وقيل ياأرض ابلعي ماءك » اخبار منه عن إذهاب الماء عن وجه الارض في أوجز مدة فجرى ذلك مجرى ان قال لها ابلعي فبلعت . والبلع في اللغة انتزاع الشيء من الحلق الى الجوف ، فكانت الأرض تبلع الماء هكذا حتى صار في بطنها الغراء ، يقال : بلعت وبلعت بفتح اللام وكسرها . وقوله « وياسماء اقلعي » اخبار أيضاً عن اقشاع السحاب ، وقطع المطر في أسرع وقت ، فكأنه قال لها اقلعي فأقلعت . والاقلاع إذهاب الشيء من اصله حتى لايبقى منه شيء . وأقلع عن الأمر إذا تركه رأساً . وقوله «وغيض الماء » أي أذهب به عن وجه الأرض الى باطنها . يقال: غاض الماء يغيض غيضاً إذا ذهب في الارض . وقوله « وقضي الأمر » معناه أوقع الهلاك بقوم نوح على تمام القضاء وقوع الأمر على تمام وإحكام . وقوله « واستوت على الجودي » جبل معروف .قال الزجاج بناحية أمد ، وقال غيره: بقرب جزيرة الموصل ، قال زيد بن عمر بن نفيل :

وقبلنا سبح الجودي والجمد.

وقيل : أرست على الجودي شهراً ، وقال قتادة : اهبطوا يوم عاشوراء .

وقوله « وقيل بعداً للقوم الظالمين » معناه أبعدهم الله من الخير بعداً ، على وجه الدعاء . ويجوز أن يكون الله تعالى قال لهم ذلك . ويجوز أن يكون المؤمنون دعوا عليهم بذلك ، وهو منصوب على المصدر .

وقيل في هذه الآية وجوه كثيرة من عجيب البلاغة : منها أنه خرج مخرج الأمر على وجه التعظيم من نحو « كن فيكون » (١) لأنه من غير معاناة ، ولا

(١) سورة ٢ البقرة آية ١١٨ وسورة ٣ آل عمران آية ٤٧ ، ٥٩ وسورة ٦ الانعام آية ٧٣ وسورة ١٦ النحل آية ٤٠ وسورة ١٩ مريم آية ٣٥ وسورة ٣٦ يس آية ٨٢ وسورة ٤٠ المؤمن آية ٦٨ .

لغوب . ومنها حسن تقابل المعنى ومنها حسن ائتلاف الألفاظ . ومن ذلك حسن البيان في تصوير الحال . ومنها الايجاز من غير إخلال . ومنها تقبل الفهم على أتم الكمال الى غير ذلك مما عليه هذا الكلام في الحسن العجيب واللطف البديع .

قوله تعالى :

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) آية

حكى الله تعالى عن نوح أنه حين رأى قومه قد أهلكهم الله تعالى « فقال يارب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق » لأنه تعالى كان وعده بأنه ينجيه وأهله ،وأمره بأن يحملهم معه في الفلك في قوله « وقلنا احمل فيهامن كل زوجين اثنين وأهلك» فسأل نوح ربه أن ابنه إن كان ممن وعده بنجاته أن ينجيه ، فسأله بهذا الشرط لأنه لايجوز أن يسأل نبي من أنبياء الله أمراً لايجاب اليه ، وخاصة على رؤس الملأ لأن ذلك ينفر عنهم . وانما يجوز أن يسأل بما يظهر له بشرط مقترن بالكلام وحال يدل عليه ، فيعرف أنه لم يحصل الشرط . والرب والمالك واحد . وقيل : ان الرب المالك للشيء من كل وجه يصح أن يملك به ، وهو أتم الملك ، ولاتصح الصفه بهعلى الاطلاق الا لله تعالى . والانسان قديكون مالكاً بالاطلاق .

وقوله « وانت احكم الحاكمين » يعني في قولك وفعلك ؛ لأنه حق تدعو اليه الحكمة ، فقال نوح ذلك على وجه الاعتراف تعظيماً لله تعالى .

قوله تعالى :

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الجَاهِلِينَ (٤٦) آية

قرأ الكسائي ويعقوب « انه عمل غير صالح » على الفعل ، ونصب (غير) الكسائي . الباقون « عمل » اسم مرفوع منون (غير) رفع . وقرأ ابن كثير (تسألنّ) بالتشديد ، وفتح النون ، وافقه نافع في التشديد الا انه كسر النون . الباقون بالتخفيف وكسر النون الا أن أبا عمرو يثبت الياء في الاصل . قال أبو علي النحوي (سألت) فعل يتعدى الى مفعولين وليس مما يدخل على المبتدأ وخبره ، ويمتنع ان يتعدى الى مفعول واحد . فمن قرأ بفتح اللام ، ولم يكسر النون عداه الى مفعول واحد في اللفظ . والمعنى على التعدي الى ثان ومن كسر النون دل على انه عداه الى مفعولين ، احدهما : اسم المتكلم . والآخر الاسم الموصول ، وحذف النون المتصلة بياء المتكلم ، كما حذفت من قولهم (اني) كراهة اجتماع النونات . ومن اثبت الياء فهو الاصل ، ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها .

في هذه الآية حكاية مما أجاب الله به نوحاً حين سأله نجاة ابنه بأن قال له « يا نوح انه ليس من أهلك ... » وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها ـ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين : انه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك ، وانه كان ابنه لصلبه ، بدلالة قوله « ونادى نوح ابنه » فأضافه اليه اضافة مطلقة . والثاني ـ انه اراد بذلك أنه ليس من أهل دينك ، كما قال النبي ﷺ (سلمان منا أهل البيت) وإنما اراد على ديننا . وثالثها ـ قال الحسن ومجاهد : انه كان لغيره ، وولد على فراشه ، فسأل نوح على الظاهر فأعلمه الله باطن الأمر ، فنفاه منه على ماعلمه ، فيكون على هذا هو نفسه عمل غير صالح ، كما يقولون : الشعر زهير وهذا الوجه ضعيف ، لأن في ذلك طعناً على نبي وإضافة مالا يليق به اليه . والمعتمد الأول . وقال ابن عباس :

مازنت امرأة نبي قط ، وكانت الخيانة من امرأة نوح انها كانت تنسبه الى الجنون والخيانة من امرأة لوط انها كانت تدل على أضيافه . وروي عن علي عليه السلام أنه قرأ ونادى نوح ابنها فنسبه الى المرأة ، وأنه كان يربيه . وروي عن محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام وعروة بن الزبير أنهما قرءا « ونادى نوح ابنه » بفتح الهاء وترك الالف كراهة مايخالف المصحف ، وأرادا أن ينسباه الى المرأة ، وأنه لم يكن ابنه لصلبه . وقال الحسن : كان منافقاً يظهر الايمان ويستر الكفر .

وقوله « انه عمل غير صالح » فمن قرأ على الفعل ، فمعناه انه ليس من اهلك لانه عمل غير صالح ، وتقديره انه عمل عملا غير صالح ، وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، وذلك يستعمل كثيراً ، وهذه القراءة تقوي قول من قال : إن ابنه لم يكن على دينه ، لأن الله تعالى علل كونه ليس من أهله بأنه عمل عملا غير صالح .

وأما من قرأ على الرفع والتنوين على الاسم فتقديره إنه ذو عمل غير صالح فجاء على المبالغة في الصفة كما قالت الخنساء :

ترتع مارتعت حتى إذا ادّكرت فانما هي إقبال وإدبار (١)

قال الزجاج : تقديره فانما هي ذات إقبال وادبار ، تصف الناقة في حنينها الى ولدها . وقيل : ان المعنى ان سؤالك اياي هذا عمل غير صالح ، ذكره ابن عباس ومجاهد وابراهيم . وهذا وضعيف ؛ لأن فيه اضافة القبيح الى الأنبياء عليهم السلام وذلك لايجوز عندنا على حال . فالأول هو الجيد . ويحتمل ان يكون المراد ان كونه مع الكافرين وانحيازه اليهم وتركه الركوب مع نوح عمل غير صالح .

وقوله « فلا تسألني ماليس لك به علم » معناه لاتسألني مالا تعلم أنه جائز في حكمي لأن هذا من سؤال الجاهلين ، نهاه عن ذلك ؛ ولا يدل على أن مانهاه عنه قد وقع كما أن قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك » (٢) لايدل على وقوع

(١) مرّ تخريجه في ٢ / ٩٥ وهو في تفسير القرطبي ٩ / ٤٩

(٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٥

الشرك . وقوله « اني اعظك أن تكون من الجاهلين » فالوعظ الزجر عن القبيح بما يدعو الى الجهل على وجه الترغيب والترهيب . والصحيح أن الجهل قبيح على كل حال . وقال الرماني : انما يكون قبيحاً اذا وقع عن تعمد ، فاما اذا وقع غلطاً او سهواً لم يكن قبيحاً ولاحسناً . وهذا ليس بصحيح ، لأن استحقاق الذم عليه يشرط بالعمد فاما قبحه فلا كما نقوله في الظلم سواء .

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) آية

في هذه الآية اخبار عما قاله نوح عليه السلام حين عرّفه الله حال ولده وأنه لايستحق الغفران ووعظه بان يكون من الجاهلين ، فانه قال « اني أعوذ بك أن أسالك ماليس لي به علم » فالعياذة طلب النجاة بما يمنع من الشر ، يقال : عاذ يعوذ عوذاً وعياذاً فهو عائذ بالله . والعياذ الاعتصام بما يمنع من الشر . والمعنى اني أعتصم بك أن اسالك مالا أعلمه ، وانما اعتصم من ذلك ؛ لأن مايعلمه الانسان يجوز أن يكون حسناً ويجوز كونه قبيحاً . ولايحسن أن يسأل مايجوز كونه قبيحاً وان شرط حسن السؤال . وينبغي أن يشرط ان كان ماسأله حسناً فيحسن السؤال حينئذ . وقال الرماني : لايحسن أن تسال فتقول : اللهم احيي اقاربي في دار الدنيا على مايصح ويجوز . لأنه قد دل الدليل على أن ذلك لايحسن في الحكمة فلا يجوز أن يسأله بحال . وانما جاز اطلاق « ماليس لي به علم » مع أنه قد علمه سؤالا . لأن هذا العلم لايعتد به لأن المراد علم ماله أن يسأله اياه .

وانما حذفت (يا) من قوله « رب اني أعوذ بك » وأثبته في قوله « يا نوح » لأن ذلك نداء تعظيم . وهذا نداء تنبيه فوجب أن يأتي بحرف التنبيه . وقوله (به)

يحتمل وجهين : احـدهما - أن يكون كقوله « وكانوا فيه من الزاهدين » (١) و « اني لك من الناصحين » (٢) و « انا على ذلكم من الشاهدين » (٣) قال ابو الحسن : انما يجوز في حروف الجرّ ذلك ؛ لأن التقدير فيه التعلق بمضمر يفسره هذا الذي يظهر بعد ، وان كان لايجوز تسليطه عليه . ومثله « يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين » (٤) فانتصب « يوم يرون » بما دل عليه « لابشرى يومئذ » ولايجوز فيما بعد (لا) هذه أن يتسلط على (يوم) وكذلك « ماليس لك به علم » يتعلق بما دل عليه (علم) المذكور وإن لم يجز أن يعمل فيه . والثاني - أن يكون متعلقاً بالمستقر ، وهوالعامل فيه كتعلق الظروف بالمعاني كما تقول : ليس لك فيه رضاء ، فيكون (به) في الاية بمنزلة (فيه) .

قوله تعالى :

قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) آية

في هذه الآية حكاية ما أمر الله تعالى به نوحاً حين استوت السفينة على الجبل ، وأنه قال له « اهبط » أي انزل من الجبل ، فالهبوط نزول من أعلى مكان في الارض الى مادونه ومن السماء . وقوله « بسلام منا » قيل في معناه وجهان :

احدهما - بسلامة منا وتحية منا ، قال لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (٥)

قيل : انه بمعنى السلام عليكما . وقيل : معناه بتسليم منا عليك . وقوله

---

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٠ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٢٠

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٦ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٢

(٥) ديوانه ٢ / ١ واللسان « عذر »

« وبركات عليك » معناه ونعم دائمة وخير ثابت حالا بعد حال ، وأصله الثبوت ، فمنه البروك ، والبركة لثبوت النماء فيها قال الشاعر :

ولاينجي من الغمرات إلا   براكاء القتال أو الفرار (١)

أي الثبوت للقتال . ومعنى تبارك الله ثبت تعظيم مالم يزل ولايزال . وقوله « وعلى أمم ممن معك » فالأمة الجماعة الكثيرة على ملة واحدة متفقة ، لأنه من (أمه يؤمه أما) إذا قصده ، أو الاتفاق في المنطق على نحو منطق الطير والمأكل والمشرب والمنكح ، حتى قيل : إن الكلاب أمة . وقيل في معناه - هنا - قولان : أحدهما - أنه أراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ، فأخرج الله أمماً من نسلهم وجعل فيهم البركة . وقال قوم : يعني بذلك الأمم من سائر الحيوان الذين كانوا معه ، لأن الله تعالى جعل فيها البركة ، وتفضل عليها بالسلامة حتى كان منها نسل العالم . وقوله « وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » معناه إنه يكون من نسلهم أمم سيمتعهم الله في الدنيا بضروب من النعم ، فيكفرون نعمه ويجحدون ربوبيته ، فيهلكهم الله . ثم يمسهم بعد ذلك عذاب مؤلم موجع . وانما رفع (أمم) لأنه استأنف الاخبار عنهم .

قوله تعالى :

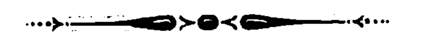
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) آية

الاشارة بقوله « تلك » الى ماتقدم ذكره من اخبار نوح وقومه وما احل الله بهم من الاهلاك ، والتقدير تلك الانباء من أنباء الغيب ، ولو قال ذلك كان جائزاً، لأن المصادر يكنى عنها بالتأنيث تارة وبالتذكير أخرى يقولون : قدم فلان

---

(١) قائله بشر بن ابي خازم اللسان (برك)

ففرحت بها وفرحت به أي بقدومه أو بقدمته . والغيب ماغاب عن النفس معرفته بطريق الستر له بخلاف السهو لأنـه ذهاب المعنى عن النفس بحال ينافي الذكر. وقوله « نوحيها اليك » أي نوحي اليك تلك الاخبار . وقوله « ما كنت تعلمها أنت ولاقومك » معناه إن هذه الاخبار التي أعلمناك اياها لم تكن تعلمها قبل وحينا اليك ولاقومك من العرب يعرفونها قبل إيحائنا اليك. وقوله « فاصبر ان العـاقبة للمتقين » أمر للنبي ﷺ بأن يصبر على أذى قومه وجهلهم بموضعه كما صبر نوح مثل ذلك على قومـه ؛ وهو أحد الوجوه التي لأجلها كرر الله تعالى قصص الانبياء : في الاعراف ، وهود ، والشعراء ، ليصبر النبي ﷺ على أذى قومه حالا بعد حال . وقوله « إن العاقبة للمتقين » اخبار منه تعالى بأن العاقبة المحمودة لمن اتقى معاصي الله وتحرز من عقابه .



تم المجلد الخامس ـ ويليه المجلد السادس

وأوله قوله تعالى : وإلى عاد اخاهم هوداً قال

ياقوم اعبدوا الله ... آية (٥٠) من سورة هود

الفهارس

١ - فهرس الاحاديث

٢ ـ فهرس الردود، والاجوبة والادلة

صفحة

صفحة

٣ ــ فهرس المباحث اللغوية

صفحة

٤ ـ فهرس المواضيع